

الأمير شكيب أرسلان

خلاصة تاريخ الأندلس

تأليف  
الأمير شكيب أرسلان



دار الفكر



مَجَلَّةُ نَارِخِ الْفَنَاءِ



الدُّعَا شَيْبِ الرَّسَالَةِ

# خُلَاصَةُ فَايِضِ الْأَنْدَلُسِ

قَدَّمَ لَهَا

د. عَبَّاسُ أَبُو صَالِحٍ



الدارُوتَقَدِّمِيَّةُ

الأمير شكيب أرسلان / خلاصة تاريخ الأندلس

قدم له:

د. عباس أبو صالح

جميع الحقوق محفوظة

الدار التقنية

المغتارة - الشوف - لبنان

هاتف، ٩٦١\_٥/٣١١٥٥٥ - ٩٦١\_٥/٣١٠٥٥٥

E - mail: moukhtarainf@terra.net.lb

<http://www.daralatakadoumya.com>

الطبعة الأولى ٢٠٠٩

## كلمة لا بد منها

إنَّ هذا التراث القيِّم مدين بالتقريب عنه وجمعه وتنظيمه  
إلى الأساتذة:

المرحوم الدكتور يوسف إيش، والدكتور يوسف خوري،  
والمحامي الأستاذ توما عريضة،

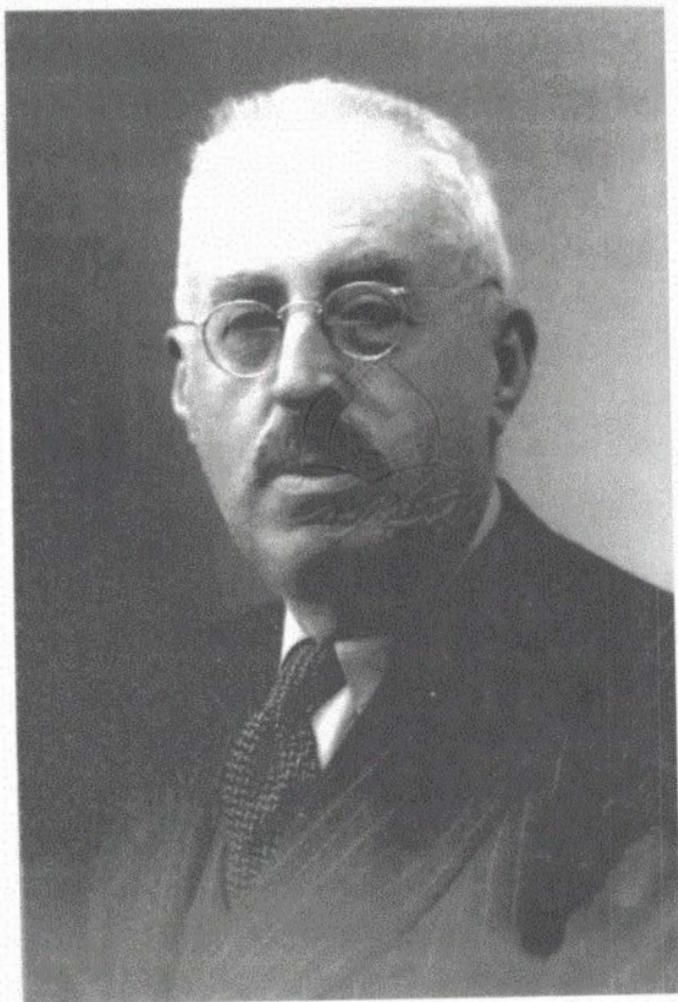
الذين لم يتوانوا عن شقّ المسافات الطوال وتكبُّد العناء  
في السفر إلى أقطار عدّة في البلاد العربية والأوروبية  
بحثاً واستقصاءً عن تلك المآثر المجيدة، التي، لولاهم،  
لكانت ذكرى أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان،  
طيّ النسيان والضياغ.

فلهم دائم العرفان لما بذلوه من تضحيات في سبيل جمع  
هذا التراث ونقله.

الدار التقدّمية

الأخيراً شيخ الأرسالات

١٨٦٩ - ١٩٤٦



## مقدمة الناشر

استطاعت حقبة "الأندلس" التي انسحبت على ما يقارب الثمانمائة سنة من الحكم العربي لتلك المنطقة، الأوروبية المنشأ واللغة، من أن تسجّل علامة فارقة في تاريخ العرب، السياسي والثقافي، دون أن نغفل ما قامت به عمليات النقل والترجمة من تيار فكري متميز، رافق تاريخ تطوّر العلوم، لا في الإمبراطورية العربية المترامية الأطراف آنذاك فقط، بل في العالم أجمع، الذي ما لبث أن استنشق من ظلمته على شعاع نور قرطبة ومكتبها وروادها.

ومهما يكن من أمر تكسّر أوصال ذلك الحكم العربي الغابر أيام حكم ملوك الطوائف، والذي انتهى بانهزام العرب وانسلاخهم عن حضارة كان لهم الفضل الأول في تجديد ملامحها، وتهذيب صورها وتطلّعاتها، إلا أنّ نظرة في خلاصة تاريخ الأندلس تبقى دائماً مفيدة، على الرغم من مرور قرون وقرون على زمن "الأوج" للعرب، وللمسلمين في أوروبا، القارة، والحلم المفقود.

هذا التميّز والتطوّر الهائل الذي لامس كلّ عناصر الحياة الثقافية والفكرية والاجتماعية، استوقف أمير البيان، الأمير شكيب أرسلان، في أكثر من موقع، وعند ناصية أكثر من محطة؛ وهو المحلّل والناقد والمتابع لسير الحضارة العربية والإسلامية، والمدافع عن لوائها الذي كان يريده منارة أزلية تفخر به كلّ الشعوب والأمم، وإن لم تكن تنطوي تحته بالولاء والانتماء.

لقد شكّلت السنوات الأخيرة من القرون الثمانية في الأندلس مادة بحث وتمحيص للأمير العروبي الذي يجيد قراءة التاريخ، ويتقن الغوص في بحور تقلّباته، ليطفو في يَم المعرفة البناءة، مؤرّخاً فذاً، وناقداً موضوعياً، وسيفاً مسلطاً على كلّ ما يشوب زوايا التاريخ من هفوات وانحدرات غرق العرب فيها، عن قصد، أو عن إرادة لاواعية منهم. وهو هنا، في هذا المؤلف الهامّ "خلاصة تاريخ الأندلس" - الذي اعتنى بالتقديم له مشكوراً الدكتور عبّاس أبو صالح - يتابع عمله الذي تعرّفنا إلى قسط منه، من خلال ما قمنا بنشره

إلى الآن في الدار التقدّمية، من مدّخرات قيّمة وضعها الأمير أمانة بين أيدينا، تاركًا لنا الإنارة لطريق سار به والتمس خطواته المصلحة فيه، دون تواكل أو تأفف أو ضيقٍ وجَدٍ، فاستحقَّ بحقّ لقب البحّثة المؤرّخ الذي يعبّد دروب المعرفة أمام المجتهدين من السائرين في درب العلا... لعلّهم يسترشدون.

### الدار التقدّمية

في، ١٦ أيلول ٢٠٠٩



## خلاصة تاريخ الأندلس

تقديم بقلم د. عباس أبو صالح

لا شك أن ماثر العرب المسلمين وآثارهم في إسبانيا، هي صفحة مشرقة في تاريخهم تحلو مطالعتها وتقضي أخبارها لدى كل قارئ عربي حتى يومنا هذا. أما اهتمام المؤرخين الغربيين في هذا الموضوع، فهو يعود لقرون عدة مضت، نظراً لأهمية تراث الأندلس الفكري في قيام النهضة الأوروبية، فضلاً عن كونه، على الصعيد السياسي، جزءاً من تاريخ أوروبا الوسيط والحديث. وعلى صعيد آخر، يُجمع الباحثون على أن فتح العرب المسلمين لذلك الجزء من شبه جزيرة إيبيرية هو من الفتوحات الإسلامية الهامة في العصر الوسيط، والذي تفوق أهميته الحضارية النتائج السياسية والعسكرية.

وإذا كان هذا الفتح قد بدأ في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٧٠٥-٧١٥م)، فقد استمرّ حكم الأمويين في الأندلس نحو ثلاثة قرون كانت كلها مليئة بالأحداث الجسام. إنَّما تميّز عهد عبد الرحمن الناصر الأموي (٩١٢-٩٦١م) هناك، إلى جانب الإنجازات العسكرية، بنهضة فكرية تمثلت في جعل مدينة قرطبة - عاصمة الأندلس - مدينة ضاهت في ازدهارها يومذاك بغداد، عاصمة الدولة العباسية. غير أن نهاية الحكم الأموي المزدهر في الأندلس أعقبه ما يسمّى بـ "عهد دول الطوائف" في مطلع القرن الحادي عشر للميلاد، أي العهد الذي يعتبره الباحثون عنوان التجزئة السياسية. والتراجع العسكري، وبداية أفول نجم الحكم العربي الإسلامي في إسبانيا.

وخلال تلك الحقبة من تاريخ دول الطوائف في الأندلس التي امتدّت لأكثر من خمسة قرون، تعرّض العرب المسلمون خلالها لحملة عسكرية شبه متواصلة، شنتها القوى النصرانية الإسبانية من الشمال، وانتهت بإعادتها هذا القسم من إسبانيا إلى حضن النصرانية. ولكن تلك الحملات النصرانية على الأندلس، والتي تزامنت أحياناً كثيرة مع الحروب الصليبية في الشرق، أسفرت عن مأساة اضطهاد ديني وموجات نزوح متعاقبة لمسلمي الأندلس، آخرها كان جلاء أكثر من نصف مليون مسلم عن شبه جزيرة إيبيرية إلى المغرب العربي بعد منتصف القرن السابع عشر للميلاد.

إن تاريخ هذه الحقبة بالذات يتناولها بالتفصيل الكتاب الذي نحن بصدده، "خلاصة تاريخ الأندلس"، لمؤلفه الأمير شكيب أرسلان، أحد كبار رواد النهضة العربية والإسلامية. ويذكر المؤلف في مقدّمة كتابه أن باعته الأساسي لوضع هذا الكتاب هو الخوض في دراسة حقبة هامة من التاريخ العربي الإسلامي "قلّ فيها التأليف باللغة العربية". وهذا صحيح، من حيث أن المؤلف يرى بأن تلك الحوادث الجسام في تاريخ العرب المسلمين لم تلقَ يومذاك اهتماماً كافياً من المؤرّخين العرب المعاصرين لها، وكأنما "الخمول والعقم الفكري"، على حدّ قوله، أصاب هؤلاء، لا بل تزامن مع فترة التراجع والانحطاط السياسي العام لدولة الإسلام. ومع ذلك، يرى الأمير شكيب أن المقرّي، في كتابه "نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب"، هو أفضل من كتب عن تاريخ دولة بني الأحمر، أي "دولة غرناطة". ولكنّه، أي المقرّي، أضاع قيمة ما كتبه من خلال تضمين مؤلفه هذا مواضيع عديدة لا أهميّة لها، وبخاصّة تلك الخطابات الشخصية أو الشذرات الثرية، كما القصاصد الطويلة، وذلك على حساب تدوين أخبار مسلمي الأندلس الهامة، ووصف نضالهم الطويل للمحافظة على عقيدتهم الدينية، وبالتالي، على بقائهم في الأندلس خلال تلك الحقبة الخطيرة.

ويبدأ المؤلف "خلاصة تاريخ الأندلس" بوصف جغرافي لمملكة غرناطة وغناها الطبيعي، ثمّ يعرض باختصار مجمل تاريخ دول الطوائف الأخرى، مسترسلاً في وصف المعارك الرئيسية التي جرت بين القوى الإسبانية النصرانية وأمراء الطوائف، كواقعة الزلاقة (١٠٨٦م)، والإبرك (١١٩٥م)، وواقعة العقاب "التل" (١٢١٢م)، مُعقّباً على دور دول المغرب (المرابطون والموحّدون والمرينيون) في دعم دول الطوائف على الصعيد العسكري، للصمود في وجه التقدّم النصراني الزاحف من الشمال. ويرى المؤلف عن حقّ، أن معركة العقاب (التلّ ١٢١٢) تشكّل بداية مرحلة التراجع العسكري الإسلامي الفعلي في بلاد الأندلس.

والواقع أن هذا التراجع العربي الإسلامي بدأ بوضوح منذ سقوط طليطلة (١٠٨٥م). وقد أعقب ذلك تجريد حملات صليبية عدّة على المشرق العربي الإسلامي، أسفرت عن سقوط القدس عام (١٠٩٩م). أمّا هزيمة المسلمين في معركة العقاب، فقد كانت هي الأخرى إشارة إلى نهاية الدعم العسكري الفعال الذي سبق أن قدّمه المغرب العربي مراراً لمسلمي الأندلس. وقد أعقب هذه الهزيمة سقوط العديد من المدن والحصون الإسلامية هناك، وعلى

رأسها مدن قُرْبَة (١٢٣٦م)، وبلنسية (١٢٣٨م)، وإشبيلية (١٢٤٨م)، فيما بقيت غرناطة صامدة بعد ذلك لأكثر من قرنين، ربّما لدواعي استراتيجية واقتصادية في الجانب الإسباني.

إنّ تاريخ هذه الحقبة من تاريخ الأندلس ودولة بني الأحمر في غرناطة، هو الموضوع الأساسي في الكتاب الذي نحن بصدده. وهو تاريخ سياسي بامتياز، يروي بالتفصيل قصة فضال المسلمين البطولي في ذلك الصقع للمحافظة على بقائهم والاحتفاظ بعقيدتهم الدينية. وهو، بالإضافة إلى ذلك، يعطي صورة مفصّلة عن واقع الدول النصرانية في شمال إسبانيا، أي خلافاتها، وكذلك محاولات توحيدها للوقوف في وجه المد الإسلامي هناك. ولا يغفل الكاتب في هذا المجال ذكر دور البابوية في دعم الدويلات النصرانية وشحنها بالمقاتلين، ناهيك عن تنظيم قوى رهبانية نساء ورجالاً لقتال المسلمين. ثمّ يعرض بالتفصيل دور محاكم التفتيش ومشاهد الاضطهاد الديني التي كان يتعرّض لها المورسكو في الأندلس.

أمّا في الجانب الإسلامي، فقد أسهب الأمير شكيب أرسلان في وصف واقع مسلمي الأندلس السياسي المزري آنذاك، لا سيّما الانقسام الحادّ في صفوفهم، ومن ثمّ النزاع على السلطة بين قادتهم، فيما كان أعداؤهم يتوحّدون ويتحجّون الفرصة للقضاء على آخر معاقل الإسلام هناك. ومن ميزة الكتاب أنّ المؤلف استفاد من تلك القصائد الطوال التي نظمها شعراء ذلك العصر، والتي تصوّر عن كتب حالة الضعف العام لدى المسلمين، لا سيّما قصائد طلب الإغاثة من إخوانهم في المغرب والمشرق على السواء، والتي تعكس حالة من الإحباط، كما حالة عجز الحكّام المسلمين عن مساعدة إخوانهم في الدين.

وإذا كان كتاب "نفع الطيب" في أجزاءه الأربعة، هو مصدر أساسي اعتمده الأمير شكيب في تأليف كتابه هذا، فقد استند أيضًا إلى مصادر أخرى أساسية لعلّ أبرزها، مؤلّفات العالم الشهير لسان الدين الخطيب، وفي مقدّمها "الإحاطة في أخبار غرناطة"، ثمّ تاريخ ابن خلدون "العبر وديوان المتبلى والخبر"، وابن عذارى<sup>(١)</sup>، وابن حيّان<sup>(٢)</sup>، وغيرهم من المؤلّفين العرب المعاصرين لتلك الحقبة.

وحيث كان المؤلف لا يجد ضالّته في المعلومات المتوفّرة عن حدث ما في تلك المصادر العربية، فإنّه لم يربّ بدأ من الاستعانة بأعمال الباحثين الغربيين المعروفين في هذا المضمار، لا

(١) ابن عذارى (ت ١٢٩٥)، أبو عبد الله محمّد المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب.

(٢) ابن حيّان (أبو مروان حيّان بن خلف، ت ١٠٧٦)، المقتبس في تلوّخ رجال الأندلس.

سيما أولئك الذين تناولوا تاريخ تلك الحقبة بالتفصيل؛ وعلى رأس هؤلاء يرد اسم المؤرخ البريطاني: Staneley Lane Poole في كتابه: *The Moors in Spain*. وكذلك Washington Irving في كتابه: *Treasures of the Al Hamra*، كما في *Conquest of Granada*، فضلاً عن Dozy في كتابه: *Histoires des Musulmans d'Espagne*.

على أن اعتماد المؤلف على هذه المؤلفات الأجنبية يبدو محدوداً، ويعكس تحفظ العالم الحريص على تحري الوقائع بهدف معرفة الحقيقة. ولهذا نراه لا يعتمد عليها من غير نقد أو تمحيص. وفي معظم الأحيان كان يطرح ما يرد فيه من روايات مختلفة للمقارنة مع روايات المصادر العربية، وهو في كل هذا، كان حريصاً على اتباع نهج المؤرخ الرصين والباحث العلمي الموضوعي.

أخيراً، لا بد من القول إن "خلاصة تاريخ الأندلس" الذي هو من أوائل مؤلفات الأمير شكيب أرسلان، والذي وضعه ونشره منذ أكثر من قرن في موضوع تراثي عربي إسلامي، انعدم فيه التأليف باللغة العربية، كان عن حق فاتحة عصر جديد لاهتمام سائر الباحثين والمؤرخين العرب بتراث الأندلس بعد حوالي نصف قرن. لقد مهد الأمير شكيب، من خلال نشر كتابه هذا، طريق البحث في هذا الحقل أمام مجموعة من كبار الباحثين العرب الذين اهتموا بتراث الأندلس الفكري، ونشروا بعده مؤلفات قيمة في هذا الباب خلال منتصف القرن العشرين. ونذكر على رأس هؤلاء، الدكاترة: إحسان عباس<sup>(١)</sup>، في مؤلفاته العديدة عن الأدب الأندلسي، وحسين مؤنس<sup>(٢)</sup>، وعبد العزيز سالم<sup>(٣)</sup>، ومحمد عبد الله عنان<sup>(٤)</sup>، وغيرهم. كما لا بد من التنويه بعمل ترجمة عدد من المؤلفات الأجنبية التي وضعها مؤلفون غربيون كبار عن الأندلس، إلى اللغة العربية خلال الفترة نفسها. ونذكر في هذا السياق، وعلى سبيل المثال، مؤلفات ستانلي لين بول<sup>(٥)</sup>، ودوزي<sup>(٦)</sup>، وليفي برونسال<sup>(٧)</sup>، وغيرهم.

(١) عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرايعين)، بيروت: ١٩٧١.

(٢) مؤنس، حسين، لغير الأندلس، القاهرة: ١٩٥٩.

(٣) سالم، عبد العزيز، تاريخ المسلمين وأقارهم في الأندلس، بيروت: ١٩٦١.

(٤) عنان، محمد عبد الله، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، القاهرة: ١٩٦١.

(٥) لين بول، ستانلي، العرب في إسبانيا، ترجمة علي الجارم، القاهرة: ١٩٦٠.

(٦) دوزي، ر، تاريخ مسلمي إسبانيا، ترجمة د.حسن حيشي، القاهرة: ١٩٦٣.

(٧) برونسال، ليفي، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، (لات).

ولا بدّ في نهاية تقديمنا لهذا الكتاب التراثي الهامّ، الذي تنشره الدار التقدّمية الآن بحلّة جديدة، بعد مضيّ أكثر من قرن على الطبعة الأولى، من القول بأنّ " خلاصة تاريخ الأندلس" يشكّل جزءاً يسيراً من أبحاث ومؤلّفات الأمير شكيب أرسلان واهتمامه المبكر بتاريخ الأندلس بخاصّة<sup>(١)</sup>، وتراث العرب والإسلام بعامة. ولا غرابة في الأمر، إذ إنّ الأمير شكيب أرسلان هو، في نظر جميع الدارسين لهذا التراث في الشرق، كما في الغرب، ركن من أركان النهضة العربية، وأحد كبار المفكرين والمجدّدين في التراث العربي الإسلامي في العصر الحديث.

و. عبّاس أبو صالح

عمّان، تشرين الثاني ٢٠٠٨

---

(١) هنالك كتاب آخر للأمير شكيب أرسلان في موضوع الأندلس، راجع: شكيب أرسلان، العمل السندي في الأخبار والآثار الأندلسية، (فاس: ١٩٣٦)، وقد أعيدت طباعته في الدار التقدّمية حديثاً، (المنشأة: ٢٠٠٨).



## تمهيد

لا أقصد بهذا الكتاب استقصاء تاريخ الأندلس الإجمالي، فقد كنت منذ نشأتي ممن لا يحبون التأليف في ما كثر فيه التأليف وطال فيه المقال، كأنما أعدّه تكراراً لسابق، أو إعادة لصدي؛ وخلصوا من كل براعة. وأخبار الأندلس مستفيضة في التواريخ شرقاً وغرباً، ومعروفة عند الأدباء بما لا يكون التأليف فيه سوى زيادة في عدد الكتب، وإنما يستحبّ الإنشاء في ما ندر فيه الكلام، وعزّ البحث وطُمست الأعلام، فإذا قرأته العامة، بل الخاصة، سقطت منه على جديد ذي طلاوة، ولم تسأمه النفوس لعدم تداولها مطالعته المرّة بعد الأخرى مدارسة كتب القواعد التي لا تتغيّر.

فأشدّ الأقسام عوزاً إلى البحث من تاريخ هذه البلاد - التي لا تزال نحسبها عربية لكون أحسن أيامها ما كان من أيام العرب فيها - إنّما هو القسم الأخير، وأحوج طائفة من أخبارها إلى التدوين ما تعلق بدور الجلاء وعصر الخروج من بلاد كانت مدّة الضيافة فيها ثمانمائة سنة، لأنّ هذا الحادث الكبير الذي هو من أضخم الحوادث في الإسلام وقع على حين خمول من القرائح العربية، وبعد مرور زمن العلم والفلسفة عند معشر الناطقين بالضاد، ولدى أقطاب<sup>(١)</sup> البلاد بالأدمغة المتوقّدة، وعمم الأمتة عن الرووس المولدة، بحيث فاته من التأليف والكتابة فيه ما لم يكن ليفوته لو وقع قبل ذلك بقرنين أو ثلاثة، فإنّه لا عطر بعد عروس<sup>(٢)</sup>.

نعم لا أنكر أنّ كتاب "نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب" للعلامة المقرئ هو من أوفى الكتب بأخبار الأندلس وآدابها: حقيّة أنباء، وقمطر<sup>(٣)</sup> حوادث وخزانة آداب، وكشكول لطائف وديوان أشعار، وقد كان عهد تصنيفه على إثر النازلة الكبرى بباقي

(١) قلة الأدمغة للأمة، ونبرة المفكرين.

(٢) تَمَلَّ عَرَبِي قَدِيمٍ، يُضْرِبُ لِمَنْ لَا يُدْعَرُ عَنْهُ نَفْسٌ، أَيْ لِمَنْ يَسْتَحِقُّ كُلَّ كِرَامَةٍ وَيَعْنِي: دَعَبَ الْجَدِيدُ بِكُلِّ كِرَامَةٍ وَلَمْ يَبْقَ غَيْرَ الْحَفِيرِ.

(٣) القِمَطْرُ: مَا يُصَانُّ فِيهِ الْكُتُبُ.

الأندلس، وامتصاص سؤر الكأس وعتاف الأثر الأخير من سلطان المسلمين فيها، بحيث أمكن لصاحبه ذكر سقوط مملكة غرناطة واستيلاء الإسبانول على الجميع، وختم الدولة الإسلامية في تلك الديار. ولكنه كثير من مؤرخينا أو مؤلفينا الذين لا يرعون النسبة بين الأشياء، ولا ينتبهون إلى قاعدة أن الحسن إنما هو تناسب الأعضاء، فقد بحث في هذا الخطب الجلل والحادث العمم بحثًا هو دون حقّه بدركات<sup>(١)</sup>، وأتى عليه كما يأتي على واقعة متوسطة البال من الوقائع التي أشار إليها في بطن كتابه، واستوعبه في أوراق يسيرة كانت لطافتها في كتابتها، فإنّ التناسب يقضي بإعطاء كلّ مقام من المقال ما يكافيه، ويقوم بحقه، ويحيى على قدره. ولو فسح الفاضل المقرئ - رحمه الله - لواقعة سقوط مملكة غرناطة، وحادث انقراض أمر الإسلام بالأندلس، ما فسحه في تاريخه للنشر الكثير الذي يغني عن كلّ بعضه من المخاطبات التي صدرت عن لسان الدين بن الخطيب، أو وُجّهت إليه أو إلى غيره، أو الشعر الغزير، الذي كثير منه حقيق بالإسقاط من ذلك المجموع، أو القصص التي يرويها عن بعض المشايخ مع طول أناة غريب في الاستقصاء، مع أنه ليس فيها ما يرفع أقدارهم إلى السماء، لكان ذلك أجزل فائدة وأسنى موقعًا، وكانت الناس قد شفت غليلها من خبر هذه الطامة التي لكلّ الحوادث سلوان يسهلها، وليس لها سلوان كما قال أبو البقاء الرندي، ولكفيينا مؤونة النقل عن كتب الإفرنج في ما يختصّ بالعرب، وحسبك أنه ذكر جميع وقائع السلطان أبي عبد الله بن الأحمر وعمّه الزغل، وذهاب تلك المملكة، وما جرى في ضمنه من الحروب، وما حصر من المدن في مسافة من التاريخ، استوعبت أطول منها رسالة واحدة صادرة عن ذلك السلطان إلى الشيخ الوطاسي صاحب فاس في موضوع أبرد ما فيه - مع طوله - أنه اعتذار عن سقوط آخر ممالك المسلمين بالأندلس على يده بأنّ الخطب غير نادر المثال، وأنّ بغداد دار خلافة بني العباس قد أصابها ما أصاب غرناطة. فانظروا هل هذا بما يؤثّر على طوله، أو بما تترتاح الأنفس إلى قبوله، على فرض صحّة تمثيله؟ وإن كان العذر في ذلك ما يقال من أنّ صاحب التّح قد ألّفه وهو نضو<sup>(٢)</sup> أسفار، خال من الأسفار، ليس لديه من العدة ما يستعين به على الإطالة والأخذ بالأطراف؛ فسبحان الله كم يتلّه بعض علمائنا بحفظ ما لا ينفع، عن تعليق ما ينفع؛ وهذا الفاضل المقرئ قد أملى - عن ظهر قلبه - أربعة مجلّدات كبار أودعها من التاريخ والجغرافية<sup>(٣)</sup>

(١) تقول صمدت الدرجات ونزلت الدركات، والمقصود بها هنا، أنها لم ترق إلى مستوى أهمية "سقوط غرناطة".

(٢) كبير الأسفار، حتى أنّ كثرتها هزّته وانحفت.

(٣) الجغرافيا.

والقصص والنكات، وحشاها من الشعر والنثر والتراجم والتصوف غثاً وسميناً ما لا أظنّ حافظة تتمكّن من اختزانه بين صدغين<sup>(١)</sup>، وتركنا في التاريخ المهمّ من تفصيل الوقائع الشداد والمعارك التي سالت فيها أنهر الدماء في دور المنزع الأخير، عميلاً<sup>(٢)</sup> على الإفرج، مضطربين إلى الأخذ عن مصنفاتهم، فكنا وإياهم في أخذ تاريخنا عنهم كما كنا في أخذ لغتنا عن صحاح الجوهري<sup>(٣)</sup>.

ولا نشكّ أنّ في ديار المغرب من التواريخ عن كائنة الأندلس الأخيرة، ما يستوفي شرحها، ولكنّه لم يشتهر عندنا في المشرق غير "نفع الطيب"، من متأخر التأليف وهذه الحال معه، فلا عجب إن ساقنا حبّ الاستقصاء واقتفاء أثر أبناء الجلدة إلى أخذ أخبارنا عن الأجانب وتلونا: ﴿هذه بضاعتنا رُدَّتْ إلينا﴾.

(١) ما كان بين العين والأذن.

(٢) معني معتمدين عليهم.

(٣) يعني أخذ العرب لغتهم عن الجوهري وهو أعجمي النّسب، ولكنّه صار من العرب لغةً وأدباً ودينياً. وكتابه "الصحاح" أحد معاجم اللغة، وقد ألف العرب قبله وبعده معاجم تغني عنه، وليس فيه شيء لا يوجد في غيره.

## في ذكر بني سراج

هذه العشيرة من أشهر عشائر العرب الأندلسيين عند الإفريج وأبعدهم صيتاً، وقد يتوهمونهم لعهد دولة بني الأحمر في غرناطة بمقام العشيرة الثانية للأسرة المالكة، ويعززون إليهم الوقائع وينون عليهم القصص والحكايات، ومن جملتها قصة الملكة التي من بنات ملوك غرناطة علقت بحبِّ أحد شبَّان هذه العشيرة الموصوفين بالجمال، وضربت له موعداً للقاء في إحدى خلوات القصر الشهير بالحمر، فاجتمعا ساعة هي بالعمر أجمع - وقد كانت كذلك - يتناجيان ويتغازلان، ولكتهما بُغتا وهما على تلك الحالة، ونمي أمرهما إلى السلطان، فاستشاط غضباً، واستحضر لديه أكثر رجال بني سراج وأمر بضرب أعناقهم في المكان المسمّى بقاعة الأسود من حمراء غرناطة فقتلوا جميعاً، ومن خرافات الإسبانول أنه لم يزل يُسمع لرووسهم صدى، عند خفوت الأصوات وانسدال حُجُب الظلام، وهو صدى المقتولين بغياً وظلماً<sup>(١)</sup>.

والذي في موسوعات العلوم الفرنسية الكبرى، أنَّ بني سراج عشيرة نبيلة في غرناطة تُروى لهم قضايا يطول شرحها في المناظرة مع بني الزغري من قبيل الروايات، والتاريخ لا يعرف بني سراج سوى وزراء عند سلاطين بني الأحمر، نصرُوا محمَّداً الأعسر على ابن أخيه محمَّداً الصغير فلماً تولَّى هذا منذ سنة ١٤٢٧، فتك بقسم من بني سراج، فذهب رئيس العشيرة ملتجئاً إلى ملك قشتالة. وقد أشارت إلى واقعة قتلهم، بعض الأغاني المتعلقة بفتح قلعة الحامَّة التي فتَّ ذهابها في أعضاء<sup>(٢)</sup> المغاربة وبكوها طويلاً. اهـ

وأما بنو الزغري هؤلاء، فيظنُّ أنه تحريف عن بني الزغبي نسبةً إلى قبيلة زغبة، وأنَّ البنِّغاس في رواية شاتوبريَّان، يريد بهم مكناسة لكونها من القبائل الكبار كما تنطبق عليه إشارة صاحب الرواية، وفي التحريف المعتاد في أسماء الأندلس بين عربها وعجمها ما لا يجعل هذا التحريف بعيداً.

(١) في دائرة المعارف الفرنسية الإسلامية يبيِّن إلى أنَّ هذه الأسرة هي من قرطبة هاجرت إلى غرناطة، ونظنُّ أنَّ واقعة هذا القتل حصلت في زمان أبي الحسن علي الذي تولَّى من سنة ١٤٦١ إلى ١٤٨٢.

(٢) كَثُرَ شوكتهم واضعفهم.

وأما الذي بأيدينا من كتب العرب، فلا يشير إلى شيء من هذه القصّة، ونظنّ أنها لو كانت واقعية، لم يسبق إليها أحدٌ صاحبُ "نفع الطيب" الذي ينبغي أن لا تفوته حكاية غرامية كهذه، في كتاب استوفى أمثالها. وهكذا قرر المرحوم ضيا باشا، الأديب الشاعر المشهور، من وزراء الدولة العثمانية في تاريخه للأندلس باللغة التركية، فإنّه أشار إلى هذه الحكاية المتداولة عند مؤرّخي الإفريج، ويبيّن استحالة وقوعها بدون أن يعرفها كتّاب العرب، وتشتهر عندهم، ورجّح أنها من أوهام الإسبانيول وخيالاتهم.

وأنا أذهب إلى أنها إن كانت ذات أصل، فلا بدّ أن يكون ضعيفاً جداً، نظراً لتعامي المؤرّخين عنها، وباليست شعري! ماذا كان يقول ابن خلدون - لو أحياء الله في المائة التاسعة بدل الثامنة - إذا وقف على حكاية الفاهمة الأميرة في الحمراء مع الشاب السراجي، وما أعقب ذلك من نكبة أبي عبد الله بن الأحمر لبني سراج؟ أفلا يخطر ذلك بباله، قصّة العبّاسة مع جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي، ونكبة الرشيد للبرامكة من أجل تلك القصّة<sup>(١)</sup>؟ لا جرم، أنه كان ينتهج هذه المَرّة من الخطّة في البرهان على عدم صحّة الرواية، ما انتهجه في تبرئة شرف العبّاسة، وتنزيه جانبها عن خِرص<sup>(٢)</sup> القصاصين ووضع المؤلفين. على أنه إن كانت قصّة أخت هارون عديمة الصحّة - مع اشتهاها في كتب العرب ونقل الكثيرين لها الدال على اقتناعهم بها - فما ظنّك بهذه وهي غريبة ولم يعرفها العرب، ولا حكاها<sup>(٣)</sup> غير الإفريج في ما نعلم؟

وبالإجمال فكثير من هذه الأحاديث الغرامية - في الشرق وفي الغرب - هو من أوضاع أهل القصص، خصوصاً الجانحين منهم لهذه المشارب، لما هو مركز في فطرة القراء - ولا سيّما العشاق المستهترين -، من الميل إلى مطالعة هذه الحكايات وتصديقها تأسيّاً بها، في ما هم عليه من التهنّك والمجون، واسترسالاً بعدها إلى الشهوات. ولو لم تكن قصص العشق أعلّق الكلام بالقلوب، وأميل الأحاديث بالنفوس، لما كان السواد الأكبر، يُؤثرون مطالعة الأفاصيص الغرامية في هذه الأيام، حال كونهم يعرفونها من أوضاع القرائح، وخيالات الأذهان، والفرق بين هذه وبين تلك - في لذّة المطالعة -، فرق ما بين الواقع والموهم.

وأما ما نعرفه عن بني سراج من الكتب العربية فقد ورد في "النفع" - عند ذكر أنساب

(١) أي على القول بأنّها سبب النكبة، والصواب أن سببها سياسة البرامكة الفارسية المراد بها نزاع الملك من العرب.

(٢) كذّبهم.

(٣) شأنها ومثلها.

الأندلس، وأصول القبائل التي نزلت بها جالية عن المشرق - قوله: "قال ابن غالب: "بنو سراج الأعيان من أهل قُرْطُبة ينتسبون إلى مَذْحِج" ولم يقل أنهم من غرناطة، فلعلهم انتقلوا إلى غرناطة بعد انتقال قُرْطُبة إلى الإسبانيول". وذكر صاحب "مطمح الأنفس"، رجلاً يقال له ابن سراج، في ترجمة الوزير أبي عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد، قال إنه كان من البلاغة في مدى غاية البيان، ومن الفصاحة في أعلى مراتب التبيان، وروى عنه نكتة لطيفة لصاحب الترجمة لا بأس من إيرادها، وهي "أنه كان له بياض الصومعة من الجامع مَوْضِع لا يفارقه أكثر نهاره، فجلس فيه ليلة سبع وعشرين من رمضان في لَمَّة من إخوانه، وهم يقتطفون من نخب آدابه، وإذا بجارية من أعيان أهل قُرْطُبة معها من جواربها مَنْ يسترها ويواربها، وأمامها طفل كأنه غصن آس، وهي مُتَّعِبَةٌ<sup>(١)</sup>، خائفة ترتاد موضعاً لمناجاة ربها، وتبتغي مكاناً لاستغفار ذنبها، فلَمَّا وقعت عينها على أبي عامر وُتت سريعة وتولت مروعة، خيفة أن يشبب بها، أو يشهرها بأسمها، فلم يغن عنها تواربها شيئاً لأنه حال ما نظرها، قال قولاً فصّحها وشهّرها، وهو:

دعاها إلى الله للحخير داعٍ	وناضرة تحث طي القنّاع
لِوَصْلِ التَّبْتُلِ وَالإِنْقِطَاعِ	سَعَتْ خِيفَةَ تَبْتغِي مَنْزِلاً
فحلّ الربيع بتلك البقاع	وجالت بمَوْضِعِينَا جَوْلَةً
فحلّت بوادٍ كثير السباع	أُتِنَّا تَبْخَتُرُ فِي مَشْنِيهَا
فناديت يا هذه لا تُراعي <sup>(٢)</sup>	وربعت حدّاراً على طفلها
وتنصاع منه كُماة <sup>(٣)</sup> المصاع	غزّالك تفرّق <sup>(٤)</sup> منه اللبوث
على الأرض خط كظهر الشجاع <sup>(٥)</sup>	قوّلت وللمسك من ذيلها

وورد في "المطمح" أيضاً في ترجمة الأديب أبي بكر عبد المعطي "أنه كان مرتسماً في عسكر قُرْطُبة، وكان ابن سراج يأتى له في كل ما يبتغي، خيفة من لسانه، ومحافظة على

(١) تلبس القاب، نوع من الحجاب.

(٢) لا تخافي.

(٣) تفرع.

(٤) مفردا كمي، والكمي الفارس الشجاع، المشح بالدرع والسلاح.

(٥) الشجاع اسم نوع من الحيات.

إحسانه، فلما خرج إلى إقليش خرج معه، وجعل يساير من شيعه، فلما حصلوا بفحص سُرّادق، وهو موضع توديع المُفارق للمفارق، قرب منه أبو الحسين بن سراج لوداعه، وأنشده في تفرُّق الشمل وانصداعه:

هُمُ رَحِلُوا عَنَّا لِأَمْرِ لِهَمِّ عَنَّا	فَمَا أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى أَحَدٍ حَنَّاً
وَمَا رَحِلُوا حَتَّى اسْتَفَادُوا نَفُوسَنَا	كَأَنَّهُمْ كَانُوا أَحَقَّ بِهَا مِثَّاً
فِيَا سَاكِنِي نَجِدْ لِتَبْعُدِ دَارِكُمْ	ظَنَّنَّا بِكُمْ ظَنًّا فَاخْلَفْتُمْ الظَّنَّآ
غَدَرْتُمْ وَلَمْ أَغْدُرْ وَخُتُّمْ وَلَمْ أَخُنْ	وَقَلْتُمْ وَلَمْ أَعْتَبْ وَجُرْتُمْ وَمَا جُرْنَا
وَلَقَسْتُمْ أَنْ لَا تَخُونُوا أَخَا الْهَوَى	فَقَدَّ وَذِمَامِ الْحَبِّ خُتُّمْ وَمَا خُنَّا
تُرَى تَجْمَعُ الْآيَاتُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ	وَيَجْمَعُنَا دَهْرٌ نَعُودُ كَمَا كُنَّا؟

وتما ورد أيضاً في "التفح" من ذكر بني سراج، عند ترجمة الوزير الرئيس العلامة ابن عاصم الغرناطي "أنه من جملة من أخذ عنهم الإمام القاضي أبو القاسم بن سراج" وقوله في مكان آخر عند ذكر ابن عاصم أيضاً "وتما خاطب به شيخه قاضي الجماعة بقرنطة، أبا القاسم بن سراج، وقد طلب الاجتماع به زمن فتنة، فظن أنه يستخبره عن سر من أسرار السلطان، وهو هذه الأبيات:

فَدَيْتُكَ لَا تَسْأَلُ عَنِ السَّرِّ كَاتِبًا	فَتَلْقَاهُ فِي حَالٍ مِنَ الرَّشْدِ عَاطِلِ
وَتَضَطَّرُّهُ إِذَا لِحَالَةِ خَائِنِ	أَمَانَتُهُ، أَوْ خَائِضٍ فِي الْأَبَاطِلِ
فَلَا فَرْقَ عِنْدِي بَيْنَ قَاضٍ وَكَاتِبِ	وَشَى ذَا بَسِيرٍ أَوْ قَضَى ذَا بِيَابِلِ

ورد أيضاً عند ذكر العلامة ابن مرزوق "أن من تأليفه العديدة (المعراج، في استمطار فوائده الأستاذ ابن سراج) في كراسة ونصف، أجاب به أبا القاسم بن سراج الغرناطي عن مسائل نحوية ومنطقية".

ويُستدل من تاريخ نشوء هؤلاء العلماء المتعاصرين، أن بني سراج - الذين تُكثر من التنويه بهم الكتب الإفريقية - هم قوم الأستاذ المذكور لكونه من أهالي المائة التاسعة للهجرة، زمن الجلاء الأخير الذي اشتهروا به عند الإفراج، على أنني لم أعهد إلا ما ندَّ عن محفوظي أثرًا، غير ما ذكرت لبني سراج الغرناطيين المتأخرين، وأنت ترى أنهم هناك من

حملة السيف وهنا من حملة القلم، ولا عجب فقد طالما اجتمعا في البيوتات العريقة،  
وتقارنا في العشائر النبيلة، وبنو سراج مَن قرنوا السيف إلى القلم، وجمعوا الحُكْم إلى  
الحِكْم، فأحرزوا كغيرهم من هذه العشائر الشرف بطرفيه، والتحفوا المجد بِمِطْرَفَيْهِ<sup>(١)</sup>.

---

(١) ردها من حريم، مُرْبِع ذُو أَعْلَام.

## في ذكر مملكة غرناطة

قال المقرئ: "ومن أشهر بلاد الأندلس غرناطة - وقيل إن الصواب أغرناطة بالهمز، ومعناه بلغتهم الرمانة - وكفاها شرقاً ولادة لسان الدين بها" (هو لسان الدين بن الخطيب الكاتب المشهور، وزير بني الأحمر، أشهر من أن يُعرَفَ به).

وقال الشَّقْنَدِي: "أما غرناطة فهي دمشق بلاد الأندلس، ومسرح الأبصار ومطمح الأنفس، ولم تخلُ من أشرف أمائل، وعلماء أكابر، وشعراء أفاضل، ولو لم يكن لها إلا ما خصها الله تعالى به من المرج الطويل العريض ونهر شِنِيل لكفاها".

وفي بعض كلام لسان الدين ما صوّرتَه: "وما لمصر تفخر بنيلها، وألف منه في شِنيلها" ولا يخفى أن الشين في جُمْلٍ<sup>(١)</sup> المغاربة عددها ألف.

وفي غرناطة قال الشاعر:

غَرْنَاطَةُ ما لها نظيرُ      ما مصرُ ما الشامُ ما العراقُ  
ما هيَ إلا العروسُ تُجلى      وتلك من جملةِ الصِّداقِ

وقال صاحب "منهاج الفكر": "إن كورة البيرة التي منها غرناطة تسمى دمشق، قيل لأن جُند دمشق نزلوها عند الفتح، وقيل لشبهها بدمشق في غزارة الأنهار، وكثرة الأشجار". وقال: "لمّا استولى الفرنج على معظم بلاد الأندلس، انتقل أهلها إليها فصارت المِصرُ<sup>(٢)</sup> المقصود، والمَعْقِلُ الذي تنضوي إليه العساكر والجنود".

وقال ابن بطوطة، وهو الأُوْلَى لكثرة ترحاله أن لا تزدهيه بلاد: "فوصلتُ إلى بلاد الأندلس حرسها الله تعالى حيث الأجر موفور للساكن، والشواب مذخور للمقيم

(١) الجُمْلُ (وَيُخَفَّفُ): حساب مبناء على حروف أبجد، كل حرف يدل على رقم من الأعداد، أحادها وعشراتهما ومئاتها. والمقصود هنا = ١٠٠٠.

(٢) قَبْلُدُ لَوْ قَطْر.

والظاعن". إلى أن قال عند ذكره غرناطة ما نصّه: "قاعدة بلاد الأندلس وعروس مدنها، وخارجها لا نظير له في الدنيا، وهو مسيرة أربعين ميلاً يخترقه نهر شِنيل المشهور، وسواه من الأنهار الكثيرة، والبساتين الجليلة؛ والجنّات والرياضات والقصور والكروم، مُحدّقة بها من كلّ جهة. ومن عجيب مواضعها عين الدمع وهو جبل فيه الرياضات والبساتين لا مثل له بسواها".

وقال ابن جزّي مرتّب رحلة ابن بطوطة: "لولا حَشية أن أنسب إلى العصبية، لأطلتُ القول في وصف غرناطة، فقد وجدت مكانه، ولكن ما اشتهر كاشتهارها لا معنى لإطالة القول فيه، والله درّ شيخنا أبي بكر بن محمّد شيرين السبّتي نزيل غرناطة حيث يقول:

رعى الله من غرناطة مُتبوّاً<sup>(١)</sup>      يسرُّ حزينًا أو يُجيرُ طريداً  
تبراً منها صاحبي عندما رأى      مسارحها بالثلج عُذناً جليداً  
هي الثغرُ صان الله من أهلت به      وما خيرُ ثغر لا يكون بروداً<sup>(٢)</sup>

كانت ثغراً في زمان شيخنا أبي بكر، أمّا الآن فوسط من بلاد الإسبانيول.

وقال صاحب "منهاج الفكر": "يشقها نهر عليه قناطر يجاز عليها، وفي قبليها جبل سُليّر، وهو جبل لا يفارقه الثلج صيفاً ولا شتاءً، وفيه سائر النبات الهندي، لكن ليس فيه خصائصه".

وقال غيره: "يشقها نهر حدره ويطلّ عليها الجبل المسمّى بسُليّر الذي لا يزول عنه الثلج شتاءً ولا صيفاً، ويجمد عليه حتّى يصير كالحجر الصلد، وفي أعلاه الأزاهر الكثيرة، وأجناس الأفوايه الرفيعة".

وفي سُليّر يقول الشاعر، وأصله من البلاد الحارّة:

يَحِلُّ لنا ترك الصلاة بأرضهم      وشربُ الحُمعيا<sup>(٣)</sup> وهو شيءٌ محرّمٌ  
فِراراً إلى نارِ الجحيمِ فإنها      أخفّ علينا من سُليّرٍ وأرحمٌ

(١) (مجازاً) مكاة رقيقة. ومقاماً ومنزلاً.

(٢) البارد؛ وفي الكلام تورية لا تخفى.

(٣) الحمرة.

وذكر بعض المتأخرين: أنَّ قرى غَرَنَاطَة مائتان وسبعون قرية<sup>(١)</sup>، ومن أعمالها قُطْر لَوْشَة، وهو قُطْر عَظِيم، يحتوي على كثير من الحصون والقرى والمزارع، وقاعدته لَوْشَة، وبينها وبين غَرَنَاطَة مرحلة، وهي مبنية على نهر الشنيل أيضاً، وتحفّ بها البساتين والرياض، وإلى لَوْشَة ينتسب سلف الوزير لسان الدين بن الخطيب، الذي يقول ابن خلدون فيه - وناهيك به من شاهد - : إنَّه كان الصدر المقدّم في الشعر والكتابة في عصره. ومن أعمال غَرَنَاطَة باغة، وعامة الأندلس يقولون بيغة، وهي بلدة طيبة، غزيرة المياه كثيرة الثمار، ومنها وادي آش، ويقال وادي الآشات، وهي مدينة جليلة، قد أهدت بها البساتين وجرت فيها الأنهار، ولأهلها مزية في الأدب وحبّ الشعر وفيها يقول أبو الحسن بن نزار:

أذكَرْتُ مَا أَفَضْتُ بِكَ النِّعْمَاءُ	وادي الآشات يهيجُ وجدي <sup>(٢)</sup> كلِّمًا
قَدْ بَرَّدْتُ لِفَحَاتِهِ الْأَنْدَاءُ <sup>(٣)</sup>	لله ظِلُّكَ والهجيرُ <sup>(٤)</sup> مسلَّطٌ
مَنْهُ فَتَطْرَفُ <sup>(٥)</sup> طَرَفَهَا الْأَفْيَاءُ	والشمسُ ترغِبُ أَنْ تَفُوزَ بِلِحْظَةِ
سِلْحٍ <sup>(٦)</sup> نَصْنَتْهُ حَيَّةٌ رَقَشَاءُ <sup>(٧)</sup>	والنهرُ يَنبِسُ بِالْحَبَابِ <sup>(٨)</sup> كَأَنَّهُ
أَبَدًا عَلَى جَنَبَاتِهِ إِيْمَاءُ	فلذلك تحذره الغُصُونُ فَمَيْلُهَا

ومن أعمال وادي آش حصن جليانة، وهو مدينة وإليه ينسب التَّفَاح الجلياني المشهور.

### - ذكر أجلّ قواعد الأندلس

إنَّ علماء الجغرافية من العرب. قَسَمُوا تلك البلاد إلى موسّطة، وشرق، وغرب. أمّا

(١) من جملة قرى غرناطة التي ورد ذكرها في الإحاطة للسان الدين بن الخطيب قرية اسمها حارة عمروس وفي طرابلس الغرب قرية اسمها عمروس وفي مصر بلدة اسمها عمروس، وفي الشوفيات بغرب لبنان مسقط رأس المؤلف حارة اسمها العمروسية، فليتلل القارئ إلى وحدة العربية شرقاً وغرباً مع تباعد التباين.

(٢) شدة الحب.

(٣) شدة الحرّ ولفحة النار.

(٤) مفردها، ندا وهو الطل.

(٥) أصاب طرفه (عيته).

(٦) زيدٌ كُروي يعلوه.

(٧) جلد.

(٨) منقطة بسوادٍ وبياض.

الموسطة، فهي ذات القواعد المهمة التي كلَّ منها مملكة مستقلة، مثل قُرْطُبة وطلَيْطَلَة وجِيَّان وغَرْنَاطَة والمَرِيَّة ومالقة، فمن أعمال قُرْطُبة إسْتِجَّة وبلْكونَة وقَبْرَة ورُنْدَة وغافِق والمُدَوَّر وأسْطَبَة وبيانة والبَسَّانة والقَصِير وغيرها. ومن أعمال طَلَيْطَلَة وادي الحجارة وقلعة رباح وطلَمَنْكَة وغيرها. ومن أعمال جِيَّان أبْدَة وبياسة وقَنْطَلَة وغيرها، ومن أعمال غَرْنَاطَة وادي آس والمُنْكَبِّ ولَوُوسَة وباعة وغيرها، ومن أعمال المَرِيَّة أنْدراش وغيرها، ومن أعمال مالقة بَلَش والحامَّة وغيرها.

هذه أواسط الأندلس، فأما الشرق ففيه من القواعد مُرسية ودانية وبلَنْسِيَة والسهلة والشعر الأعلى. فمن أعمال مُرسية أوريولة ولَقَنْت ولَوُرَقَة وغيرها. ومن أعمال بلَنْسِيَة شاطِبة التي يُعْمَل بها الورق الذي لا نظير له، وجزيرة سَقْر. ومن أعمال الشعر الأعلى سَرَقُسطَة وكورة لارْدَة وكورة نطيلة وكورة وِسَقَة وكورة مدينة سالم وكورة قلعة أيوب وكورة برطانية وكورة باروشة. وفي كلِّ من هذه الكُور مدن وحصون وقرى لا تُحصى، ولدانية والسهلة، أعمال واسعة أيضًا.

وأما غرب الأندلس، فهو إشبيلية ومارْدَة وأشبونة وشلْب. فمن أعمال إشبيلية سْرِيش والخضراء ولبلة. ومن أعمال مارْدَة بَطْلِيُوس وبابرَة. ومن أعمال أشبونة سْتَرِين. ومن أعمال شِلْب سْتَرِيَة ويلحق بعمل<sup>(١)</sup> إشبيلية جزيرة قادِس.

هذا وقد انطوى تحت كلِّ عمل من الحصون، والقرى، والديساكر، ما ترك وصفه لمؤرخي الأندلس، ونجتنى عن تفصيله، بما قرَّروه من أنَّ طول الأندلس نحو ثلاثين يومًا وعرضها تسعة أيام، ويشقها أربعون نهرًا كبيرًا، وبها من القواعد الكبار ثمانون، ومن المدن المتوسطة أزيد من ثلاثمائة، وفيها من الحصون والأبراج والقرى ما لا يدخل تحت الحصر، حتى قيل إنَّ عدد القرى التي على نهر إشبيلية اثنا عشر ألف قرية.

وحيث قد ذكرنا هذا على وجه الإجمال نقول، إنَّ المدن التي كانت باقية في يد الإسلام حين الجلاء، أهمها بعد غَرْنَاطَة المَرِيَّة ووادي آس ولَوُوسَة ومالقة وبلَش مالقة والحامَّة وأنْدراش وشلوبانية ورُنْدَة والمُنْكَبِّ، ما عدا الحصون والقلاع التي تربو<sup>(٢)</sup> على المئين<sup>(٣)</sup>.

(١) محافظة أو قضاء يشمل عدة مدن وبلدات.

(٢) تزيد.

(٣) المئات.

## - المَرِيَّة

ولمَّا كُنَّا قد ذكرنا وصف غرناطة، كان لا بدَّ من وصف المَرِيَّة، المدينة الثانية لمملكة ابن الأحمر، فهي على ساحل البحر، وفيها دار الصناعة للمراكب، ولها القلعة العظيمة المنسوبة إلى خيران مولى المنصور بن أبي عامر، الذي كان قد تولَّأها، وفي كورتها، معادن الحديد والرخام، وطول واديها أربعون ميلاً، وكله جَنَات وبساتين. ولم يكن في بلاد الأندلس أكثر مالمًا ولا أوسع تجارة من أهل المَرِيَّة وقيل، إنَّه كان بها من الحَمَامَات والفنادق نحو الألف، وقيل كان بها لنسيج طُرز الحرير، ثمانمائة نَوَل، وللحُلل النفيسة والديباج الفاخر ألف نَوَل، وللثياب الجُرْجَانِيَّة والأصْفَهَانِيَّة وللمعاجر<sup>(١)</sup> البديعة، والستور المكَلَّلة أُلُوف من الأنوال، وكان يصنع بها أنواع آلات الحديد والنحاس، ويصنع بها الزجاج الأنيق، ويحصن سُنُس على مرحلة من المَرِيَّة، التوت الكثير وهناك الحرير والقرمز. وحصى المَرِيَّة كالذَرِّ في رونقه، يُحمل إلى البلاد، وكانوا يضعونه في كِيزان الماء، ولأبي جعفر بن حاتمة تاريخ شامل، سمَّاه "مزية المَرِيَّة" استوفى فيه أوصافها وخصائصها.

## - مَالِقَة

ومن تلك البلاد مَالِقَة، وهي من أكبر الثغور، وأوسعها تجارة، وأحفلها عمارة، وقد ورد في رسالة أبي الوليد الشقندي في وصف مَالِقَة ما يأتي:

"وأما مَالِقَة، فإنَّها قد جمعت بين منظر البحر والبرِّ، بالكروم المتصلة التي لا تكاد ترى فيها فرجة لموضع غامر، والبروج التي شابته نجوم السماء، كثرة عدد وبهجة ضياء، وتخلَّل الوادي الزائر لها في فصلَي الشتاء والربيع، في سُرُر بطحاتها، وتوشيحها لخصور أرجائها، ومما اختصَّت به من بين سائر البلاد، الثين الربيعي المنسوب إليها، لأنَّ اسمها في القديم، ربة، ولقد أُخْبِرْتُ أنه يُباع في بغداد، على جهة الاستطراف. وأما ما يُسَقَّر منه المسلمون والنصارى، في المراكب البحرية، فأكثر من أن يُعَبَّر عنه بما يحصره، ولقد اجتزَّتُ بها مدَّة وأخذتُ على طريق الساحل من سهيل<sup>(٢)</sup> إلى أن بلغت "بَلَش" قدر ثلاثة أيام، متعجبًا في ما حوته هذه المسافة من شجر الثين وأنَّ بعضها ليَجتنى جميعها الطفل الصغير،

(١) مفردها "معجر": ثوب يَمَنِّي ونسيج نشده المرأة على رأسها.

(٢) عمل بفرسي مألقة كثير الضياع فيه جبل سهيل الذي لا يرى نجم سهيل بالأندلس إلا منه.

من لزوقها بالأرض، وقد حَوّت ما يُتعب الجماعة كثرة. وتين بَلْش، هو الذي قيل فيه لبربري: كيف رأيته؟ فقال: لا تَسْلني عنه وُصِبَّ في حلقي بالققّة.

(قال) وقد حُصّت بطيب الشراب الحلال والحرام، حتّى سار المثل بالشراب المألقي، وقيل لأحد الملوك وقد أشرف على الموت: اسأل ربك المغفرة. فرجع يديه وقال: يا ربّ أسألك من جميع ما في الجنة خمر مألقة وزبيب إشبيلية. وفيها تُسج الحُلل الموشية، التي تجاوز أثمانها الآلاف، ذات الصور العجيبة، المنتخبة برسم الخلفاء، فَمَن دونهم، وساحلها محطّ تجارة لمراكب المسلمين والنصارى.

وما زال تين مألقة، مَضرباً للأمثال، حتّى قيل إنّه يُجلب إلى الهند والصين وحتّى جعله أبو الحجاج يوسف البَلوي المألقي حياته فقال:

مألقةٌ حُيبتَ يا تينها	الفلكُ من أجلك ياتينها
نهى طيبسي عنه في علّتي	ما لطيبسي عن حياتي نهى

وقال ابن بطوطة: "مألقة، إحدى قواعد الأندلس، وبلادها الحسان، جامعة بين مرافق البرّ والبحر، كثيرة الخيرات والفواكه. رأيت العنب يُباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير، ورُمانها المرسىّ الياقوتي لا نظير له في الدنيا، وأما التين واللوز فيجلبان منها ومن أحوازها<sup>(١)</sup> إلى بلاد المشرق والمغرب. وبمألقة يُصنع الفخار المذهب العجيب ويُجلب منها إلى أقاصي البلاد. ومسجدها كبير الساحة، كثير البركة شهيرها وصحنه لا نظير له في الحسن وفيه أشجار النارج البديعة".

وأما بَلْش مألقة فعليها مسحة من مألقة في طيها، وهذه أمّهات مدن غرناطة ودُرر سلكتها، ولو شئنا استقصاء أعمالها، وتقري<sup>(٢)</sup> جهاتها بالوصف والتنويه، وحاولنا تتبّع كُور الصُقع<sup>(٣)</sup> وبقاعه، والدخول في ثنايا حصونه وقلاع، لضاقت علينا الكتب برحبها، كيف لا، والأندلس جنة العرب وفردوس نعيمهم ومرمى غايات خيالهم، وقد جرى في وصفها من المداد، ما لو توزّع لَوَسع سائر البلاد، ورد من دونها إرم ذات العماد<sup>(٤)</sup>، وحسبك، أنّ

(١) مفردا حوزة: الناحية.

(٢) جَمْعُ.

(٣) الناحية.

(٤) دمشق لوالاسكندرية، الآية (٧) من سورة الفجر.

هذه المدن الأخيرة كانت سُور ما في الكأس، وخصاصة ما في الكرم، ومع ذلك، فلتعدّد أسباب دفاعها؛ واستحكام خلق أبقاعها وغبارة مواد أبلابها، لم يزل أمل الإسلام فيها وطيداً، والرجاء ببقائها معقوداً.

قال ابن سعيد: "في حصونها ما يبقى في محاربة العدو، ما ينيف على عشرين سنة، لا متناع معاقلها ودرية أهلها على الحرب، واعتيادهم لمجاورة العدو بالطعن والضرب، وكثرة ما تتخزن الغلّة في مطاميرها، فمنها ما يطول صبرها عليها نحواً من مائة سنة، ولذلك أدامها الله تعالى من وقت الفتح إلى الآن، وإن كان العدو قد نقصها من أطرافها، وشارك في أوساطها، ففي البقية منعة عظيمة، فأرض بقي فيها مثل إشبيلية وغبناة ومالقة والمرية، وما يضاف إلى هذه الحواضر العظيمة الرجاء، فيها قوي بحول الله وقوته".

قال المقرئ: "قلتُ وقد خاب ذلك الرجاء، وصارت تلك الأرجاء للعدو معرجاً، ونسأل الله الذي جعل اللهم فرجاً وللضيق مخرجاً، أن يُعيد إليها كلمة الإسلام حتى يستشوق أهله منه فيها أرجاً"<sup>(١)</sup>.

هذا كان منذ نحو ثلاثمائة سنة، والعهد بالخروج حديث، والدم على أسوار غرناة طريء، والعادة المستمرة راسخة التأثير، ولدنو زمن الخروج في أمل الرجوع حق كبير، فأما الآن ولم يكتف العدو باسترداد أرضه، حتى هم بالتجاوز إلى ما وراء البحر، واعترض من بلاد الإسلام ما بين السحر والنحر"<sup>(٢)</sup>، فلو نشر المقرئ في هذا العصر، ورأى ما رأى من التكالب المحيط، لقتع بحفظ الموجود، ولم تتماد به الأمانى إلى استحياء ما في اللُحود؛ والله الأمر من قبل وبعد<sup>(٣)</sup>.

## - ذكر فتح الأندلس

وأما تاريخ فتح غرناة فينتهي إلى فتح سائر الأندلس، على يد طارق بن زياد، فإن طارقاً لما هزم لذريق، ومزق جموعه، وحاز أمواله، وتسامع الناس من برّ العُدوة، بالفتح الذي تمّ على يده، أبلبوا إليه من وراء البحر وتكاثفوا حوله، فارتفع الإشبانيول عند ذلك

(١) عير وطيب.

(٢) القرّة والسفل العنق، تُضرب للطارب بين شيتين.

(٣) إتينا عندما حررنا هذا التاريخ لم يكن المغرب الأقصى سقط في أيدي الفرنسيين والإشبانيول، على أن الله تعالى بعث على هولاء جنده من بسلا ريف مراکش بقيادة بطل الإسلام الأمير عبد الكرم فنكّلوا بهم وثاروا العرب الأندلس منهم، ونسأل الله حسن العاقبة لهم.

إلى الحصون والقلاع، ولحقوا بالجبال، فطرق طارق حصونهم، فاستنزلهم منها قَسْرًا، وأرهمهم ذلاًّ وعسراً، وأوغل في البلاد فقتل الله الرعب في قلوب الإسبانول، فلم يثبتوا في موقف، وصمد طارق إلى طُلَيْطَلَة قاعدة ملكهم، وأرسل مُغِيثًا مولى الوليد بن عبد الملك، إلى قُرْطُبَة، وسرَحَ جيشًا إلى مالقة، وجيشًا آخر إلى غَرْنَاطَة مدينة البيرة، فافتحوا مالقة، ولاذ علوجها بجبالهم التي صارت في الدهور التالية، ملجأً للمسلمين، وتوجَّهوا إلى البيرة فحصروا مدينتها غَرْنَاطَة، فافتحوها عَنوةً وضموا اليهود إلى قصبته، وكان ذلك لهم سُنَّةً في كلِّ بلد يفتحونه، أن يضموا يهوده إلى القصبه مع قطعة من المسلمين، استنامة<sup>(١)</sup> إليهم، من دون الإسبانول، لما بينهم من العدوان، ثمَّ إنَّ العرب أخذوا بالرحيل إلى الأندلس والوفود على تلك البلاد من كلِّ حَدَب، ولا سيما عرب الشام، فلما كانت ولاية أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي، من قبل حنظلة ابن صفوان، عامل أفريقية سنة خمس وعشرين بعد المائة، كثروا عنده في قُرْطُبَة، فلم يحملهم المصر ففرَّهم في البلاد، وكان شديد الرأي وافر الخزم فأنزل أهل دمشق البيرة لشبهها بها وسماها دمشق، وأنزل أهل حِمص وإشبيلية، وسماها حِمص، وأهل قنسرين جِيَان وسماها قنسرين، وأهل الأردن رِيَة ومالقة وسماها الأردن، وأهل فلسطين شريش، وسماها فلسطين، وأهل مصر تُدمير وسماها مصر، وقيل إنَّ بها نهرًا له شأنٌ كشأن النيل في الفيضان في فصلٍ مخصوص.

### - عبد الرحمن الداخل وبنو أمية

ولمَّا أفلت عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي الملقب بالداخل سنة ثمان وثلاثين ومائة شريدًا من المشرق، واقتطع الأندلس عن المنصور العباسي، نزل بساحل المنكب بادئ بدء، وهناك وافاه أحزابه والقائمون بدعوة الأموية من إشبيلية ورية بالبيعة، وأخلصوا المناصحة وانضمَّ إليه اليمانية فَنهَدَ<sup>(٢)</sup> إلى قُرْطُبَة مقرَّ الوالي يوسف بن عبد الرحمن الفهري وكان غازيًا في الجلالة فأسرع الأوبه<sup>(٣)</sup>، وزحف إليه عبد الرحمن فتلاقى الجمعان بظاهر قُرْطُبَة فانكشف يوسف ولجأ إلى غَرْنَاطَة، وتحصَّن بها، ثمَّ تصالحا على أن يبقى عبد الرحمن في قُرْطُبَة أميرًا ثمَّ نكث يوسف العهد واستؤنفت الحرب، فانهزم

(١) بمعنى استنامًا بهم واطمئنانًا إليهم.

(٢) ذَهَبَ وتوجَّه.

(٣) الرجوع.

الفهري واحتز رأسه<sup>(١)</sup> وجيء به إلى عبد الرحمن واستوسق له الأمر<sup>(٢)</sup>، ودانت لطاغته البلاد ولمن بعده من أعقابيه، على تزايد في صولتهم، وتائل<sup>(٣)</sup> من سلطانهم.

### - المنصور بن أبي عامر

وكانت غرناطة، كغيرها من الأمصار، يخفق فوقها اللواء الأموي، حينما لم يكن غيره راية، ولا دونه خلافة، إلى أن اضطرب جبل المروانين بالأندلس، وانتزى<sup>(٤)</sup> عليهم المنصور بن أبي عامر، كافل الخلافة<sup>(٥)</sup>. وأعقابيه وقاموا بالدولة العامرية وعاقدوا صنهاجة من قبائل البربر واتخذوهم عضداً في مواقفهم، من دون العرب.

(١) فصلت عن جسده.

(٢) اجتمع له الأمر.

(٣) عظم.

(٤) وكب عليهم. نازعه بمعنى: طمع ونزع.

(٥) هو الملك الأعمش المنصور أبو عامر محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري من أجل ملوك الإسلام، وأمضى سيف محمد عليه الصلاة والسلام، لم يروى عن أحد زيادة عما روي عنه من الهمة في الجهاد والأعمال والفتوة، وتردد السرايا إلى العدو. ويقال إنه غزا سناً وخمسين غزاة لم تنكس له فيها راية، ولا لفل له جيش، وما أصيب له بهت، وما هلكت له سرية. وقيل إنه اهتنى بجمع ما علق بوجهه من الغبار في غزواته فكان الحدم بأخذونه عنه بالناديل حتى اجتمع له منه سرية ضخمة عهد بتصيرها في حنوطه، وكان يحملها معه في أسفاره وغزواته مع أكتافه توقفاً لحلول الأجل. وقرأت ما يشبه ذلك عن سيف الدولة بن حمدان العدوي من أنه اجتمع له من هذا الغبار لينة كبيرة عهد بوضعها تحت رأسه في قبره، وجد المنصور هو عبد الملك المعافري الوالد على الأندلس بصحبة طارق وأصله من قرية تركش، رحل إلى قرطبة وتآذب بها، ثم اتعد دكناً عند باب القصر يكب فيه لمن يعن له كتب من خدام القصر، إلى أن احتاجت السيدة صبح أم المؤيد الأموي من يكب لها، فمرها به من يعرفه، فكب عنها وترقى في خدمتها، إلى أن رغبت إلى الخليفة في توليه القضاء فولاه، فظهرت منه نجابة فترقى إلى ولاية الزكاة والمواريث بأشيلية، وكانت مبدأ ظهوره. وتناصح في خدمة المصحفي حاجب الخليفة وصار ذا شأن، فلما توفي الحكم وتولى ابنه هشام المؤيد وهو حدث جاشت له الإفريخ، فرماهم المصحفي بأن أبي عامر فانتصر عليهم. وتمكن حبه من القلوب، وأخذ يزداد جاهاً وعلواً حتى ناب له رأي بالاستبداد، فمكر بأهل الدولة. وضرب بينهم وقتل بعضهم ببعض، فكب الصقالبة الحمصيان بالقصر المصحفي. ونكب هذا بنغال مولى الحكم صاحب مدينة سالم. ونكب غالباً بجمعفر بن حمدون قائد الشيعة، ومخدوح بن هاني وجمعفراً بمالاه ابن عبد الودود وابن جهور وابن ذي التون، ثم استعان على أولياء الدولة كلهم بالجند من زناتة والبربر واصطغهم، وحجر على هشام المؤيد. ولم يبق له من الأمر إلا الاسم وأمر بالعداء بأسمه على المنابر عقب اسم الخليفة، وصار شأنه مما شأن ابن بويه مع المطيع أو الطائع العباسي، بل أعظم من ذلك. وأجاز إلى العدو، وضرب بين رؤساء البربر، فاستوتق له ملك المغرب وملك العدوتين وقهر جميع الأعداء. وله الغزاة الشهورة في بلاد غلبسية إلى شنت يقب (سان جاك) التي وصل بها إلى ما لم تظله رجل مسلم من بلاد الإفريخ وتوفي سنة ٣٩٤ بمدينة سالم وهو منصرف من الفتوة وحكي أنه مكتوب على قبره هذا البيت:

آثاره تنبئك عن أخباره      حتى كأنك بالعبان تراه  
تأله لا يأتي الزمان بمشله      كلاً ولا يحمي التفور سواه

وكان ملكه سبماً وعشرين سنة.

وأخباره ونوابه تحتمل مجلدات، وأكثرها مستفيض في التواريخ، وكتب الأدب، وقد أفرد ابن حبان لأكاره في الحزم والكيده والجلد تأليفاً، وخلفه ولده عبد الملك المظفر أبو مروان، وكان مقتضياً أثر أبيه في الجهاد، وملك سبع سنين وخلفه أخوه عبد الرحمن. وكل منهم حجر على هشام لكن هذا الأخير أحب أن يستأثر بما بقي من رسوم الخلافة وأجبر هشاماً على أن يوليئه عهده لكنه قُتل واتى به ملك العامرين كما أشرنا إليه.

## - سقوط العامريين ومبايعة بني أمية -

وكان عميد صنهاجة، لوقته، زاوي من بني حبوس، فكان هو وقومه من صنهاجة وزناته، مادة لأولاد المنصور بن أبي عامر، إلى أن همت القرشية ومن إليهم من المضرية، بإعادة الملك إلى نصابه، وتمحضت الحال بالفتنة، وثار أهل قُرْبُبة على أبي المظفر عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر، وبايعوا محمدًا بن هشام ابن عبد الجبار ابن أمير المؤمنين الناصر لدين الله، من أعقاب الخلفاء، ولقبوه بالمهدي بالله، وكان عبد الرحمن بن المنصور بالثغر، فقبل إلى الحضرة وانفض عنه جمعه، وخذله حزبه، حتى البربر أنصار دعوتهم، بما نعموا عليه من سوء تدبيره، ثم وثب عليه أحد الثائرين واحتز رأسه، وحمله إلى المهدي، وانقرضت دولة العامريين كأن لم تغن بالأمس.

وبعد أن أديب<sup>(١)</sup> ثانية لبني أمية، تذكر أشياعهم، من انتصار العامريين بالبربر وتسلحهم بهم، ما أسخط على هؤلاء القلوب، وثار بهم الدهماء، فنهبوا دُورهم وانتقموا منهم، فشكوا ما أصابهم إلى المهدي، وكان واجدًا في نفسه مثلما وجد الناس، فغض الطرف عن إساءتهم، فتمست رجالاتهم بالتحريك، وأسروا النجوى<sup>(٢)</sup>، في تقديم هشام بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر، ففشا الأمر، وعوجلوا عن قصدهم، وأحضر هشام وأخوه أبو بكر بين يدي المهدي، فضرب أعناقهما، وأزعج<sup>(٣)</sup> البربر عن قُرْبُبة، فلحق بهم سليمان بن الحكم بن سليمان ابن أمير المؤمنين الناصر فبايعوه ولقبوه بالمستعين بالله، واجتمعوا حوله بظاهر قُرْبُبة. ثم نهضوا إلى طَلَيْطلة واستجاشوا<sup>(٤)</sup> بآبن الأذفونش، ونهضت البرابرة والنصرانية إلي<sup>(٥)</sup> واحدًا إلى قُرْبُبة، فبرز المهدي إلى لقائهم في جمهورها، فانهزم، ودخل المستعين قُرْبُبة ختام المائة الرابعة. ولحق المهدي بطَلَيْطلة، واستجاش بآبن الأذفونش أيضًا. وكانت القضية بالتناوب وكان هذا يمدّ منهم كل من استجاش به، توسيعًا للنكاية في ما بينهم، وكرّ المهدي على قُرْبُبة، فكشف عنها المستعين وحزبه، وتفرقوا في البلاد للعبث والفساد، فخرج المهدي في أثرهم ومعه ابن الأذفونش فاجتمعوا لهما وكرّوا عليهما، فانهزما بمنّ معهما من الإسلام والنصرانية، ودخل المهدي قُرْبُبة مدحورًا ويش

(١) أعيد لهم.

(٢) كتموا الأمر في نفوسهم.

(٣) طرد.

(٤) استجاشوا الجيش: جمعوا.

(٥) سُجتمون.

من الفوز، فأخرج هشام المؤيد الخليفة كان قبل الفتنة، وأقام في حجابه<sup>(١)</sup>، ظنًا بأن ذلك يجمع الكلمة ويقبل من غرب الفتنة<sup>(٢)</sup>، فلم يُقت ذلك بعزم البربر والمستعين صاحبهم، وأداموا الحصار، فقام عامة قُرُطبة وقتلوا المهدي، بحجة أنه هو سبب الفتنة، فلم يُجدهم ذلك في التنفيس عن خناقهم، وبقي المستعين يحصرهم، حتى دخل قُرُطبة ومن معه، وقتل هشام سرًا، وعات البربر في الحضرة ونهبوها، وأنزلوا المعرة<sup>(٣)</sup> بذوي الصون والستر من بيوتاتها، ثم وثب البربر بعد هذا الغلب، على المدن العظيمة فولّوها، ونزل زاوي المقدّم الذكّر بفرناطة من القواعد، وهي محلّ الشاهد، وأخذها دارًا ومعتصمًا له ولقومه، ثم خشي ثورة الأحقاد، ووثوب أهل الأندلس على البربر، فقفل إلى المغرب ولحق بقومه في القيروان، واستخلف على غرناطة ابنه فحدث بينه وبين الغرناطيين ما أوجب انتماضهم عليه، فبايعوا حيّوس ابن عمّه، فتأثّل أمره، وصار من أعظم ملوك الطوائف بالأندلس. وبعد وفاته سنة تسع وعشرين وأربعمائة وُلّي ابنه باديس ولُقّب بالمظفر، وزحف إليه العامري صاحب المريّة فلقّبه باديس بظاهر غرناطة، فهزّمه وقتله، وتمت شوكته، وعظم سلطانه، حتى خطب نصرته<sup>(٤)</sup> جميع ملوك عصره، واستنجده محمّد بن عبد الله البرزالي في دفاع ابن عبّاد، واستمدّه القادر بن ذي النون في مناصبته أيضًا. وشاد باديس في غرناطة القصور ومرّد الصُروح<sup>(٥)</sup>. وسنة تسع وأربعين عند انقراض بني حمّود أصحاب مالقة، أضافها إلى عمله، وتوفي سنة سبع وستين، وخلفه حافده عبد الله ابن بلكين بن باديس، وعقد لأخيه تميم على مالقة، وكانت ظهرت دولة المرابطين، وأجاز أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، ونزل بفرناطة سنة ثلاث وثمانين، فقبض على عبد الله بن بلكين وأخيه تميم، ونفاهما إلى برّ العُدوة، وأنزلهما السوس الأقصى فهلكا وانقرضت بهما تلك الإمارة.

رجع إلى أخبار قُرُطبة:

(١) (مجازًا) في ظلّه ورعايته.

(٢) بمعنى يُمسكها.

(٣) يريد العار.

(٤) ناصره وأيدوه.

(٥) جعلها عالية حصينة.

## - بنو حمود الحسنيون

لَمَّا اسْتَقَامَ الْأَمْرُ لِلْمُسْتَعِينِ بِوَسَايَةِ الْبُرْبِرِ، خَرَجَ عَلِيُّ بْنُ حَمُودِ الْحُسَيْنِيِّ وَأَخُوهُ قَاسِمٌ، مِنْ عَقَبِ إِدْرِيسِ مَلِكِ فَاَسَ مِنَ الْمَغْرِبِ، وَأَجَازَا إِلَى الْأَنْدَلُسِ، وَأَدْعَايَا الْخِلَافَةِ، وَاعْصَوْصَبَ حَوْلَهُمَا الْبُرْبِرِ، وَنَصَرُوهُمَا عَلَى الْمُسْتَعِينِ الْأُمَوِيِّ صَاحِبِهِمُ الْأَوَّلِ، فَقَتَلُوهُ، وَثَلُّوا عَرْشَ بَنِي أُمَيَّةَ سَبْعَ سِنِينَ، وَجَرَى بَيْنَهُمْ أَثْنَاءَ هَذِهِ الْمُدَّةِ حُرُوبٌ، وَوَقَائِعٌ لَيْسَ هُنَا مَحَلُّ شَرْحِهَا، وَتَلَقَّبُوا بِالْقَابِ الْخُلَفَاءِ، وَتَغَلَّبُوا عَلَى الْأُمَصَارِ، لَكِنْ لَمْ تَطَّلْ مَدَّتُهُمْ فَإِنَّ آخِرَهُمْ كَانَ الْوَاتِقُ، تَوَفِّيَ سَنَةَ خَمْسِينَ، وَكَانَ أَهْلُ قُرْطُبَةَ أَعَادُوا الْخِلَافَةَ إِلَى نَصَابِيهَا وَبَايَعُوا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ هِشَامِ بْنِ عَبْدِ الْجَبَّارِ أَخَا الْمَهْدِيِّ، وَلَقَّبُوهُ بِالْمُسْتَظْهَرِ، وَبَعْدَ شَهْرَيْنِ مِنْ خِلَافَتِهِ، ثَارَ عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ النَّاصِرِ، وَاتَّبَعَهُ الْعَامَّةُ، فَفَتِكَ بِالْمُسْتَظْهَرِ، وَأَقَامَ مَكَانَهُ، وَلُقِّبَ بِالْمُسْتَكْفِيِّ وَهُوَ وَالِدُ الْوَلَادَةِ الْأَدْيِيَّةِ الشَّهِيرَةِ، صَاحِبَةِ الْمَطَارِحَاتِ مَعَ الْوَزِيرِ ابْنِ زَيْدُونَ رَحِمَهُمَا اللَّهُ. وَبَعْدَ سِتَّةِ عَشْرِ شَهْرًا مِنْ بَيْعَةِ الْمُسْتَكْفِيِّ، رَجَعَ الْأَمْرُ إِلَى الْمُعْتَلِيِّ يَحْيَى بْنِ عَلِيِّ بْنِ حَمُودِ، وَكَانَ أَهْلُ قُرْطُبَةَ أَكْثَرَ النَّاسِ تَشْغِييًّا، وَأَقْلَهُمْ ثَبَاتًا عَلَى الْأُمُورِ، فَخَلَعُوا الْمُعْتَلِيَّ، وَبَايَعُوا الْوَزِيرَ أَبُو مُحَمَّدَ جَهَّوْرَ بْنَ مُحَمَّدِ ابْنِ جَهَّوْرٍ كَبِيرَ قُرْطُبَةَ، لَهُشَامُ بْنُ مُحَمَّدِ الْأُمَوِيِّ أَخِي الْمُرتَضِيِّ، وَكَانَ فِي "لَارِدَةِ" عِنْدَ ابْنِ هُوْدٍ، وَلُقِّبَ بِالْمُعْتَمَدِ بِاللَّهِ، وَلَمْ يَصْبِرُوا عَلَيْهِ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَعْوَامٍ - قَضَى أَكْثَرَهَا مَتَرَدِّدًا فِي الثُّغْرِ - حَتَّى خَلَعُوهُ سَنَةَ ٤٢٢، وَانطَوَى بِسَاطِ الدَّوْلَةِ الْأُمَوِيَّةِ، وَانْتَشَرَ سِلْكُ الْخِلَافَةِ، وَصَارَ الْأَمْرُ إِلَى رُوسَاءِ وَزَرَءِ وَقُضَاةِ، اسْتَقَلَّ كُلٌّ مِنْهُمْ بِمَا امْكَنَتْهُ يَدُهُ، وَصَارَ يَتَظَاهَرُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِمَلُوكِ الْإِفْرَنْجِ، وَيَسْتَجِيشُونَ بِهِمْ فِي الْأَحْيَائِنِ، وَيَمَكِّنُونَهُمْ مِنْ حِصُونِ الْمُسْلِمِينَ، طَعْمَةً عَلَى الْاسْتِظْهَارِ<sup>(١)</sup> وَإِنَارًا لِهَوَى الْأَنْفُسِ عَلَى مَصْلِحَةِ الْمَلَّةِ.

## - بنو عبّاد اللخميون

وَمِنْ أَشْهُرِ هَوْلَاءِ الْمُلُوكِ الَّذِينَ تَلَقَّبُوا بِمَلُوكِ الطَّوَانِفِ، بَنُو عَبَّادٍ مِنْ سَلَالَةِ الْمُنْزَرِ بْنِ مَاءِ السَّمَاءِ اللَّخْمِيِّ، كَانُوا مَلُوكًا بِإِسْبِيلِيَّةِ وَغَرْبِ الْأَنْدَلُسِ، وَانْتَزَعُوا قُرْطُبَةَ مِنْ يَدِ بَنِي جَهَّوْرٍ أَصْحَابِ الْوِزَارَةِ. وَأَشْهُرُهُمُ الْمُعْتَمَدُ بْنُ الْمُعْتَصِدِ الشَّهِيرِ بِالْأَدَبِ وَالْبِرَاعَةِ، وَالْمَوْصُوفُ بِالكَرَمِ وَالشَّجَاعَةِ، الَّذِي نَكَبَهُ فِي آخِرِ أَمْرِهِ، أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ يُوسُفُ بْنُ تَاشْفِينِ، وَكَانَ قَدْ اسْتَفْحَلَ أَمْرَهُ بِالْأَنْدَلُسِ، وَعَلَتْ يَدُهُ عَلَى بَقِيَّةِ مَلُوكِ الطَّوَانِفِ؛ وَخَطَبُوا نَصْرَهُ،

(١) الحيلة.

وغلّوا في رضاه، وما زال إقباله في ازدياد، وجدّه في صعود، حتّى أسره ابن تاشفين في خبر سيأتي، ونكبه النكبة التي ضنّ بمثلها التاريخ<sup>(١)</sup> بعد نكبة البرامكة، وتوفّي مسجوناً بأغامت سنة ٤٨٨.

### - بنو ذي النون

ومن ملوك الطوائف، بنو ذي النون أصحاب طُلَيْطَلَة، وتد بلغت دولتهم غاية قصية من الإستفحال والترف، وجاهدوا في الثغور جهاداً كان الصبر مقامه، وغلّبوا المعتمد بن عبّاد على قرطبة، وقتلوا ولده أبا عمرو، ونزعوا بَلَنْسِيَة من يد ابن أبي عامر، إلى أن أدرك دولتهم الضعف لعهد القادر بن ذي النون، واستلم ابن الأذفونش منهم طُلَيْطَلَة مقرّ ملكهم، وشرط المظاهرة على أهل بَلَنْسِيَة فأجابوه، وتغلّب الإسبانول على الأرض واكسحوا بسائطها، وقادوا أبيّها، وأذلّوا عتّيّها<sup>(٢)</sup>، وفي ذلك قول بعضهم يندب طُلَيْطَلَة:

سُرورًا بعد ما بِنَسَتْ تُنْغورُ <sup>(٣)</sup>	لِثُكْلِكَ كَيْفَ تَبَسَّمُ الثُّغورُ
تَبِيرُ الدين فَاتَّصَلَ الثُّبورُ <sup>(٤)</sup>	أما وأبي مصابٌ هُدَّ منه
أَمِيرُ الكاشحينَ له ظُهورُ	لقد قُصِمَتْ ظُهورٌ حينَ قالوا
مضى عتًا لَطِيته السُرورُ	ترى في الدهر مسرورًا بعيش
يدورُ على الدوائرِ إذ تدورُ	أليس بها أبايُ النفسَ شهمٌ
وزال عتوها ومضى النفورُ	لقد خضعت رِقابٌ كُنَّ غُلْبًا
وسامحَ في الحريمِ فتمى غَيورُ	وهان على عزيز القوم ذلٌّ
حماها إنَّ ذا نَبأٌ كَبيرُ	طُلَيْطَلَة أبا حَ الضِدُّ منها
ولا منها الحَوْرُنقُ والسديرُ <sup>(٥)</sup>	فليس مثالها إيوانُ كِسرى
تناولها ومطَبُّها عَسيرُ	مُحَصَّنَة مُحَسَّنَة بعيدٌ
فَدَلَّلَهُ كما شاءَ القديرُ	ألم تكُ معقلاً للدينِ صعبًا

(١) نادرًا ما حصلت في التاريخ.

(٢) أي أنهم غلبوا جميع من كان فيها واستولوا عليها.

(٣) الأثواء والثغور - هنا - مداخل البلاد.

(٤) التويل والهلاك.

(٥) الحَوْرُنقُ والسدير: فصران شهيران للنعمان.

وَأَخْرَجَ أَهْلَهَا مِنْهَا جَمِيعًا  
 وَكَانَتْ دَارَ إِيمَانٍ وَعِلْمٍ  
 مَسَاجِدُهَا كَنَائِسُ! أَيُّ قَلْبٍ  
 فِيهَا أَسْفَاهُ يَا أَسْفَاهُ حَزْنَا  
 وَيَنْشُرُ كُلَّ حَسَنٍ لَيْسَ يُطَوِّى  
 أُدْبِلَتْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ كَانَتْ  
 وَأَدْرَكَهَا فَتَوْرٌ فِي انْتِظَارِ  
 وَكَانَ بِنَا وَبِالْقَيْنَاتِ<sup>(١)</sup> أَوْلَى  
 لَقَدْ سَخَّيْنَا بِحَالَتِهِنَّ عَيْنٌ  
 لَكِنَّ غَبْنَا عَنِ الْإِخْوَانِ إِنَّا  
 نُنْذِرُ كَانَ لِلْأَيَّامِ فِيهِمْ  
 فَإِنْ قُلْنَا الْعُقُوبَةَ أَدْرَكْتَهُمْ  
 فَإِنَّا مِثْلَهُمْ وَأَشَدُّ مِنْهُمْ

ومنها

خُذُوا نَارَ الدِّيَانَةِ وَانصُرُوها  
 وَلَا تَهِنُوا وَسَلُّوا كُلَّ عَضْبٍ<sup>(٢)</sup>  
 وَموتُوا كُلَّكُمْ فَالموتُ أَوْلَى  
 أَصْبِرًا بَعْدَ سَبِيٍّ وَامْتِحَانٍ  
 فَأَمُّ الصَّبْرِ مَذْكَارٌ وَلَوْدٌ

ومنها

فصاروا حيث شاء بهم مصيرُ  
 معالِمها التي طُمِسَتْ<sup>(٣)</sup> تُنِيرُ  
 على هذا يَقِرُّ وَلَا يَطِيرُ؟  
 يَكْرُرُ مَا تَكَرَّرَتْ الدَّهْوَرُ  
 إِلَى يَوْمٍ يَكُونُ بِهِ النُّشُورُ<sup>(٤)</sup>  
 مَصُونَاتٍ مَسَاكِنِهَا الْقُصُورُ  
 لَسْرِبٍ فِي لَوَاحِظِهِ فَتَوْرُ  
 لَوِ انضَمَّتْ عَلَى الكُلِّ القُبُورُ  
 وَكَيْفَ يَصِحُّ مَغْلُوبٌ قَرِيرُ  
 بِأَحْزَانٍ وَأَشْجَانٍ حُضُورُ  
 بِمَهْلِكِهِمْ فَقَدْ وَقَّتْ النُّذُورُ  
 وَجَاءَهُمْ مِنَ اللَّهِ النُّكَيْرُ  
 نَجُورٌ وَكَيْفَ يَسْلَمُ مَنْ بِجُورُ

فقد حامت على القتلى النُورُ  
 تَهَابَ، مَضَارِبًا عَنْهُ النُّحُورُ  
 بِكُمْ مَنْ أَنْ تُجَارُوا أَوْ تُجُورُوا<sup>(٥)</sup>  
 يُلَامُ عَلَيْهِمَا القَلْبُ الصُّبُورُ؟  
 وَأُمُّ الصَّقْرِ مَقْلَاةٌ نَزُورُ<sup>(٦)</sup>

(١) أَخْرَجَتْ مَعَالِمَهَا.

(٢) يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

(٣) مَفْرُودًا (قَيْةً): الْمَقْبَةُ.

(٤) السِّيفُ الْقَاطِعُ.

(٥) نَظَّلِمُوا.

(٦) هَذَا الْبَيْتُ مَأْخُوذٌ مِنْ شِعْرِ نُجَيْرِ عَزَّةَ (لِلتَّوْفَى سَنَةِ ٧٢٣م)، الْمَقْلَاةُ: الَّتِي لَا يَحْيَا لَهَا وَلَدٌ، وَالنُّزُورُ: قَلِيلَةُ الْوَالِدِ، وَالْمَقْصُودُ أَنْ لَا تَقِيمَةَ لِلْكَتْمَةِ وَالْأَشْكَالِ، وَإِنَّمَا الْقِيَمَةُ لِلتَّوْحِيدِ وَالْأَعْمَالِ، بَلْ، لِلصَّبْرِ عَلَى الشَّدَائِدِ.

كفى حزنًا بأنَّ الناس قالوا:  
 أنتركُ دورنا ونفرضُ عنها  
 ولا نَمَّ الضياعُ تروقَ حسنا  
 وظلٌّ وارفٌ وخيريرُ ماءٍ  
 ويؤكلُ من فواكهها طريُّ  
 يؤدى مغرمٌ في كلِّ شهرٍ  
 لقد ذهبَ اليقينُ فلا يقينُ  
 رضوا بالرقِّ يا الله ماذا  
 مضى الإسلامُ فابكِ دَمًا عليهِ  
 ونُحْ وأنذبَ رفاقًا في فلاةِ  
 ولا تنجحِ إلى سلْمٍ وحاربِ  
 أنعمى عن مرأشِدنا جميعًا  
 ولو أننا ثبتنا كانَ خيرًا  
 إذا ما لم يكن صبرٌ جميلٌ

إلى أينَ التحوُّلُ والمسيرُ  
 وليس لنا وراءَ البحرِ دورُ  
 نباكرُها فيُعجِننا البُكورُ  
 فلا قرٌّ<sup>(١)</sup> هناك ولا حرورُ<sup>(٢)</sup>  
 ويُشربُ من جداولها نَميرُ  
 ويؤخذ كلَّ صائفةٍ عُشورُ  
 وغرَّ القومِ بالله الغرورُ  
 رأوه وما أشارَ به مُشيرُ  
 فما ينفي الجوى الدمعُ الغزيرُ  
 حيارى لا تحطُّ ولا تسيروُ  
 عسى أن يُجبرَ العَظْمُ الكسيرُ  
 وما إن منهمُ إلا بصيرُ  
 ولكن ما لنا كرمٌ وخيرُ  
 فليس بنافعٍ عددٌ كثيرُ

### - بنو هود

ومن ملوك الطوائف بالأندلس، بنو هود أصحاب سرقسطة، وأشهرهم المقتدر بالله وابنه يوسف المؤمن، وكان المؤمن قائمًا على العلوم الرياضية، وله فيها تصانيف، وابنه المستعين أحمد، هو الذي هزمه الإفرنج في واقعة "وشقة"، وقتل من المسلمين يومئذ نحو عشرة آلاف، واستشهد المستعين، بظاهر سرقسطة سنة ٥٠٣، ووُلِّيَ ابنه عبد الملك عماد الدولة، وهو الذي أجلاه العدو عن سرقسطة سنة ٥١٢، ووُلِّيَ ولده سيف الدولة، وله في الجهاد الموقف الذي لا يخفى.

### - بنو الألفس

ومنهم بنو الألفس، ملوك بَطْلَيْوس الذين منهم المظفر، صاحب التأليف المسمَّى

(١) بزُّ شديد.

(٢) يوم حرّ وحرور، شديد الحرّ.

بالمظفري، في خمسين مجلداً، وهم المرثيون برائثة ابن عبدون المشهورة التي مطلعها:

الدهرُ يَفْجَعُ بعدَ العِينِ بالأثر  
فما البكاءُ على الأشباحِ والصورِ  
وذلك عند فتك البربرِ بالمتوكِّلِ البطليوسي.

### - بنو صُمادح

ومنهم بنو صُمادح بالمرية، ومنهم مُجاهد العامري. بدانية والجزائر.

### - بنو حَبُوس

ومنهم بنو حَبُوس بقرنطرة مكان الحاجة من الاستشهاد.

### - تمادي الإِسبانيول ورفض ابن عباد تهيؤهُ للقتال

هذا ولمَّا تكالب الإِسبانيول على بلاد المسلمين في الأندلس. واهتبلوا الغرة<sup>١</sup> بما كان من افتراق الكلمة، وتشعب السلطة، وملكوا بلنسية وطليطلة وسرقطة وغيرها، وسار طاغيتهم حتى وقف بفرضة المجاز من طريف، وضرب على ملوك الطوائف أنواع الجزى. فأدوها وأعطوه المقادة، وكان أضخمهم ملكاً، المعتمد ابن عباد اللّخمي. صاحب إشبيلية، يؤذيها وهو صاغر، فلما تملك الأذفونش طليطلة، أرسل إليه المعتمد المعتاد، فلم يقبله هاتيك المرة. وأرسل يطلب منه النزول عن جميع الحصون المنيعة. وتبقى السهول للمسلمين، والأف هو يزحف إلى قرطبة، وكانت الرسالة مع جمع وافر نحو خمسمائة فارس، فضاق المعتمد ذرعاً، واعتزم القيام، ففرق الجماعة على قواد عسكره، وأمرهم بأن يقتل كل من عنده، وتولى هو بنفسه صفع عميدهم، حتى خرجت عيناه، وأفلت منهم ثلاثة نفر، فعادوا إلى الأذفونش، وأخبروه بالخبر، فرجع عن قرطبة إلى طليطلة ليجمع آلات الحصار ويجلب بالقوة الكافية، وهذه رواية ابن الأثير.

وروى صاحب "الروض المعطار في ذكر المدن والأقطار" ما ملخصه: "أن المعتمد تأخر في دفع الضريبة لاشتغاله بغزو ابن صُمادح صاحب المرية، فلما أرسلها، استشاط الأذفونش غضباً، وأرسل يطلب منه بعض الحصون، وأمعن في التجني، وسأل في دخول

(١) اغتصموا الفرصة.

امراته الحامل، جامع قُرْطَبَة لِتَلد فيه، حسب إشارة القَسَيسين والأساقفة، لمكان كنيسة كانت في الجانب الغربي منه معظمة عندهم، وأن تنزل في قصر الزهراء، غربي مدينة قُرْطَبَة والزهراء، هذه هي التي بناها الناصر لدين الله، وأمعن في بنائها، وجلب إليها الرخام الملون، والمرمر الصافي، والحوض المشهور... إلخ ذلك لِتَلد الأذفونشة، بين طيب نسيم الزهراء، وفضيلة الكنيسة من الجامع المذكور، وكان صاحب هذه السفارة يهودياً، هو وزير الأذفونش، فأبى ابن عباد إجابة التماسه، فراجعه وألحَّ عليه حتى أبأسه بما غلظ له من القول، فضربه المعتمد بحجرة كانت بين يديه، فأنزل دماغه في حلقه، وأمر به فُصِّل منكوساً بقُرْطَبَة، واستفتى في جواز الفِعلَة الفقهاء، فبادر محمَّد بن الطلاع الفقيه، بالفتيا بجواز ذلك، لتعدّي الرسول حدود الرسالة، واحتجَّ بأنه إنَّما بادر بذلك خوفاً من أن يكسل المعتمد عن مُنابذة العدو. وبلغ الخبر الأذفونش، فأقسم بالله ليفزونه بإشيلية، وليحصرنه في عقر داره، وجرّد له جيشين، أحدهما زحف إلى كورة باجة، فلبّته، فأشيلية، والثاني تولّى قيادته بنفسه، حتى التقى الجيشان تحت لوائه قبالة قصر ابن عباد، على ضفة النهر الأعظم. وفي أيام مقامه هناك كتب إلى ابن عباد زارياً: «كتر بطول مقامي في مجلسي الذباب، واشتدَّ عليَّ الحرّ فاتحني من قصرك بمروحة أرواح بها على نفسي، وأطرد بها الذباب عن وجهي»، فوَقَّع له ابن عباد بخطه في ظهر الرقعة: «قرأت كتابك، وفهمت خيلاءك وإعجابك، وسانظر لك في مراوح الجلود اللمطية<sup>(١)</sup>، تروّح منك لا تروّح عليك إن شاء الله تعالى». وشاع توقيع ابن عباد، وفشا في الناس عزمه على استنغار البربر لمجاهدة العدو، فلما علم بذلك أقرانه ملوك الطوائف، اهتموا وتشاوروا للأمر، ومنهم من كاتبه، ومنهم من شافهه، قائلين إنَّ الملك عقيم، والسيقان، لا يجتمعان في غمد واحد، فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة «رَعِي الجِمال خَيْرٌ من رعي الخنازير»، أي أن يكون مأكولاً ليوسف ابن تاشفين، يرعى جماله في الصحراء، خيرٌ من كونه ممزقاً للأذفونش، أسيراً عنده، يرعى خنازيره في قنثالة، وقال لِمُدَّاله قولاً آخر: «يا قوم إنني من أمري على حالين: حالة يقين، وحالة شك، ولا بد لي من إحداهما، أما حالة الشك، فإني إن استندتُ إلى الأذفونش، أو إلى ابن تاشفين، فمن الممكن أن يفني لي ويمكن أن لا يفعل. وأما حالة اليقين فإني إن استندتُ إلى ابن تاشفين أرضي الله، وإن استندتُ إلى الأذفونش، أسخطتُ الله وهذه حالة يقين فلماذا أدع ما يُرضي الله إلى ما يُسخطه».

(١) اللمطية: نسبة إلى لمطة: وهي أرض لقيطة بالبربر ينسب إليها الدرّاق لأنهم ينعمون بالجلود في الحليب سنة يتعلمونها فينبو عنها السيف القاطع.

ولمّا عزم المعتمد على الاستجاشة، أمر كلاً من المتوكل بن الأفلح، صاحب بَطْلَيْوس، وعبد الله بن حَبّوس صاحب غَرْنَاطَة أن يوفدا قاضي الجماعة بحضرته، واستحضر قاضي الجماعة بقرطبة، أبا بكر عبيد الله بن أدهم، وكان أعقل أهل زمانه فلمّا اجتمع عنده القضاة بإشبيلية، أضاف إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون، وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ ابن تاشفين، وترغيبه في الجهاد، وأسند إلى وزيره ابن زيدون ما لا بدّ منه في تلك السفارة من إبرام العقود السلطانية، (وقد وفى يوسف بالأولى ولم يف بالثانية).

### - دعوة ابن تاشفين، واستجابته لداعي الجهاد

وكان ابن تاشفين منذ اعتراء الضعف دول الأندلس، لم تزلْ تَقْد عليه وفود المسلمين من وراء البحر، مستعطفين مُجهشين بالبكاء، فما وفدت رُسُل ابن عبّاد، حتّى أسرع الإجابة، وحشد العساكر، وأنزلها بالجزيرة الخضراء، وأجاز على أثرها وامتلاّت الجزيرة بالمجاهدين والمتطوّعة، وعلى رواية ابن خَلْكان، أنه أمر بعبور الجمال فعبّر منها ما أغصّ الجزيرة وارتفع رُغَاوها<sup>(١)</sup> إلى عنان السماء، ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جَمَلًا قطّ، ولا خيلهم، فصارت الخيل تجمع من رؤية الجمال، ومن رُغَاها، وكان ليوسف في عبور الجمال رأي مصيب فكان يُحدِق<sup>(٢)</sup> بها عسكريه عند الحرب، وكانت خيل الفرّج تجمع منها.

ولمّا نزل يوسف بحشوده في الجزيرة، وبلغ الأذفونش تألّب أمراء المسلمين لمناهذته<sup>(٣)</sup>، استنفر جميع أهل بلاده وما يليها، وما وراءها، ورفع القسيسون والأساقفة صلبانهم، واجتمع له من الإفرنجية والجلالقة ما لا يُحصى عدده، وبعث الأذفونش إلى ابن عبّاد "إنّ صاحبكم يوسف تجسّم المشقّة وخاض البحار، وأنا أكفيه العناء، في ما بقي وألقاكم في بلادكم رفقًا بكم" وكان مقصده في الدلوف إلى ديار المسلمين، أنه إن دارت عليه الدائرة، كان له من ورائه من معاقله ومدائنه معتصم، وإن كانت عليهم كان أقدر على النكاية فيهم في عقرتهم<sup>(٤)</sup>. ومّا قيل إنّه كتب إلى يوسف كتاباً أنشأه له بعض غواة المسلمين، ويغلظ له في القول، ويتوعّده، فأمر ابن تاشفين - ولم يكن أعلم جالعبية من الأذفونش - كاتبه أبا بكر بن القصيرة، أن يجاوبه، وكان كاتباً مُجيداً، فكتب وأجاد، فلمّا قرأه يوسف استطاله،

(١) صوتّه.

(٢) يُحيط بها.

(٣) ناهذه في الحرب: ناهضه وخاصمه.

(٤) وَسَط دارهم.

وأخذ كتاب الأذفونش وكتب على ظهره "الذي يكون ستراه"، وأخذ المعتمد وأمراء الأندلس يجلبون جيوش المرابطين الأقوات والضيافات.

ولمَّا قرب أمير المسلمين من إشبيلية، خرج ابن عبَّاد للقاءه في وجوه أصحابه، وعندما تلاقيا تصافحا وتعانقا، ثمَّ شكرا أنعم الله، وتواصيا بالصبر والرحمة، وتوسَّلا إلى الله أن يجعل سعيهما خالصًا لوجهه. ووافت الجيوش كلَّها بظليوس وجاءهم الخبر بزحف الطاغية، ولمَّا تدانى الفريقان، أذكى المعتمد عيونه في محالَّات الصحراويين، خوفًا عليهم من المكاييد لجهلهم المكان، وكان يوسف قد كتب إلى الأذفونش، يدعوه إلى إحدى الثلاث وهي، الإسلام أو الجزية أو السيف، كما هي السنة، فامتلاً الأذفونش غيظًا، وقامت الأساقفة ورفعوا صلبانهم وتبايعوا على الموت، وقام الفقهاء من الجهة المقابلة، ووعظوا وحضُّوا على الصبر والثبات، وصدعوا بقوارع الكتاب<sup>(١)</sup>، وأصبح يوم الخميس، فبعث الأذفونش إلى ابن عبَّاد يقول له: "غداً يوم الجمعة وهو عيدكم والأحد عيدنا فليكن لقائنا بينهما وهو يوم السبت" فأعلم ابن عبَّاد السلطان يوسف بذلك، وإنَّها خديعة ليفتك بالمسلمين الجمعة، فانتبه الجيش الإسلامي، طول ليلة الجمعة، واستيقظ الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رميلة القرطبي، فَرِحًا مسرورًا يقول: إنَّه رأى النبي (ﷺ) تلك الليلة في النوم فبشَّره بالفتح والشهادة، فتأهَّب ودعا وتضرَّع، ودهن رأسه بالطيب، وانتهى ذلك إلى ابن عبَّاد، فبعث إلى يوسف يخبره.

### - واقعة الزلافة الشهيرة -

وجاء في الليل فارسان من طلَّاع المعتمد، يُخبران أنَّهما أشرفا على محلَّة الأذفونش، وسمعا ضوضاء الجيوش وصليل الأستة<sup>(٢)</sup>، وجاءت العيون من داخل محلَّتهم، يقولون قد استرقنا السمع فسمعنا الطاغية يقول لأصحابه "ابن عبَّاد مُسعرٌ هذه الحروب، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا ذوي حفاظ وبصائر في الحرب، فهم جاهلون البلاد، فاقصدوا ابن عبَّاد واصدقوه الحملة، فإن انكشف لكم هان عليكم الصحراويون" فأرسل ابن عبَّاد يعرف أمير المسلمين. وقبل ورود الجواب غشيته<sup>(٣)</sup> جنود الأذفونش من كلِّ جهة، وهاجت

(١) ما جاء فيه من عهد شديد.

(٢) الرَّماح، مفرداها سِنان.

(٣) بمعنى أغمته.

الحرب، وحمي الوطيس، وتبايع الناس على الموت، وصبر المعتمد صبراً لم يُعهد مثله لأحد، واستبطأ يوسف في النجدة، وانكشف بعض أصحابه وأُخِنَ جراحات، وعُقرت تحتة ثلاثة أفراس. وبينما هو على تلك الحال، أقبل عليه من قواد المرابطين داود بن عائشة، وكان من الأبطال فنفس عن خناقه<sup>(١)</sup>، وأقبل يوسف بجموعه، وأصوات طبوله قد ملأت الفضاء، فنهد<sup>(٢)</sup> إليه الأذفونش، بمعظم جيشه، فصدهم ابن تاشفين بجنده، فردهم إلى مراكزهم، وانتظم بيوسف شمل ابن عبّاد، وحملوا جميعاً حملة الرجل الواحد، فتزلزلت الأرض بحوافر خيلهم، وأظلم الجو من العُثِير<sup>(٣)</sup>، وتراجع المنكشفون من أصحاب ابن عبّاد، وتجددت الحملة فانكشف الأذفونش، وقيل، بل تصادم الجَمعان وتناوبا الكَرَّ والفَرَّ، إلى أن أمر يوسف حَكَمَهُ من السودان، فترجل منهم نحو أربعة آلاف بدرق<sup>(٤)</sup> اللمط، وسيوف الهند ومزاريق<sup>(٥)</sup> الزان، وأدرك الأذفونش أسود لصق به، وقبض على عنانه، وانتضى خنجراً أثبت في فخذه، فهتك حلق درعه، وهبّت ريح النصر، وأنزل الله السكينة على المسلمين، وانكشف العدو من كلّ جانب وقد فشا فيه القتل والأسر، واعتصم الأذفونش بخمسائة فارس من قومه برّوة عالية، انسابوا منها بعد تخميم الظلام، وقد أباد القتل من الإيبانيول أمة، وجعل المسلمون من رؤسهم مآذن يؤذنون عليها، واستشهد في ذلك اليوم ابن رميلة كما بشره النبي (ﷺ)، وقاضي مراكش أبو مروان عبد الملك المصمودي وغيرهما من الأعيان.

وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام، حتى جمعت الغنائم، فتعفّف عنها أمير المسلمين إيثاراً لأهل الأندلس، وعادوا جميعاً إلى إشبيلية، وحضرت الكتب من برّ العدو إلى ابن تاشفين، تقتضي عزمه بالرجوع، فعبر البحر وودّعه المعتمد. وهذه وقعة الزلاّقة الشهيرة، من أشهر ما حملته التواريخ من الوقائع بين الإسلام والنصرانية، وقد استوفينا خبرها بمكانها من صدور الحوادث، ووجدنا اختلافاً في تعيين عامها، فابن خلدون يقول سنة إحدى وثمانين (بعد الأربعمائة) وابن علقمة يقول إنّ طُلَيْطَلَةَ، أخذت يوم الأربعاء لعشر خلون من المحرم سنة ٤٧٨، وكانت واقعة الزلاّقة التي نشأت في السنة بعدها.

(١) أخرج من صيقه.

(٢) نهدّ نهداً لعدوه: صمد له وشرع في قتاله. ونهد الرجل: شخص.

(٣) العُثِيرُ: التراب: العجاج الساطع. كلّ ما قُلبت من طين أو تراب أو مدر بأصابع رجلك إذا مشيت.

(٤) الدرّاق: مفردهما الدرقة: ترس من جلود ليس فيها خشب ولا عقب.

(٥) مفردهما مزارق: رمح قصير.

## - استيلاء المرابطين على الأندلس ونكبة المعتمد بن عباد

ولمّا قفل ابن تاشفين إلى المغرب. خلف وراءه بالأندلس الأمير سيرى بن أبي بكر أحد قواد الكبار. ومع جيش يرسم الجهاد. وابن خلدون يقول إنّه خلف محمّد المعروف بابن الحاج. فزحفت عساكر المرابطين صوب بلاد العدو، فأتختت وسبت وتوغّلت في البلاد. وكتب إلى يوسف قواده: إن الجيش مقيم على مراس العدو، وهو في أضيق العيش وأنكد. وإن ملوك الطوائف متقاعدون يجرون ذبول الترف والترّف، وقيل، بل كان ابن تاشفين أنكر عليهم تراكم المغارم. وتلاحق المَكُوس<sup>(١)</sup> على رعيتهم، فأمر برفع الكثير منها. فانقبضوا عنه إلا ابن عباد في الأول. فأمر ابن تاشفين بنقلهم إلى برّ العدو، وقتال من عصي منهم. فابتدأ ببني هود. وأنزلهم من قلاعهم واستولى مكانهم، وقتل ابن ذي النون صاحب بلنسية وملكها. ونازل بني ظاهر بشرق الأندلس، فأجلاهم وألحقهم بالمغرب، وقصد بطليوس وفيها ابن الأفطس. فانتزع منه جميع أعماله، وأخذ غرناطة من يد عبد الله ابن بلكين بن باديس، ومالقة، من يد أخيه تميم، ولم يبقَ عليه إلا المعتمد بن عباد في إشبيلية وكان الفقهاء قد أفتوا أمير المسلمين بخلع الجميع، لما رأوا من فرقهم وسوء أحوالهم من تشعب أمور الملة وتكالب العدو، ووردت الفتاوى على يوسف من أعلام الشرق، مثل الإمام الغزالي، والطرطوشي بوجوب ذلك.

وكان ابن تاشفين لما ورد على المعتمد، حضرته إشبيلية بعد الزلافة، ورأى ما رأى من ترف المعتمد، وسرفه في قصوره، واسترساله إلى حظوظ نفسه، مما كانت ترغب عنه نفس ابن تاشفين الناشئ في الصحراء، أنكر ذلك الأمر وقال: "إنّ هذا الرجل مضى لما بيده" وحكم بأن توقر هذه الأموال بين يديه لا بدّ أن يكون نتيجة المظالم والمغارم. والظلم، وزيادة الرسوم عين الخراب على الرعيّة، فأرسل سيرى قائده، يطالبه بالطاعة فلم يجبه فنزله، وحصر إشبيلية واستجاش المعتمد بالطاغية فلم ينفعه، لمّا كان المرابطون قد فلوا من غربه<sup>(٢)</sup>، فدافع المعتمد عند دخول المرابطين بلده دفاعاً مشهوراً، وخرج حاسراً عن مفاضته<sup>(٣)</sup> والسيف في يده، فرماه أحد الداخلين برمح فأخطاه، فبادره بضربة أزهق بها روحه، ولقي ثانياً فقسمه شطرين، إلى أن وجد ابنه مالكا مقتولا، ويش من الثبات، فطلب

(١) الضراب.

(٢) المنفوه.

(٣) متخلّياً عن درعيه.

الأمان، فأجيب إليه، وحُمل على السفين منفيًا إلى برّ العُدوة، فأسكنه يوسف أغمات وبها مات سنة ٤٠٧ ومن قوله عندما خُلع:

مُلْكِي وتسلمني الجموعُ	إِنْ يَسْلُبِ القومُ الغدى
لا تسلم القلبِ الضلوعُ	فالقلبُ بينَ ضلوعِهِ
أَنْ لا تُحصَنني الدروعُ	قد رُمْتُ يومَ نزالِهِم
ص على الحشى شيءٌ دفوعُ	وبرزتُ ليس سوى القمى
يهواهُ ذلّي والخضوعُ	أجلّي تأخَّرَ لَمْ يكنْ
وكان من أملِي الرجوعُ	ما سرتُ قطُّ إلى القتالِ
والأصلُ تتبعهُ الفروعُ	شيمَ الألى أنا مِنْهُم

والمعتمد بن عبّاد ينتمى إلى المنذر بن ماء السماء اللخمي، وفي ذلك يقول أحد الشعراء:

زادَ في فخرِهِم بنو عبّادِ	من بني منذرٍ وذاك انتسابُ
والمعالي قليلةُ الأولادِ	فتية لم تلدُ سواها المعالي <sup>(١)</sup>

ولم تعرّفنا كتب الأدب العربي بيت قبيل فيه من الشعر، ودار على أيام أنسه ثم أدوار نحسه من المحاضرات، مثل هذا البيت اللخمي، ولا بدولة راجت فيها بضاعة الأدب والفصاحة، وتناهت إليها غايات الكرم والسماحة، أكثر من دولة بني عبّاد؛ حتّى قال ابن اللبّانة، إنّ الدولة العبّادية بالأندلس، أشبه شيء بالدولة العبّاسية ببغداد سعة مكارم، وجمع فضائل، ولذلك ألف فيها كتابًا مستقلًّا سمّاه "الاعتماد في أخبار بني عبّاد"، ولا يلتفت لكلب عقور نبح بقوله:

ألقابُ مُعتمدٍ فيها ومُعترضِ	مما يُزهدني في أرضِ أندلسِ
كالهَرِّ يحكي انتفاخًا صورة الأسدِ	أسماءُ مملكةٍ في غير موضعها

لأنّ هذه مقالة متعسّف، كافرٍ للنعم، ومثل ذلك في حقهم لا يقدر، وما زالت الأشراف تُهجى وتُمدح انتهى.

(١) وإلى هذه الشجرة أيضًا يتسبب محرّر هذا الكتاب ومن بني لحم أنوامٌ كثيرون في الغرب والشرق ولا سيّما بصعيد مصر.

وأخبار المعتمد، وأشعاره وأمداح الشعراء فيه، وفريدات القصائد في مرثيته، ملء كتب المحاضرات، وهي غررُ قصص المسامرات.

غزا يوسف بن تاشفين الأندلس أربع مرّات آخرهنّ سنة ٣٩٧، وانتظمت جميع ديار الإسلام فيها بملكه، وانقرضت ملوك الطوائف.

وأتسع سلطانه بالعدوّتين، وورد له التقليد من الخليفة المستنصر العباسي، وتوقّي على رأس المائة الخامسة. وقام بالأمر بعده ابنه علي بن يوسف، وسلك سنن أبيه في الغزو والجهاد، وأجاز إلى الأندلس سنة ثلاث، ونازل طليطلة، وأتخّن في ديار العدو، وعقد لولده تاشفين على غرب الأندلس، وأجاز معه الزبير بن عمر في جيش، وعقد لأبي بكر بن ابراهيم المسوقي على شرق الأندلس، وهو ممدوح ابن خفاجة، أرقّ شعراء الأندلس شعراء، ومخدوم الحكيم المعروف بأبن الصائغ.

### - ظهور الموحّدين -

وؤلّي ابن غانية، الجزائر الشرقية ميورقة ودانية، ولأربع عشرة سنة من ملكه ظهر المهدي بن تومرت، القائم بدعوة الموحّدين، أمرًا بالمعروف ناهيًا عن المنكر، والتفت عليه المصادمة وتوقّي سنة ٢٤. وقام بالأمر بعده عبد المؤمن بن علي، كبير أصحابه، وانتسبت الدولة إليه، فقيل دولة بني عبد المؤمن، فلم يزل يسعى في تقويض خيام لمتونة، ومحو آثار المرابطين، حتّى ملك أكثر المغرب منهم. وكان علي بن يوسف، قد مات وخلفه ابنه تاشفين، فصمد إلى الموحّدين بكهف الصّحّاك، بين الصخرتين من جبل تيطري، فانهمزمت صنهاجة وفرّ تاشفين إلى وهران، لاجئًا بلبّ ابن ميمون، قائد البحر، ومات سنة ٤١ وبويع في حضرتهم مراكش لابنه ابراهيم، وكان ضعيفًا عن حمل الأمر، فأدبيل منه لعمّه اسحق بن علي بن يوسف. وعلى تفيثة ذلك<sup>(١)</sup> نازل الموحّدون مراكش وملكوها، وقطعوا دابر المرابطين، وانعطفوا نحو الأندلس سنة ٥٥١، فانتزعوها من أيدي عمّالهم: مدينةً مدينةً، وحصنًا حصنًا، بعد حروبٍ تساجلت بها فئة المرابطين والموحّدين، وانتهت بالفتح لهؤلاء. وطلب الثّوار الأمان من عبد المؤمن وتلاحقوا به، فصفح عنهم، ونهض إلى سلا سنة ٤٥، واستدعى أهل الأندلس، فبايعوه جميعًا، وكان ميمون بن بدر اللمتوني في غرناطة،

(١) وفي ظلّ ذلك لو: بسبب ذلك (مطلقًا).

فنزّل عنها له ولحقِّ براكش، ونازل السيّد أبو سعيد بن عبد المؤمن المرّيّة - وكانت يومئذٍ في يد الإسبانيول - فاستنزلهم منها، وتولّى ابنه الآخر، السيّد أبو يعقوب إشبيلية، بطلب أشياخها، وزحف صاحب طليطلة الإسبانيولي، بجميع الأكتفاء لها إلى قرطبة، فسرح جيوش الموحدّين إلى مقابلته فارتحل عنها.

وكان الأمير أبو عبد الله محمّد بن سعد المعروف بأبن مردنيش، قد ثار عليه بشرق الأندلس، فكتب إلى عمّاله بالأندلس بما يتيسّر له من فتح أفريقية، وأنه عابر إليهم، وكان ولده أبو سعيد وأبو يعقوب في الحضرة زائرين، فانتهاز الفرصة ابن همّشك، من أشياخ المتونيين، واستولى على غرناطة، وانحصر من فيها من الموحدّين بالقصبة، فنهض عبد المؤمن إلى سلا، وأرسل ابنه سعيداً، وضمّ إليه ابن أبي حفص عامل إشبيلية من قبله، لأجل استتقاد غرناطة، فهزمها ابن همّشك، ورجع أبو سعيد إلى مالقة فأعادهما إلى غرناطة، وعزّزهما بثالث، هو ابنه الآخر السيّد أبو يعقوب في سواد<sup>(١)</sup> من الموحدّين، فوصلوا إلى غرناطة وقد وافاها ابن مردنيش مدداً لابن همّشك، وظهرهما النصراري، فازدلف<sup>(٢)</sup> الفريقان بعضهم إلى بعض بفحص غرناطة، فدارت الدائرة على ابن همّشك وأحلافه، ففرّ ابن مردنيش إلى الشرق مكانه، ولحق ابن همّشك بجيآن، ودخل السيّدان ولدا عبد المؤمن قرطبة.

وسنة ٥٨٥، توفي عبد المؤمن بن علي رأس الموحدّين، وقام بالأمر بعده ولده أبو يعقوب وبايعوه كافة، وفي أيامه قصد الحاج ابن مردنيش قرطبة، ومعه جموع من زغبة وغيرها، فأرسل السيّد أبا سعيد صاحب غرناطة والسيّد أبا حفص أخاه في عساكر الموحدّين لمنازلته، فالتقوا بفحص مرسية، فانهزم ابن مردنيش وأولياؤه من الإسبانيول، وأقرّ أبو يعقوب أخاه أبا سعيد على غرناطة، وجعل أخاه السيّد أبا اسحق على قرطبة، وزحف الإسبانيول على مدن المسلمين، فخرج أبو حفص من مراكش سنة ٦٥، ومعه جموع الموحدّين، وأخوه أبو سعيد، فوصل إلى إشبيلية، وأرسل أخاه أبا سعيد إلى بطليوس، وكان موحدوها قد دفعوا العدو فانعقد الصلح مع الإسبانيول، ونهض الموحدّون إلى مرسية لتأديب ابن مردنيش الثائر، ورافقهم ابن همّشك، حليفه بالأمس،

(١) جماعة.

(٢) انزب.

لوحشة وقعت بينهما حملت هذا على أن يبعث إلى أبي حفص بطاعته وتوحيده، فحوصر ابن مردنیش في مرسية، وأطاع أهل لورقة، وخضع ابن عمه صاحب المرية، فحصر<sup>(١)</sup> ذلك جناحه، وتوافت عند الخليفة بمرآكش جموع العرب فهض بها إلى الأندلس، واحتل قرطبة سنة ٥٧، ثم إشبيلية، وكان ابن مردنیش، قد هلك أثناء الحصار، فأذعن أولاده للخليفة وقربهم إليه، وصهر لهلال بن محمد بن مردنیش في ابنته، وأقر أخاه أبا سعيد على غرناطة، وخرج القومس الأحذب بجموع الإشبانيول، فنهذ إليهم، وأوقع بهم في قلعة رباح، ورجع إلى إشبيلية فانتقض العدو ثانية، فكرّ عليه، وتوغّل في بلاده، وفرّق جموعه، وقفل إلى الحضرة عام ٧١، لخمس سنين من إجازته إلى الأندلس، وتوفي السيد أبو سعيد أخوه بالطاعون، فعقد لأبي يزيد بن أبي حفص على غرناطة، ولأخيه أبي محمد عبد الله على مالقة. وسنة ٧٥، عقد لقائم بن محمد بن مردنیش الأسطول، وأغراه أشبونه، فغنم، ورجع، وانتقض الإشبانيول ثالثة، ونازلوا قرطبة، وشتوا الغارات على جهات غرناطة ومالقة، وصدّمهم الموحدون من الأندلس وعليهم السيد أبو اسحق أخو الخليفة، فكفّوهم، وأجاز الخليفة ثانية للجهاد ومعه حشود العرب، وذلك سنة ٨٠، فغزا ستمرين، وأثناء حصارها أو منصرفه عنها توفي، قيل من سهم أصابه من جهة العدو، وقيل من مرض فجائي، فخلفه ابنه يعقوب، فلم يزل في الجهاد، وأتخن في العدو، وأجاز إلى مراكش.

## - وقعة الأراك -

وبعد مدة، بلغه خروج العدو وإيقاعه بالمسلمين وتغلبه على شلب، فاعمل في النفير، وزحف إلى قصر مصودة، ومنها أجاز إلى طريف، وحصر شلب وطروش، وغيرهما من الحصون، فافتتحها، ودانت له البلاد، فقفل إلى المغرب، خصوصًا لما بلغه من ثورة ابن غانية، الذي كان واليًا في ميورقة، لم تكد قدمه تستقر هناك حتى بلغه من أمر الأندلس، وكرة العدو ما أقصّ مضجعه، فاستأنف الإجازة سنة ٩١. وتلاحقت به حشود الموحدين من كل جهة، فنزل بالأرك من نواحي بطليوس، وقصدته الإشبانيول وعليهم ابن الأذفونش، وملكان آخران، في جيوش وافرة، فكانت واقعة الأرك التي هي أخت واقعة الزلافة، وقيل أجل منها قدرًا، يُروى أنه قُتل فيها من الإفريخ ثلاثون ألفًا، وحصل في بيت المال من الدروع ستون ألفًا، ونجا فل<sup>(١)</sup> الإفريخ وهم خمسة آلاف، فاعتصموا بحصن الأرك، فحصرهم واستنزلهم وفدى بهم عددهم من المسلمين.

(١) المنهزمون منهم.

وفي السنة التالية، خرج إلى الجهاد أيضًا، فافتح عدّة حصون، وتوغّل حتى أشرف على طُلَيْطَلَة، فاكسح بسائطها، وغنمَ وسبى، وأبعد النكاية في العدو، وقفل إلى إشبيلية، وهناك اعتقل القاضي أبا الوليد بن رشد، طائر الصيت في الأصقاع الأوربية، والمنسوب إليه مذهب الإشراق في الفلسفة، والذي آلف عليه وبأسمه الفيلسوف رنان الفرنسي كتابًا مستقلًا، وذلك لمقالات رُفِعَت إلى السلطان يعقوب المذكور يُستدلّ بها على رقة دينه وسلاسة اعتقاده.

وعمام ٩٣، عاود الجهاد وأتخن في ديار طُلَيْطَلَة، وأعبت بالإفرنج الحيلة فهادنوه، وخطبوا علمه، فأجابهم لذلك، لما كان بلغه من ثورة ابن غانية وقراقوش مملوك بني أيوب، وأجاز إلى الحضرة وتوفّي، وذلك ٥٩٥.

### - السلطان يعقوب بن المنصور وخلقاه

وهذا السلطان يعقوب المنصور، هو الذي استجاش به صلاح الدين يوسف ابن أيوب<sup>(١)</sup> ليمنع بأساطيلهُ وروود الإفرنج على الشام، وأرسل إليه في هذه المهمة ابن مُنقذ، وأصحبه بهديّة، فقبل أنّه ردّه لتجافي سلطانه عن خطابه بلقب أمير المؤمنين، وتقصيره من حقوقه. وقبل، بل جهّز له بعد ذلك أسطولاً عظيماً، وقطع طريق البحر على الإفرنج، وهو السلطان الذي يُروى أنه زهد في آخر حياته، وترك المُلْك وساح في الأرض، حتى وصل إلى الشام، ومات ودُفِنَ في البقاع، والآن في الشرقي قرية اسمها السلطان يعقوب، وأنفق المحقّقون على أنّ هذه الحكاية لا أصل لها، وجزم بيطلانها الشريف الغرناطي، وقال إنّها من أوضاع العامة لولوعهم بالسلطان المذكور.

### - وقعة العقاب

وتولّى الأمر بعد المنصور ابنه محمّد ولُقّب بالناصر، وفي أيامه خرج الأذفونش، وعثا في بلاد الإسلام؛ فجمع الناصر جمعاً لا قِبَل بها، لأجل الجهاد، قيلَ نحو ستمائة ألف مقاتل، والتقى بالإفرنج فيهم ابن أذفونش وصاحب برشلونة، فكانت الوقعة المُسمّاة بالعقاب التي لم يُقَمْ بعدها للمسلمين في تلك البلاد قائمة تُحمد، وهلك فيها أكثر المجاهدين وبالغ بعض المؤرّخين فقيلاً، لم ينجُ منهم غير الألف، وهو بعيد عن التصديق، وكان

(١) صلاح الدين يوسف بن أيوب هو صلاح الدين الأيوبي.

وقوعها في أواخر صفر سنة ٦٠٩. وقد روى ابن خلدون هذه الواقعة فلم يبالغ في مصيبتها ما بالغه غيره، وزعم أن الإفريخ بعد الكائنة، أغاروا على بلاد المسلمين فلقبهم السيد أبو زكريا بن أبي حفص بن عبد المؤمن قريبا من إشبيلية فهزمهم، وانتعش الإسلام.

وتوفي الناصر وخلفه ابنه يوسف ولقب بالمستنصر، وكان حديث السن، فانصرف عن تدبير الأمور إلى العبت واللهو، وفي أيامه تولى أبو محمد العادل عم المستنصر مرسية بدل غرناطة.

وتوفي المستنصر، فبويع عبد الواحد أخو المنصور، ولم يكن يحسن التدبير، فانتزى عليه العادل المذكور، وبإيعه إخوته الذين كانوا على مدن الأندلس، وتم له الأمر، ولكن زحفت إليه الإفريخ، وأطلقوا الغارة في البلاد، فتصاف معهم فانهزم، وأصيب المسلمون فأجاز إلى المغرب، وخلف على الأندلس أخاه أبا العلاء إدريس.

ثم خُتق العادل بمراكش. وبويع يحيى بن الناصر وهو صغير، فادعى الخلافة السيد أبو العلاء المذكور، وبويع بالأندلس ثم في المغرب، لكن انتقض عليه المتوكل محمد بن يوسف الجذامي، ودعا لبني العباس، فمال إليه أهل الأندلس وأجاز أبو العلاء إلى المغرب، ينازع يحيى بن الناصر، وتعاطمت الفتنة بينهما، واستبد ابن هود بما وراء البحر، ودخل الوهن<sup>(١)</sup> دولة الموحدين.

ومات أبو العلاء، وكان يُلقب بالمامون سنة ٦٣٠. وتولى بعده ابنه الرشيد، وفي مدته ظهر ابن الأحمر صاحب غرناطة. وأرسل إليه بالبيعة وتوفي سنة ٤٠. وقام بالأمر أخوه السعيد، فقتله بنو عبد الواد بقرب تلمسان عام ٤٦.

### - دولة بني مرين -

وفي أيام الرشيد والسعيد خرج بنو مرين من بني واسين من زناته، واغصوص<sup>(٢)</sup> حولهم البربر، واجتمع العرب على بيعة عمر بن ابراهيم بن يوسف ابن عبد المؤمن ولقبوه بالمرتضي، ولم تمض مدة من خلافته، حتى انتقض عليه ابن عمه السيد أبو العلى ابن السيد أبي عبد الله محمد ابن السيد أبي حفص بن عبد المؤمن، لخلاف تمكن بينهما. وصحبه ابن

(١) الضيف.

(٢) اجتمع وآزر والتأ.

عمه السيد أبو موسى عمران، ولحقا يعقوب بن عبد الحق المريني، الناصر على دولتهم، وما زال النزاع قائماً حتى غلب أبو العلى المذكور - وكان يكتنّى بأبي دبوس - على مراکش. ووقع المرتضي في يده فعفا عنه أولاً ثم قتله، واستقلّ بالأمر وتلقّب بالوائق، ونهض إليه يعقوب ابن عبد الحق، ببني مَرين وحزبهم، فخرج أبو دبوس من مراکش لدفاعه<sup>(١)</sup>، فاصطلت الحرب في وادي أعفر، وانهزم الموحدون وقُتل أبو دبوس، ودخل بنو مَرين مراکش، وانقرض ملك بني عبد المؤمن، وكان ملكاً كبيراً وذلك عام ٦٦٨، والبقاء لله.

أما يعقوب هذا فهو ابن عبد الحق، بن محيو، بن محمّد، بن حمامة بن حمد بن، ورزير، بن فكوس، بن كرامط، بن مَرين من بني واسين. كان جدّه محيو زعيماً لبني مَرين وحضر وقعة الأرك مع الموحدين، وأصابته فيها جراحة توقّي منها، فقام بالرياسة بعده ابنه عبد الحق فوافق ظهوره دخول الضعف على دولة بني عبد المؤمن، فسمت نفسه إلى انتزاع ملكهم، وتأذن الله بنصره في جملة مواطن، إلى أن هلك في إحدى وقائعه معهم. وأمره لمّا يستقم، وخلفه ابنه يحيى، فملك فاس، في خير ليس هنا شرحه، ومهد لأعقابه القواعد، وخلفه أخوه يعقوب المذكور، فدخل مراکش حضرة الموحدين، واستأصلهم ومن هناك استقلّ بالأمر بنو مَرين.

وأما الأندلس، فعندما التاث<sup>(٢)</sup> أمر الموحدين بالمغرب، تمشت فيها رجالات العرب بإخراج السادات الموحدين، واستبدّ بالأمر ابن هود وابن مردنيش، وخرج على ابن هود رجل يقال له محمّد بن يوسف من بني نصر، ويُعرف بأبن الأحمر فجاذبه الجبل، وكانت لكلّ منهما دولة أورثها أعقابه، ولكن آل الأمر أخيراً إلى انحصار تراث الإسلام بالأندلس في ذرية ابن الأحمر على ما سيأتي.

(١) لصدّه.

(٢) وزنّ في توارث وتداول.

## في دولة بني الأحمر أصحاب غرناطة

قال ابن سعيد: "الضابط في ما يقال، في شأن أهل الأندلس في السلطان، أنهم إذا وجدوا فارساً يبيع الفرسان، أو جواداً يبيع الأجواد، تهاوتوا في نُصرتِه، ونصبوه ملكاً من غير تدبير في عاقبة الأمر إلى يوم يؤول. وبعد أن يكون الملك في مملكة قد تورثت وتدولت<sup>(١)</sup>، يكون في تلك المملكة قائد من قوادها، قد سُهرت عنه وقائع في العدو، وظهر منه كرم نفس للأجناد، ومراعاة، قَدَموه ملكاً في حصن من الحصون، ورفضوا عيالهم وأولادهم، إن كان لهم ذلك بكرسي الملك، ولم يزالوا في جهاد وتلاف أنفس، حتى يظفر صاحبهم بطلّبه، وأهل المشرق أصوب رأياً منهم في مراعاة نظام الملك، والمحافظة على نصابه، لئلا يدخل الخلل الذي يقضي باختلال القواعد وفساد التربية وحلّ الأوضاع".

"ونحن نمثل في ذلك بما شاهدناه لما كانت هذه الفتنة الأخيرة بالأندلس، تمخّضت عن رجل من حُصن يقال له "أزجونة"، ويُعرف الرجل بأبن الأحمر، كان يكثر مغاورة<sup>(٢)</sup> العدو من حِصْنِه، وظهرت له مخايل وشواهد على الشجاعة، إلى أن طار اسمه في الأندلس، آل ذلك إلى أن قدّمه أهل حِصْنِه على أنفسهم، ثمّ نهض فملك قُرْبَة العظمى، وملك إشبيلية، وقتل ملكها الباجي، وملك جِيان أحصن بلد الأندلس، وأجلّه قدرًا في الإمتناع، وملك غرناطة، ومالقة، وسمّوه بأمر المسلمين فهو الآن المشار إليه بالأندلس والمعتمد عليه".

"أزجونة" حِصن من حصون قُرْبَة، كان فيه قوم يُعرفون ببني نصر، ينتسبون إلى سعد بن عبادة، سيّد الخزرج رضي الله عنهم، وكان عميدهم لآخر دولة بني عبد المؤمن، محمّد بن يوسف بن نصر، ويكنى بأبي دبوس، ويقال له الشيخ، وغلب عليه لقب ابن الأحمر، وكان له أخ اسمه اسماعيل، وكانت لهم وجهة وكلمة عالية في تلك الجهة، فما زال يتقدّم من حالة إلى حالة حتى أحسّ من نفسه الكفاءة للاستقلال، فثار على ابن هود

(١) وزنٌ في تورث وتداول.

(٢) يكثر من الغارات عليهم.

سنة ٦٢٩، وأطاعته جِيَان وِشْرِيش، واستفحل أمره، ثمَّ أصره<sup>(١)</sup> إلى الروساء بني أشقيلولة، فتعزَّز بهم، ثمَّ لمَّا خرج ابن هود من إشبيلية إلى مرسية، ثار بإشبيلية أبو مروان الباجي، فداخله محمَّد بن الأحمر، على أن يزوجه ابنته فأطاعه، ودخل ابن الأحمر إشبيلية، فلمَّا تمكَّن فتكَّ بأبن الباجي واستولى مكانه، غير أنَّ أهل إشبيلية، رجعوا إلى طاعة ابن هود وأخرجوه منها، فتغلَّب على غرناطة، إذ كان فيها ابن أبي خالد، الذي ثار بدعوته وأرسل إليه يبيعه، فقدم عليها أولاً ابن أشقيلولة، وجاء على أثره فنزلا بها، وابنتى لنزوله حصنَ الحمراء، التي لم يُبنَ مثلها في البلاد، وكان غلبه على غرناطة عام ٦٣٥، وغلب بعدها على مالقة، وبايغها أهل لُورقة، وتناول المرية من يد ابن الرميمي، عامل ابن هود، وأخذ يضمُّ الأطراف، ويكتب الكتاب ويحصن الثغور، ويؤوي المشردين. واتخذ لقب الغالب بالله، وضرب على سكته وكتب على رايته «لا غالب إلا الله» وصار ذلك علماً لدولته فيما بعد.

### - بدء تقلص ظل الإسلام عن الأندلس

وفي ذلك الدهر، وهو القرن السابع للهجرة، كان الإسلام أخذ يتقلص ظلّه عن الأندلس، وأصبح المغرب بما أدرك أموره من الاختلال، وما أصاب أهله من اليأس من نصرة أندلس، خصوصاً بعد وقعة العقاب، عاجزاً عن إمدادها بالبعوث الوفيرة التي كانت تجتمع تحت رايات المرابطين والموحدين، هاتيك الدول الكبار. فتقدّم الإسبانيول من كلّ جهة، وملكوا القواعد مثل طليطلة وقرطبة وبلنسية وإشبيلية وجيآن وغيرها، وصاروا يقطعون كلّ يوم كورة، ويحذفون من مملكة الإسلام حصناً: إلى أن ألبأوا المسلمين إلى سيف البحر<sup>(٢)</sup>، من رُنْدَة، من الغرب إلى الشرق، نحو عشر مراحل فقط، وتكلّم الناس في ذهاب هذه البقية وقال شاعرهم:

حَتُّو رَوَاحِلِكُمْ<sup>(٥)</sup> يَا أَهْلَ أُنْدَلُسِ  
سِلِّكُ يُنْشَرُّ مِنْ أَطْرَافِهِ وَأَرَى  
فَمَا الْمَقَامُ بِهَا إِلَّا مِنَ الْغَلَطِ  
سِلِّكُ الْجَزِيرَةِ مَشُورًا مِنَ الْوَسَطِ  
مَنْ جَاوَرَ الشَّرَّ لَا يَأْمَنُ عَوَاقِبُهُ  
كَيْفَ الْحَيَاةِ مَعَ الْحَيَاتِ فِي سَفَطِ<sup>(٣)</sup>

(١) أصبح صهرهم؛ زوجه من بناته أو أخواته.

(٢) ساحله.

(٥) حَتُّو الرواحل: حركوا خيولهم ومراكبهم، وأعملوا في السفر.

(٣) السفط: الذي يعنى فيه الطيب وما أشبهه من أدوات النساء قال ابن سيده: كالجوالين أو كالقفّة.

والذي يلحظه القارئ - من كلام ابن خلدون الذي عاش قبل الخروج الأخير بنحو القرن، وكان يشير إلى مآله بمشاهدة مقدماته، وابن الخطيب، الذي من جملة وصيته لأولاده عدم الإكثار من تملك الأرض، واعتقاد العقار في بلد مثل الأندلس، دار قُلعة ومنزل غُربة<sup>(١)</sup> - أن عقلاء المسلمين كانوا مستشعرين هذا الخطب من قبل وقوعه بأزمان، لتكالب الإسبانول على البلاد من كل جهة، وظهور الفرقة بين أمراء الإسلام، وانقطاع مدد المغرب شيئاً فشيئاً، كما سيتضح من مجرى الحوادث.

### - المدجنون

وكان بقية السيف من المسلمين والذين قد غلب على ديارهم العدو، صائرين إلى إحدى ثلاث خصال: إما أن يلبثوا في ديارهم خانعين لسلطانهم، على شروط قررها مع بعضهم في البداية، وقيل لهؤلاء "المدجنون" من التدجين أي التأليف والتأسيس، وإما أن يُجيزوا إلى برّ العدو، فينزّلوا بفاس أو وهران أو تونس حيث شاؤوا، وإما أن ينحاشوا إلى مملكة غرناطة، لكونها أندلسية، ومجاورة لمساقط رؤوسهم، ومنابت أسلهم\*، حيث لم تزل أمالهم بالكرّة منوطة، وعزائمهم على إدراك الأوتار مشدودة، وحبّ الوطن من الإيمان. وقد كان في انحياش<sup>(٢)</sup> المنهزمين إلى أعمال ابن الأحمر، منعة لسلطانهم وشد لأزره وبسطة للملك، فأمكنته الكرّة المنصورة على العدو، والإثخان في بلاده. كما يقول صاحب "نفع الطيب" من أنه لما أخذت القواعد الأندلسية، مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومُرسيّة انحاز أهل الإسلام إلى مالقة وغرناطة والمريّة ونحوها، وملك هذا التزّر، ملوك بني الأحمر، فلم يزلوا في تعب وممارسة مع العدو كما ذكره ابن عاصم قريباً، وربما أتخنوا في العدو كما عُلم من أخبارهم، وانتصروا بملوك فاس في بعض الأحيان، وقال: "لما قصد الملوك الإفريخ السبعة، في المائة الثامنة، غرناطة ليأخذوها، اتفق أهلها على أن يبعثوا لصاحب المغرب من بني مَرين يستجدونه، وعيّنوا للرسالة الشيخ أبا اسحق بن أبي العاصي، والشيخ أبا عبد الله الطنجالي والشيخ ابن الزيّات البلشي، ثمّ بعد سفرهم نازل الإفريخ غرناطة بخمسة وثلاثين ألف فارس، ومائة ألف راجل، ولم يوافقهم سلطان المغرب، فقضى الله ببركة المشايخ الثلاثة أن كسر الإفريخ في الساعة التي كسر فيها خواطرهم سلطان المغرب، وكانت بذلك كرامة لسيدي أبي عبد الله الطنجالي". انتهى

(١) إنّ اقتناء عقار في الأندلس، كإقتناء دار زائلة، لا ندرى متى تتحوّل عنها.

(٢) مجازاً رماحهم.

(٣) انحاش إليه: انحاز إليه.

## - أسباب الضل

وزعم بعض المؤرخين، أن سبب فشل الريح بالأندلس. تقاطع المسلمين من أهلها. وإقبالهم على اللذات، وإهمالهم أمور الجهاد في كثير من الأماكن. حتى يقال إن الإفريخ لما قصدوا بكنسية سنة ٤٥٦، خرج للقائهم أهلها بثياب الزينة. فكانت وقعة "بطرنة" التي قال فيها الشاعر لقومه:

لَبِسُوا الْحَدِيدَ إِلَى الْوَعَى<sup>(١)</sup> وَلَبِسْتُمْ  
حُلَلَ الْحَرِيرِ عَلَيْكُمْ أَلْوَانَا  
مَا كَانَ أَقْبَحَهُمْ وَأَحْسَنَكُمْ بِهَا  
لَوْ لَمْ يَكُنْ بِبَطْرَنَةَ مَا كَانَا

وقالوا إنه لما تغلب العدو على طليطلة. كان من جملة ما غنمه الفريخ من الجيش الذي حاربهم، ألف غفارة نفيسة<sup>(٢)</sup>، خارجاً عما سواها من الحلال. ولما ذكر ابن حيان تغلب العدو على بربرشت القريبة من سرقسطة بالشعر الأعلى سنة ٤٥٦. وما جرى فيها من فظائع القتل والسبي والاستباحة، التي تقطر لها القلوب دماً. وتنبو العيون عن مطالعتها في التواريخ، قال: "قد أشفينا بشرح هذه الحالة الفادحة. مصائب جليلة مؤذنة" بوشك القلعة" وقال: "من جملة تغفل أهل الأندلس أن العدو أطل عليهم بجوس خلال الديار. ويكسح البساط، ويقطع كل يوم طرفاً، ويبيد أمة، والباقون منهم صموت"<sup>(٣)</sup> عن ذكر إخوانهم، لهاة عن بثهم<sup>(٤)</sup>، ما يسمع بمسجد من مساجدهم مذكر لهم أو داع، فضلاً عن نافر إليهم أو ماش". قال: "حتى كأنهم لسوا منا أو كأن بثقهم ليس بمفض إلينا" انتهى.

"بلى والله لقد أفضى بثقهم إلى الجميع" وهذا قول ابن حيان في القرن الخامس، وما مضى على ذلك قرن، حتى أفضى البثق إلى قرطبة وطنه، والله الأمر أجمع. وأخذ الإسبانيول تطيلة، وأختها طرشونة سنة ٥٢٤. ومكثهم المسلمون أنفسهم بسبب اختلاف ملوك الطوائف، من بكنسية. المرة الأولى سنة ٤٨٨، إلى أن استردها يوسف بن تاشفين بعد سبع سنين من أخذها، وقدم عليها يحيى بن غانية الملقم، وفي المائة السادسة، صارت إلى يد ابن مردنيش أبي عبد الله، ملك شرق الأندلس فقدم عليها أخاه أبا الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش.

(١) الحرب.

(٢) زرد من الدرع يلبسه المحارب تحت غطاء الرأس.

(٣) معلقة قرب سقوطها.

(٤) ساكون.

(٥) لهاة عن بثهم، أراد بها: فرقتهم اللهور عن التلاهي.

## قصائد الاستغاثة

ولما تكالب العدو على الأندلس في أواخر دولة بني عبد المؤمن، كان المدافع عن بلنسية، الأمير زيان بن أبي الحملات بن أبي الحجاج بن مردنيش، فاضطرَّ إلى الاستغاثة بصاحب أفريقية أبي زكريا بن أبي حفص، من دولة الموحدين، وأوفد عليه بالرسالة أبا عبد الله بن الأبار القضاعي، الحافظ الكاتب الشهير، فقام بين يدي السلطان بتونس وأنشده قصيدته السينية الفريدة.

### سينية ابن الأنبار القضاعي

أدركَ بِخَيْلِكَ خَيْلَ اللَّهِ أَنْدَلُسَا  
وَهَبْ لَهَا مِنْ عَزِيْرِ النَّصْرِ مَا التَّمَسْتُ  
وَحَاشَ مِمَّا تَعَانِيهِ حَشَاشَتُهَا  
يَا لِلجَزِيرَةِ أَضْحَى أَهْلُهَا جَزْرًا  
فِي كُلِّ شَارِقَةٍ إِمَامٌ بِائِقَةٌ  
وَكُلُّ غَارِبَةٍ إِجْحَافٌ نَائِبَةٌ  
تَقَاسَمَ الرُّومُ لَا نَالَتْ مَقَاسِمَهُمْ  
وَفِي بَلَنْسِيَةِ مِنْهَا وَقُرْطُبَةَ  
مَدَائِنُ حَلَّهَا الْإِشْرَاكُ مَبْتَسِمَا  
وَصَيَّرَتْهَا الْعَوَادِي الْعَائِثَاتُ بِهَا  
يَا لِلْمَسَاجِدِ عَادَتُ لِلْعَدَى بَيْعَا  
لَهْفِي عَلَيْهَا إِلَى اسْتِرْجَاعِ فَائِتِهَا  
إِنَّ الطَّرِيقَ إِلَى مَنَاجِيهَا دَرَسَا<sup>(١)</sup>  
فَلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عِزُّ النَّصْرِ مُلْتَمَسَا  
فَطَالَمَا ذَاقْتَ الْبُلُوبَى صِبَاحَ مَسَا  
لِلْحَادِثَاتِ<sup>(٢)</sup> وَأَمْسَى جَدُّهَا تَعِسَا  
يَعُودُ مَاتَمُّهَا عِنْدَ الْعِدَى عُرْسَا  
تَثْنِي الْأَمَانَ حَذَارًا وَالسَّرُورَ أَسَى  
إِلَّا عَقَائِلَهَا الْمَحْجُوبَةَ الْأَنْسَا  
مَا يَذْهَبُ النَّفْسَ لَوْ مَا يُنْزِفُ النَّفْسَا  
جَدْلَانِ وَارْتَحَلَ الْإِيمَانَ مُبْتَسِمَا  
يَسْتَوْحِشُّ الْعَرْفُ مِنْهَا ضَعْفًا مَا أَنْسَا  
وَلِلنَّدَاءِ يُرَى أَثْنَاءَهَا جَرَسَا  
مَدَارَسَا لِلْمِثَانِي أَصْبَحَتْ دَرَسَا

(١) ذهب لمره وتقدم.

(٢) طلعنا للحادثات.

وَأرْبَعًا نَمَنَّتْ أَيْدِي الرَّبِيعِ بِهَا  
كَانَتْ حَدَائِقَ لِلأَحْدَاقِ مَوْنَقَةً  
وَحَالَ مَا حَوْلَهَا مِنْ مَنظَرٍ عَجَبٍ  
سِرْعَانٍ مَا عَاثَ جَيْشُ الضَّدِّ وَاحْرِبَا  
وَابْتَزَّ بِزَتْهَا مِمَّا تَحَيَّفَهَا  
فَأَيْنَ عَيْشٌ جَنِينَاهُ بِهَا نَضْرًا  
مَحَا مَحَاسِنَهَا طَاغَ أُتَيْحَ لَهَا  
وَرَجَّ أَرْجَاهَا لَمَّا أَحَاطَ بِهَا  
خَلَا لَهُ الْجَوُّ وَامْتَدَّتْ يَدَاهُ إِلَى  
صِلِّ حَبْلَهَا أَيُّهَا الْمَوْلَى الرَّحِيمُ فَمَا  
وَأَخِي مَا طَمَسَتْ مِنْهَا الْعُدَاةُ كَمَا  
أَيَّامَ صِرَتْ لِنَصْرِ الْحَقِّ مُسْتَبَقَا  
وَقُمْتَ فِيهَا بِأَمْرِ اللَّهِ مُنْتَصِرًا  
تَمَحَوَ الَّذِي كَتَبَ التَّجْسِيمَ مِنْ ظُلْمٍ  
وَتَقْتَضِي الْمَلِكِ الْجَبَّارِ مُهْجَتُهُ  
هَذِهِ رِسَالُهَا تَدْعُوكَ مِنْ كَثْبٍ  
وَافْتِكَ جَارِيَةً بِالنُّجْحِ رَاجِيَةً  
خَاضَتْ خِضَارَةً يعلِيهَا وَيُخْفِضُهَا  
وَرَبَّمَا سَبَحَتْ وَالرَّيْحُ عَاتِيَةً

مَا شتت من حُللٍ مَوْشِيَةٍ وَكَسَا  
فَصَوَّحَ<sup>(١)</sup> النَّضْرَ مِنْ أَدْوَاحِهَا وَعَمَّا  
يَسْتَوْقِفُ الرَّكْبَ أَوْ يَسْتَرْكَبُ الْجَلَسَا  
عَيْثُ<sup>(٢)</sup> الدُّبَى فِي مَغَانِيهَا الَّتِي كَبَّسَا  
تَحْيِفَ الأَسَدَ الضَّارِي لَمَّا افْتَرَسَا  
وَإَيْنَ بَغْصَنٍ حَنِينَاهُ بِهَا سَلَسَا  
مَا نَامَ عَنْ هَضْمِهَا حَيْثَا وَمَا نَعَسَا  
فَقَادَرَ الشَّمُّ مِنْ أَعْلَامِهَا حُنْسَا<sup>(٣)</sup>  
إِدْرَاكِ مَا لَمْ تَطَأْ رِجْلَاهُ مَخْتَلِسَا  
أَبْقَى المِرَاسُ لَهَا حَبْلًا وَلَا مِرْسَا  
أَحْيَيْتَ مِنْ دَعْوَةِ المَهْدِيِّ مَا طَمَسَا  
وَبَتَّ مِنْ نُورِ ذَاكَ الهَدْيِيِّ مُقْتَبِسَا  
كَالصَّارِمِ اهْتَزَّ أَوْ كَالْعَارِضِ أَنْبَجَسَا<sup>(٤)</sup>  
وَالصَّبْحُ مَا حِيَةً أَنْوَارُهُ الفَلَسَا<sup>(٥)</sup>  
يَوْمَ الوَغَى جَهْرَةً لَا تَرْقُبُ الخُلْسَا  
وَأَنْتَ أَفْضَلُ مَرْجُوٍّ لَمَنْ يَنْسَا  
مَنْكَ الأَمِيرَ الرِّضِيَّ وَالسَّيِّدَ النَّدْسَا<sup>(٦)</sup>  
عُبَابُهُ قُتْعَانِي اللَّيْنِ وَالشَّرْسَا<sup>٧</sup>  
كَمَا طَلَبْتَ بِأَقْصَى سُدِّهِ الفِرْسَا

(١) آيس.

(٢) الفساد والتدمير.

(٣) ترك جبالها العاليات مراتع للظباء.

(٤) العارض: السحاب المتعرض في الأفق، وأنبجس: تفجّر ماؤه.

(٥) ظلمة آخر الليل.

(٦) الفطن الكيس.

(٧) يعني خاضت هذه السفن إليك البحر الشامي المتوسط.

تومُّ يحيى بن عبد الواحد بن أبي  
ملك تغلَّدت الأيَّام طاعته  
من كلِّ غادٍ على يَمناه مستلماً  
مؤيدٌ لو رمى نجماً لأثبته  
إمارةً يحملُ المقدارُ رايتها  
يُيدي النهارُ لها من ضوئه سنبًا  
كأنه البدر والعلياء هالته  
تديبره وسع الدنيا وما وسعت  
قامتُ على العدلِ والإحسان دولته  
مبارك هديُّه بادٍ سكينته  
بَرَى العُصاة وراشَ الطائعين فقلُّ  
إلى الملائكِ ينمى والملوكِ معاً  
من ساطعِ النورِ صاغَ الله جوهره  
له الثرى والثريَّا خطَّتان فلا  
حسبُ الذي باعَ في الأخطارِ يركبها  
بشرى لِعبدٍ إلى البابِ الكريمِ حداً  
كأنما يمتطي واليمن يصحبه  
فاستقبل السعدَ وضاحاً أسرته  
وقبلَ الجودِ طفاحاً غواربه  
يا أيها الملك المنصور أنت لها

حفص مُقبلةً من تربيهِ القدسًا.  
دينًا ودينا ففتشها الرضى لبسًا  
وكلَّ صَادٌ إلى نعماءِ مُلتَمِسًا  
ولو دعا أفضًا لبي وما احتبسًا  
ودولةً عزَّها يستصحِبُ القَمَسًا<sup>(١)</sup>  
ويطلع الليل من ظلماته لَعَسًا<sup>(٢)</sup>  
تحفٌ من حوله سُهبُ القنا حرسًا  
وعُرف معروفه وآسى الورى وآسًا<sup>(٣)</sup>  
وأشرت من وجود الجود ما رُمسًا  
ما قام إلا إلى حسنى وما جلَّسًا  
في الليثِ مُفترسًا والغيثِ مُرتجسًا  
في نَبعةٍ أثمرت للمجد ما غرسًا  
وصان صَيقله<sup>(٤)</sup> أن يقربَ الدنسا  
أعزَّ من خِطته ما سَمًا ورسًا  
إليه محياه أنَّ البيع ما وكَسًا<sup>(٥)</sup>  
آماله ومِن العذب المعينِ حَسًا  
من البحار طريقًا نحوه يَبَسًا  
من صفحةٍ فاض منها النور واتعكسا  
من راحةٍ غاصَّ فيها البحر وانغمسا  
علياء توضع أعداء الهدى تَعَسًا

(١) الثابت من العزِّ، ويعني بها العزم القوي النافذ.

(٢) سواد مستحسن في الشفة.

(٣) داوى.

(٤) السيف.

(٥) حَسَرَ.

وقد تواترت الأنباء أنك من  
فاوطئ الفيلق الجرار أرضهم  
وانصر عبيدا بأقصى شرقها شرقت  
هم شيعه الأمر وهي الدار قد نهكت  
فاملا هنيئا لك التمكين ساحتها  
واضرب لها موعدا بالفتح ترقبه

يُحيي بقتل ملوك الصفر أندلسا  
حتى يطاطق رأسا كل من رأسا  
عيونهم أدمعا تبكي زكا<sup>(١)</sup> وخسا<sup>(٢)</sup>  
داء متى لم تباشر حسمه انتكسا  
جُرذا سلاهب<sup>(٣)</sup> أو خطية<sup>(٤)</sup> دعسا<sup>(٥)</sup>  
لعل يوم الأعادي قد أتى وعسى

### - سقوط بلنسية وقرطبة هي يد الإسبانيول

فهزت هذه القصيدة من الأمير أبي زكريا عطف ارتياح، وبادر للإصراخ بالأسطول الثقيل، والسلاح والمال الجزيل، ولكن حالت أساطيل العدو، بينه وبين بلنسية، فبقي في مرسى دانية واشتد الحصار على أهل بلنسية وهلك الناس جوعا، فسلموا بلدتهم صلحا سنة ٦٣٦، وتسلمها جقوم ملك أراغون، على شروط، وصرب لأهل بلنسية أجلا مسمى، لنقل أمتعتهم، ثم نكث العهد معهم، وتجسّموا من الذل والهون ما لا يوصف، وعصفت ريح الإسبانيول في أقطار الأندلس وتوافقوا على غزو بلاد المسلمين من كل جهة، وأسفوا إلى القواعد، فكان لهم سنة ٦٣٣، سبع محلات لحصار المسلمين، محلّتان على بلنسية، وجزيرة سُقر وشاطبة، ومحلّة على جيان ومحلّة بلطرية ومحلّة بمرسية، ومحلّة بلبلّة، وكان أهل جتوة محاصرين سبّة، وألح صاحب قشتالة على مملكة ابن هود، فافتتح ثلاثين حصنا، وزحف إلى قرطبة، فلم يجد أهلها في أنفسهم الكفاءة لمدافته، فسلموه مدينتهم، وهي بالأندلس قبة الإسلام، والمناظرة في الشرق دار السلام، وخرجوا لا يحملون شيئا سوى ثيابهم التي على أبدانهم، وجلا معهم أهل القرى والحصون المجاورة بعد أن أسفد الطاغية زروعهم، ودمر بيوتهم، فعادت بقاع الخير قاعا صفضا<sup>(٦)</sup>، وبدلت تلك البلاد بالعمارة الخراب، وبتفريد الهزار، نُعاب الغراب، ومن الغرائب أنها بعد أن كانت تكفي الملايين من

(١) الزوج.

(٢) الفرد.

(٣) الخيل السبقة.

(٤) الرماح.

(٥) عُقن.

(٦) المُستوي الطمئن.

سكانها. وتفيض عن ميرتهم خيراتها، صار الإسبانول يجلبون إليها الميرة والذخيرة، من نفس قشتالة وإلى الله تصاريف الأمور.

### - سقوط لوشة والمرية واستردادهما -

وأخذ العدو لوشة سنة ٦٢٢، ثم استردّها المسلمون، وبقيت في يدهم إلى أن استردّها الإسبانول ثانية في الكائنة الأخيرة، وكان العدو أيضًا استولى على المرية سنة ٥٤٢، في وقعة شديدة. استشهد فيها الإمام الرُّشاطي، المحدث الكبير، وكان لخمياً في النسب، ثم استرجعها الموحّدون. وبقيت في يد المسلمين، إلى أن ذهب لأخر المدة.

### - سقوط ماردة وبطلْيوس، وفتنة مرسية وسقوطها -

وملك العدو ماردة وبطلْيوس نحو سنة ٦٢٦، وملك جزيرة ميورقة سنة ٢٧، وزحف إلى شاطبة سنة ٣٥، وحصل هنالك وقائع، قُتل فيها شيخ المحدثين، أبو الربيع الكلاعي، ثم في السنة التالية كان تسليم بكنسية، وخرج ابن مردنيش عنها إلى جزيرة سُقر، فتعقبه العدو إليها، فأخرجه منها، فلحق بدانية، وأخذ هناك البيعة للحفصي صاحب أفريقية، ثم داخل أهل مرسية، وقتل واليها أبا بكر بن خطاب، وبعث ببيعتها إلى الحفصي أيضًا، ولم يزل في مرسية إلى أن غلبه عليها ابن هود، فخرج عنها إلى لَقْنَت الحُصون سنة ٣٨، وبقي فيها عاملاً لأبي زكريّا الحفصي أمير أفريقية، حتى انتزعها منه ملك برشلونة، فلحق بمولاه في تونس، وانقرض أمره بشرق الأندلس، والله وارث الأرض ومن عليها.



## قصائد استغاثة أخرى

وفي هاتيك الأيام كما لا يخفى كثرت القصائد في استنهاض الهمم، واستجاشة الحفاظ، لتلافي أمر الإسلام بالأندلس، وسارت أوابد الشعر في العُدوتين، بالاستنفاذ إلى الجهاد، والإجابة لداعي الله وتسئم<sup>(٥)</sup> الجنة.

### دالية أبي جعفر الوشحي البلسي

فمن ذلك قول أبي جعفر الوشحي البلسي نزيل مألقة من قصيدة:

ألا ليت شعري هل يمدُّ لي المدى	فأبصرَ شملَ الكاشحين طريدا <sup>(١)</sup>
وهل بعدُ يقضي في العلو بنصرة	تُفادِرهم للمرهفات <sup>(٢)</sup> حصيدا
ويغزو أبو يعقوب في شنت ياقب <sup>*</sup>	يُعيد عميد الخارجين عميدا
ويلقي على إفرنجهم عبل <sup>(٣)</sup> كلِّكل <sup>(٤)</sup>	فيتركهم فوق الصعيد هُجودا
يفادِرهم قتلى وجرحى مبرحا	ركوعًا على وجه الفلا وسُجودا
ويقتكُّ من أيدي الطغاة نواعمًا	تبدلن من نظم الحُجول قيودا <sup>*</sup>
وأقبلن في خشن المسوح وطالما	سحبن من الوشي الرقيق برودا
وغيرَ منهنَّ الترابُ ترائبًا	وخددَ منهنَّ الهجيرُ خُدودًا
فحقَّ لداعي أن يفيضَ لأزرقِ	تملكها دُغج المدامع سودا <sup>(٥)</sup>

(٥) حلا.

(١) الذي يُضمر العداوة.

(٢) السيوف عمومًا.

(٣) موضع بالأندلس.

(٤) عبل: الضخم من كل شيء، الكلكل: الصدر والمراد، ألقى عليهم نقلاً عظيماً.

(٥) يفتك: يحرز الأسير من قبله، والنواعم: النساء، وحجول، مفردتها حجول: أي خلخال.

(٥) قوله لأزرق أي لعلج أزرق العينين وتكنى العرب به عن العدو.

ويا لهف نفسي من معاصم طفلةٍ  
ويا أسفي ما إن يزال مُرَدِّدًا  
وأها بمد الصوت مُتَّحِبًّا على

تجاور بالقيد الأليم نهودًا<sup>(١)</sup>  
على شمل أعيادٍ أعيَدَ بديدًا  
خُلُوِّ ديارٍ لو يكون مُفِيدًا

---

(١) الطفلة يفتح الطاء الفاء الناعمة والقيد بكسر القاف أسير من الجلد يُرَبِّط به الأسير.

## قصيدة «نادتك أندلس»

ومن ذلك القصيدة الطويلة التي خوطب بها أبو زكريا بن أبي حفص صاحب تونس عند أخ بلنسية ومطلعها:

«نَادَتْكَ أَنْدَلُسُ قَلْبٌ نِدَاءَهَا»

ومنها:

صرخت بدعوتك العلية فاجبها  
هي دارك القصوى أوت لإيالة  
وبها عبيدك لا بقاء لهم سوى  
دفعوا لأبكار الخطوب وعونها  
وتكرت لهم الليالي فاقتضت  
تلك الجزيرة لا بقاء لها إذا  
رش أيها المولى الرحيم جناحها  
أشفي على طرف الحياة ذماوها  
حاشاك أن تفي حشاشتها وقد  
طافت بطائفة الهدى أمالها  
واستشرقت أمصارها لإمارة  
يا حسرتي لعقائل معقولة  
إيه بلنسية وفي ذكراك ما  
كيف السبيل إلى احتلال معاهد  
والى ربى وأباطح لم تعر من

من عاطفاتك ما بقي حوباءها<sup>(١)</sup>  
ضمنت لها مع نصرها إيواءها  
سبل الضراعة يسلكون سواءها  
فهم الغداة يصابرون عناءها<sup>(٢)</sup>  
سراءها وقضتهم ضراءها  
لم يضمن الفتح القريب بقاءها  
واعقد بأرشية النجاة رشاءها  
فاستبق للدين الحنيف ذماءها  
قصرت عليك نداءها ورجاءها  
ترجو يحيى المرتجى إحياءها  
عقدت لنصر المستنظام لواءها  
سثم الهدى نحو الضلال هداها  
يمري الشؤون دماءها لا ماءها  
سب الأعاجم دونها هيجاءها  
حلل الربيع مصيفها وشتاءها

(١) النفس.

(٢) الحرب الشديدة.

طاب المرءُ والمَقِيلُ خلالها  
بأبي مدارس كالطلول دوارسُ  
ومنها:

مولاي هالك معادة أنباوها  
جرد طبك لمحو آثار العدى  
واستدع طائفة الإمام لغزوها  
لا غرو أن يعزى الظهور لملة  
إن الأعاجم للأعراب نهبه  
تالله لو دبّت لها دبابها  
ولو استقلت عوفها لقتالها  
أرسل جوارحها تمكك بصيدها  
هبوا لها يا معشر التوحيد قد  
هي نكتة المحيا فحيها بها  
حاشاكم أن تضمروا إغواءها  
خوضوا إليها بحرها يصبح لكم  
دار الجهاد فلا تفتكم ساحة  
هذي رسائلها تُناجي بالتي  
وقدت على الدار العزيزة تجني  
مستسيقات من غيوت غيائها  
ويحسبها أن الأمير المرتضى  
بشرى لاندلس تحب لقاءه  
صدق الرواة المخبرون بأنه  
إن دوخ العرب الصعب مقادة  
فكان يقيلقه العرمم فالقا

وتطلعت غرر المنى أثناءها  
نسخت نواقيس الصليب نداءها

لتنيل منك سعادة أبناءها  
تقتل ضراغمها وتسب ظيائها  
تسبق إلى أمثالها استدعاءها  
لم يرحوا دون الورى ظهراءها  
مهما أمرت بغزوها أحياءها  
لطوت عليها أرضها وسماءها  
لاستقبلت بالمقربات عفاءها  
صيذاً ونادٍ لطحنها أرحاءها  
آن الهوب وأحرزوا علياءها  
تجدوا سناها في غدٍ وساءها  
في أزمة أو تضمروا إقصاءها  
رهوا وجوبوا نحوها بياءها  
ساوت بها أحيائها شهداءها  
وقفت عليها ريثها ونجاءها  
آلاءها أو تجتلي آراءها  
ما وقعته يتقدم استسقاءها  
مترقب بفتوحها آناءها  
ويحب في ذات الإله لقاءها  
يشفي ضناها أو يُعيد رواءها  
وأبى عليها أن تطيع إباءها  
هأم الأعاجم ناسفا أرحاءها

تتسوخ الدنيا به سرآءها  
وأفاده لألاؤها لالاءها  
ونضت بكف صغارها خيلاءها  
فسما إليها حاملاً أعباءها  
قادت له في قده أمراءها  
لهدها شرف وسمة أسماءها  
فيزور زآخر موجها زوراءها

فيها يوقع للسعود جلاءها  
لا رهوها يخشى ولا هو جاءها

لا يعدم الزمن انتصار مؤيد  
ملك أمد النيرين بنوره  
خضعت جبابرة الملوك لعيزه  
أبقى أبو حفص إمارته له  
قبضت يده على البسيطة قبضة  
فعلى المشارق والمغرب ميسم  
تطمو بتونسها بحار جيوشه

ومنها:

تقع الجلائل وهو راس راسخ  
كالطود في عصف الرياح وقصفها



## نونية أبي البقاء الرندي في نكبة الأندلس

ومن مشهور ما قيل في ذلك نونية أبي البقاء الرندي من أشهر شعراء الأندلس، وهي متداولة بين الناس، تعد من حفظ العوام فضلاً عن الخواص، وقد أثرنا هنا لكيلا يخلو منها كتاب جررناه على الأندلس:

فلا يُغَرَّ بطيب العيش إنسانُ	لكلِّ شيءٍ إذا ما تمَّ نقصانُ
من سرَّه زمنٌ ساءتُه أزمانُ <sup>(١)</sup>	هي الأمورُ كما شاهدتها دُولُ
ولا يدومُ على حالٍ لها شانُ	وهذه الدار لا تُبقي على أحدٍ <sup>(٢)</sup>
إذا نبتَ مشرفياتٌ وحُرَّصانُ <sup>(٣)</sup>	يُمزقُ الدهرُ حتماً كلَّ سابيغةٍ <sup>(٤)</sup>
كان ابنُ ذي يزنٍ <sup>(٥)</sup> والغمد غمدانُ	وينتضي كُلَّ سيفٍ للفناء ولو
وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ <sup>(٦)</sup>	أين الملوكُ ذوو التيجان من يمنٍ
وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ <sup>(٧)</sup>	وأين ما شاده شدَّادٌ في إرمٍ <sup>(٨)</sup>
وأين عادٌ وشدَّادٌ وقحطانُ	وأين ما حازه قارونٌ من ذهبٍ
حتى قضوا فكانَ القوم ما كانوا	أتى على الكلِّ أمرٌ لا مردَّ له
كما حكى عن خيالِ الطيفِ وسنانُ	وصار ما كان من مُلكٍ ومن مُلكٍ
وأَمَّ كِسرى فما آواه إيوانُ <sup>(٩)</sup>	دار الزمانُ على دارا <sup>(١٠)</sup> وقاتله

(١) تغلب من حال إلى حال، ودول - هنا - جمع دولة: انقلاب الزمان.

(٢) وفي روية: وهذه الدار لا تبقى محاسنها.

(٣) وفي روية: يمزق الدهر من كل سابيغة، ومعنى سابيغة: الدرع الكاملة.

(٤) الفرمج.

(٥) من ملوك اليمن.

(٦) قصر كان له.

(٧) انظر "أنواء اليمن" للشعبي، الذنون: الملوك الملقبون (بلو) كلا.

(٨) وفي نسخة: من إرم.

(٩) أبو طائفة عظيمة من ملوك اليمن.

(١٠) هو دلرا الأصغر، قتل أصحابه في معركة مع الإسكندر.

(١٠) هو إيوان كسرى الذي بالمدائن.

كأنما الصعب لم يسهل له سببٌ  
فجائعُ الدهر أنواعٌ متنوعةٌ  
وللحوادث<sup>(١)</sup> سلوانٌ يسهلها

يوماً، ولا مَلَكٌ<sup>(٢)</sup> الدنيا سُلَيْمانُ  
وللزمان مَسْرَاتٌ وأحزانُ  
وما لِمَا حَلَّ بالإسلامِ سلوانُ



دهى الجزيرة أمرٌ لا عزاءَ له  
أصابها العينُ في الإسلامِ فامتحنَتْ  
فاسألْ بلنسيةَ ما شأنُ مُرْسِيَةِ  
وأينَ قُرْطُبَةَ دارِ العلومِ فكَمْ  
وأينَ حِمصُ وما تحويه من نُزهِ  
قواعدُ كُنْ أركانَ البلادِ فما  
تبكي الحنيفةَ البيضاءً من أسفِ  
على ديارِ من الإسلامِ خاليةٍ  
حيث المساجدُ قد أضحَتْ كائنَ ما  
حتى المحاربُ تبكي وهي جامدةٌ

هوى له أهدى وانهد شهلانُ<sup>(٣)</sup>  
حتى خلَّتْ منه أقطارُ وبلدانُ  
وأينَ شاطبةُ أم أينَ جَيَّانُ<sup>(٤)</sup>  
من عالمٍ قد سما فيها له شأنُ  
ونهرها العذبُ فيأضُ وملاَنُ  
عسى البقاءُ إذا لم تبقِ أركانُ  
كما بكى لفراقِ الإلفِ هيمانُ  
قد أقفرتُ ولها بالكفرِ عُمرانُ  
فيهنَّ إلا نواقيسُ وُصْلَبانُ  
حتى المنابرُ ترثي وهي عيدانُ



يا غافلاً وله في الدهرِ موعظةٌ  
وماشياً مرحاً يُلْهيه موطنُهُ  
تلك المُصيبةُ أنستَ ما تقدَّمها  
يا راكبينَ عتاقَ الجليلِ ضامرةً

إن كنتُ في سِنَةِ فالدهرِ يَقْظانُ  
أبعدَ حِمصِ تَغْرُ المرءِ أوطانُ  
وما لها مع طولِ الدَّهرِ نسيانُ  
كأنها في مجالِ السبقِ عُقبانُ

(١) وفي نسخة "ولم يملك".

(٢) وفي نسخة. وللمصائب.

(٣) جبل باليمن.

(٤) من مدن متوسطة الأندلس.

كأنها في ظلام النقع<sup>(١)</sup> نيران  
 لهم بأوطانهم عز وسلطان  
 فقد سرى بحديث القوم ركباً  
 قتلى وأسرى فما يهتز إنسان  
 وأنتم يا عباد الله إخوان  
 أما على الخير أنصاراً وأعوان

وحاملين سيوف الهند مرهفة  
 وراتعين وراء البحر في دعة  
 أعندكم نبأ من أهل أندلس  
 كم يستغيث بنا المستضعفون وهم  
 ماذا التقاطع في الإسلام بينكم  
 ألا نفوس أبيات لها همم



أحال حالهم جور وطغيان  
 واليوم هم في بلاد الضد عبداً<sup>(٢)</sup>  
 عليهم من ثياب الذل ألوان  
 لهالك الأمر واستهوتك أحزان  
 كما تفرق أرواح وأبدان  
 كأنما هي ياقوت ومرجان  
 والعين باكية والقلب حيران  
 إن كان في القلب إسلام وإيمان

يا من لذت قوم بعد عزهم  
 بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم  
 فلو تراهم حيارى لا دليل لهم  
 ولو رأيت بكاهم عند بيعهم  
 يا رب أم وطفل حبل بينهما  
 وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت  
 يقودها العليج للمكروه مكرهه  
 لمثل هذا يذوب القلب من كمد

#### - سقوط شرق الأندلس في يد الإسبانيول

وكان استخلاص الإسبانيول لشرق الأندلس، قاطبة (شاطبة) وغيرها، وإجلاؤهم من يشاركهم من المسلمين في ما تغلبوا عليه هناك، في شهر رمضان سنة ٦٤٥، وتملك الإسبانيول مرسية صلحاً عن يد ابن هود، وأقام صاحب قشتالة يحاصر إشبيلية حولاً كاملاً وخمسة أشهر، حتى ملكها صلحاً سنة ٦٤٥، وتوفي بين يدي منازلها الشيخ أبو علي الشلوبين إمام النحاة، فكانت المصيبة بهما على المسلمين واحدة، وعلى النحاة اثنتين، وأفرغ

(١) الغبار.

(٢) تجمع عبد على عبيد وعبدان، وغيرهما.

الإسبانيول في حصار إشبيلية من الجهد، ما لا يوصف، ووافتهم النجيدات من أوروبا إلى أن افتتحوها، وخرج أهلها إلا القليل، فأجاز بعضهم إلى برّ العُدوة، وانحاز الأكترون إلى غرناطة.

وكان ملك البرتغال، قد ضبط بعض الحصون أثناء منازل إشبيلية، فخاف فرديناند صاحب قشتالة غائلته، فأخذ يسالم بعض جيرانه من قواد المسلمين، مثل صاحب شريش، وصاحب لبلّة، ورضي منهم بالأتاوة، واتخذ كثيرًا من جهات الإسلام تحت حمايته، حتى صفا له الوقت، واطمأنّ بأله من جهة قومه، فأعمل في فتح المغرب، وبينما هو يستعدّ لذلك إذ وافاه أجله فخلف<sup>(١)</sup> ابنه الأذفّش الملقّب بالفونس العاشر، المعروف بالصايي، أو السايبو، لاشتغاله بالتنجيم.

### - صمود غرناطة -

ولمّا لم يبقَ للإسلام في تلك المدّة بالأندلس، سوى غرناطة وجوارها، وانحصروا فيها، كثفت هناك جموعهم، وعزّ حِمَاهم، وكان جُلّهم، بل كلّهم قومًا موتورين، تتأجّج الأحقاد في صدورهم، ولا يريدون إلاّ فرصة لأخذ الثار، فطالما أعظموا النكاية في العدو، وهم تحت رايات بني الأحمر، وكانوا جميعًا أهل فِلاحة وتجارة وصناعة، فعمرت بهم تلك الجهات عمراتًا حافلاً تحدّثت به الركبان، وكان محمّد بن يوسف بن الأحمر الذي أسّس الدولة النصرية على أنقاض دول الطوائف، وركبها من بقايا أملاك المسلمين بالأندلس، رجلًا داهية منجذًا<sup>(٢)</sup> خبيرًا بالسياسة صالحًا للرئاسة، وكان قرّمًا<sup>(٣)</sup> ثبّتًا في الحروب كما يقول ابن خلدون "فضمّ شمل قومه، وأحسن إدارة أمورهم، وسدّد الأحكام فيهم، واتخذ غرناطة حاضرة مُلكه وحصنها، وناهيك أنه ابتهى فيها حمراءها الشهيرة - التي لم يبقَ للعرب في تلك الديار ولا في غير تلك الديار - أثر أجّل منها".

### - ما قاله ضيا باشا عن الأندلس -

قال ضيا باشا في تاريخه للأندلس تحت عنوان "معموريّة غرناطة" ما معناه: إنّ محمّد بن الأحمر، الذي غرس دوحه تلك الإمارة، التزم لأجل تمكين سلطانه قاعدة: لا

(١) كذا وعلّل الأصل فخلفه.

(٢) الجوّب.

(٣) السيّد أو العظيم.

مُلك إلا بالرجال، ولا رجال إلا بالمال، ولا مال إلا بالعمارة، ولا عمارة إلا بالعدل والسياسة، فأخذ رعيته بحُسن السياسة، وأقامهم على العدل، واحتفل بتشييد المصانع والمعاقيل، واشتغل بتوطين المسلمين المهزيمين من جُور الإِسبانيول، حاملاً إِيّاهم على الفِلاحة والتجارة والصناعة، وإحياء مَوات الأرض واستثمارها، وتربية الحيوانات وتكثيرها، فلم تمضِ سنون قلائل، إلا وقد اشتبكت عمارة بلاده، وقد التفت نحو علماء الطبيعة والكيمياء فاستخرج بمعونتهم المعادن واستفتح، أرصاد الكنوز الطبيعية، ولم يُهمَل أمر الصحة العمومية، فبنى جملة مستشفيات ومنازل للعجزة، وشاد كذلك كثيرًا من المدارس لطلب العلم، وبنى قصر الحمراء الشهير، الذي أنسى ذكر الخَوْرَنق والسدير، وهو من القصور المعدودة في الدنيا، رونقًا ومتانةً وآساعًا وإحكام بناء. وكانت غرناطة في أيامه، من أشهر مواقع المعمور عمارة وسعادة وسعة تجارة، وبَسْطَة في العلم والجسم، وكانت منسوجاتها فائقة منسوجات غيرها من جميع الأقطار.“

وقال هذا الأديب الراسخ والوزير الجليل، في محلّ آخر من كتابه ما معناه: “إنّه بحسن إدارة محمّد الخامس (من سلالة محمّد الشيخ) وجُوجه إلى السُّلم، أو بالصدّات الداخلية والخارجية، التي توالى يومئذٍ على مملكة قشتالة وأراغون، قد مضت لذلك التاريخ عشرون سنة متتابعة على غرناطة، كانت فيها أسعد الممالك حالاً، وأنعمها بالأى، وهي غرر أيام ابن الأحمر وحُجُولُها<sup>(١١)</sup>، بل أيام الأندلس كلّها، منذ غابت سُموس الناصر والحكم، فكانت وقتئذٍ الزراعة في نماء، والصناعة في ارتقاء، ولأهل غرناطة، علاقات تجارية مع إيطاليا وفرنسا ومصر وبرّ الشام، وكان يتوارد إليها التُّجّار والسِّياح، من جميع الأنحاء، ويسكنونها بكمال الطمانينة، وفي بعض التواريخ، أنه كان لأهل جنوة، أنبارٌ عظيمة مخصصة بهم في غرناطة، وقد كانت المَرِيّة ميناء غرناطة، محطّ رجال التجارة من جميع الآفاق وفيها من الحركة ما ليس في ميناء غيرها، لذلك، كان أهالي تلك المملكة في ذلك الدور، من سعة العيش وصفاء الوقت وتوفّر أسباب الرفاهة وإيلاء الولائم، بالمكان المحسود والحال المغبوظة، وانتشرت بينهم الفضائل التي يقتضيها العلم والتهذيب، من الحمية وحبّ الوطن، والأمانة والصدق والرفاة وإكرام الغريب. وأخذ كرام الناس وأبناء البيوتات يقدون إلى غرناطة أفواجًا، حتى أنه عند الاحتمال بنتل كريمة صاحب فاس إلى الأمير يوسف ابن

(١١) اليوم المضيء المشرق بالسرور والخيور.

السلطان محمّد الخامس، وفد لأجلِ النزّهة، وبرسم حضور الزينة الشائقة، عدد لا يُحصى من الأمراء والتبلاء والفرسان، من إسبانيا وإيطاليا وفرنسا، ويقول بعضهم إنَّ غرناطة كانت وقتئذٍ وطنًا مشتركًا لجميع الأقسام.

### - محمّد بن الأحمر، وثورات المدجّنين

ولتُعد إلى ذكر محمّد بن الأحمر فنقول: لم يزل المدجّنون ينكشفون عن شرق الأندلس وغربها إلى مملكة غرناطة، وهي تتعرّز بهم، وبعد استيلاء الإسبانيول على شاطِبة، وتمهيدهم تلك البلاد، شرعوا يهتضمون المسلمين الباقين فيها، فشرع هؤلاء - من شدّة الظلم والأخذ بالخنق واستضعاف أعدائهم لهم بعد أن كانوا هم الأعلون - يرفعون لواء الخروج، فاشتعلت الفتنة وكثُر سواد الثوّار، إلى أن قُتل بعض رؤسائهم، فانطفأت الشائرة في تلك البقعة، ولكن قام بعدها مدجّنو بلنّسية، واستولوا على جملة حصون وذلك في نواحي سنة ٦٥٢، وكان جقوم صاحب أراغون غائبًا، فبادر بالرجوع إلى مقرّه، وعقد ندوة حضرها أركان مملكته، للمذاكرة في قضية حسم الفتنة، وذهب في رأيه الخاصّ إلى وجوب تحصين قلاع شاطِبة وطررد المدجّنين كافة من مملكته، واستبدالهم، زراع النصراري بهم، فوافق على ذلك القسوس والخالون من الأراضي، ولكن أصحاب المزارع أبدوا له تعدّر وجود مزارعين مسيحيين، وإنّه على فرض وجودهم، فلا يقومون مقام المسلمين، فلم يُصغ لكلامهم وأمر بطرد المدجّنين كافة، فخرجوا تاركين جميع أملاكهم، وأشياءهم، وقصدوا غرناطة، ألوفًا مؤلّفة، وكان مدجّنو مُرسية وجوارها قد خرجوا بمكانهم على صاحب قشالة ألفونس العاشر، الملقّب بالصايبي، واستولوا على عدّة حصون وقدموا عليهم قائدًا وطالت مدّة انتقاضهم، إلى أن أحال ألفونس أمرهم إلى حميّه جقوم ملك أراغون.

ثمّ تزايد الجُور على مُدجّني بلنّسية الباقين، كانوا منهم ببلادها وسيماوا من الخسف والإهانة ما بكلّ عنه الوصف، وفقدوا الأمان على أرواحهم، وعوملوا بخلاف الشروط التي بينهم وبين المستولي، فاستأنفوا الثورة ومدّوا يدهم إلى مَنْ جاورهم من المسلمين، لأجلِ مظاهرتهم، واصطلموا<sup>(١)</sup> الإسبانيول، وتقدّموا نحو بلنّسية، حتى كادوا يسترجعونها، فوقع الرعب في قلب جقوم، ومات على أثر ذلك، وتولّى بعده ولده بتر أو

(١) استأسل.

بِطَرُّهُ، فعقد مع الثَّوَارِ هَدنة، وأمهلهم ريثما تفرّقت جموعهم، فنكث معهم وصمد إليهم على غرّة، فأنحازوا إلى "مونتزه" في عيالهم وكانوا زهاء ثلاثين ألفاً، فأقام يحاصرهم طويلاً، وأخذ منهم بالخنق حتى استأمنوا، فدخل الإسبانول الحصن وانتهبوا المال والمتاع وأخذوا المسلمين أسارى، وفرّ قوهم في داخل البلاد بعيداً عن الثغور.

وكان تخاذل المسلمين وتوؤد أعقاب ابن هود وابن مَرَدِيش للموك النصارى، قد دعا محمّد بن الأحمر إلى مهادنتهم، ونزل لهم عن بلاد "الغرنتيرة" وكانت هذه المدة بحسب قول ابن خلدون، فترة ضاعت فيها ثغور المسلمين، والتهمّ العدو بلادهم وأموالهم نهباً في الحروب، ووضيعة ومُدَاراة في السُّلْم، والتزم ابن الأحمر بما ضايقه من تكالب العدو على بلاد المسلمين، ومظاهرة بعض أمرائهم له على الاستيلاء، أن يلجأ بالمسلمين إلى جِوَارِ غرناطة وسيِّف<sup>(١)</sup> البحر، معتصمين بالجبال وراكنين إلى أوعارها، في أثناء هذا كلّه لم يزل صريخه ينادي بالمسلمين من وراء البحر، ووفود الأندلس تتوالى منه إلى حضرة بني مَرِين أصحاب المغرب، تستنصرهم على العدو، وتستجيرهم في استباحة الحرّم والولدان، وبنو مَرِين وإن كانوا يؤثرون الجهاد، ويسابقون في مضمار الجنتّة مسابقة الجياد، فقد كان لهم من مناصبة دولة الموحّدين، وشغلهم بتدويخ المغرب كلّه وتمهيد قاعدة ملكهم، ما يعترض دون إجابة داعي الجهاد. ولكنّه لما انقضت الوحشة بين أبناء إدريس بن عبد الحقّ، وبين السلطان يعقوب بن عبد الحقّ المريني، انتدب السلطان الكثير منهم لنجدة الأندلس، ولم تزل هذه البلاد منذ أوائل الفتح تُغرّ الإسلام، وموطن الجهاد، ومدّرج الشهادة، وغاية من قصد من الآخرة السعادة، فخرجوا في نحو من ثلاثة آلاف مرابط، عليهم عامر بن إدريس، وتقبّلهم ابن الأحمر، ودفع بهم في صدر عدوّه، وتوفّي الشيخ ابن الأحمر لسنة ٦٧١، وقد عهد إلى ولده والقائم بالأمر بعده، محمّد الشهير بالفقيه، لانتحاله العلم في أيام أبيه، أن يجعل مُعَوِّله على بني مَرِين في الاستصراخ، إذا اشتدّ به الأمر، ويدراً بهم، وكان محمّد الثاني بعد جلوسه بقليل وهو على مهادنة صاحب قشتالة، سار إلى إشبيلية، لزيارته وتأكيد سلمه، فلقني من الإعزاز والإدناء ما لم يسبق له مثيل، غير أنّ زوجة الملك، خاطبته مرّة أثناء إقامته عندهم في شأن بني أشقيلولة، القائمين كانوا على أبيه وعليه من بعده، فاستوحش محمّد من هذه التوصية، واستنشأ من ورائها رائحة المفسدة والميل إلى إلقاء الفتنة، والفرقة في مملكة الإسلام الباقية، فعند رجوعه، تأمل في ما يعمل لأجل التخلص من فتنة بني أشقيلولة، ومما

(١) شاطئ البحر.

كان عليه من الخضوع المعنوي لصاحب قشتالة، فلم يجد بدءاً من إنفاذ وصية أبيه، ومد اليد إلى بني مَرين، خاطباً نَصْرَهُمْ ومستجيباً بهم في الدفاع عن الملة.

وكان بنو أشقيلولة كما لا يخفى، أنصار ابن الأحمر على أمره، وأبوهم أبو الحسن، هو الذي تولّى كبر الثورة على ابن هود، وداخل أهل إشبيلية في الفتك بأبن الباجي، حتى استوسق<sup>(١)</sup> الملك لابن الأحمر، وكان هذا من قبيل المكافأة قد أَصْهَرَ إليهم، وأشركهم في أمره، ووسمهم من مَيَاسِم<sup>(٢)</sup> التعظيم، وأشعرهم من شعار التجلّة<sup>(٣)</sup>، بما لم يختصّ به أحدًا من سواهم، وولّى أبا محمّد على مالقة وأبا اسحق إبراهيم صهره، على (وادي آش)، وكانت في يدهم (قمارش)، فيقال أنّ قد أبطرتهم النعمة فسموا إلى مشاركة السلطان في ملك غرناطة، واستأثر الرئيس أبو محمّد بمالقة، وقيل إنهم اتفقوا مع الطاغية وأباحوه حمى الإسلام. وضيا باشا، ينقل أنهم جاءوا بعساكره يكتسحون البسائط ويعيثون في البلاد، وكانوا سبباً لخروج كثير من المدن والحصون، مثل شريش وأبريجة وسجونة، من يد المسلمين.

#### - استصراخ بني الأحمر السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني، واستجابته

فأوفد ابن الأحمر مشيخة بلاده على السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني، فلقوه منصرفاً من فتح سجلماسة، خاتم الفتح بالبلاد المغربية، فنبهوا عزائمهم واستنفروا حميته، وكان من نفسه إلى ذلك ارتياح، فجهّز خمسة آلاف، عقد عليهم لابنه منديل، وأعطاه الراية، واستدعى الأسطول فأجازوا نازلين بطريف، وبعد أن أراحوا ثلاثاً، دخلوا الحرب فاكتسحوا بسائطها، وأتخنوا فيها بالقتل والأسر والتخريب، ونزلوا بساحة شريش فحامت<sup>(٤)</sup> حاميتها عن اللقاء، وانقلبوها إلى الجزيرة الخضراء، وقد امتلأت أيديهم بالغانم. ولمّا بلغ الخبر أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق، أجاز بنفسه على أثر ولده. وحيث كان يخشى عادية (يَقْمُرَاسُن) بن زيان أمير تلمسان، بعث إليه في السلم تفرغاً للجهاد، وتوقراً على عدو الملة، فأوفد عليه (يَقْمُرَاسُن) شيخة بني عبد الواد بالإجابة، وأسنى الهدية، وطابت بذلك نفس يعقوب، فاستنفر قبائل المغرب من العرب والموحدين، ومصمودة

(١) اجتمع.

(٢) علامات كالوشم.

(٣) (مجازاً) الإكبار، والقلاء، وهي اسم.

(٤) حلام يخيم عن القتال: تكص وجين.

وصنهاجة ومكناسة، وانضم إليه جمع من المطوعة والمرتزة، فأجاز بهم لصفر من سنة ٦٧٤، وكان نزل له ابن الأحمر عن رُنْدَة وطريف، فاحتل ساحة طريف، وملأت كتابه الجزيرة الخضراء، وأقبل عليه الفقيه أبو محمد بن الأحمر، والرئيس أبو محمد بن أشقيلولة، صاحب مألقة والغربية، وزال ما بينهما من الفرة، وصارا مع أمير المسلمين يدًا واحدة على الأذفش.

### - مواقف السلطان يعقوب هي الجهاد -

ثم عقد أبو يوسف يعقوب لولده أبي يعقوب على خمسة آلاف، وسرحهم في بلاد العدو، فجاسوا خلال دياره ونسفوا البناء، وحطّموا الزرع، واتهبوا المال والمتاع، وبالغوا في الإثخان والسبي، واقتحم السلطان حُصون، المدور وأبدة وتالسة ويلمه، وغادرها قاعًا صَفْصَفًا<sup>(١)</sup>، وعاد بالغنائم والسبي فنزل بإستجة، وكان الإسبانول قد أعدوا عدتهم، وأكملوا احتشادهم، فزحف الدون "نونو" أو "دُنْته" بحسب إملاء العرب، وكان محافظًا لأشبيلية ومقدمًا عندهم، فاصطدم الفريقان، واحتدم بينهما الضراب والطعان، وكانت وقعة من أعظم ما يرويه تاريخ إسبانية، فأنزل الله سكينته على المسلمين، وانهمزت جموع "دُنْته" وقتل هو في المصاف، وتأثر<sup>(٢)</sup> المسلمون قومه بالقتل والأسر، فبلغ عدد قتلاهم بحسب رواية ابن خلدون ستة آلاف، وحُذِل العدو، وهنت شوكته، وبعث أمير المسلمين برأس دُنْته إلى ابن الأحمر، فقيل إنه رده إلى أهله سرًا مداراة لهم، وقيل انحرافًا عن يعقوب لأمر وجدها في نفسه، وظهرت شواهدا فيما بعد. وقد أصاب المسلمون في هذه الغزاة من الغنائم ما لا يُحصى إلا الله، وبيعت الشاة بدرهم واحد، وأخذ سبعة آلاف وثمانمائة أسير، ولم يكمل هذه الغزوة، حتى رجع إلى بلاد العدو، فاكسح نواحي إشبيلية وأوغل في جهاتها، ونزل بأرض شريش فجاس خلالها، واستقصى بالدمار<sup>(٣)</sup> أعمالها، وقفل إلى الجزيرة الخضراء لشهزئين من غزاته، وعول على اختطاط مدينة بقرضة المجاز من العدو، لنزل أجناده، متبذًا<sup>(٤)</sup> عن الرعية، لما يلحقهم عادة من ضرر الجند، فابتنى المدينة المعروفة بالبنية، وأجاز البحر إلى المغرب، بعد غيبة ستة أشهر في الجهاد أعز بها الإسلام،

(١) أرضًا مستوية خالية.

(٢) نثر القوم: نزع لهم.

(٣) أي دمر مدنها وقرراها.

(٤) مبتعدًا، على أفراد.

وأدال له بعد طُموس الإعلام، حتّى لقد قال بعضهم: «ما نصر المسلمون من العقاب حتّى دخل يعقوب المريني».

وأما ابن الأحمر، فساق عساكره إلى جهة جِيَان، وأتخّن فيها، فجمع له الدّون «صانشو» بن «جقوم» ملك أراغون، وكان مطرأنا على طُلَيْطَلَة وبادر إلى لقائه، فأنكشف الإسبانيول وأسر الدّون صانشو - أو شانجُه على رأي العرب - وحصل بسببه خلاف، إذ مال بعضهم إلى إرساله إلى السلطان يعقوب بن عبد الحقّ، والآخرين إلى إبقائه عند ابن الأحمر، فوثب عليه أحد الجنّد فاحتزّ رأسه، وحُسم الخلاف. وثاني يوم هزيمة الدّون شانجُه، وأسرّه، وصل الدّون «لوب» بالمدد الوافر، وتواقّف مع المسلمين وقد امتلأت أيديهم بالغنائم، فتأمّل أن يشتغلوا بها عن القتال وأصلاهم نارًا حامية من مطلع الشمس إلى أن توارت بالحجاب، فلم يُقرّ منهم بطائل، فراسلهم في رأس شانجُه، والخاتم الذي بيده، ووقع الفداء بهما على جملة من أسرى المسلمين، وتُقيل الرأس مع الجثّة ودفن في كنيسة طُلَيْطَلَة.



## قصيدة ابن الأحمر في الاستغاثة

وكان لما اعتزم أمير المسلمين، يعقوب، على الإجازة إلى المغرب خاطبه ابن الأحمر، بقصيدة استغاثة من نظم كاتبه أبي عمر بن المرابط قال فيها:

من مُتَمِّهِمِ فِي الْأَرْضِ أَوْ مِنْ مُنْجِدٍ<sup>(١)</sup>  
بِإِجَابَةِ وَإِنْبَاءِ أَوْ مُسْعِدٍ؟  
بِالْعُدُوتَيْنِ مِنْ أَمْرِي مُسْتَرْشِدٍ  
يَخْشَى الْمَصِيرَ إِلَى الْجَحِيمِ الْمُؤَقَّدِ  
أَجِبِ الْهُدَى، تَسْعُدْ بِهِ وَتَوَيْدِ  
أَلَدَيْكَ عِلْمٌ أَنْ تَعِيشَ إِلَى غَدِ  
إِنْ لَمْ يَحِنْ لَكَ نَقْدُهُ، فَكَأَنَّ قَدِ  
زَادَ لِكُلِّ مُسَافِرٍ فَتَزَوَّدِ  
خُذْ مِنْهُ زَادَكَ لِأَرْحَالِكَ تَسْعَدِ  
مِنْهُ لِمَا يُرْضِي إِلَهَكَ وَاغْتَدِ  
وَجْهًا لِلْقِيَامَةِ غَيْرِ مَسْوَدِ  
مَحْتِ الدَّمُوعِ خَطِيئَةَ الْمُتَعَمِّدِ<sup>(٢)</sup>  
أَوْ يَقْتَدِي بِنَسْبِيهِ أَوْ يَهْتَدِي  
مَشْحُودَةً فِي نَصْرِ دِينِ مُحَمَّدِ

فأفلك عليه أسى ولا تنجلد

هل من مُعِينِ فِي الْهَوَى أَوْ مُنْجِدِ  
هَذَا الْهَوَى دَاعٍ، فَهَلْ مِنْ مُسْعِفِ  
هَذَا سَبِيلِ الرُّشْدِ قَدْ وَصَحْتَهُ فَهَلْ  
يَرْجُو النِّجَاةَ بِجَنَّةِ الْفَرْدُوسِ، أَوْ  
يَأْمَلُ النِّصْرَ الْعَزِيزَ عَلَى الْعَدِيِّ،  
يَا مَنْ يَقُولُ غَدًا أَتُوبُ وَلَا غَدَمْ،  
لَا تَغْتَرِرْ بِنَسِيبَتِهِ<sup>(٣)</sup> الْأَجَلِ الَّذِي  
أَوْ مَا عَلِمْتَ بِأَنَّهُ لَا بَدَأَ مِنْ  
هَذَا الْجِهَادِ رَيْسُ أَعْمَالِ التَّقَى  
هَذَا الرِّبَاطُ بِأَرْضِ أَنْدَلُسِ فَرُخُ  
سَوَدَتْ وَجْهَكَ بِالْمَعَاصِي فَاتَّسَمِ  
وَأَمَحُ الْخَطَايَا بِالْدمُوعِ فَرَبَّمَا  
مَنْ ذَا يَتُوبُ لِرَبِّهِ مِنْ ذَنْبِهِ  
مَنْ ذَا يُطَهِّرُ نَفْسَهُ بِعَزِيمَةٍ  
ومنها:

كم جامع فيها، أعيدَ كنيسة

(١) لقي بلاد نجد أو نزل فيها.

(٢) الطيلة في الأجل، الإنشاء: طول العمر.

(٣) قبل الممودة.

أَسْفًا عَلَيْهَا أَفْقَرْتُ صَلَوَاتُهَا،  
كَمْ مِنْ أَسِيرٍ عِنْدَهُمْ وَأَسِيرَةٍ،  
كَمْ مِنْ عَقِيلَةٍ مَعْشِرٍ مَعْقُولَةٍ  
كَمْ مِنْ وِلِيدٍ بَيْنَهُمْ قَدْ وَدَّ مِنْ  
كَمْ مِنْ تَقِيٍّ بِالسَّلَاسِلِ مُؤْتَقٍ  
وَشَهِيدٍ مُعْتَرِكٍ تَوَزَّعَهُ الرَّدَى  
ضَجَّتْ مَلَائِكَةُ السَّمَاءِ لِحَالِهِمْ  
أَفَلَا تَذُوبُ قُلُوبُكُمْ إِخْوَانِنَا  
أَفَلَا تُرَاعُونَ الْأَزِمَّةَ بَيْنِنَا،  
أَكْذَابُ عَيْثِ الرُّومِ فِي إِخْوَانِكُمْ  
أَيْنَ الْعِزَائِمُ مَالَهَا لَا تَقْتَضِي،  
أَبْنِي مَرِينَ أَنْتُمْ جِيرَانُنَا  
فَالجَارُ، كَانَ بِهِ يُوَصِّي المُصْطَفَى  
أَبْنِي مَرِينَ وَالْقَبَائِلُ كُلُّهَا  
كُتِبَ الْجِهَادُ عَلَيْكُمْ فَتَبَادَرُوا  
وَلِرِضْوَانِ إِحْدَى الحُسَيْنِينَ<sup>(٨)</sup> وَأَقْرَضُوا  
هَذَا الجِنَانُ تَفَتَّحَتْ أَبْوَابُهَا  
لِلَّهِ فِي نَصْرِ الخَلِيفَةِ مَوْعِدٌ

مِنْ قَاتِلِينَ<sup>(١)</sup> وَرَاكِعِينَ وَسَجِدٍ  
فَكِلَاهُمَا يَبْغِي الفِدَاءَ فَمَا فُدي  
فِيهِمْ تَوَدُّ لَوْ أَنَّهَا فِي مَلْحَدٍ<sup>(٢)</sup>  
وَلِدَاءٍ وَذَا أَنَّهُ لَمْ يُولَدِ  
يَبْكِي لِآخِرِ فِي الكُبُولِ مُقْبِدٍ<sup>(٣)</sup>  
مَا بَيْنَ حَدِّي ذَابِلٍ وَمُهَنْدٍ<sup>(٤)</sup>  
وَبِكِي لَهُمْ مِنْ قَلْبِهِ كَالجَلْمَدِ<sup>(٥)</sup>  
تَمَا دِهَانًا مِنْ رَدَى أَوْ مِنْ رَدَى  
مِنْ حُرْمَةٍ وَمَحَبَّةٍ وَتَوَدُّدِ  
وَسِيوفِكُمْ لِلشَّارِ لَمْ تُتَقَلَّدِ<sup>(٦)</sup>  
هَلْ يَقْطَعُ الهِنْدِيُّ غَيْرَ مُجَرَّدٍ<sup>(٧)</sup>  
وَأَحَقَّ مَنْ فِي صَرَخَةٍ بِهِمْ ابْتَدَى  
جَبْرِيلُ حَقًّا فِي الصَّحِيحِ المُسْتَدِ<sup>(٨)</sup>  
فِي المَغْرِبِ الأَدْنَى لَنَا وَالْأَبْعَدِ  
مِنْهُ إِلَى الفِرَاضِ الأَحَقِّ الأَوْكَدِ  
حَسَنًا تَفُوزُوا بِالحِسانِ الحُرِّدِ<sup>(٩)</sup>  
وَالْحُورُ قَاعِدَةٌ لَكُمْ بِالمَرَصِدِ  
صِدْقُ قُورُوا لِانْتِجَازِ المَوْعِدِ

(١) القاتل: الأصلي، الطالع، التواضع لله.

(٢) لغة في لحد: قبر.

(٣) القيود، على غير القياس في الجمع.

(٤) الرمح والمهند: السيف.

(٥) الصخر.

(٦) حمله.

(٧) السيف.

(٨) إشارة إلى الحديث الشريف "ظلّ جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه".

(٩) إحدى الحسينين: النصر أو الشهادة.

(١٠) مفردا حريدة: عذراء ذات حياء.

هذي الثغورُ بكمُ إليكمُ تشتكي  
 ما بالُ سَمَلِ المسلمينِ مُبَدَّدُ  
 أنتم جيوشُ اللهِ مِلءَ فضاءِهِ  
 ماذا اعتذارُكمُ غداً لِنَبِيِّكمُ  
 إن قالَ لِمَ فرَطْتُمُ في أمتي  
 تالله لو أن العقوبةَ لَمَ تُخِفُ  
 إخواننا صَلُّوا عليه وَسَلِّمُوا  
 واسعُوا لِئَصْرَةِ دينِهِ يَسْقِيكمُ

شكوى العَدِيمِ إلى الغَنِيِّ الأوجَدِ (١)  
 فيها وَسَمَلُ الصِّدِّ غيرُ مُبَدَّدِ  
 تأسون للدينِ الغريبِ المُفْرَدِ  
 وطريق هذا العُدْرَ غيرَ مَمَّهَدِ  
 وتركتموهم لِلعَدُوِّ المُعْتَدِي  
 لَكفى الحيا من وجهِ ذاك السيدِ  
 وسَلُّوا السَّفاعةَ مِنْهُ يومَ المُشْهَدِ (٢)  
 مِنْ حَوَاضِهِ في الحَشْرِ أعْذَبَ مَوْرِدِ (٣)

فأجابه السلطان يعقوب بن عبد الحق، بقصيدة من نظم عبد العزيز شاعر الحضرة  
 «لبيك لا تخشِ اعتداء المعتدي»... إلخ، وأجاب عنها أيضاً مالك بن المرحّل بقوله: «شهد  
 الإله وأنت يا أرض شهدي»... إلخ، فأجابهما أبو عمرو بن المرباط بقوله: «قلِّ للْبُغاةِ  
 وللْعُداةِ الحُسْدُ».

### - الجهاد الثاني لأمير المسلمين

وبعد الجهاد الأول بنحو سنتين، ثَقَّفَ (١) فيها أمير المسلمين أطراف المغرب، اعترم  
 الجهاد ثانيةً فأجاز إلى طريف لَسْرارٍ (٢) المحرَّم، ثمَّ نهض إلى الجزيرة الخضراء فَرُنْدَةَ، حيث  
 وافته بنو أشقيلولة ونهضوا جميعاً إلى إشبيلية وكان بها ابن الأذفنش الملقَّب بالصابي،  
 فخام (٣) عن اللقاء، واعتصم بساحة البلد، فاكسح السلطان جوارها، ودكَّ حصونها، وسبى  
 أهلها، ودخل حصن جليانة وقطيانة وحِصن القُلَيْعة عُنوةً، وعاد بالغنائم والأثقال إلى  
 الجزيرة، ثمَّ نهض ثانيةً فنزل بساحة سَرِيش، وأذاقها نكال الحرب والحَرْب (٤)، وبعث ولده  
 أبا يعقوب في جيش إلى إشبيلية، وحصون الواد، فبالغ في الإِثْخان، واجتاح حِصن رُوْطَة

(١) المُعَدِّم: الفقير المحتاج.

(٢) يوم القيامة.

(٣) تقول يوم الحَشْرِ والنشر: كذلك يوم القيامة.

(٤) طَوْع.

(٥) آخر ليلة في الشهر.

(٦) جَبَنٌ ونَكَصَ.

(٧) الحرب: القتال - الحَرْب: السلب.

وشلوقة وجليانة والقناطير، ثم اعترزم الغزو إلى قُرْطُبة، فاستفزَّ به ابن الأحمر فأجابه، وتوافيا على الطريق ودخلا حصن بني بشير عنوةً ودمراً، وأثخنا في أهله، وتقدّما بالاكساح والتدمير والأسر والقتل، إلى أن نزلا بساحة قُرْطُبة قُبة الإسلام في الماضي، وشدداً عليها الحصار، وبعثا السرايا في الجوار، فعاثت ودمرت، ودخلت الحصون، واقتحمت القلاع، واشتدَّ الأمر بالطاغية، فخطب السِّلم من أمير المسلمين، فأحاله على ابن الأحمر تكرمةً لمشهده، فأجابه محمّد الفقيه بعد استئذان أمير المسلمين، إراحةً لأجناد الأندلس، والمرابطين فيها، وانعقد الصلح وقفلوا<sup>(١)</sup>، فخرج أبو يوسف يعقوب على غرناطة، نزيلاً على ابن الأحمر، وترك للأندلسيين الغنائم، وقفل إلى الجزيرة، وفي تلك الأثناء توفي الرئيس أبو محمّد بن أشقيلولة صاحب مالقة، فنزل ابنه محمّد عن البلد، للسلطان يعقوب، فعقد عليها لابنه أبي زيّان منديل، فسار إليه في بمت، وكان الفقيه ابن الأحمر لمّا بلغه وفاة صهره، طمع في الاستيلاء على مالقة، وظنَّ ابن أخته مشايعاً له، فأرسل وزيره أبا سلطان عزيز الداني، فوجد الأمير أبا زيّان قد احتلَّ البلد، فقفّل خائباً، ثمّ قدّم إليها السلطان نفسه من الجزيرة، فبرز إليه أهلها في احتفال شهير، وعقد عليه لعمر بن يحيى بن محلى، من أركان دولة بني مرّين، وقفل إلى الجزيرة ومنها إلى المغرب سنة ٩٧، وقد أعاد بهجة الأيام الأولى في الجهاد وحسن البلاء، وحاز الإسلام لعهد الغاية من العلاء.

### - مخوف ابن الأحمر، والفتنة

ولمّا بلغ السلطان يعقوب ما بلغه من الظهور، ومالت إليه القلوب، واشربّت<sup>(٢)</sup> إلى ولايته الأعناق، واكتسب له محمود مقامه بالأندلس محاباً الأمة، تذكّر ابن الأحمر - وكان فقيهاً مطّلعاً - قصّة المعتمد بن عباد، مع يوسف بن تاشفين، فخاف الغيلة<sup>(٣)</sup>، وبرم للعاقبة، وعوّل على إيصال يده بيد الطاغية خشيةً على سلطانه من أبي يوسف، فنهض الأذفّش لأخذ الثأر، وأغزى أساطيله مسالح بن مرّين بالجزيرة الخضراء، وانقطع مدد المسلمين من وراء البحر، وانتبذ<sup>(٤)</sup> عمر بن يحيى بن محلى عن قومه بمكانه مالقة، وذلك أنه كان بين أخيه طلحة وبين السلطان نفور، بعث طلحة على ممالأة<sup>(٥)</sup> ابن الأحمر، وبمداخلته، نزل له

(١) هانوا ورجعوا.

(٢) تعالت.

• اسم، من الاغتيال.

(٣) انتبذ.

(٤) مساعدة ومشايعة.

عمر عن مائة وجهة قصده. وأقطعه شلوبانية والمنكب فانتقل إليها ممالئاً لابن الأحمر ومن ثمة للأذفنش. ولخوفهم من إجازة السلطان، راسلوا يعمرأسن بن زيان أمير تلمسان، في الانتقاض عليه. وتثييط حركته. فأجابهم إلى ذلك وتهادوا وتحابوا، وتخاذل المسلمون.

### - ندم ابن الأحمر وعودته إلى الحلف

واشدت بأهل الجزيرة المخنق. وبلغ الخبر السلطان بمراكش وهو يطفئ فتنة بني جشم من العرب. فلما تمكّن من حسمها، نهض قاصداً طنجة بقصد الإجازة، فبلغه استئناف جشم الثورة. فكّر إليهم وتأثرهم في الفلوات. وترك ابنه أبا زيان لتدويح السوس الأقصى، وعقد لوند ولي عهد الأمير أبي يعقوب على الأساطيل التي جمعها من طنجة وسبّنة وسلا. حتى بلغت أربعماتة سفينة. وأغزاها الجزيرة، وكان أهلها قد بلغوا من الضيق أن قتلوا صغارهم خوفاً عليهم من السبي. والنشوء على غير الإسلام، فأثر ذلك في قلب ابن الأحمر. وندم على ما فرط منه من ممالأة العدو، وجهز أساطيله من مائة والمريّة، بداراً لنصرة إخوانه في الدين. وغلبت عليه حفيظة الملة، واجتمعت أساطيل المسلمين بمرقا جبل طارق. وتبارزوا مع العدو، وصدقوه العزيمة فكشفوه، ودُعر الإسبانيول وغشيهم من اليمّ ما غشيهم. وملك المسلمون مرقا الجزيرة، وهزموهم من كلّ ناحية، لكن الأمير أبا يعقوب تلكأ عن الغزو، خوفاً من ابن الأحمر، وحدثته نفسه أن يصلح الأذفنش، ويزحفاً معاً إلى غرناطة انتقاماً من صاحبها، فأجابها هذا إلى ذلك، توسلاً إلى موادعته، ولما كان في نفسه على ابن الأحمر من مدده أهل الجزيرة، فبعث أساقفته إلى أبي يعقوب، فأجازهم إلى أبيه، فأنكر ذلك السلطان وغضب من فعلة ابنه، ولم يشأ أن يواطئ على الإسلام أحدًا، وأجاز أبو يعقوب إلى المغرب بوفد أهل الجزيرة، وولّى ابنه الآخر أبا زيان عليها، فأحكم الصلح مع صاحب قشتالة، وتفرغ لمنازلة ابن الأحمر في غرناطة مع بني أشقيلولة وابن الدليل، ثمّ رجع ابن الأحمر إلى سلم بني مرين، وخطبها من أبي زيان، واجتمعا، ثمّ في سنة ٧٨، أطلّ السلطان يعقوب على الأندلس لما اختلّ من أحوالها، وكان ابن أشقيلولة قد نازل غرناطة سنة ٧٩، وظاهره الأذفنش، فلم يفوزوا بطائل، وقُتل جماعة من الإسبانيول، ولما أيقن ابن مرين بما وقع بين يعمرأسن، وملوك إسبانية المسلمين والنصارى من الاتصال والتعاهد

(١) أفاق.

(٢) لسرع إليه.

تعميقاً لحركاته، عمد إلى غزو يَغْمُرَاسِن، وجرت بينهما حرب، دارت فيها الدائرة على يَغْمُرَاسِن، وقَتَلَ يعقوب إلى مراكش. وأثناء مقامه بها وافاه صريخ الأذُنش على ولده سانشو أو شَانجُه، وذلك أنه لَمَّا تَمَّ ما تَمَّ من العلو والظهور لكلمة الإسلام على يد أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق، قام أمراء إسبانية، وأركان مملكة قشتالة وخصوصاً رجال الدين، ناقمين على الأذُنش عدم الكفاءة، وسوء التدبير، ونَحَس الطالع على قومهم، فكادوا له، وأخرجوه عن ملكه، ونادوا بأسم شَانجُه وذلك سنة ٨١، وخرج الوالد طريداً مخدولاً، قد غدر به أهله وحُلَّائنه، وخانه زوجته وأولاده، فأخذ يستغيث ملوك النصرانية، من أراغون والبورتغال، وفرنسا، فلم يجب أحد صريخه، فرفع أمره إلى البابا فلم ينجده بغير النصيحة، والتوصية بالصبر والتحمل، فلَمَّا يئس مَن شبكته وإيَّاهم أواصر الرحم والديانة أو الجوار، حول نظره جهة المغرب، فاستجار بسلطانه يعقوب بن عبد الحق بن مرين، فأجاره في الحال، ذهباً مع هوى الشيمة الأبية ومقتضى الفتوة، ووافاه إلى مراكش أساقفة الأذُنش فصرفهم واعدًا بالإغذاذ<sup>(١)</sup>. وسار إلى قصر المجاز وركب منها إلى الجزيرة الخضراء، وقد وافته الجنود وسار إلى صخرة عباد، حيث وافاه ملك قشتالة فأكرم نزله<sup>(٢)</sup> وأمدّه لنفقاته بمائة ألف، استرهن عليها التاج الملكي، وبقي عند ملوك بني مرين فخراً للأعقاب، وزحف السلطان إلى جهة قُرْطُبة وبها شَانجُه، فاكسح نواحيها رامتنت عليه، فانتقل إلى طُلَيْطَلَة فخرَّب جهاتها، وعاد إلى الجزيرة، وقد ثَقَلت أوقار<sup>(٣)</sup> مطايها الغنائم.

ورأى ابن الأحمر ذلك، فبداه أن يُوالى شَانجُه الخارج على أبيه، وتعاهدا فلم يُغْنِمَا ذلك. ولَمَّا رجع السلطان من غزاته، غزا مالقة من أملاك ابن الأحمر، فلم يجد هذا بدا من طلب السلم، والتجأ في ذلك إلى ابنه فأسعفه، وأجاز إلى أبيه رغبة في الثواب وجمع كلمة المسلمين، فأسعفه في ما رغب فيه إليه، وأقلع عن مالقة، وتأكد السلم مع ابن الأحمر، وانبسط رجاء المسلمين. وأعاد السلطان الغزو في دار الحرب واستأنف الإتيان، وخرج إلى نواحي طُلَيْطَلَة في غُرَّة ربيع الثاني سنة ٨٢، فلم يصادف بناءً إلا هدمه، ولا زرعاً إلا حطمه، ولا سرحاً إلا اقتلعه، ولا جمعاً إلا صدَّعه، وعاق جيشه عن زيادة الإيغال<sup>(٤)</sup> كثرة الغنائم،

(١) الإسراع.

(٢) قيل إنَّه بعد أن سَمَّ عليه الدون ألفونس طلب يعقوب بلسان زنانة الماء ليفسل يده من قبله ملك قشتالة وقيل من مصافحته فانظر إلى ما كان من عز الإسلام بإزاء الإفريج.

(٣) مفردها وقر: الحبل الثقيل.

(٤) الدخول، وأراد بها الاستمرار في الحرب.

فرجع وقسم السلب بين أجناده، ونقل من الخمس وأجاز إلى المغرب، وبلغه وفاة أذفش ملك قشتالة، واجتماع النصرانية على ولده شأنجه الخارج كان عليه، فتحرك للجهاد، وأرسل ولده أبا يعقوب في أثر العرب الخارجين، فأتبع أثرهم إلى الساقية الحمراء آخر العمران من بلاد السوس، ونهض السلطان مستغفراً للجهاد، فأجاز بجنوده إلى الجزيرة، ومنها دخل دار الحرب، فخرج وأثنخ، ونزل على شريش فضايقها؛ وأخذ بمخنفها، وأغزى ابنه الأمير أبا يعقوب إشبيلية، فنسف ديارها، وعات في نواحيها، ومرّ في مُنصرَفة، بقرمونة فشدّد عليها وطأته، وأعظم فيها نكايته وسرّح الوزير محمد بن عطوا ومحمد بن عبلة جواسيس في أرض العدو إليه، فعادا بنبا ضعف الحامية، فأغزى حافده عمر بن عبد الواحد، جهة وادلك، وحصن أركش، فأبادوا عمرانها، وغادروها كجوف العير<sup>(١)</sup>، وسرّح ابنه أبا معروف لغزو إشبيلية ثانية، فأمّ ما كان باقياً دون خراب، وقصد حصناً بقرب معسكره، فسرح الجنود والناشبة بالآلات فاقتحموه، وسبوا أهله، وقتلوا حاميته، وركب إلى حصن آخر، فأصابه ما أصاب الأول، ووفاه وليّ عهده أبو يعقوب بمراطة المغرب، ومطوّعته، ومرتزقة في واحد وعشرين ألفاً، كلّمهم قد باعوا أنفسهم من الآخرة، فعقد له أبوه على جيش كثيف وأغزاه نواحي إشبيلية، فاقتحموا الحصون، ودكوا القلاع، وسبوا الذراري ودمروا قرى الشرف، والغابة الكثيرة العمران، وعادوا بالغانم فأغزاه ثانية قرمونة والوادي الكبير، فبرز حامية قرمونة للدفاع، فانكسفوا وأحجرهم في الحصن، وكرّ على إشبيلية ثانية، واقتحم منها برجاً كان هناك عيناً للعدو، فأحرقه وقفل. ثمّ أغزاه والده جزيرة كيوثر، فاقتحمها وأباد أهلها، بالسيف، وأغزى طلحة بن محلي إشبيلية رابعة، فأثنخ فيها، حتّى صقرت تلك البقاع من العمران، وأصبحت بسائط القُرنتيره، وإشبيلية، ولبلّة، وقرمونة، وإستجة، منعقاً لليوم، بعد أن كانت ملأى بالعمارة والنضارة، وهو أثناء هذه الغارات كلّها يُغادي شريش ويرواحها قتالاً ونكالاً، ويثّ السرايا في أرض العدو ليلاً نهاراً، حتّى لم يخلُ يوم منه من غزوة أو غارة.

وقد أصابت جموع الإسلام في هذا الرباط الطويل العريض من الغنائم، وأحرزت من المال الصامت والناطق، ما لا يحصيه إلاّ خالقه، ولم يرتدّ أمير المسلمين عن الغزو، إلاّ بقدوم فصل الشتاء، وبلغه أنّ العدو أوعز إلى أساطيله بالاعتراض في الزقاق<sup>(٢)</sup>، فأوعز

(١) تركوها خراباً وطعاماً للنار.

(٢) بحر بساحل الأندلس الغربي، بمكان يُقال له الخضراء.

السلطان إلى أساطيله بالاجتماع من ثغور العُدوتين، فأحجمت أساطيل الإفريخ. ورأى ابن أذفث شأنه أو صانثو، ما نزل ببلاد من بأس المسلمين. وضرع إليه كبار دولته في خطبة السلم من يعقوب بن عبد الحق، لشدة ما بلغ بهم البلاء. ونالهم من النكال. ورأوا من شمول الخراب أوطانهم، فعول على مخاطبة أمير المسلمين في السلم صارعاً صاغراً. وأوفد إليه الملاء من أساقفته وأعيان مملكته، فردهم يعقوب اعتزازاً عليهم فردهم شأنه وكبروا الاستعطاف فأجابهم إلى السلم بشرط أن يقبلوا ما شاء من عزّ قومه. وأن يسلموا جميع المسلمين من قومه وغيرهم، وأن يرفعوا الضريبة عن تجار المسلمين في دار الحرب. ويحتسبوا الفتنة بين أمراء الإسلام، إلى غير ذلك، فأجابوا إلى كل ما اشترط.

وفد شأنه على السلطان بمكانه من شريش فالتقاء برأ وترحبياً. واحتفل للقائه إظهاراً لعزّ الملة وقدم له ملك الإسبانيول هدية سنّية. وخضع له وانقلب قرير العين بمسانته. وسأله يعقوب أن يبعث إليه بكتب العلم التي حازها النصارى من مدن الإسلام. فأرسل إليه منها ثلاثة عشر حملاً فوقها في المدرسة التي أسسها بفاس.

### - وفاة السلطان ومبايعة وليّ عهده أبي يعقوب -

وقفل السلطان من هذا الجهاد بعد أن قرّر للإسلام من العزّ ما لم يعهده منذ أيام ابن تاشفين، وازدحمت في حضرته الشعراء للتهنئة، واعتلّ بعد ذلك، وتوفي بالجزيرة قبل وصول وليّ عهده أبي يعقوب، فأخذ البيعة على الناس وزراء أبيه، وأجاز إليهم من المغرب، فجددوا البيعة غرة صفر سنة ٦٨٥، وفرّق العطاء وأجزل، ومحا بعض الرسوم ورفع المكوس، وقبض أيدي العمّال عن الظلم، وأصلح السابلة<sup>(١)</sup>، وبعث إلى ابن الأحمر بالحضور، فوفاه فاحتفى به، ونزل له عن جميع الأندلس، إلا الجزيرة وطريف<sup>(٢)</sup>، وآتفا على إخراج أبي الحسن بن أشقيلولة من وادي آش، ففصل إلى المغرب، وأقطعه ابن مرّين فيه، وانفرد ابن الأحمر برئاسة الأندلس.

### - السلطان أبو يعقوب يقتضي أثر أبيه وسقوط طريف -

وسنة تسعين، بلغ أبا يعقوب، انتماض صاحب قشتالة وتعطيله ثغور المسلمين، فسرح

(١) الطريق.

(٢) ذكرها "معجم البلدان" بضمّ لطاء، ويفتح، في كتاب "الروض المطار" في صفة جزيرة الأندلس، فانقضت ذكر ذلك.

قائد المسالح علي بن يوسف بن يرناسن، فغزا شريش وأثنخن في أرض العدو، وأجاز السلطان بنفسه، فالتقته أساطيل الإيبانيول في الزقاق، حجراً دون النزول<sup>(١)</sup>، فانكشفت سفن المسلمين، ففكر السلطان، فأحجمت أساطيل الإيبانيول، وأنزل عساكره بطريف، وشرع منها بالغزو، فأذاق شريش وإشبيلية، وبال الحرب، ولم يرجع عنها إلا عند قدوم الشتاء. وقفل إلى المغرب سنة ٦٩١، وقد تم له من الظهور ما تم لأبيه، وعاد الوسواس إلى مخيلة ابن الأحمر، وتذكر مرة ثانية قصة المعتمد بن عباد، ووصل حبله بحبل القشتالي، وأجمعا على افتتاح طريف أم الثغور وذات المسالح، فنازلها الإيبانيول، واعترضت أساطيلهم ببحر الزقاق، دون مدد المغرب وأرسل ابن الأحمر النجدات إلى حليفه، وتمادى الحصار بأهل طريف أربعة أشهر والمدد منقطع عنهم، فسلموا بلدتهم للإيبانيول، وطالبهم ابن الأحمر بالخروج عنها له، فأبوا ونكثوا، فندم على اتصاله بهم وراسل ابن مَرين تائباً، مستعطفاً، داعياً إلى اجتماع الكلمة، وأوفد بذلك ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن اسماعيل بن يوسف ووزيره أبا سلطان عزيز الداني، فأحكموا الصلح، وعقد ابن مَرين على مسالحه بالأندلس لابنه ولي العهد الأمير أبي عامر، ولما رجعت رُسل ابن الأحمر بقبول الصلح، أجاز بنفسه نزياً على ابن مَرين معتذراً، فأعرض عن عدله وأكرم وفادته، وقدم له ابن الأحمر المصحف الكبير، أحد مصاحف عثمان (رضي الله عنه) الأربعة، المبعوث بها إلى الآفاق، اتصل إلى صاحب غرناطة من قرطبة، حيث كان في خزنة بني أمية، ونزل ابن الأحمر عن الجزيرة ورُنْدَة والغربية، وعشرين حصناً لأبي يعقوب، وأرسل هذا وزيره عمر بن السعود الجشمي، لمنازلة طريف، فامتعت عليه، وقفل ابن الأحمر إلى حاضرة حمراة عام ٦٩٢، وقد تأكدت المصافاة بينه وبين ابن مَرين.

وتوفي محمد الثاني المعروف بالفقيه ابن محمد الأول المعروف بالشيخ، سنة ٧٠١، فقام بالأمر بعده ابنه محمد الثالث، ويقال له المخلوع والأعمش لضعف بصره، وكان مع ضعف البصر ضعيف البصيرة فتغلب عليه كاتبه أبو عبد الله بن الحكيم، ولم يطل الأمر حتى بدا له الانتقاض على ابن مَرين لأمر نعمها ولا جرم لها، فوصل يده بيد ملك الإيبانيول فرديناند الرابع ابن شانجه وهو "هرانده" عند العرب وداخل ابن عمه الرئيس أبا سعيد فرج بن اسماعيل في الاستيلاء على سبتة، فأجاز إليها على غفلة من أهلها واشتغال ابن مَرين بحصار تلمسان الكبير بعد التضريب بين أعيان البلدة فاستولى عليها وأرسل

(١) تمته من النزول.

عمالها بنو العزفي إلى غرناطة وقامت بها دعوة ابن الأحمر على يد ابن عمه، وأخذ أبو سعيد في التفريق بين بني مرين والدعوة لعثمان بن أبي العلاء المريني رئيس الغزاة المجاهدين بالأندلس، واستقدمه لأجل تمكين الفتنة بينه وبين أولاد عمه، فخرج ودعا لنفسه، وأجابه كثير من الناقمين، وبإيعوه على الموت، وفاز أبو سعيد بن الأحمر بأمنيته، وانتشبت الحرب بين رجال بني مرين.

### - وفاة السلطان أبي يعقوب

وتوفي السلطان أبو يعقوب في أثنائها، فخلفه السلطان أبو ثابت بن أبي عامر، ولي عهد أبي يعقوب لكون والده توفي قبل جدّه، ولم يستقم له الأمر إلا بعد نزاع هاض جناح الدولة<sup>(١)</sup> مع عمه أبي سالم، فشرع في محاربة عثمان بن أبي العلاء، وحصره أخيراً بسبته، وتوفي قبل أن يتمكّن منه، وخلفه السلطان أبو الربيع، فضايق عثمان، الخارج عليهم حتى فرّ من سبته إلى الأندلس، لاحقاً بغرناطة وبعدها أرسل أبو الربيع تاشفين بن يعقوب الوطاسي، بعسكر فاستولى على سبته، وقبض على قائد قصبته، وقائد البحر، وقائد الحرب من قبل ابن الأحمر، وعادت إلى ملكه، ثمّ توفي أبو الربيع لسنة عشر بعد السبعمئة، وخلفه السلطان أبو سعيد، فأنشأ الأساطيل للجهاد، وولّى أخاه أبا البقاء ثغور الأندلس.

وأما محمّد الثالث سلطان غرناطة فساء أثره في المُلْك، واستبدّد مع وزيره ابن الحكيم، فانتزى عليه أبو الجيوش، نصر أخوه، وقتله ووزيره لسنة ثمان بعد السبعمئة، وفي تلك المدة نازل ملك الإشبانيول الجزيرة الخضراء وجبل الفتح، فاستولى على الجبل، ولم يُقلع عن الجزيرة إلا صلحاً بعد أن أذاقها مرّ الحصار، ففلق ابن الأحمر لأخذ الجبل، ورغب إلى أبي الربيع في الصلح؛ فأسعه ونزل له عن الجزيرة ورُندة وبعض الحصون، فقبل ذلك منه ثمّ أصهر إليه في أخته، وأمدّه بالأموال والخيول جنائب، مع عثمان بن عيسى من رجاله، وبقي نصر في المُلْك إلى أن انتزى عليه اسماعيل أبو الوليد بن الرئيس أبي سعيد فرج بن نصر، فحاصره في الحمراء وآل الأمر أن نزل له عن المُلْك سنة ٧١٤، واعتزل ومات، في نواحي سنة ٧٢٢.

(١) ضعفت، من قوله: طير تهبض الجناح، أي مكسور الجناح، بعد جُور.

وكان فرديناند ملك قشتالة، عند نزول جبل الفتح والجزيرة قد استصرخ صاحب برشلونة، فحاصر المرية برأ وبحراً، وذلك في مدة أبي الجيوش نصر، ونصب عليه الآلات، واحتفر الإسبانول مسارب تحت الأرض، مقدار ما يسير عشرون ركباً في الواحد منها، وفظن المسلمون فحفروا قبالتهم، والتقوا تحت الأرض واقتلوا وهذا كما حصل في حصار مالقة في العهد الأخير كما سيأتي وسارع عثمان بن أبي العلاء شيخ الغزاة بالأندلس من بني مرين لنجدة أهل المرية فالتقى بجيش صاحب قشتالة فهزمه، ثم صمد إلى عسكره بأسطيونة فأوقع به، فسرح إليه جيوشاً كثيرة، فظفر بهم وقتلهم أبرح قتل وقفل بالغنائم، وتوفي فرديناند، على أثر ذلك عام ٧١٢، وولي بعده ابنه المعروف عند العرب بالهشمة طفلاً رضيعاً، فجعلوه لنظر عمه الدون بتر أو بطرّه والدون جوان.

وفي أيام كفالتهما، سُخِّل أبو سعيد المريني سلطان المغرب بفتنة ابنه، فانتهر الإسبانول الفرصة، واعتزموا استئصال المسلمين من الأندلس، وتداعوا للحرب، واستنفروا الأقطار، وأناخ الدون بطرّه على غرناطة بجموع لا كفاء لها، وقيل كان معه خمسة وعشرون ملكاً وذلك لسنة ٧١٩، فخرج إليهم شيخ الغزاة عثمان ابن أبي العلاء يوم الخميس ٢٠ ربيع الأول فاقطع منهم سرية واستأصلها، ويوم الأحد ركب أبو سعيد عثمان بن أبي العلاء في خمسة آلاف من أبطال المسلمين فقيض الله لهم نصراً غريباً، وعندما شاهدتهم الإفريج وقد ألهاهم تكاثرتهم، أخذ منهم العجب لقلتهم، وهجومهم، فلم يشعروا إلا وقد أراحوهم عن مراكزهم، فانهزموا مذعورين، وأهبَّ الله ريح النصر للغرناطين، فتبعوهم، يأسرون ويقتلون ثلاثة أيام، وغنموا من الذهب ثلاثة وأربعين قنطاراً، ومن الفضة مائة وأربعين قنطاراً وسبب سبعة آلاف نفس، وكانت خسائر المسلمين من القلّة بحيث لو ذكّرت لدفع ذلك العقل. وسُلخ الدون بطرّه، وحُشي جلده قطعاً، وعُلّق على باب غرناطة، وبقي معلقاً سنوات، وقال ابن خلدون إن رأسه نُصِب بسور البلدة وإنه كان باقياً لعهد، وهذه الواقعة من أشهر وقائع الأندلس، وفيها استنصر الغرناطيون السلطان أبا سعيد المريني، فاعتذر لهم بمكان ابن أبي العلاء شيخ الغزاة، وعدوه من دولتهم، واشترط عليهم دفعه إليه، ووعدهم بإعادته فلم يمكنهم ذلك، لمكان عثمان ومنعته من عصابته، وأغناهم الله عن نصرة أبي سعيد بنصرته تعالى.

## - مواقف السلطان أبي الحسن المريني في الجهاد -

وفي سنة ٧٣١، توفي أبو سعيد المريني، وقام بالأمر بعده وليّ عهده الأمير أبو الحسن، وكان من أجلّ سلاطين الإسلام، فاشتغل مدة بإطفاء قَتَن مملكته، ولمّا خَلص له المغرب، وجّه عنايته إلى الجهاد، وسمت نفسه إلى حال جدّه أبي يوسف يعقوب بن عبد الحقّ، وكان الإسبانيول بما طرأ على المغرب من الفرقة والاختلال، وشجر<sup>(١)</sup> بين المسلمين، دون التوافي لُنصرة بعضهم بعضاً، وقد تغلّبوا على كثير من حصونهم، ونازلوهم في عقر دارهم غرناطة، وضمروا الجزية على أبي الوليد فأذاها عن يد الذلّ، فاعتزم أبو الحسن الجهاد، وجَهّز الأساطيل وسرح بالجيش ابنه الأمير أبا مالك، ففزا أرض العدو، وأئخن وغنم، وجمع له العدو، فأشير عليه بالخروج من دار الحرب اعتصاماً فأبى إباؤه، وأقام بأرضه، فأدركوه وعسكره وهم في مضاجعهم، وقُتِل أبو مالك قبل أن يستوي على جواده واستلم الإسبانيول أكثر قومه وغنموا ما معهم.

## - ظهور أساطيل الإسلام على أساطيل الإفرنج -

ووصل النعي أبا الحسن والده، فُقَت في عضده، وتفجّع وأعمل في التغير للجهاد، والأخذ بالثار، واستدعى الأساطيل من مراسي العدو، وأنجده الموحّدون من تونس بأسطول بجاية، عليه زيد بن فرحون قائد البحر، ووافاه أسطول طرابلس وقابس وجرّبة، واجتمعت كلّها بسبته، معقوداً عليها لمحمّد بن العزفي، وزحفت إلى أساطيل الإفرنج فتحاجزت وتناجرت، وأهبّ الله ريح النصر من جهة بني مرّين، فخالطوا سفن الإفرنج واستلحموا مقاتلتها وقتلوا قائدهم " الملند"، وعادوا بالسفائن مجنوبة<sup>(٢)</sup> إلى مرفأ سبته، وطُيّف<sup>(٣)</sup> بالرووس، وجلس السلطان للتهنئة وكان يوماً مشهوداً.

## - أسباب سقوط طرّيف من جديد -

ثمّ أخذ يُجيز العساكر إلى الأندلس، وأجاز على أثرها ختام سنة ٧٤٠، وخيّم بساحة طرّيف، ووافاه سلطان غرناطة بغزاة زناتة وجنود الأندلس، وشدّدوا الحصار على طرّيف، وجاء الإسبانيول بأسطول عظيم حالوا به بين العدوّتين، وامتنعت البلد، فُقنيت الأقوات،

(١) تنازعوا فيه.

(٢) مقودة.

(٣) أكثر من الطواف (وردت بصيغة المجهول).

واختلّت أحوال المعسكر، وتكاثرت جموع الإشبانيول، وأصرخهم صاحب أشبونة البرتقال، فجاء بقومه ودخلوا البلد ليلاً على حين غفلة، وكنوا في مكان، وفي الغد تزاحف الجمعان، فبرز الجيش الكمين من البلد، وخالفوا إلى معسكر السلطان، وعمدوا إلى فسطاطه، فدافعهم الحراس فقتلوهم، وفتكوا بحظايا السلطان عائشة بنت عمّه وفاطمة بنت السلطان أبي يحيى صاحب أفريقية، وغيرهما، وسلبوا الفسطاط، وأحرقوا المعسكر، فلمّا رأى المسلمون ما حلّ وراهم بالمعسكر، اختلّ مصافهم<sup>(١)</sup>، وأخذ ابن السلطان أسيراً لمخالطته العدو في تقدّمه، وانحاز أبو الحسن مع فئة من أبطاله، فدافع، ونجا، ووصل الطاغية إلى محلّة السلطان، فأنكر على قومه قتل النساء والأولاد، وانهزم ابن الأحمر إلى حمرائه، وخلص أبو الحسن إلى الجزيرة فجبل طارق ومنها إلى سبتة، وكانت وقعة مشؤومة على المسلمين، عظمَ فيها البلاء وفدحت الرزية<sup>(٢)</sup> وجلّ الخطب، وقد بالغ بعض مؤرّخي الإفرنج في تقدير خسائر المسلمين، فزعم بعضهم أنه قتل مائتا ألف، وأنّ خسائر الإشبانيول كانت نحو ٢٠ قتيلاً فقط، وهذا أشبه بقول بعض مؤرّخي الإسلام، أنّ خسائر الإفرنج في وقعة الدون بطرّه، بلغت خمسين ألفاً، ولم يُستشهد من المسلمين إلا ثلاثة عشر فارساً، وقيل عشرة فقط، ممّا يدلّ على تأخّر فنّ التقدّ في تلك الأعصار، وقبول الأخبار على علّتها، بدون عرضها على العقل ولا سيرها بمعيار الحكمة والنظر. على أنّ هاتين الواقعتين تشابهان في قضية أسر نساء الملوك، ففي الأولى أُسرت امرأة الطاغية بحسب قول العرب، وفي الثانية أُسرت بعض نساء السلطان أبي الحسن، عدا من قُتل منهنّ.

### - هزيمة الأسطول الإسلامي في بحر الزقاق

وبعد هذه الواقعة، اشتدّت وطأة الإشبانيول على المسلمين، وطمعوا في التهام بقية الأندلس، ونازلوا قلعة بني سعيد وأخذوها بعد حصار شديد، فأعاد أبو الحسن ابن مرّين الكرّة وجَهّز الأساطيل، وسرّب البعث إلى الجزيرة الخضراء وتلاقت الأساطيل الإسلامية والنصرانية ففضى بهزيمة المسلمين، وملّك أسطول الطاغية بحر الزقاق، وسما له شوق إلى استخلاص الأندلس، فبعث بالنفير، ووافته النجدة وحضرت الأوامر من البابا بوجوب القيام يدًا واحدة لطرده مسلمي الأندلس، وانضمّ إلى ألفونس ملك قشتالة، كثير من الملوك،

(١) جمع مصفّ؛ والمصفّ: الموقف في الحرب، وموضع الصفّ.

(٢) عظم المصاب، رزية، من رزء وهو المصاب الكثير.

ووفاه من أنسباء مَلِك إنكلترة، الكونت دربي، والكونت سالسبري، وغاستون، وكونت دوفوا، وكونت دو بيارن وغيرهم، وزحف الجميع، فنازلوا الجزيرة الخضراء ليلحقوها بَطْرَيْفٍ ويستولوا على قُرْصَة مجاز المسلمين<sup>(١)</sup>، وحشروا إليها الفَعْلَة والصنّاع للنقب والحفر، وأطالوا حصارها وآخذوا للمعسكر بيوتاً من الخشب، بقصد المطاولة كما آتخذوا لمعسكرهم في القرن التالي بيوتاً من الحجر وهم على غرناطة، وجاء سلطان غرناطة لمدد الجزيرة، فنزل بظاهر جبل طارق، وطال الحصر، وأصاب أهل الجزيرة الجهد، فسألوا الأمان فبذلوه لهم، وخرجوا إلى المغرب وذلك سنة ٧٤٣ فأنزلهم أبو الحسن خير نزل.

والى هذه الوقعة، يشير كتاب شهير بعث به السلطان أبو الحسن بن مرين إلى الملك الصالح ابن الملك الناصر محمّد بن قلاوون صاحب مصر، يقول فيه عند ذكر الصلح: "إلّا أنّ المطاولة بحصرها في البحر مدّة ثلاثة أعوام ونصف، ومنازلتها في البرّ نحو عامين معقوداً عليها الصّفّ بالصفّ، أدى إلى فناء الأقوات في البلد، حتّى لم يبقَ لأهله قوت شهر، مع انقطاع المدد، وبه من الخلق ما يربي على عشرة آلاف دون الحرم والولد، فكتب إلينا سلطان الأندلس في الإذن له في عقد الصلح، ووقّع الاتفاق على أنه لاستخلاص المسلمين من وجوه النجح"<sup>(٢)</sup>... إلخ.

وردّ الجواب من السلطان ابن قلاوون، وفيه عند ذكر الوقعة قوله: "ولو أمكنت المساعدة لطارت بنا إليكم عقبان الجياد المُسوّمة"<sup>(٣)</sup>، وسالت على عدوّكم أباطحهم<sup>(٤)</sup> بقسيتنا<sup>(٥)</sup> المعوجة وسهامنا المّقومة، وكحلّنا عيون النجوم بمراود<sup>(٦)</sup> الرماح، وجعلنا ليل العجاج<sup>(٧)</sup> ممزّقا بيروق الصّفاح<sup>(٨)</sup>، وآتخذنا رؤوسهم لصولج<sup>(٩)</sup> القوائم كُرات، وفرّجنا مضايق الحرب بتوالي الكُرات، وعطفنا عليهم الأعتة<sup>(١٠)</sup>، وخضنا جداول السيوف ودُسنا

(١) أي الرفأ الذي يعبر منه المسلمون.

(٢) النجاج.

(٣) الرعيّة، والرستة مُطلّقة والمُلمّنة.

(٤) جمع نادر الاستعمال للطّيح، أي السيل التّواسع فيه رملٌ ودقاق الحصى.

(٥) القيسي: الرماح.

(٦) مفردا مرّود: وهو الليل يُكْحَلُ به.

(٧) العجاج: القُبار والدخان، وعند "الزجاج" هو غبار الحرب.

(٨) مُفردا صَفْح: وهو من السيف عرْصُهُ.

(٩) جمع نادر لصولجان، أي عصا المُلك، وأرادها هنا، العصا تُقَدَّفُ بها الكُرات. كلمة الغولف الشهيرة.

(١٠) مقادير الجياد، مفردا هِنان، وهو سَيْر اللجام الذي يُمسك به الجواد، وأراد القول: أدركنا حيلنا نحوهم.

شوك الأسته<sup>(١)</sup>، وقلقنا الصخرات بالصرخات، وأسلنا العَبَّرات بالرعبات، ولكن أين الغاية من هذا المدى المتطاوُل، وأين الثُّرَيَّا من يد المتناول... إلخ.

ليت شعري ما كان أغناه عن حرب الكلام، والإعتياض عن السيوف بالأقلام، إن كانت الغاية بعيدة عليه إلى هذا الحدِّ، والظاهر أنَّ كاتبه صلاح الدين الصفدي المشهور بحبِّ التجنيس<sup>(٢)</sup>، عزَّ عليه أن لا يفلق الصخرات بالصرخات، حرمةً لهذا الجناس، ولو كان في فضلة القول عن العمل، ما فيها من الهجئة.

ولنعد إلى الكلام على بني الأحمر أصحاب هذا المقام فنقول: لمَّا توفي أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد المتغلب على مملكة غرناطة من يد ابن عمِّه أبي الجيوش، بويع ولده محمَّد الرابع طفلاً صغيراً لكفالة الوزير محمَّد بن المحروق، فاستبدَّ هذا بالأمر وأمعن في الظلم، فلمَّا بلغ محمَّد الرابع سنَّ الحلم اغتاله، وشمر لتأييد الملك وجهاد العدو، ووفد على أبي الحسن ابن مرِّين في فاس، فأعظم قدومه، وتفاوضا في شأن المسلمين وراء البحر، واعتزما الجهاد، ويومئذٍ أرسل أبو الحسن ابنه الشهيد، فيما بعد، الأمير أبا مالك في خمسة آلاف مثناعشر<sup>(٣)</sup> من آل مرِّين، وانضمُّوا إلى محمَّد بن اسماعيل بن الأحمر المذكور، ونازلوا جبل الفتاح، وزحف إليهم الإسبانيول، فوقعت بين الفتيين حروب ومناجزات لم يظفر فيها الإسبانيول بطائل، ودخل المسلمون الجبل عنوةً، وبقي أمر الجزيرة الخضراء لنظر أبي مالك، إلى أن قُتل كما سبق به الخبر، وتوالت الهزائم على المسلمين، وكان صاحب قشتالة قد حاول استرداد الجبل، ونزل عليه قبل المرَّة الأخيرة، فأسرع محمَّد الرابع إلى إنقاذه، فرحل ملك النصرارى، وعاد محمَّد إلى غرناطة ظافراً. ونقم على جند أفريقية، في ما قيل، قعودهم، وهزئ بهم فعتبوه، وربما ذلك في قلوبهم فقتلوه. وقيل إنَّ ذرية عثمان بن أبي العلاء شيخ الغزاة من زناته، والبربر، وابن سلطان المغرب، كانوا قد خلفوا شيخهم في الجهاد بئر الأندلس، وكانوا يرجعون في رئاستهم إلى الأمير أبي ثابت عامر، وقويت عصابتهم، وعَلَّت كلمتهم، حتَّى استبدَّوا على السلطان، وكان ذلك قبل إجازته نحو أبي الحسن بن مرِّين، فلمَّا أجاز إليه، ظلُّوا فيه الظنون، وأضمرُوا السوء، لما بينهم وبين أولاد عمِّهم من المنافسة والعداوة، فعند أوبته التقوه بقرب حصن أصطبونة، وأغلظوا له القول

(١) مُردّها سنان: رجع.

(٢) من جناس، وهو من علوم البلاغة عند العرب، (باب البديع).

(٣) مدالغ عن الثغور.

وقتلوا عاصمًا صاحب ديوان العطاء من مواليه، فلَمَّا أنكرها السلطان تناولوه قعصًا<sup>(١)</sup> بالرماح إلى أن قتلوه، وانقلبوا فجاءوا بأخيه أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد فأجلسوه مكانه، واستبدوا عليه، وخشي غائلتهم وأسر لهم، فلَمَّا اتَّفَق مع ابن مَرين، قبض عليهم واعتقلهم جميعًا، وأجازهم إلى تونس، وكان أبو الحجاج يوسف من أفاضل الملوك في عدله ونزاهته وحبّه للعلم والعلماء، عقد مع النصارى المهادنات إراحة لرعيتِه وتفرُّغًا للإعداد والأهبة، ولم يهمل وقته، ولا ضيَّع الفرصة، وأنشأ المساجد والمدارس، وجرَّ المياه ومهد السوابل، إلى أن توفي عام ٧٥٥، وسبب وفاته أن بعض الزعانف، وقيل إن رجلاً به مس، قد طعنه يوم الفطر وهو ساجد في الصلاة فقتل عليه حينه.

**- أيام محمد الخامس من بني الأحمر، ونكبته، والتجاؤه إلى السلطان أبي**

**سالم المريني**

فقام بالأمر بعده محمد الخامس، وكان بعضهم رشح ابنه الأصغر اسماعيل، فلَمَّا عدلوا عنه حجروه ببعض القصور، وكان له صهر من ابن عمّه محمد بن اسماعيل بن الرئيس أبي سعيد، فكان يفرِّيه سرًّا بالوثوب، إلى أن أمكنته الفرصة، وذلك أن محمدًا خرج مرّة إلى التنزه، فدخل محمد بن اسماعيل في زمرة من الأوشاب لفهم حواليه، واقتحم دار الحاجب رضوان، فقتله بين حرمة وبناته، وقرَّبوا إلى اسماعيل فرسه فركب، ودخل القصر وقرعت الطبول بسور الحمراء، وفرَّ محمد إلى وادي آش، فباعه أهلها على الموت، واتصل خبر هذه الواقعة بالسلطان أبي سالم المريني خلف أبي الحسن، فأرسل لحينه أبا القاسم الشريف لإجازة محمد، المفضوب ملكه، إلى المغرب، لما بينهما من العهد، وعقد مع السلطان المفضوب تسريح الوزير الكاتب أبي عبد الله بن الخطيب، المشهور بلسان الدين لكانه من دولة محمد فأجيزوا جميعًا، واحتفل أبو سالم لقدمهم بفاس دار ملكه، وغصَّ المجلس بالمشيخة والأعيان وقام ابن الخطيب فأنشد بين يدي السلطان قصيدته الرائية يستعطفه لسلطانه، ويستنجده لإعادته، حتَّى أبكى الحاضرين ومطلعها:

وهل أعشب الوادي ونم به الزهر

سلا هل لديها من مخبرة ذكر

(١) أي صرعوه بها في مكانه.

ومنها:

بأكنافها والعيشُ فَيَنانُ مُخَضَّرُ  
فها أنا ذا مالي جناحٌ ولا وكرُ  
ولا نَسَخَ الوصلِ الهنيءِ بها هجرُ  
ولذاتُها دأبًا تزور وتزورُ  
مدى طالَ حتى يومه عندنا شهرُ  
ضرامٌ له في كلِّ جانحة جَمْرُ  
فعاد أجاجًا<sup>(١)</sup> بعدنا ذلك النهرُ

ومنها:

فلمَّا رأينا وجهَه صدق الزجرُ  
دجا الخطبُ لم يكذبٍ لِعَزَمته فجرُ  
وهشَّت إلى تأميلة الأجمُ الزهرُ

بلادي التي عايطتُ مشمولة الهوى  
وجوي الذي ربي جناحي وكرهُ  
نبتت بي لا عن جفوةٍ وملالة  
ولكنَّها الدنيا قليلٌ متاعُها  
فمن لي بنيلِ القربِ منها ودوننا  
ولله عيننا من رأنا وللأسى  
بكيننا على النهرِ السرورِ عشيةً

ومنها:

لتنصفنا ممَّا جنى عبدك الدهرُ  
وأنت الذي تُرجى إذا أخلفَ القطرُ  
كسيرٌ، ومن عليك يُلتمسُ النصرُ  
فإن كنتَ تبغي الفخرَ قد جاءك الفخرُ  
موتقةٌ قد حلَّ عقدتها الغدرُ  
وقلدهُ نِعماك التي ما لها حَصْرُ  
فقد صدَّهم من التغلُّبِ والقهرُ  
تحاولُها يَمناك ما بعدها حُسْرُ

زجرنا بابراهيمَ ملءَ هُمومنا  
بمنتجب من آل يعقوبَ كلِّما  
أطاعته حتى العُصم<sup>(٢)</sup> في قن<sup>(٣)</sup> الربي

قصداك يا مولى الملوك على النوى  
وأنت الذي تُدعى إذا دهم الردى  
وهذا ابن نصرٍ قد أتى وجناحهُ  
غريبٌ يُرجي منك ما أنت أهله  
فعدُّ يا أميرَ المؤمنين لبيعةٍ  
أعده إلى أوطانه عنك راضيا  
وعاجلُ قلوبِ الناسِ فيه بجبرها  
وهم يرقبون الفعلَ منك وصفقةً

(١) الأجاج: الملحُّ المرُّ من الماء.

(٢) ما امتنع على الطالبِ وبات منيبًا.

(٣) مفردا فقه: قبة الجبل.

وبقي ابن الأحمر محمّد، ووزيره ابن الخطيب على الرّحب والسعة والإجلال والكرامة، في حاضرة ابن مرّين إلى أن كان ارتجاع محمّد ملكه لسنة ٧٦٣.

### - خبير لسان الدين بن الخطيب ووزير غرناطة

ولنذكر هنا قول الوزير ابن الخطيب عن هذه الحادثة في تأليفه المسمّى بـ"اللمحة البدرية بالدول النصرية"، وهو "إنّه كان السلطان أبو عبد الله عند تصير الأمر إليه، قد ألزم أخاه اسماعيل قصرًا من قصور أبيه بجوار داره، مرّفها عليه، متممّة وظائفه، وأسكن معه أمّه وأخواته منها، وقد استأثرت يوم وفاة والده بمالٍ جمّ، فوجدت به السبيل إلى السعي لولدها، فجعلت تواصل زيارة ابنتها، التي عقد لها الوالد مع ابن عمّه الرئيس أبي عبد الله ابن الرئيس أبي الوليد، ابن الرئيس أبي عبد الله، المُبايع له بأندرش ابن الرئيس أبي سعيد جدّهم الذي تجمعهم جرثومته<sup>(١)</sup>، وشمرّ الصهر المذكور عن ساعد عزمه، وهو على ما هو عليه من الإقدام، ومُدخالته ذوبان الرجال، واستعان بمن أسفّته الدولة، وهفت به الأطماع، فتألّف منهم زهاء مائة قصدوا جهة من جهات القلعة متستمين<sup>(٢)</sup> شقًا<sup>(٣)</sup> صعب المرتقى، واتخذوا آلة تدرك ذروته ليعود بنية كانت به، عن التمام، وكبسوا<sup>(٤)</sup> حرسياً<sup>(٥)</sup> بأعلاه بما اقتضى صماته<sup>(٦)</sup>، ونزلوا إلى القلعة، سحر الليلة الثامنة والعشرين من شهر رمضان، عام ستين وسبعمائه، فاستظهروا بالمشاعل والصراخ، وعالجوا دار الحاجب رضوان، ففضّوا إغلاقها، ودخلوها فقتلوه بين أهله وولده، وانتهوا ما اشتملت عليه، وأسرعت طائفة مع الرئيس فاستخرجت الأمير المعتقل اسماعيل، وقُرعت الطبول ونودي بدعوته.

وقد كان أخوه السلطان متحوّلاً إلى سكنى الجحّة، المنسوبة للعرّيف، لصق داره، فما راعه إلاّ النداء والعجيج وقرع الطبول، وهبّ إلى الدخول إلى القلعة، فألفاها قد أخذت دونه شعابها، ورشقتة السهام فرجع، وسدّده الله في محلّ الحَيْرَة، ودسّ له عِرْق الفحول

(١) أصله، والمقصود بها هنا الدم والأصل والعرق.

(٢) نَسَم الشيء: حَلّاه.

(٣) حرف كلّ شيء وحده، وفي التنزيل الحكيم ﴿وَكُتِمَ عَلَى شِفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ﴾.

(٤) فَجَمَّ - هَانِيَةً -

(٥) الحرسى: حارس السلطان خاصّة.

(٦) سكوته.

من قومه<sup>(١)</sup>، فامتطى صهوة فرس كان مرتبطاً عنده، وصبح مدينة وادي آش، وقد أعيا متبعه<sup>(٢)</sup>، فلم يشعر حافظ قصبته إلا وهو فيها، فأعطاه أهلها صفتهم، وتجهزت الحشود لمنزلته، وجدّد أخوه المتغلب، عقد السلم مع طاغية قشتالة، باحتياجه إلى سلم المسلمين، لجراء فتنة بينه وبين البرجلونيين.

واغتنب به أهل المدينة فذبّوا عنه<sup>(٣)</sup>، ورضوا بهلاك نعمتهم دونه، واستمرت الحال إلى يوم عيد النحر من عام التاريخ، ووصله رسول صاحب المغرب، مستنزلاً عنها، ومستدعيًا إلى حضرته، لما عجز عن إمسакها، وراسل ملك الروم فلم يجد عنده من موعول، فانصرف ثاني النحر، وتبعه جمع وافر إلى مربلة من ساحل إجازته، وكان وصوله إلى مدينة فاس مصحوبًا من البر والكرامة بما لا مزيد عليه، في السادس من المحرم فاتح عام ٧٦١، وركب السلطان للقائه، ونزل إليه عندما سلم عليه، وكنت قد لحقت به مفلتًا من شرك النكبة التي استأصلت المال، وأوهمت سوء الحال، بشفاععة السلطان أبي سالم، فقامت بين يديه منشدًا في المحفل المذكور (وذكر القصيدة الرائية حتى أتى على آخرها ثم قال): وفي صبيحة يوم السبت، السابع عشر من شوال عام اثنين وستين وسبعمئة، كان انصرافه إلى الأندلس، وقد أُلح صاحب قشتالة في طلبه، فعقد السلطان بقية العرض من جنة المصاراة، وبرز الناس، واستحضرت البنود والطبول والآلة، وألبس خلعة الملك وقيدت له مراكبه، فاستقل، وقد التف عليه كل من جلا عن الأندلس من لدن الكائنة<sup>(٤)</sup>، ورأى من رقة الناس وإجهاشهم وعلو أصواتهم بالدعاء ما قدّم به العهد، إذ كان مظنة<sup>(٥)</sup> ذلك سكونًا وعفًا وقربًا، قد ظلّله الله برواق الرحمة، وعطف عليه وشائج المحبة، إلى كونه مظلوم العقد، منتزع الحق، فتبعته الخواطر، وحميت عليه الأنفس، وانصرف لوجهته، وهو الآن برودة، مستقل بها وبجهاتها، ومقتنع برسم سلطنتها، وقد قام له برسم الوزارة، الشيخ القائد علي بن يوسف بن كماشة الحضرمي، وبكتابة الفقيه أبو عبد الله بن زمرك (تلميذ ابن الخطيب صاحب هذا القول)، وقد استفاض عنه من الحزم والتدرب والتيقظ والمعرفة بوجوه المصالح، ما لا ينكر " انتهى ببعض تصرف.

(١) أراد بها - هنا - خصه بقوم اتصلت بهم بطولة أجدادهم.

(٢) لحاقه.

(٣) دخلوا عنه.

(٤) كل من جلا من بشر.

(٥) متعلم، ولقد بها: علامة ذلك.

ثم استرجع السلطان المذكور حاضرة مُلكه حمراء غرناطة، وقتل له ملك قشتالة، المتزي على مُلكه من أبناء عمّه، وقد استوفى القصّة، كتاب من إنشاء الوزير لسان الدين بن الخطيب، عن سلطانه الغني بالله محمد المذكور، إلى الملك المنصور بن أحمد بن الناصر بن قلاوون، نقتطف منه بعض ما يناسب المقام، لصدوره عن شاهد للحوادث بجملتها، وواقف على دخلتها<sup>(١)</sup>، وشريك في أسبابها، وبحر<sup>(٢)</sup> في معرفة أنسابها وهو قوله: "إنَّ بعضًا مَن ينسب إلينا بوشائج الأعراق، لا بمكارم الأخلاق، ويمتُّ إلينا بالقرابة البعيدة، لا بالنسبة السعيدة، مَن كفلناه يتيمًا، وصنّاه ذميماً شتيمًا، وبوّأناه مُبوأً كريماً، بعد أن نشأ حرفوشًا ذميماً، وملعونًا لثيمًا، ونوّهناه من خموله بالولاية، ونسخنا حكم نسجه بأية العناية، داخل أخًا لنا كُنّا أئزمناه الاقتصار على قصره، ولم نجعل أداة تدلّ على حصره، وسامحناه في كثير من أمره، ولم نرتّب بزئده ولا عمّره، واغتررنا برماد علا على جمره، فاستدعى له من الصعاليك شيعة من كلّ درب بفكّ الأغلاق، وتسربّ أنفاق النفاق، وخارق للإجماع والإصفاق<sup>(٣)</sup>، وخير بمكان الخراب ومذاهب الفساق<sup>(٤)</sup>، وتسوّر بهم القلعة من ثلم شرع في سدّه، بعد هدّه ولم تكمل الأقدار المميّزة في ليلة آثرنا بيتنا ببعض البساتين خارج قصورنا، واستنبتنا مَن يضلّع بأمرنا، فاستتمّ الحيلة التي شرعها، واقتحم القلعة وافترعها، وجدّل حرس النوبة وصرعها، وكبس محلّ النائب عتًا وجدّ له<sup>(٥)</sup>، ولم ينشب أن جدله، واستخرج الأخ البائس فنصبه، وشدّ به تاج الولاية وعصبه، وابتزّ أمرنا وغصبه، وتوهّم الناس أنّ الحادثة على ذاتنا قد تمّت، والدائرة بنا قد أتمّت، ولقد همّت، فخذل الناصر، وانقطعت الأواصر، وأقدم المُتقاصر، واقتحمت الأبهاء والمقاصر، وتفرقت الأجزاء وتحلّلت العناصر، وفُقد من عين الأعيان النور الباصر، فأعطوه طاعة معروفة، وأصبحت الوجوه إليه مصروفة، وركضنا، وسرعان الخيل تقفو أثر منجاتنا والظلام يخفيها، وتكفي علينا السماء والله يكفيها، إلى أن خلصنا إلى مدينة وادي آش خلوص القمر من السرار، لا نملك إلّا نفسًا مسلّمة لحكم الأقدار".

إلى أن يقول: "ولم ينشب الشقيّ الخزيّ أن قتل البائس الذي موّه بزيفه، وطوّقه

(١) عارفاً بما فيها.

(٢) مُتعمّق.

(٣) الإطباق بمعنى الاتفاق على أمر واحد.

(٤) الفجور والمفروج عن الحقّ.

(٥) صلّبه وصرعّه.

سيفه، ودلَّ ركب المخافة على خيفة إذ أمن المضعوف من كيده، وجعل ضِرغامه بازياً لصيده، واستقلَّ على أريكته، استقلال الظليم على تريكته<sup>(١)</sup>، حاسر الهامة، متنقفاً<sup>(٢)</sup> بالشجاعة والشهامة.

إلى أن يقول: "وطلعت شمس دعوتنا من المغرب، فقامت عليها الساعة، وركبنا البحر تكاد جهته تتقارب تيسيراً، ورياحه لا تعرف غير وجهتنا مسيراً، وأخذت الخائن الصيحة فاخْتَبِل<sup>(٣)</sup>، وظهر تهوُّره الذي عليه جُبِل، فجمع أوباشه السفلة وأوشابه<sup>(٤)</sup>، وبهَّرجه<sup>(٥)</sup> الذي غشَّ به المحض وشابه، وعمد إلى الذخيرة التي صانتها الأغلاق الحريزة، والمعازل العريزة، فملاً بها المناطق، واستوعب الصامت والناطق، والوُشُح القُراطق<sup>(٦)</sup>، واحتمل عدد الحرب والزينة، وخرج ليلاً عن المدينة، واقتضت آراؤه الفائلة، ونعامته الشائلة، ودولة بغية الزائلة، أن يقصد طاغية الروم من غير عهد اقتضى وثيقته، ولا أمر عرف حقيقته، إلا ما أمل اشتراطه من تبديل الكلمة، واستئصال الأمة المسلمة، فلم يكن إلا أن تحصَّل في قبضته، ودنا من مضجع ريبضته، واستشار نصحاءه في أمره، وحكَّم الحيلة في جناية غدره، وشهره ببلده، وتولَّى قتله بيده، وأحق به جميع مَن أمدَّه في غيِّه، وظاهره على سوء سعيه، وبعث إلينا برؤوسهم، فنُصبت بمسور غدرها، وقلَّدت لَبَّة<sup>(٧)</sup> تلك البَيْتة بشذرها<sup>(٨)</sup>" إلى آخر ما قال.

وفي هذه الواقعة، نَظَم لسان الدين قصيدته اللامية المشهورة، ووجَّه بها، إلى سلطانه المذكور، فيقال إنَّه لشدة إعجابها بها أمر بكتابتها على جدران الحمراء ومطلعها:

الحقُّ يعلو والأباطلُ تسفلُ	والحقُّ عن أحكامِه لا يسألُ
وإذا استخالتَّ حالةٌ وتبدَّلتْ	فالله عزَّ وجلَّ لا يتبدَّلُ
واليسرُ بعد العسر موعودٌ به	والصبرُ بالفرجِ القريبِ موكَّلُ
أحمدُ والحمدُ منك سجيَّةٌ	بحليِّها دون الوريِّ تتجملُ

(١) امرأة تُترك لا تتزوَّج.

(٢) تنفق بالشيء، ادَّعاه ونظَّاه به.

(٣) جُنَّ.

(٤) أخلاط متفرقة.

(٥) الباطل والردى.

(٦) من جموع وشاح، وهما، الثوب المطرز بالجواهر، والقُراطق، جمع قُرطق: لفظ فارسي مُعرَّب: ثوب ذو طاق واحد، يُلبَس فوق الثياب.

(٧) لسفل العنق.

(٨) اللؤلؤ والجواهر الصغار.

أما سعودك فهو دون مُنازع  
ومنها:

عوذُ كمالك ما استطعت فإِنَّهُ  
تابَ الزمانُ إليكَ ممّا قد جنى  
إن كان ماضٍ من زمانك قد مضى  
هذا بذاك فشققِ الجاني الذي  
والله قد ولّك أمرَ عبادِهِ  
وإذا تغمّدك الإلهُ بنصرِهِ  
وظننت<sup>(١)</sup> عن أوطانٍ مُلكِك راكبًا  
والبحرُ قد حنيتَ عليكِ صلوعُهُ  
ولك الجوارى المنشكت وقد اغتدت  
جوفاءَ يحملُها ومَن حملت بهِ

ومنها:

صَبَحَتْهُمُ غُرُرُ الجِيادِ كأنما  
من كلِّ منجردٍ أغرُّ مُحجَّل<sup>(٢)</sup>  
زَجِلُ الجِناحِ إذا أجدَّ لغايةِ

ومنها:

ويكلُّ أزرُق إن سَكَتَ الحَاظُهُ  
متاوِّدٌ أعطافُهُ في نَسْوَةٍ

عقدٌ بأحكامِ القضاءِ مُسجَلُ

قد تنقصُ الأشياءُ ممّا تكملُ  
والله يأمرُ بالمتابِ ويَقْبَلُ  
بإساءةٍ قد سرَّكَ المستقبلُ  
أرضاك في ما قد جناهُ الأولُ  
لَمّا أرتضاك ولايةً لا تُعزَلُ  
وقضى لك الحسنى فَمَنْ ذا يخذلُ  
مَنْ العُبابِ فأبى صبرٍ يَجْمَلُ  
والريحُ تقطعُ للزفيرِ وترسِلُ  
تختالُ في بُردِ الشِبابِ وترفُلُ  
مَنْ يَعْلَمُ الأُنثى وماذا تحمِلُ؟

سَدَّ الثَّنِيَّةَ<sup>(٣)</sup> عارضٌ مُتهلِّلُ  
يرمي الجِلادَ<sup>(٤)</sup> بهِ أغرُّ مُحجَّلُ  
وإذا تَغَنَّى للسهيلِ قُبْلُبُلُ

مَرَّةً<sup>(٥)</sup> العيونُ فبالعَجاجَةِ يُكْحَلُ  
ممّا يعلُّ<sup>(٦)</sup> من الدماءِ وينهلُ

(١) لم تحلت.

(٢) العَفَبَةُ أو طرفها، والجبل.

(٣) كتابة عن الحقل.

(٤) الشدة والصبر (قوله الكسائي).

(٥) مَرَّةً (غَرَمَتْ - مَرَمًا) عينه: فسدت وبيضت بواطن أجهته ترك الكحل.

(٦) جلى يجل ويعل؛ شرب ثانية أو تبارعا.

رمدٌ ولا يخفى عليه مقتلٌ

عجباً له إنَّ النجيعَ بطرفِهِ

ومنها:

وثباته مثلُ به يتملُّ

للهِ موقنك البذي وثباته

والسمرُ تنقُطُ والأسنةُ تشكُلُ

والخيلُ خطُّ والمجالُ صحيفةٌ

وعواملُ الأسل<sup>(١)</sup> المثقفُ تعمَلُ

والبيضُ قد كسرتَ حروفُ جفونها

إذ ثوبَ الداعي<sup>(٢)</sup> المهيبُ وأقبلوا

للهِ قومك عندَ مُشَجَّرِ القنا

حُجِّبوا براياتِ الجهادِ وظلَّلوا

قُرْمٌ إذا لَفَحَ الهَجِيرُ وجوههم

وقد كافأ محمد الخامس ملك قشتالة على غدره بخصمه ابن عمه، بمضافرته إيَّاه على أخيه، المنتزي عليه أيضاً، ولكن دارت الدائرة أخيراً على الملك، وتمكَّن أخوه من قتله، وفي خلال هذه الفتنة بقيت ثغورهم مما يلي أرض المسلمين عورة، وتشوَّف المسلمون إلى ارتجاع الجزيرة، وكان صاحب المغرب في شغل عن ذلك بانتقاض ابن أخيه، وعامر بن محمد، فراسل صاحب الأندلس على أن يزحف بعساكره، على أنَّ عليه الإمداد بالمال والأساطيل، فزحف ابن الأحمر بعساكره المسلمين، وأقلعت أساطيل صاحب المغرب من مرسى سبتة، وأحيط بالجزيرة، وصُيِّق على حاميتها، وبسوا من المدد فنزلوا عنها بالأمان، ودخلها المسلمون وذلك سنة ٧٧٠. وبعد ذلك رأى المسلمون هدمها، خشية ارتجاع الإسبانيول لها كما هدم صلاح الدين الأيوبي عسقلان لمثل هذه الغاية، فهدمت في سنة ٧٨٠، وأصبحت خاوية على عُروشها.

واستمرَّت أحوال غرناطة في مدَّة الغني بالله محمد الخامس على ما كانت عليه من الغبطة والسعادة، وأومضت تلك الدول إيماض الخمود، إذ لم تقم لها بعد هذا السلطان قائمة تُشكَّر، إلى أن قبض<sup>(٣)</sup> في عام ٧٩٨. وقام بالأمر بعده ابنه أبو عبد الله يوسف، والسلطان محمد هذا هو الذي استوزر لسان الدين بن الخطيب، أشهر وزراء الأندلس على الإطلاق، بل من أشهر رجال الأدب والسياسة في الأفاق، الذي بنى المقرَّب أكثر "نفع الطيب" على سيرته وأخباره ونثره ونظمه وأشياخه وتلامذته، بما لا أظنه جُمع عن أحد

(١) الرماح.

(٢) لَوْح بنوهِ ليرى.

(٣) توفى.

مثله، وحيث كان المقام تاريخ غرناطة في هذا الكتاب، وكان الوزير المذكور، مفخر ذلك البلد، وواسطة عقد ذلك الصقع، فلا بأس في إيراد زبدة خبره، بما أمكن من الإيجاز:

### - زبدة ترجمة لسان الدين الخطيب

ترجمه سليلُ السلطان الأمير العلامة أبو الوليد اسماعيل بن يوسف ابن السلطان القائم بأمر الله محمد بن الأحمر، نزيل فاس في كتابه المسمى "فرائد الجمان فيمن نظمنا وإياه الزمان" فقال: "ذو الوزارتين الفقيه الكاتب أبو عبد الله محمد بن الرئيس الفقيه الكاتب المنتزي ببلدة لَوْشَة عبد الله بن الفقيه الكاتب سعيد بن عبد الله بن الفقيه الصالح وليّ الله الخطيب سعيد السلماني اللوشي المعروف بأبن الخطيب".

وقال في منشأه: "نشأ على حالة حسنة، سالكًا سبيل أسلافه، فقرأ القرآن على المكتب الصالح أبي عبد الله بن عبد المولى العواد تَكْتَبًا<sup>(١)</sup>، ثم حفظًا ثم تجويدًا، ثم قرأ القرآن أيضًا على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيحاوي، وقرأ عليه العربية، وقرأ على الخطيب أبي القاسم بن جزري، ولازم قراءة العربية والفقه على الشيخ الإمام ابن الفخار البيري، وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبد الله بن بكر، وتآدب بالرئيس أبي الحسن بن الجيّاب"، إلى آخر من ذكر من أسيّاح الرجل الأعلام. ثم ذكر أخذه الطبّ وصناعة التعديل، عن الإمام يحيى بن هُذَيْل حكيم وقته.

وقال ابن خلدون، بنسقه المعروف، في شأن لسان الدين وكان معاصره وصاحبه<sup>(٢)</sup>:

(١) خطه يده.

ترجمة ابن خلدون:

(٢) كما ترجم ابن خلدون لسان الدين ترجمة لسان الدين في "الإحاطة بأخبار غرناطة" بما نصّه "عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي من ذرية عثمان أخي كريب المذكور في نيهام تُولر الأندلس، وتُنسب سلفهم إلى وائل بن حجر، وحاله في القدم على رسول الله (ﷺ)، معروفة انتقل سلفه من مدينة أشبيلية عن نباغة وتمعن وشهرة عند الحادثة بها أو قبل ذلك، فاستقرّ بتونس منهم ثاني المحدثين محمد بن الحسن وتنازلوا على حشمة وسراوة ورسوم حسنة، وتصرف جدّ المترجم به في القيادة، وأمّا المترجم به فهو رجل فاضل، حسن الخلق جمّ الفضائل، باهر الخصال رفيع القدر، ظاهر الحياء أميل الجهد، وقور المجلس خاصيّ الزيّ عالي الهمة، عزوف عن الضيم صعب المقادة، قويّ الجأش طامح لفتن الرئاسة خاطب للحفظ، بارع الخطّ مغرّى بالتجلة، جوّاد حسن العشرة، يبدول المشاركة مقيم لرسم التبعين، عاكف على رعيّ خلال الأصالة، مفخر من مفاخر التخرّم المغربية. قرأ القرآن ببلده على المكتب ابن برال، والعربية على المقرّي الزواوي وغيره، وتآدب بأبيه، وأخذ عن المحدث أبي عبد الله بن جابر الولادي أشي، وحضر مجلس القاضي أبي عبد الله بن عبد السلام، وروى عن الحافظ أبي عبد الله السطّي، والرئيس أبي محمد عبد المهين الحضرمي، ولازم العالم الشهير أبا عبد الله الإلهي واتّسع به. =

«أصل هذا الرجل من لَوْسَة، على مرحلة من غَرناطة، في الشمال من البسيط الذي في ساحتها المسمّى بالمرج، على وادي سنجيل ويقال شنيل، المنحرف فيه ذلك البسيط من الجنوب إلى الشمال، كان له بها سلف معروفون بوزارتها، وانتقل أبو عبد الله إلى غَرناطة واستُخدم للملك بني الأحمر، واستعمل على مخازن الطعام. ونشأ ابنه محمّد هذا بَغَرناطة، وقرأ وتادّب على مشيختها. واختصّ بصحبة الحكيم المشهور يحيى بن هُذيل، وأخذ عنه العلوم الفلسفية، وبرز في الطبّ، وانتحل الأدب، وأخذ عن أشياخه، وامتلأ حوضُ السلطان من نظمه ونثره، مع انتقاء الجيد منه، وبلغ في الشعر والترسيل حيث لا يُجاري فيهما، وامتحح السلطان أبا الحجّاج من ملوك بني الأحمر، وملاً الدولة بمدائحهم، وانتشرت في الآفاق. فرقاه السلطان إلى خدمته، وأثبت في ديوان الكتاب ببابه مروّساً بأبي الحسن بن الجيّاب، شيخ العُدوتين في النظم والنثر وسائر العلوم الأدبية، إلى أن هَلَكَ في الطاعون الجارف، سنة تسع وأربعين وسبعمائة، فولّى السلطان أبو الحجّاج يومئذٍ محمّد بن الخطيب

- اتصرف من أفريقية منشأ بعد أن تملّق بالخدمة السلطانية على الحدائق وقاتته لرسم العلامة بحكم الاستابة عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة، وهرق فضله وخطبه السلطان منفق سوق العلم والأدب أبو هنان فارس بن علي بن عثمان، واستحضره مجلس المذاكرة، فصرف حقّه، وأوجب فضله، واستعمله على الكتابة أوائل عام ستّة وخمسين. ثمّ عظم عليه حمل الخاصّة من طلبة الحضرة لبعده عن حسن التآهي. وشغفه بتحروب الفهم وجود الإدراك. فأغرّوا به السلطان إغراء عضده ما جبل عليه عهدئذٍ من إغفال التحفّظ ممّا يريب لديه فأصابته شقّة».

إلى أن يقول: «ودالت الدولة إلى السلطان أبي سالم، وكان له به الاتصال قبل تسوّغ الحنّة بما أكّد حظوته، فقلّده ديوان الإنشاء مطلقاً. الجرايات محرّرة السهام نبيه الرتبة إلى آخر أيامه، ولما ألفت الدولة مقادها بعده إلى الوزير عمر بن عبد الله منبر الأمر، وله إليه وسيلة، وفي حليه شركة، وعنده حقّ، رابه تقصيره عمّا لزمه إليه أمهه، فساء ما بينهما بما آل انفصاله عن الباب المريني. وورد على الأندلس في أول ربيع الأول عام أربعة وستين وسبعمائة، واهتمّ له السلطان، وأركب خاصّته لتلقيه، وأكرم وفادته، وخلع عليه، وأجلسه بمجلسه، ولم يذخر عنه برّاً ومواكلة ومراكبة ومطايبة وفكاهة (قال) وهو الآن بحالته الموصوفة من الوجاهة والمخفّوة، قد استعمل في السفّارة إلى ملك قشتالة، فراقه وهرق حقّه، مولده بتونس بلده في شهر رمضان عام اثنين وثلاثين وسبعمائة».

ووصفه في الكتابة فقال: «ولمّا تره وسلطانيّته السجعيّة فخلج بلاغة ورياض فنون ومعادن إبداع، يفرغ منها براعه الجري، شبيهة الندامات بالخوارزم في ندوة المحروف، وقرب المعهد بحريّة المدا، ونفوذ أمر القرية واسترسال الطبع. ولما نظمه فنهض لهذا العهد قدماً في ميدان الشعر، ونقده باعتبار أساليبه، فانتال عليه جوّه وهان عليه صعبه». إلخ...

وأما قال لهذا العهد لأنّ أبو خلدون في البداية كان يستصعب النظم، وينسب ذلك لكثرة ما يحفظ من المتن وكسب الأصول. وقد ذكر في مقدمته أنّه ذاكر في ذلك صاحبه الوزير ابن الخطيب، وشكا إليه ضعف ملكته في النظم، بما ظنّ من السبب، فأجابه و: «له أنت وهل يقول هنا إلا مطلق...»

هذا وقد ذكر ابن خلدون في تعريفه نفسه آخر التاريخ أنّه في آخر مقامه بَغَرناطة اشتّم من الوزير ابن الخطيب رائحة الانقباض مع استياده بالدولة. فاستأذن السلطان ابن الأحمر في الارتحال، وعمى عليه ذلك الشأن إقبّاة للمؤدّة، وارتحل مكرّماً، ولقد صحّ بذلك ما قاله ابن الخطيب في حقّه من أنّه صعب المقاداة عزوف عن الضيم، إلخ... رحم الله الاثنين فقد كان كلّ خيراً بصاحبه.

هذا، رئاسة الكتاب ببابه، وثناه بالوزارة ولقبه بها، فاستقلّ بذلك، وصدرت عنه غرائب من الترسيل في مكاتبات جيرانهم من ملوك العُدوة، ثمّ داخله السلطان في تولية العمال على يديه بالمشارطات، فجمع بها أموالا، وبلغ به المخالصة إلى حيث لم يبلغ بأحد من قبله“ (إلى أن قال):

”ثمّ هلكَ السلطان أبو الحجاج سنة خمس وخمسين؛ عدا عليه بعض الزعانف يوم الفطر بالمسجد في سجوده للصلاة وطعنه، فأثواه لوقته، وتعاورت سيوف الموالي المملوحي“ (١) هذا القاتل، فمزّقه أشلاء، وبويح ابنه محمّد بالأمر لوقته، وقام بأمره مولاهم رضوان، الراسخ القدم في قيادة عساكرهم، وكفالة الأصاغر من ملوكهم، واستبدّ بالدولة، وأفرد ابن الخطيب بوزارته، كما كان لأبيه، واتخذ لكتابه غيره، وجعل ابن الخطيب رديفاً له في أمره، وتشاركا في الاستبداد معاً، فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة، ثمّ بعثوا الوزير بن الخطيب سفيراً إلى السلطان أبي عنان، مستمدين له على عدوهم الطاغية، على عادتهم مع سلفه، فلما قدم على السلطان، ومثل بين يديه، تقدّم الوفد الذين معه من وزراء الأندلس وفقهائها، واستأذنه في إنشاد شيء من الشعر، يقدمه بين يدي نجواه، فأذن له وأنشد وهو قائم:

عُلاك ما لاح في الدجى قمرُ	خليفة الله ساعد القدرُ
ما ليس يسطيع دفعه البشرُ	ودافعتُ عنك كف قدرته
لنا وفي المحل كفك المطرُ	وجهُك في النائبات بدرُ دجى
لولاك ما أوطنوا ولا عمروا	والناس طراً بأرض أندلسِ
ما جحدوا نعمة ولا كفروا	ومن به مُدّ وصلت حبلهمُ
فوجهوني إليك وانتظروا	وقد أهمتهم نفوسهمُ

فاهتزّ السلطان لهذه الأبيات، وأذن له في الجلوس، وقال له قبل أن يجلس: ”ما ترجع إليهم إلا بجميع عطائهم“ ثمّ أثقل كاهلهم بالإحسان، وردّهم بجميع ما طلبوه، ومكثت دولتهم هذه بالأندلس خمس سنين، ثمّ نازلهم محمّد الرئيس ابن عمّ السلطان“. وذكر القصة السالفة من إجازة ابن الأحمر، ووزيره ابن الخطيب إلى المغرب إلى أن قال:

(١) جمع علاج على علوج وإعلاج ومملوحي والظاهر أن الأخير مختار أهل المغرب لتناوله في كتابتهم.

"واستأذن أي ابن الخطيب في التحول إلى جهات مراكش، والوقوف على آثار الملك بها، فأذن له وكتب إلى العمال بإتحافه، فتبادروا في ذلك، وحصل منه على حظ، وعندما مرّ (بسلا) عند فقوله من سفره، دخل مقبرة الملوك بشالة، ووقف على قبر السلطان أبي الحسن، وأنشد قصيدته على رويّ الرءاء الموصولة يرثيه، ويستثير به إلى استرجاع ضياعه بفرّ ناطة مطلعها:

إن بان منزله وشطّت<sup>(١)</sup> داره      قامت مقام عيانه أخباره  
قسّم زمانك عبرة أو عبرة      هذا ثراه وهذه آثاره<sup>(٢)</sup>

إلى آخر ما ذكر من ترجمته.

ولا بأس في نقل شيء مما ترجم به ابن الخطيب نفسه، نرويه ببعض تصرف حبا بالاختصار قال: "محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني، قرطبي الأصل ثم طليطليّه، ثم لوشيه، ثم غرناطية، يكتى أبا عبد الله، ويلقب من الألقاب المشرقية، لسان الدين، انتقلوا مع أعلام الجالية القرطبية كبحي بن يحيى الليثي في واقعة الربض<sup>(٣)</sup> الشهيرة إلى طليطلة، ثم تسربوا محومين إلى وطنهم قبل استيلاء الطاغية عليه، فاستقرّ منهم بالموستة الأندلسية جملة من النبهاء، كعبد الرحمن قاضي كورة باغة، وسعيد المستوطن بلوشه، وكان سعيد هذا من أهل العلم والدين، وخلفه ولده عبد الله سالكا مسلك أبيه في التزهي بالانقباض والتحلّي بالنزاهة، وخلفه ولده سعيد جدنا الأقرب، وكان صدرا خيرا مستوليا على خلال حميدة، من خطّ وتلاوة وفقه وحساب وأدب، تحول إلى غرناطة عند ثورة جيرته بني الطنجالي الهاشميين، وصاهر بها الأعيان من بني أضحي بن عبد اللطيف الهمداني أشرف جند حمص، الداخلين إلى الجزيرة في طلعة بلج بن بشر القسيري، توفي سنة ثلاث وثمانين وستمائة. وتخلّف والدي نابتا في الترف، نبت العليق، يكنفه رعي أم تجرّ ذيل نعمة، وتحنو منه على واحد تحذر عليه النسيم إذا سرى، ففاته لترفه حظ كبير من الاجتهاد، وعلى ذلك فقرأ على بعض الجلّة<sup>(٤)</sup>، وانتقل إلى لوشة بلد سلفه، مخصوصا

(١) بقّد.

(٢) ملخص هذه الواقعة أنّ أهل ربض قرطبة ثاروا على الحكم الأموي، وفيهم علماء أكابر مثل يحيى بن يحيى الليثي وغيرهم فهزمهم الحكم، وقتل من قتل منهم، وأجلى الباقين إلى الإسكندرية، فلم يكل الأمر أن حصلت فتنة أجلتهم إلى إفريطش - أو كريد - في الأيام فمضروها، واحتطروا بها مدينة قنبا التي يقال إنّ اسمها بالعربي الخندق لكونهم أداروا عليها خندقا، وكانت لهم بها إمارة استمرت نحو سبعين سنة. ثم رجعت الجزيرة للروم في ذلك الوقت.

(٣) سادة عظام ذور جلال.

بلقب الوزارة، إلى أن قصدها أبو الوليد متخطياً إلى الحضرة<sup>(١)</sup>، فعضد أمره وأدخله بلده لدواعٍ يطول استقصاؤها. ولَمَّا تَمَّ له الأمر صحب ركابه إلى دار مُلكه، مستأثراً بِشِفْص<sup>(٢)</sup> عريض من دنياه، وكان من رجال الكمال طلق الوجه، وتضمّن كتاب المحلّى والإحاطة، رائقاً من شعره، وقُدِّد في الكائنة العظمى، بطريف، يوم الاثنين، سابع جمادى الأولى، سنة واحد وأربعين وسبعمائة، ثابت الجأش غير جزوع ولا هَيَّابَة.

حدّثني الخطيب أبو عبد الله بن اللوشي قال: "كبا بأخيك الطرف<sup>(٣)</sup>، وقد غَشِيَّ العدوّ، وجنحت إلى أردافه،<sup>(٤)</sup> فانحدر إليه والدك وصرفتي وقال: (أنا أوّلَى به فكان آخر العهد بهما)" قال: "وخلفني - أي عبد الله - عالي الدرجة، شهير الحِطَّة، مشمولاً بالقبول، فقلّدتني السلطان سرّه ولما يُستكمل الشباب، معززة بالقيادة، ورسوم الوزارة، واستعلمني في السفارة إلى الملوك، واستتابني بدار مُلكه، ورمى إلى يدي بخاتمه وسيفه، واثنمتني على صوان حضرته، وبيت ماله، وسجوف<sup>(٥)</sup> حَرَمِه، ومعقل امتناعه. ولَمَّا هلك السلطان ضاعف ولده حظوتي، وقصر المشورة على نُصحِي، إلى أن كانت عليه الكائنة، فاقنتي في أخوه المتغلب على الأمر به، فسجّل الاختصاص وعقد القلادة.

ثمّ حمّله أهل الشحاء من أعوان ثورته، على القبض عليّ فَتَقَبَّضَ عليّ، ونكث ما أبرم من أمانِي، واعتقلت بحال ترفيه. وبعد أن كُبيست المنازل والدُّور، واستُكثِر من الحرس، وحُتم على الأغلاق، واستوصلت نعمة لم تكن بالأندلس من ذوات النظائر، في تبحر الغلّة وفراهة الحيوان وغِبطة العقار واستجادة العُدّة ووفور الكتب،... إلخ. فأخذ ذلك البيع، وتناهبتها الأسواق، وصاحبها البَحْس وشمل الخاصّة والأقارب الطلب، واستخلصت القرى، وانصرف اللسان إلى ذكر الله تعالى، وطبقت نكبة مصحفية مطلوبها الذات وسببها المال حسبما قلت:

تخلّصت منها نكبة مصحفية      لفقداني المنصور من آل عامر

(يشير إلى نكبة المصحفي أيام المنصور بن أبي عامر) ووصلت الشفاعة فيّ، مُكْتَبَة

(١) غرناطة.

(٢) نصيب.

(٣) أخذه الناس.

(٤) أي.

(٥) ملئت إلى أتباعه.

(٦) مفرداً سجعاً: السّتر.

بخطّ ملك المغرب، وجعل خلاصي شرطاً في حلّ العقدة، ومسألة الدولة، فانتقلت صُحبة سلطاني المكفور الحقّ إلى المغرب، وبالغ ملكه في برّي، منزلاً رجباً، وعيشاً خفصاً، واقطاعاً جمّاً، وجراية ما وراءها مرمي، ثمّ أسعف قصدي في تهيبّ الخلوّة، بمدينة سلا: منوّه الصكوك، مهتأ القرار، متفقداً باللهي، موفور الحاشية، مُحلّي بيني وبين إصلاح معادي، إلى أن ردّ الله تعالى على السلطان أمير المسلمين أبي عبد الله (محمّد الخامس) ابن أمير المسلمين أبي الحجاج ملكه، فطالبني بوعده ضربته؛ ولم يوسعني عندي، ولا فسح في الترك مجالاً. فقدمتُ عليه بولده على حالٍ من التقسّف والزهد في ما بيده، فرمى إليّ بمقاليد رأيه، وغطّى من جفاء لي بحلمه، وحتّاً<sup>(١)</sup> في وجوه شهواته تراب زجرني، وصرف هواي في التحوّل ثانياً، فاستعنت الله تعالى وعاملت وجهه فيه، من غير تلبّس بجراية<sup>(٢)</sup>، ولا تشبّث بولاية، مقتصرّاً على الكفاية، خامل المركب، هاجر الزخرف، صادعاً بالحقّ في أسواق الباطل، كأفا عن السخال<sup>(٣)</sup> برائن<sup>(٤)</sup> السباع... إلخ“ انتهى.

وبقي ابن الخطيب في وزارة أبي عبد الله محمّد، إلى أن غصّت بأمره حاشية السلطان، فدبّت في حقّه عقارب السعاية<sup>(٥)</sup>، وتوهّم ابن الخطيب، ميّل سلطانه إلى قبولها، فأجمع التحوّل عن الأندلس إلى المغرب، واستأذن مولاه في تفقّد الثغور الغربية، وسار إليها في لمة من فرسانه، ومعه ابنه علي، فلما حاذى جبل طارق مال إليه، ومنه أجاز إلى سبتة ومنها قصد السلطان عبد العزيز ابن السلطان أبي الحسن المريني، وكان مكيّناً لديه لسابق عهد، فأنزله خير نزل؛ وبعث كاتبه أبا يحيى ابن أبي مدين سفيراً إلى الأندلس في طلب أهله وولده، فجاء بهم على أكمل الحالات. فلما خلا الجوّ لأعدائه أخذوا تتبّع سقطاته وإغراء سلطانه محمّد به؛ ورموه بالزندقة، ونسبوا إليه في ذلك كلمات، رُفِعت إلى قاضي غرناطة أبي الحسن ابن الحسن فسجّلها عليه، وبعثه ابن الأحمر إلى سلطان المغرب يطلب الانتقام منه بتلك الكلمات. فأبى ذلك عبد العزيز أنفة لذمّته أن تُخفر، ونزّله<sup>(٦)</sup> أن يُهان وقال: “هلاً انتقمتم منه وهو عندكم، وأنتم عالمون بما كان عليه؟!“.

(١) قبضه ورماء.

(٢) وظيفة جارية.

(٣) مفرداً سخلة: ولد الشاة.

(٤) مَخَالِب.

(٥) النسيمة والوشاية.

(٦) ضيفه.

ولبت في جوار عبد العزيز إلى أن توفي سنة ٧٧٤. ورجع بنو مَرين من تِلْمَسَان إلى فاس، فصحب لسان الدين الوزير أبا بكر بن غازي، القائم بالدولة يومئذ. فأرسل ابن الأحمر يطلب من ابن غازي إسلام ابن الخطيب، فأبى واستنكف. وكان ابن الأحمر قد أعان أحمد بن سالم المريني على سُلطنة المغرب، وأمده. وبويع هذا، وجرت بينه وبين ابن غازي حروب، انتهت بانهزام ابن غازي وخضوعه، واستلم ابن الأحمر طعمة<sup>(١)</sup> على ذلك جبل الفتح، وإلى ذلك يشير الأمير الفاضل الرئيس أبو الوليد بن الأحمر بقوله: "حَتَّى خَيْمَ مولانا جدُّنا، بظاهر جبل الفتح، وكان إذ ذاك راجعاً إلى إيالة المغرب فأناخ عليه كَلْكَل<sup>(٢)</sup> الجيش، وأهمهم ثقل الوطأة، ولم يُيالِ مولانا جدُّنا بما أرسلت آتاء الليل وأطراف النهار، من شأبيب الأنفاط<sup>(٣)</sup>"، ولم يبقَ بَغْرانطة مَن له خلوص، ولا مَن تترامى به هِمة، إلَّا وأعمل السير الحثيث، ولَحِقَ بمولانا جدُّنا لحاقَ المحبِّ بالحبیب" ... إلخ.

وقال ابن خلدون: "إنَّ ابن الأحمر يومئذٍ محادٍ دولة بني مَرين من وراء البحر، وكان من جُملة شروط ابن الأحمر على السلطان أبي العباس أحمد بن أبي سالم، عدا جبل الفتح، تسليم لسان الدين بن الخطيب لما كان موغراً صدره منه، ولا سِيماً بعد أن بلغه أنه كان يُغري عبد العزيز بافتتاح الأندلس. فلَمَّا استولى السلطان أبو العباس أحمد، قبض على ابن الخطيب وكان سليمان بن داود شديد العداوة للسان الدين، لمنعه ابن الأحمر أيام وزارته، من تقليده مشيخة الغزاة بالأندلس. فلَمَّا قبض عليه، طار الخبر إلى سلطان غرناطة فأرسل وزيره، بعد ابن الخطيب، أبا عبد الله ابن زمرك، وهو تلميذ لسان الدين وخرّيجه، فأحضر ابن الخطيب في مجلس الخاصّة، وعرض عليه بعض كلمات وقعت له في كتابه في المحبّة، فعظّم فيها النكير ووبّخ وعزّر بمشهد الملاء، ثمَّ نُقِلَ إلى محبسه، حيث دَسَّ عليه سليمان بن داود مَن قَتَلَه، وأخرج سُلوّه من الغد، فدُفِنَ بِمَقْبَرَةِ باب المحروق، ثمَّ أُخْرِجَ من قبره، وأحرقَ ثمَّ أُعيدَ إلى الحفرة. وعزِي ذلك إلى سليمان". ولهذا سُمِّيَ لسان الدين بذي القَبْرَيْنِ، كما كان يلقَّب بذي الوزارتين، وكما جاء في كثير من الأمور على اثنين.

وكان صدر زمانه في الكتابة والشعر، بحيث أنَّ المغرب ليفتخر بخاتمي ابن الخطيب وابن خلدون، كما يفخر الشرق بصادّي الصابني والصاحب<sup>(٤)</sup>.

(١) مكالة.

(٢) صدر البحر؛ والمقصود بها، ألقى عليه بخل جشه.

(٣) أي الأمطار الغزيرة، كالنيل الجارف.

(٤) الصاحب ابن عبّاد.

ولابن الخطيب تكليف جمّة أشهرها: كتاب "التعريف بالحلب الشريف"، و"الإحاطة بتاريخ غرناطة" في مجلّدات ستّة، و"الإشارة إلى آداب الوزارة"، و"التاج المحلّي"، و"الكعبة الكامنة في أدباء المائة الثامنة"، و"الإكليل الزاهر فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر" و"رقم الحلل في نظم الدول"، و"طرفة العصر في دولة بني نصر"، و"بستان الدول"، قسّمه إلى شجرات، أشبه بالنظارات في هذه الأيام، فقال مثلاً: شجرة السلطان، وشجرة الوزارة، وشجرة الكتابة، وشجرة الجهاد، وقسّم هذه فرعين خيول وأسطول، كل ذلك على وضع غريب لم يُسبق إليه. وكتاب "تخليص الذهب"، و"جيش التوشيح"، و"عائد الصلة"، و"نفاضة الجراب"، و"الزبدة الممخوضة"، و"كُناسة الدكان، بعد انتقال السكّان"، و"الدرر الفاخرة"، و"سدّ الذريعة"، و"أعمال الأعلام، فيمن بوع قبل الإحتلام، من ملوك الإسلام"، وبضعة تاليف في الطبّ، وعدّة رسائل منها: "خلع الرسن، في أمر القاضي أبي الحسن"، ترجم بها القاضي أبا الحسن بن الحسن عدوّه، و"ديوان كبير"، وقد استوفى صاحب النصح<sup>(١)</sup> في شأنه ما لم يُبقِ في القوس منزِعاً<sup>(٢)</sup>.

ولنعدّ إلى ذكر بني الأحمر أصحاب غرناطة فنقول: بعد وفاة أبي عبد الله محمّد الخامس، الذي كان واسطة عقد هذا البيت، تولّى الأمر، ابنه أبو الحجاج يوسف، فجذّد عقد السلم مع ملوك قشتالة، وهادن الإسبانيول طمعاً في راحة رعيته، واعتنى بإصلاح شؤون قومه، إلا أنّ ابنه الثاني محمّداً قام عليه، وحدّثه نفسه بالإمارة، وقضى مدّته في مدافعة ابنه إلى أن توفاه الله في سنة ٧٩٩.

وكانت القاعدة أن يخلفه ولده البكر يوسف، لكن حيث كان أخوه محمّد<sup>(٣)</sup> هو المنتزعي على الملك، وقد التفّ حوله جماعة من رجال الدولة، فقد أجلسوه على كرسي الإمارة وهو السادس بأسم محمّد من سلاطين غرناطة، وفي مدّته لم تفتقر المناوشات مع الإسبانيول على حدود المملكة، وفي عام ٨١١ أتمّ أنفاسه، وجيء بأخيه البكر يوسف الثالث

(١) العلامة المقرئ.

(٢) عبارة تُقال لمن استوفى الأمر كله، ولم يُبقِ منه شيئاً.

(٣) أمّا ما ينهم من قول الأمير الفاضل المؤلف اسماعيل بن يوسف بن محمّد الغني بالله بن الأحمر في ترجمة الوزير الكاتب أبي عبد الله بن زمرك خلف ابن الخطيب في وزارة دولتهم فهو أنّ وفاة يوسف وقعت قبل هذا التاريخ لقوله "إلى أن منّ الله بسراحه وأعادته إلى الحضرة في أول شهر رمضان المظلم من عام أربعة وتسعين وسبعمائة فكان ما كان من وفاة مولانا الولد رحمه الله تعالى وقيام أخينا محمّد مقامه بالأمر".

من اعتقاله، فبوع بالملك وهادن العدو ما استطاع، إلا أنه اضطرَّ أخيراً إلى ركوب الأستة<sup>(١)</sup>، ولم ينعقد الصلح إلا في نحو سنة ٨١٣.

### - اضطهاد إسبانية لمسلمي الأندلس ويهودها -

وفي تلك المدة كلّها، كانت دولتا قشتالة وأراغون، تتسابقان في تعذيب المدجنين الذين ذكرنا أنهم المسلمون الخاضعون لحكومة الإشبانيول، وملوك الدولتين يتبارون في الانتقام منهم والنكال بهم، استزادة للمثوبة واستعلاء في درجات الآخرة، حسبما كانت عليه حالة ذلك العصر من التحمس الديني والتأخر المدني.

ففي قشتالة كان هنري أخو بطرّه قد جعل للمدجنين والإسرائيليين علامة فارقة اسمها "المشيرة"، وأمر بمنع اختلاطهم وأخذهم وعطائهم مع الإشبانيول، وأن لا يُقبل أحد منهم في خدمة الدولة.

وفي أيام جان الأول ملك قشتالة، صدرت الأوامر بأن كلّ مسيحي يرتب في بيته مدجّناً أو إسرائيلياً فله الحقّ كلّ الحقّ، أن يؤدّبه بالسياط، وأنه لا يجوز لمدجّن ولا ليهودي أن يستخدم عنده مسيحياً، وأن من خالف ذلك يُضرب وتُضبط أملاكه، كما أنه لا يجوز دخول مسلم ولا يهودي بيت أحد من الإشبانيول، إلا إذا كان طبيياً، وثبت لزومه، ومن خالف ذلك يغرّم بدفع ستة آلاف مراويد (نوع من السكّة).

### - خبير المدجنين -

وسنة ٨١١ هجرية، جدّد جان الثاني أمر سلفه في رفض المدجنين واليهود في خدمة الدولة، وضمّ إليه أن جزء المخالفة دفع ثلاثة آلاف مراويد، وأن كلّ من يسافر من المسلمين أو اليهود مع أحد الإشبانيول أو يؤاكلة أو يستخدمه في عمل له، يُجلّد مائة، وإذا تكرّر الفعل يؤخذ منه ألف مراويد ويكون ثلثاها للمُخبر، وإذا أُجِد أحد من هؤلاء في وليمة إشبانيولي يُغرّم بدفع ثلاثة آلاف، وإن عاد صاحباً له من الإشبانيول أثناء مرض، يدفع ثلاثمائة، وإن عاملهم بأخذ أو عطاء فيدفع الثلاثمائة ويُضرب ويُعزّر<sup>(٢)</sup>.

(١) مفردتها سبتان، وهو الرمح.

(٢) ويُنح ولائم.

وكانت في بادئ الأمر محاكم مخصوصة بالمدجنين، فألغيت في التالي وأحيلت دعاويهم إلى محاكم الإسبانيول، وصدرت الأوامر أيضًا بأن كلَّ مَنْ يُخْرِج مدجَّنًا من مزارعه، ويستخدم لحرثه مدجَّنًا بدلاً عنه، يغرَّم بخمسة آلاف مراويد، وإن تكرر فعله فبمائة ألف، وإن تكرر أيضًا فتضع الدولة يدها على جميع عقاراته، وإذا فرَّ مدجَّنٌ إلى غرناطة، ووقع أثناء فراره في يد الإسبانيول عُذَّ أسير حرب، وصُبطت جميع أمواله، وصار ملكًا لمن يمسكه.

وسنة ٨٢٦ أضيف إلى هذا الشرط أنَّ مَنْ منع من المدجَّنين ابنه من التنصّر عُذَّب شديدًا، ومَنْ أسر من مسلمي غرناطة أحدًا كان له ملكًا خالصًا.

وسنة ٨٣٠ صدرت الأوامر بعدم اعتبار إمضاء الإسبانيول في ما عليهم للمدجَّنين واليهود، وباعتبار إمضاء هؤلاء في ما عليهم للإسبانيول.

وسنة ٨٣٣ صدرت الأوامر أنَّ المسلم أو الإسرائيلي المدعى عليه بدين لأحد الإسبانيول إذا أنكره لا يُقبل منه اليمين، ولكن حيث كان بعض المدجَّنين واليهود يضمنون الأراضي الأميرية، ففي هذه الحالة يُقبل منهم اليمين عند الإنكار لعدم إلحاق الضرر بخزينة الدولة.

وسنة ٨٨٠ صدقت الملكة إيزابيلا جميع عهود جان الصغير، وأضافت عليها حظر لباس الحرير وحلية الذهب والفضة على المسلمين واليهود (عاملت المسلمين في ذلك بحكم شريعتهم لكن في الرجال فقط)، ووضعت لهم علامات فارقة في اللبس، ومن جملتها رقعة زرقاء عرضها أربع أصابع، لتمييز المسلمات والإسرائيليات.

وما كفى كلَّ هذا حتَّى نشرت حكومة قشتالة أمرًا لجميع عمال النواحي، بأنه بلغ الملكة وقوع إهمال في إنفاذ بعض الشروط بتمامها في حقَّ المدجَّنين واليهود، وأنه إن حصل فيما بعد أقلُّ تقاعس من أحد في تنفيذها بحرफها، يُعزَل من منصبه ويُحرَم معاشه.

وأما في مملكة أراغون، فكان يطره الثالث قد أعلن في نحو سنة ٦٨٠ هجرية أنَّ كلَّ شخص، مسيحيًّا كان أو مسلمًا أو إسرائيليًّا، يمكنه استيطان مملكته والإقامة بها حيث شاء، لكن يُنفى المسلمون واليهود من الخدمة العسكرية والمالية في الحكومة، ويحظر عليهم أن يُدينوا الإسبانيول مالاَّ بأكثر من فائدة عشرين في المائة، وأنَّ دعاويهم تُنظر عند الحكام ويُقبل فيها اليمين، على أنه إن كان لمسلم أو يهودي دين عند أحد الإسبانيول بدون سند

أو بيّنة خطية، فيُقبل قوله من تاريخ الدّين إلى خمسة عشر يوماً، ومن ثمة لا يعود مقبولاً. والسند الذي للمسلم أو الإسرائيلي على الإسبانيولي إن لم يُسجّل عند حكّام الإسبانيول، فبعد مضي ستّ سنوات يسقط اعتباره ويُلفى كلّ حكم له.

وسنة ٧٧٠ أصدر الدّون جان أمراً بأنّ مَنْ تنصّر من أبناء المدجّنين ومات أبوه، فله نصيبه من الإرث كما لو بقي مُسليماً.

وسنة ٧٨٠ صدرت الأوامر بأنّ كلّ مدجّن يفرّ إلى أرض غرناطة ويقع في اليد يُعتبر أسير حرب، وتُضبط أملاكه وتُقسم إلى ثلاثة أقسام الأول للملك والثاني لمن يكون قد قبض عليه، والثالث مناصفة بين صاحب الأرض التي أُبق<sup>(١)</sup> منها وصاحب الأرض التي تهيأ وقوعه فيها.

ثمّ منع المدجّنون من الجهر بالشهادتين واستعمال النفي، لما فيه من تحريك الجامعة وجوزي مَنْ يجاهر بسّيء من ذلك بالقتل.

وسنة ٨٩٠، أصدر الملك فرديناند صاحب أراغون، أمراً بمنع المدجّنين من الخروج من مملكته، وأنه إذا استصحب أحد الإسبانيول أحدًا منهم في خدمته لضرورة قضت، فيؤذن بشرط أن لا يكون مع المدجّن ولد دون الأربع عشرة من عمره، ذلك خوفاً من الفرار إلى بلاد الإسلام. إلى غير ذلك من آيات العدل (١) التي تواترت في كتب الإفريج، فلحّصنا منها ما قرأت، ولا عجب، فلولا هذه الغرائب، ولولا الإمعان في الظلم إلى هذه الدرجة، لما تأخّرت إسبانية إلى الحدّ الذي وصلت إليه، بعد أن كان لها من مركزها في أوروبا وافتتاح أميركا على يدها، وانبساط أيديها في مستعمرات الخائفين، ما يضمن لها المقام الأول بين الدول.

### - عود إلى ابن الأحمر -

ومن أخبار يوسف الثالث أنه كان في محبسه من سُلو بانية، واشتدّت علّة أخيه محمّد السادس، وقطع حبال الرجاء من هذه الحياة، طمع في تحويل المُلك إلى ابنه فكتب إلى قائد القلعة التي كان أخوه معتقلاً فيها، يأمره بضرب عنقه عند وصول كتابه لكيلا ينازع ابنه في المُلك، وآتفق عند وصول الكتاب أنّ يوسف كان يلعب بالشطرنج مع القائد، فلمّا دفع

(١) دَقَب مُستغنياً.

الرسول إليه مرسوم السلطان استأذن الأمير يوسف في قراءته وما عثم أن إمتنع لونه، فاستشفّ يوسف الأمر، وسأل القائد هل فيه أمرٌ بضرب عنقي؟ فتحير في الجواب فأخذ يوسف الكتاب وقرأه بدون أن يعلو وجهه أقلّ تغبير، ولَمَّا أتى على آخره تبسّم قائلاً للقائد: "لنُكْمَل لِعَبْنَا"، فلم يدر القائد كيف يلعب بعد ما شاهد من ربط جاش الأمير وسكيتته، ويقال إنهما كانا لم يزالا في اللعِب حينما أقبل فارس ينعي محمّداً السادس ويبيّنه بانتظار الناس حضوره لتبوء تخت الملك، وكانت أيام يوسف هذا موسومة بالخير لأهل غرناطة، وكان تما بلا<sup>(١)</sup> من حلو الدنيا ومُرّها، وحلَب من شَطْرِي<sup>(٢)</sup> عُرفها ونُكرها، قد أصبح على جانب من الحنان في قومه والرافة برعيته، فساس أمورهم سياسة الأب الشفيق، إلى أن وافاه أجلّه لخمس عشرة سنة من ملكه.

فقام بالأمر بعده ابنه محمّد اليساري أو الأيسر، فأكد عهود المصافاة مع مَنْ جاوره من الملوك، لكنّه لم يُحسِن الاضطلاع بالأعباء، فثار عليه أهل غرناطة وبايعوا محمّد الصغير من أبناء عمّه، وانسلّ محمّد الأيسر أو الأعسر، خفية من غرناطة في هبة<sup>(٣)</sup> ذلك، فلحق بساحل البحر ومنه تزيّاً بشباب بحري، وأجاز في فُلُك<sup>(٤)</sup> صغير إلى تونس، نزيلاً عند محمّد الناصر، ملكها مستغيثاً به، فأكرم نزله ووعدّه خيراً.

وأما محمّد الصغير فأخذ ينتقم مَن شايعوا ابن عمّه، وقد ورد في تواريخ الإفرنج أنه حاول لأجل ذلك نكبة يوسف بن سراج، من روساء غرناطة، ففرّ ابن سراج بأربعين فارساً من أهله وصحبه إلى ملك قشتالة، وداخله في أمر إعادة محمّد الأعسر. فكتب صاحب قشتالة إلى صاحب تونس، يسأله إرسال نزله الأعسر وهو يظاهاه على أمره<sup>(٥)</sup>، فأنفذه بألف وخمسمائة من رجاله، ولَمَّا وطأ أرض الأندلس، انحاز إليه الكثيرون، وأخرج محمّد الصغير عسكرياً للقائه، فانضمّ أكثرهم إليه ودخل غرناطة، فاعتصم محمّد الصغير بالحمراء، وبقي محصوراً إلى أن أسلمته حاميته بعد أن نال منهم جهد الحصار، فقتل، وكانت مدّة إمارته ستين وبضعة أشهر.

واستقرّ الأعسر في ملكه، وعضده في ذلك ملك قشتالة، أملاً بوهن عزيمته وسوء تدبيره، لكنّه رمى بآماله أبعد ما يمكن للأعسر قبوله، وطمح إلى إدخال سلطنة غرناطة تحت

(١) جزبه.

(٢) جرّهما وجرّهما.

(٣) كلّ ما لفرعك.

(٤) زورق.

(٥) يعاونه عليه.

جناح حمايته، فنشأ عن ذلك خلاف انتهى بالحرب، وماجت الثغور بالبعوث. وفي أثناء ذلك فرَّ يوسف بن الأحمر، الذي يقال إنَّه حفيد أبي سعيد المُتتزي على الغني بالله، إلى صاحب قشتالة، ووعدته إن أعانه على ملك غرناطة، بقبول الطاعة له وأداء الجزية. فسرح معه جيشًا، وانضمَّ إليه أحزاب يوسف، فأجلسوه مكان الأعرس، وفرَّ هذا واستقرَّ بمالقة، لكن لم يمض على ذلك ستَّة أشهر حتَّى توفي يوسف هذا وأعيد محمَّد الأعرس إلى مكانه ثانية وذلك في سنة ٨٣٥.

وكانت بين ملوك الإسبانيول لذلك العهد محاربات سَعَلَّتْهم عن غرناطة زمانًا، إلا أنَّ الأيسر لم يعرف الاستمادة من هذه الفرصة؛ واختلَّت أمور الدولة في أيامه، فأسف لذلك الخواص، ووقع الخلاف بين روساء البلد وقواد المِصر، واتسع الشرُّ، وانحاز محمَّد بن اسماعيل من أنسباء السلطان، وقيل ابن أخيه بلمة من فرسانه إلى ملك قشتالة، وانتزى محمَّد بن عثمان الأحنف من ذوي القرابة أيضًا وكان قائدًا بالمريَّة، وجاء بجماعة من خاصته فدخل الحمراء، وتبوَّأ الملك عنوةً، وقصر الأيسر في قلعة، وذلك في أوائل جمادى الأولى سنة ٨٤٩.

ولمَّا كان ملك قشتالة، ذا هوى مع نزيلة محمَّد بن اسماعيل، زحف ابن الأحنف إلى بلاده، واكتسح البسائط، وأتخن، وغنم، وهزم الإسبانيول مرارًا، إلا أنَّ سرِّيَّة له انهزمت في ١٨ المحرم سنة ٨٥٦، وفي الشهر التالي انهزمت له سرِّيَّة ثانية يقودها ابن عبد البار، وكان هذا منفصلاً عن أبيه، حليف محمَّد الأعرس للاتصال بخدمة الأحنف، وله أمامه مواقف محمودة، فمع هذا قتله جزاء هزيمته، وكان مولعًا بسفك الدم فانتقض عليه الأعيان لكثرة موبقاته<sup>(١)</sup>، وانسلَّ الروساء من غرناطة طالبين رجوع الأعرس، لكنَّهم خافوا أن تكون الوسيلة إلى قتله، فوَلَّوْا وجوههم سَطْرَ إمارة محمَّد بن اسماعيل، نزيل صاحب قشتالة، وأمدَّه هذا بجيوشه، فانهزم الأحنف، ودخل غرناطة ليجمع قُلَّ قومه<sup>(٢)</sup>، فوجد الأغلب منتقضين عليه، فعندها، وقد أيقن بظفر ابن اسماعيل - قصد قبيل انقضاء أمره الانتقام من أعيان البلد الذين داخلوا خصمه وشايعوه، فاستدعاهم إلى الحمراء ووضع فيهم السيف. ثمَّ فرَّ الأحنف من الحمراء قبل وصول ابن اسماعيل، ولحق ببعض الجبال مع بعض خواصه من شركاء رأيه الفائل<sup>(٣)</sup> وعمله الموبق، ودخل خصمه قصور الحمراء سنة ٨٥٩.

(١) للبيئات من الأعمال.

(٢) انهزموا وتفرقوا.

(٣) الضعيف.

ولمَّا كان استيلاء ابن اسماعيل قد تمَّ بمظاهرة ملك قشتالة، لم يألُ جهدًا في التَّوَعُّع بشروط إذلاله وإدخاله في طاعته، حتَّى عاد كأثَّه قائد من قواده. وفي تلك الأثناء وصل إلى الأندلس خير الفتح الأكبر الذي تضاءلت من دونه الفتوح، وتفتحت أبواب السماء فأطلت منها الملائكة والروح، ألا وهو استيلاء السلطان محمَّد الفاتح قدَّس الله روحه على القسطنطينية العظمى، فاشتدَّ بهذه البشرية أزرُ الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ونال سكان الأطراف منها أضعاف ما نال سكان الأوساط، ومنهم أهل الأندلس المنقطعين وراء البحر، ووجودهم من العدو بين الناب والظفر<sup>(١)</sup>، فقد استبشرت بذلك نفوسهم، وتجددت عزائمهم، وافق هذا الفتح العظيم بالشرق وفاة الطاغية جان الثاني عندهم، فلمَّا قام بعده ابنه هنريك نزع محمَّد بن اسماعيل إلى طلب الاستقلال، فتجدد القتال وسُنَّت الغارات وزحف صاحب قشتالة بجيوش جرّارة، فطلب المسلمون الصلح فأجابهم إليه على شرط جزية يؤدونها وإطلاق ستمائة أسير إسبانيولي، وانعقدت المهادنة.

وفي خلال هذه الهدنة، عادت العلاقات التجارية بين غرناطة وجيرتها إلى ما كانت عليه، وكانت هذه البلدة ملجأ لكثير من فرسان الإسبانيول الذين قضت عليهم الفتن الداخلية، بالفرار من أوطانهم حتَّى يُروى أنَّ من هؤلاء رئيسًا يقال له (دياغو) دخل في ذمّة ملك غرناطة وخدمه، وعظمت ثقة هذا فيه حتَّى رضى أهل مالقة به في عسكر عندما انتقضوا مرّة عليه. على أنه قيل، إنَّ من جُملة غرائب تلك الهدنة أن تضع الحرب أوزارها عن جميع البلاد، إلا ثغر جيّان بين الفريقين، فإنَّه يبقى ميدانًا للغارات، ولم تنشب المودعة أن بطلت من الجهتين، وأغار مولاي أبو الحسن على، بكر أولاد السلطان بحسب أقوال مؤرّخي الإفرنجية، على أطراف شاطبة فانقم الإسبانيول بالاستيلاء على جبل الفتح، وأعجب الدون هنريك جدًّا بهذا الفتح، حتَّى أضاف إلى ألقاب ملكه، ملك جبل طارق، وجمع جيوشه ونهّد<sup>(٢)</sup> إلى ناحية غرناطة، فاستكفى المسلمون شرّه بالهدايا وضروب التحف، ورجع عنهم بعقد الصلح، واستمرت دعة البلاد إلى أن ودّع محمَّد بن اسماعيل هذه الدنيا الفانية، في ١٠ شعبان سنة ٨٦٩ وذلك في مدينة المريّة، وخلفه مولاي علي أبو الحسن كما سيأتي.

(١) قوله: "وجودهم بين الناب والظفر"، أي في خطر مُحْدِق.

(٢) نَهَضَ.

## في دول إسبانية المعاصرة لدولة بني الأحمر

قد تكلمنا عن غرناطة، لكونها آخر مدن الإسلام بالأندلس، وعن دولة بني نصر فيها، لكونها ذمءاً<sup>(١)</sup> للمسلمين، وآخر أنفاس حياتهم بتلك الديار. وتكلم الآن مجملًا عن تاريخ الدول الإسبانية المعاصرة لدولة بني الأحمر، لما بين التاريخين من المداخلات والمناسبات، بحيث يستعين القارئ بفهم هذا على فهم ذلك، وتكون الفائدة أعم وأوفى.

فإسبانية كانت لعهد القرن الثالث عشر للمسيح، منقسمة إلى خمس ممالك: نافار وأراغون وقشتالة وغرناطة والبرتغال.

### - مملكة نافار -

أما في الشمال، فمملكة نافار الصغيرة على منحدرَي جبال البيرانه، وكان ملوكها من آل أزيز، فلما انقرضت سلالتهم عام ١٢٣٤م ورثهم بسبب زواج بيت كونت شمبانية، وذلك أن أخت الدون شانجُه آخر ملوكهم، كانت متزوجة بالكونت تيبولت دو شمبانية، فلما توفي الدون بلا عقب، كان الحق في إرثه لأبن أخته من كونت شمبانية.

إلا أنه لما كان ابن أخته هذا، قد لجَّ في طلب الملك قبل وفاة خاله، وأثار عليه لأجل تنزيله ممَّا أحفظه وأحقده، عهد بملكه بعد الوفاة لصاحب أراغون، فلما توفي، كاد يقع الخلاف بين جقوم وبين تيبولت، لكنَّ أهل نافار طلبوا من جقوم النزول لتيبولت عن الملك، حبًا بالسلام فآل الأمر إليه.

ويعد أن استوى على كرسي الإمارة بمدة، انتظم في سلك الصليبية وانزعج<sup>(٢)</sup> إلى المشرق يحارب مسلمي الشام، والمسلمون منه بالأندلس بالمكان الأدنى، ويقال إنه كان محبًا

(١) بقية الروح وبقية لفس.

(٢) خرج وشخص إلى الشرق.

للعلوم والفنون، وإنه كان يقول الشعر ويلحنه على القيثارة، ويعرض أشعاره في قصره مستهدفاً لانتقادها، وقد تزوج ثلاث مرات الأولى بأبنة كونت لوران، فلم يولد له منها أحد، والثانية بأبنة كونت فلاندره، فولد له منها ابنته بلانش، والثالثة بأبنة كونت فواكس، فولد لها ولداً وتيولت وهنري وابنة اسمها ليونوره، ومات في ٨ تموز سنة ١٢٥٣م، تاركاً إرثه لولده تيبولت الثاني، وهو الذي تزوج بإبنة مارلويس أو لويس التاسع، وكان من جملة هدايا الزفاف التي أهداه إياها الملك المذكور شوكة، يقال إنَّها من إكليل الشوك الذي كُلب به السيّد المسيح، وقد صحب حماه إلى الأراضي المقدسة، حتّى إذا مات مارلويس في غزاة تونس في ٢٥ أغسطس (آب) سنة ١٢٧٠. انقلب تيبولت إلى صقلية وبها توفي في ٥ كانون الأول من السنة المذكورة. وإذا لم يكن له ولد، قام بالأمر بعده أخوه هنري، وتزوج هنري ببلانش ابنة روبرت كونت أرتوا، وتوفي في ٢٧ أغسطس (آب) سنة ١٢٧٤ عن بنت واحدة اسمها الدونة جويانه، وهي التي ورثت ملك نافار، وحيث كانت عند وفاة والدها في الثالثة من عمرها، تولت المملكة والدتها بالكفالة، إلى أن ترشد الصغيرة. وفي تلك الأثناء أخذ الملوك من الجوار يتسابقون في مرضاة كافلة الملك، طامحاً كلّ منهم إلى التزوّج بالفتاة، أو تزويج أحد أولاده بها، وانقسم أهالي نافار إلى شطرين، منهم من يميل إلى ملك قشتالي، ومنهم إلى ملك أراغوني، ولم تلبث الفتنة أن اتّقدت بين الفئتين فعمّت البلاد، واضطرت بلانش أن تلتجئ إلى ملك فرنسا، فيليب الملقّب بالجرمي، فانحازت إلى قصره بابتها. وأرسل الملك من خواصه "أوستاش دو بومارشه" والياً على بلاد "نافار"، فلم تمض مدة حتّى قامت الفئتين القشتالية هناك على العامل الفرنسي، فحصره في القلعة من "مبلونة" حاضرة الملك، ووصل الصريخ إلى الملك فيليب، فسرح جيئاً إلى مبلونة واقتصر من رؤساء الثورة بعد أن أفرج عن العامل.

هذا ولما بلغت الملكة "جويانه" النافارية سنّ البلوغ، تزوّجت بـ"فيليب لوبل" ملك فرنسا، وولد لجويانه "لويس هوتن" ملك فرنسا، وعند وفاة هذا الملك بويعت ابنته ملكة على نافار، كما بويع أخوه فيليب الطويل، ملكاً على فرنسا، وتزوّجت ابنته هذه، وكان اسمها جويانه أيضاً، بفيليب كونت أفرو من آل كابت، وتناسلوا في ملك نافار، وكان منهم شارل الرديء، الذي احترق في فراشه من شمعة أوقدت بجانبه، واتّصل لهيها بالفراش، وابنه شارل النبيل، الذي مات عن ابنة واحدة، اتّصل الملك منها إلى آل أراغون، فوقع النزاع عليه، بين أب وابنه وذلك نحو السنة ١٤٥١.

## - مملكة أراغون -

ثمَّ مملكة أراغون حذاء<sup>(١)</sup> جبال البيرانه اعتمدت في أوائل أمرها على لصوصية البحر، واشتهر بين أمرائها "جقوم" وهو الذي استولى على جزائر الباليار: ميورقة، ومينورقة، ويابسة، وقيل إنَّ السبب في الاستيلاء عليها، تعرّض أهل ميورقة لمراكب الإسبانول، ويفهم من قول الخزومي في تاريخ ميورقة، أنَّ سبب أخذها من المسلمين "أنَّ أميرها في ذلك الوقت محمَّد بن علي بن موسى احتاج إلى الخشب، فأنفذ طريدة<sup>(٢)</sup> بحرية، وقطعة حربية إلى يابسة بأخذه، فعلم بذلك والي طرطوشة فجَهَّز إليها مَن أخذها، فترصدَّ محمَّد بعض مراكبهم وأخذها، فأجمع الروم على قتاله في عشرين ألفاً، وجَهَّزوا ستَّة عشر ألفاً في البحر، وكان لدى وصول الروم قد أمر الوالي صاحب شرطته، أن يأتيه بأربعة من كبراء المصر، فضرب أعناقهم، فاجتمعت الرعية إلى أبي حفص بن سيري، وأخبروه بما نزل، وعزَّوه فيمَن قُتِل، وقالوا له هذا أمرٌ لا يطاق. وأصبح الوالي يوم الجمعة منتصف شوال، والناس من خوفه في أهوال، ومن أمر العدو في إهمال، فأمر صاحب شرطته بإحضار خمسين من أهل الوجاهة والنعمة فأحضرهم، وإذا بفارس على هيئة النذير، دخل إلى الوالي وأخبره بأنَّ الروم قد أقبلت وأنه عدَّ فوق الأربعين من القلوع. وما فرغ من إعلامه، حتَّى ورد آخر وقال، إنَّ أسطول العدو قد تظاهر، وأنه عدَّ سبعين شراعاً، فصحَّ الأمر عند الوالي وأطلقهم، واستنفرهم، ثمَّ ورد الخبر بأنَّ العدو قرب من البلد، فإنهم عدَّوا مائة وخمسين قلعةً، فأخرج الوالي جماعة تمنعهم من النزول. وفي الثامن عشر من شوال، وقع المصاف<sup>(٣)</sup> وانهزم المسلمون، وارتحل النصرارى إلى المدينة، ونزلوا منها على الحربية الخزنية من جهة باب الكحل، ولمَّا رأى ابن سيري أنَّ العدو قد استولى على البلد، خرج إلى البادية. ولمَّا كان يوم الجمعة الحادي عشر من صفر، قاتلوا البلد قتالاً شديداً، ولمَّا كان يوم الأحد أخذ البلد، وقُتِل فيه أربعة وعشرون ألفاً وأخذ الوالي وعدَّب، وعاش خمسة وأربعين يوماً تحت العذاب ومات، وأمَّا ابن سيري فتحصَّن بالجبال وجمع حوله ستَّة عشر ألفاً وما زال يقاتل، حتَّى قتل يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر سنة ثمان وعشرين وستمائة، وجده من آل جبلة بن الأيهم الفسّاني، وأمَّا الحصون، فأخذت في آخر رَجَب من تلك السنة وفي شهر شعبان، لحق مَن نجا من المسلمين ببلاد الإسلام" انتهى ما ذكره ابن عميرة الخزومي ملخَّصاً.

(١) اشتقاق، يعني مُحاذاة.

(٢) سفينة صغيرة، سريعة. لفظٌ مؤلَّد على التأنيث، من "طراد".

(٣) مفردها، المصَّف: موضع الصَّف (من الجند هنا).

## -ثورة مينورقة

وبعد استيلاء القوم على ميورقة، ثار بمينورقة الجواد العادل العالم الذي، ألقت بأسمه التاكيف الشهيرة أبو عثمان سعيد بن حكم القرشي، ثم تصالح مع النصارى على ضريبة معلومة، وضبط الجزيرة أحسن ضبط، وبقيت مينورقة مدة في يد المغاربة بعد أخذها ميورقة.

وفي مدة جقوم هذا، أخذت بلكنسية من المسلمين وقد سبق ذكرها، وبعد ذلك بمدة اجتمع مسلمو مملكة أراغون وثاروا وأثخنوا في عدوهم، إلا أن جقوم طردهم أخيراً، فانحاز أكثرهم إلى مملكة ابن الأحمر، وأجاز بعضهم إلى أفريقية، وقد اشتهر جقوم هذا، بحب الطلاق والزواج واتخاذ الحظايا والتهتك في المنكر، وبينما كان مطران جيرونه يوتخه على استهتاره مرة، استشاط منه غضباً وأمر بقطع لسانه. واغتصب مرة امرأة أحد رعيتيه وكانت وفاته في ٢٧ تموز سنة ١٢٧٦، وخلفه الدون بطرؤه. وفي مدته انضمت مملكة صقلية إلى مملكة أراغون، وطرده بطرؤه منها شارل دانجو، أخا مارلويس ملك فرنسا، بالرغم من إرادة البابا، وقصدوا استعادتها، فانهزموا فأصدر البابا حرماً على بطرؤه، وأخيراً أقطع البابا مملكته شارل دو فالوا بن فيليب الجريء ملك فرنسا. فزحف فيليب بعساكره على مملكة أراغون وكان له من جقوم أخي بطرؤه نفسه، عضد لإحنة<sup>(١)</sup> كانت مستحكمة بين الأخوين، فانهزم جند بطرؤه، واستولى الفرنسيين على جيرونه، إلا أن العيلة تفشت فيهم من رائحة جثث القتلى، فهلك منهم خلق كثير، وأصيب فيليب الملك نفسه وحمل ومات في الطريق، وبعد انصراف الفرنسيين استعاد بطرؤه جيرونه، وحول نظره صوب أخيه جقوم، الذي ضافر عليه الغريب، فأرسل ولده ألفونس إلى ميورقة بأسطول ليأخذها من يده، وتوفي بطرؤه وابنه في حصارها، فلم يقلع حتى دخلت في حوزته وقام بأمر أراغون بعد أبيه.

ومات هذا، وخلفه أخوه جقوم ملك صقلية، فترك أمورها لوالدته وجاء إلى أراغون مستلماً زمامها، وأعاد ميورقة على عمه جقوم، ثم تولى صقلية أخوه فريديريك، وتزوج بأبنة شارل دو نابل، وولد له منها خمسة ذكور: جقوم وألفونس وجويان وبيطرؤه ورامون، وخطب لأبنة البكر، جقوم، الدونة ليونوره القشتالية، وبينما كانوا يعقدون له عليها، إذ عدل عن الزواج، زعمًا أن أباه أجبره عليه، وأنه يريد الترهّب والتبتل، وأسقط حقه من وراثة الملك ودخل في سلك الرهبان، وقضى الناس من ذلك العجب لما كان عليه من

(١) الحقد.

الانغماس في اللذات والاسترسال إلى الشهوات، فوَلِيَ العهد أخوه ألفونس، وصرار جويان أخوهما مطراناً على طَلَيْطَلَة، وأخذ كلَّ من الآخرين الباقيين إقطاعاً باسمه.

### - الحرب بين قشتالة وأراغون -

ثم مات جقوم الثاني في برشلونة في ٢ نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٣٢٧، وخلفه وليّ عهده ألفونس الرابع، وتزوج هذا مرتين، وولد له من إحدى امرأته الدون بطرّه وليّ عهده، فلما مات ألفونس سنة ١٣٣٦، وقع النزاع بين بطرّه وبين خالته أخت ملك قشتالة، وأدعت أنه يريد انتزاع أملاك إخوته أولادها، فكاد الخلاف يتسع بين قشتالة وأراغون، لولا ما جمعهما من كلمة الحرب المقدّسة ضدّ السلطان أبي الحسن ابن مرين صاحب المغرب. وبعد وقعة طريف وانتفاض بطرّه من عوارض تلك الحرب، أخذ يحاول انتزاع ميورقة من يد صهره جقوم. قيل إنّ السبب في ذلك أنّ الدون بطرّه، كان متوجّهاً إلى أفينيون لزيارة البابا ومعه الدون جقوم راكباً بجانبه، فلما صارا على مقربة من البلدة وقد حثّت بهما حاشيتهما، رأى سائس حصان الدون جقوم، أنّ سائس حصان الدون بطرّه يحثّ مسير حصان مولاه، فلطمه ليتند<sup>(١)</sup> ويمكنه اللحاق به، فأبصر ذلك الملك واغتاز من ابن عمّه لسكوته وإغضائه على حركة سائسه، فوقرت<sup>(٢)</sup> في صدره، وانتهاز الفرصة لتجريد من مملكته ميورقة، وذلك أنه وقع خلف بين صاحب جزر الباليار، وبين ملك فرنسا من أجل موبليه، وزحفت عساكر فرنسا لأخذها، فبعث جقوم إلى ابن عمّه بالصربخ فلم يجبه، ثمّ نقم عليه أموراً، منها أنّه يحاول الاستقلال، وإنّه ضرب السكّة باسمه، وأعلن خلعه من ولاية الجزر، فاستغاث هذا بالبابا فأرسله البابا إلى برشلونة نزيلاً عند بطرّه، ومستميحاً عفوّه، فعندما حصل عنده ضبط عليه امرأته، التي هي أخته وسرّحه فلحق جقوم بميورقة، وقد نادى بحرب بطرّه، والانفصال عنه، فاسترجع بطرّه أسطوله من الجزيرة، حيث كان في رباط المسلمين، ونزل به على ميورقة، ففرّ جقوم إلى فرنسا، وبقي في نزاع مع ابن عمّه حتّى باع أخيراً بعض أملاكه من ملك فرنسا، وجهّز بثمنها ثلاثة آلاف ماشٍ وثلاثمائة فارس وركب بها البحر طامعاً في الاستيلاء على جزيرته ميورقة، فقابله واليها بجيوش أوفر مراراً من قوّته، وغلبه فهلك في القتال، ولم تنته مسألة بطرّه مع جقوم ابن عمّه حتّى

(١) ليتمهّل ويناقى.

(٢) لوفرت صدره: ملاًه غيظاً وغضباً.

نارت مسألة أخرى مع أخيه جقوم. بسبب انتقال الملك، لأن بطرءه كان يريد العهد لابنته، لأنه لم يولد له ذكور. ولأن أخاه كان يطالب بهذا الحق، فانشقت المملكة بهذا السبب إلى قسمين. وانتشبت الحرب بينهما، وقام جمهور من الرؤساء على الملك، وفي أثناءها توفي أخوه. فأتهم بكونه سمه<sup>(١)</sup> فازدادت الثورة، وزحف الملك إلى الرعية الثائرة، فحرت عدة مواقع وسالت الدماء الغزيرة وغدر بطرءه بالرؤساء الذين استسلموا إليه، وأرهب مدن مملكته حصراً وعسراً، إلى أن تمت له الغلبة. ثم بسبب مراكب استولى عليها أمير البحر عنده رغم إرادة بطرءه ملك قشتالة، انتشبت الحرب بينهما، وانضم إلى أراغون جميع الأمراء والرؤساء الذين كان بطرءه القشتالي قد أسفهم، وما وضعت تلك الحرب أوزارها حتى اصطلت<sup>(٢)</sup> الثانية ثم الثالثة.

وهلك بطرءه الأراغوني سنة ١٣٨٧ وملك نيّفاً وخمسين سنة. وكان سقاًكاً للدماء، غدر بأهله وإخوته، وأهرق سيولاً من الدم، حتى لُقّب بالخنجري وتزوَّج بأربع نساء الأولى ابنة ملك نافار دونة ماريه ماتت سنة ١٣٤٦، والثانية دونة ليونوره ابنة ملك البرتغال، وماتت سنة ١٣٤٨، بالطاعون، الذي عمّ جنوبي أوروبا، وهو الذي يشير إليه ابن خلدون ويسمونه بالطاعون الجارف، خرّب كثيراً من ديار الشرق والغرب. ثم اقترن الدون بطرءه بليونوره أخت ملك صقلية، وماتت سنة ١٣٧٤، وقد ولدت منه ثلاثة ذكور وابنة واحدة. فاقترن بأمرأته الرابعة سيببلا فورسيا، أرملة شهيرة بالجمال، وكان أوانثذ قد بلغ الحادية والستين فملك قلبه وأعطاهها قيادة<sup>(٣)</sup> وأقطعها من أملاك التاج الملكي، فاعترض وليّ عهده جويان من امرأته الثالثة ووقع النزاع وانتهى بتحكيم أحد القضاة.

وفي أواخر مدة هذا الملك، وقع النزاع الشهير بين البابا أوربان السادس، والبابا كليمان السابع، وأخذ كلّ منهما يحرم الآخر! وانقسمت ممالك أوروبا في شأنهما إلى شطرين: فإنّ فرنسا، وقشتالة، ونافار، ونابولي، قامت بدعوة كليمان وإنكلترا والبرتغال وأراغون قامت بدعوة أوربان، إلا أن أراغون مالت فيما بعد إلى كليمان.

وبعد وفاة بطرءه، قام ابنه جويان الأول، وفي الحال تقبّض على امرأة أبيه، سيبببلا، وعلى أخيها وأعوانها، وابتزها الأملاك التي كان أبوه وهبها إياها، وسلّمها إلى امرأته دونة

(١) دسّ له السم.

(٢) اشتعلت (الحرب).

(٣) سلّم لها امرءه.

فيولانتة، واعتنى بتزويج ابن أخيه دون مارتين بأبنة عمه فريدريك ملك صقلية، التي كان آل إليها إرث تلك الإمارة، بعد وفاة والدها، وكان جويان مولعاً بالشعر والموسيقى والصيد مهملًا الجِدِّ من الأمور، حتَّى أصبح قصره عبارة عن عكاظ شعراء ومجتمع مغتني، لا يُسمع فيه إلاَّ يُقَاع أو إنشاد، فقام أعيان البلاد وطلبوا منه إقصاء حظيَّته دونه كاروزه، لأنَّهم هم يَإَها بتربيته في ما هو فيه من العَبَث، فانقاد إلى إرادتهم خوف الإنتفاض.

وتوفِّي في الصيد بكبوة جواد تردِّي<sup>(١)</sup> في غابة، وهو يطلب ذئبًا<sup>(٢)</sup>، فخلفه أخوه الدون مارتين، إذ لم يعيش له غُلام من صلبه، فنازعه في المُلْك آل فواكس، فغلبهم عليه، واستوثق له الأمر، وتزوَّج هذا بالدونة ماريه، كما تقدَّم، فوُلِدَ له منها أربعة أولاد توفي منهم ثلاثة دون البلوغ، وبقي الواحد وهو الدون مارتين متوَّج صقلية، فمات هذا في غزاة بسردانية عام ١٤٠٩، ولم يعيش له ولد على كونه تزوَّج مرَّتين، بل كان له أولاد من حظاياها، فعند وفاته انقرضت ذرية الذكور من صلب البيت المالك وتنازع حقوق الوراثة خمسة أمراء: الدون فاديك ولد مارتين من إحدى حظاياها، وكونت أورجيل ابن عم مارتين في الدرجة الخامسة أيضًا، ودوق كالايرَه ابن الدونة فيولانتة بنت جويان الأول، ثمَّ فرديناند القشتالي الملقَّب عندهم بالرشيد، كان ابن جويان الأول القشتالي والدونة ليونوره، أخت الدون مارتين ملك صقلية الذي انقطعت به السلالة، وبذلك فهو ابن أخته وكان أقرب المتنازعين إلى بلوغ الغاية فرديناند المذكور وكونت أورجيل، وربَّما كان لهذا في مملكة أراغون الشيعة الكبرى، إلاَّ أنه لم يحسن طلب حقِّه، وجمع العساكر يعيشون في البلاد، تماَّ آمال عنه القلوب إلى فرديناند فانتخبوه ملكًا في ٣ أيلول سنة ١٤١٢، وتقبَّض على كونت أورجيل وسجنه، واستتبَّ له الأمر، إلاَّ أنه مات في سنة ١٤١٦، وخلفه بكر أولاده ألفونس الخامس، الذي افتتح نابولي ثمَّ مات هذا (١٤٥٨)، عن غير ولد. فانتقل المُلْك إلى أخيه جويان الذي كان تزوَّج بابنة شارل النبيل، وبواسطتها ملك بلاد نافار، ووُلِدَ لهذا فرديناند الملقَّب بالكاثوليكي، فملك أراغون ونافار، وتزوَّج بإبزابلا ملكة قشتالة، فصارت الممالك الثلاث واحدة، وعادت في حالة من اجتماع الكلمة ووفرة العديد والمادَّة، بحيث قضت على الملك الأخير الباقي كان بالأندلس للمسلمين.

(١) سقط

(٢) يريد اصطيد ذئب.

## - مملكة قشتالة

أما مملكة قشتالة، أجل ممالك النصرانية في الأندلس، فإن رافع منارها فرديناند الأول، الملقب بالكبير الذي انتزع كثيرًا من أملاك المسلمين، وكان معاصرًا لابن عباد، وقسم مملكه بين أولاده الثلاثة، فأعطى شأنجُه مملكة قشتالة، وألفونس أو أذُنش مملكة ليوق، وغارسيا الصغير مملكة غاليسيا أو جليقية، إلا أن ألفونس تمكّن في الآخر من ضمّ الجميع إلى ملكه، وصار خلفًا لأبيه، وهو الذي استولى على طليطلة قلب إسبانية، وجعلها مقرّ سُلطانه.

## - خبير السيد Le Cid

وفي أيامه ظهر السيد<sup>(١)</sup> بطل الإسبانيول الذي تُنسب إلى ذريته عروس رواية شاتوبريان، وقد رأينا أن نلّمح إلى شيء من أخبار السيد حسيما ذكر المحققون فنقول: هو السيد لُدريق دياز بن دياغو بن لاين نوناز بن لاين كالفو من كبار قضاة قشتالة، تزوّج السيد بشيمانة، وولد دياغو لُدريق الذي مات في حياة والده وابتنتين إحداهما تزوّجت بأبن ملك نافار والأخرى بأبن ملك أراغون.

وشيمانة هذه هي ابنة الكونت لوزانو دو غورماز، من فحول قواد الملك فرديناند، وسبب اقتران السيد بها، أن والدها كان قد صفع دياغو والد السيد، وهو بالغ من الكبر عتياً، فلم يمكنه أخذ ثاره بيده، لكنّ ولده لُدريق \* أخذ السيف ودعا غورماز إلى البراز فقتله، ولمّا لم يكن في قتل البراز جناح<sup>(٢)</sup>، جاءت ابنته شيمانة، تشكو إلى الملك فرديناند كون لُدريق يأتي كلّ يوم، وبأزّه على يده، فيطلقه في بيت حمامها فيفتك بالحمام، ويُذيق فراخها كؤوس الحمام، وقد بعثت تقول له في ذلك، فجاوبها بالوعيد، فالملك الذي يسمح بقهر اليتيم ولا يقتصّ ممن اعتدى عليه لا يليق أن يسمّى ملكًا. فتحير فرديناند في أمره لأنّ لُدريق كان أقوى عضد له في مواقفه مع المسلمين، والإسبانيول يزعمون أن السيد أسر خمسة من ملوك الإسلام، وبعد أن قادهم بخزائن<sup>(٣)</sup> الإستكانة، منّ عليهم بإطلاق سبيلهم ودعوه سيدهم، فلم يجد فرديناند مخرجًا من الأمر إلاّ بتزويج السيد بشيمانة.

(١) السيد (LE CID) رواية للشاعر الفرنسي كورنيل.

(٥) آخر ملوك القوط (الروم).

(٢) جثم.

(٣) مفردها خزَم: شجر يُقتل من لحائه الحبل، (مجازًا) خزالم، حبال.

وأما نسبة السيد إلى بيفار فلولادته في ذلك القصر، وهي كما لا يخفى عادة الإفرنج في ألقاب الشرف. ومن شهير أفعال السيد أنه لما اصطلت الحرب بين قشتالة وأراغون لعهد فرديناند، وقع الاتفاق بين هذا الملك، وبين أخيه على تحكيم السيف وإبراز قرنين<sup>(١)</sup> بالنيابة عنهما من أبطالهما، وإعطاء الحق لمن منهما حق له الغلبة فكان السيد نائباً عن ملك قشتالة، وكان مارتين غوماز، نائباً عن صاحب أراغون أخيه، فعند اللقاء فتك السيد بخصمه وبرّد الحق لفرديناند دون أخيه، وفي هاتيك الأيام كان هنري الثاني إمبراطوراً لألمانيا، فسَمَت نفسه إلى إدخال إسبانية في طاعته لكونها من ولايات سلطنة المغرب، ويقال إن البابا فيكتور الثاني ماله<sup>(٢)</sup> على مقصده، فلما أبلغ ذلك الإمبراطور والبابا إلى فرديناند، مال إلى الخضوع خوفاً منهما، لكنَّ السيد عارض في الأمر وجمع عسكرياً وزحف به إلى طلوزة قاصداً لقاء العدو، فلما علم البابا به خاف العواقب وصرف إمبراطور ألمانيا عن دعواه.

#### - وفاة فرديناند -

ولما مات فرديناند، لم يكن لشانجه، ولده ساعد أشد من السيد، وهو الذي نصره في وقعة غولليجاره، وكان بجانبه عندما قُتل في زامورة، وفي مدة ألفونس أخيه، انصرف السيد إلى مرابطة المغاربة، ووالى عليهم الهزائم حتى لُقِب بالكيميادور ومعناه بلغتهم قائد المعسكر، إلا أن ما حازه من الشهرة، أثار عليه حسد الأقران وضغائن الأنظار، فانقبض بنفسه عن الحضرة، وسكن البادية، وبلغه أثناء ذلك أن مسلمي سرقسطة والثغر الأعلى، اجتاحوا أراضي قشتالة وأتخنوا في الإشبانيول، فنهذ إليهم، وساق منهم سبعة آلاف أسير واكسح بسائط طليطلة، وكانت في يد المأمون صاحبها، فشكا إلى الأذفونش خرق الصلح بدون موجب، فاستشار الملك خاصته، وأجمعوا على نفي السيد، وضربوا له أمداً تسعة أيام لأجل الخروج، فأطاع ولكنه لم يكن يملك من المال ما يكفي لميرة الثلاثمائة فارس التي هي في صحبته، فأعمل في الحيلة وأرسل صندوقين مفعمين رملاً إلى بعض اليهود مؤكداً لهم أنهما مملوآن حلياً. وأخذ عليهما مبلغاً من الذهب، ثم وفى دينه بعد ذلك، بما حازه من الغنائم أثناء غزواته في بلاد الإسلام، وبقي مدة بعيداً عن الحضرة، إلى أن رضي عنه الملك

(١) شبيه ومثيل في الشجاعة.

(٢) ساعته.

وأعاده، وأذن له في الغزو وحده، فابتى لنفسه قصرًا بقرب أراغون لم يزل معروفًا بأسم "صخرة السيد" إلى الآن، وجعلها لنفسه وكرًا يأوي إليه وينطلق منه للغزو. وكان أكثر ما يغزو مملكة ابن عباد، لكونه هو الذي دعا يوسف بن تاشفين إلى الأندلس، على أنه لمّا أراد ابن تاشفين استخلاص ملك إشبيلية من يد ابن عباد واستنجد الطاغية، أرسل إليه عشرين ألفًا، قيل أنه عقّد عليهم للسيد، لكن لم ينالوا له وطرًا إذ كان في المرابطين سادات بدل السيد، ثم زحف السيد بعساكره نحو بَلَنْسِيَّة، وضيّق عليها الحصار وكان فيها القاضي أحمد بن جعفر المعافري، بحسب رواية بعض مؤرّخي الإفريج ومنهم لافاله، والذي في كتب العرب، أنّ الذي كان فيها هو القاضي أبو أحمد بن حجاج، وأتفتت روايات العرب والإفريج أنّ لذرّيق دخلها صلحًا وعاهد القاضي، لكنّه لم ينشب أن أحرقه بالنار، بعد الاستيلاء، قيل، لكون السيد طلب منه أن يدلّه على ذخيرة كانت للقادر بن ذي النون، فأقسم أنها ليست عنده، فأحرقه وعاث في بَلَنْسِيَّة. وفي ذلك يقول، ابن خفاجة الشاعر المشهور:

ومحا محاسنك البلى والنار	عائت بساحتك الطّبيّ (١) يا دارُ
طال اعتبارُ فيك واستعبارُ (٢)	فإذا تردّد في جنبك ناظرُ
وتمحّضت بحرابها الأقدارُ	أرضٌ تقاذفت الخطوبُ بأهلها
لا أنتِ أنتِ ولا الديارِ ديارُ	كبت يد الحَدَثانِ في عرصاتها (٣)

وورد في "نفع الطيب" ما نصّه بالحرف: "وكان استيلاء القنبطور (تحريف القمبدورا والقمبدور لقب السيد) سنة ثمان وثمانين وأربعمئة، وقيل في التي قبلها، وبه جزم ابن الأثير، قائلاً، فتمّ حصار القنبطور إياها عشرين شهرًا، وذكر أنه دخلها صلحًا، وقال غيره، إنّه دخلها وحرّقها وعاث فيها، ومُنّ أحرق فيها الأديب أبو جعفر بن البناء الشاعر المشهور رحمه الله تعالى، وعفا عنه، فوجّه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، الأمير أبو محمّد مرزلي ففتحها الله على يديه سنة خمس وتسعين وأربعمئة، وتوالى عليها أمراء الملمّين" انتهى. وفي حرق قاضي بَلَنْسِيَّة قد أتى لافاله بجميع أصناف المعاذير، تغطية لعمل القنبطور،

(١) مفردها كُتِبَ: حدّ السيف.

(٢) حزن ترافضه القبريات: الدموع.

(٣) مفردها، حَرْصَة: ساحة الدار.

وأتهم القاضي بالخيانة، وأنكر أن يكون السيد فعل ذلك بسبب الذخيرة، بل لمكيدة لا بدَّ أن يكون اطلع عليها، ورمى مؤرّخي العرب بتشنيع سيرة السيد، تعصّباً منهم وكرهية لإسمه لما كان عليه من الغيرة على النصرانية.

وذهب غير واحد من المؤرّخين الأوربيين إلى غير ذلك، ومنهم ستانلي لانبول الإنكليزي، وزعموا أنّ مسألة فضائل السيد من وضع قصاصي الإسبانول، وهاك بعض ما يقوله المؤرّخ المذكور مما يرتبط بهذا المقام وهو:

”إنّ من الغلط البين، والخطأ المُتعيّن أن يظنّ أنّ مقاتلة قشتالة وليون، كانوا على ما يُرام تخيله، من الشهامة والشرف وآداب الفروسية، وأن يتصوّر كونهم على شيء من دماثة الأخلاق والتهذيب، والصحيح أنّ مسيحيي الجهة الشمالية كانوا على نقيض ما كان عليه أقرانهم المغاربة، فإنّ العرب الأجلاف لأول نزولهم بإسبانية، قد تهدّبوا وتمدّدوا بالأندلس، فيما بعد، وباستعدادهم الفطري، مالوا إلى التأنق والرفاهية والتحقّق بالحضارة الغالية، وعكفوا على طلب العلم وقرض الشعر وحفظ الأدب، فكانت أذواقهم في أسمى مكانات السلامة، وإحساساتهم في أقصى مظانّ الرقة، كما هو شأن من تحقّق بالمدنيّة وذاق حُسن المعيشة وغلب عليهم التأمل والشعر، فكانوا يؤدّون من الجوائز على منظومة واحدة، ما يكفي لميرة كتيبة كاملة، ولم يكن الأمير الظالم منهم والمملك الغاشم السفّاح، يأنف من الآداب والمعارف، فالفضاحة والموسيقى، وسائر فروع العلم والأدب من الأمور الطبيعية عند هذه الأمة، وأوتوا ملكة الانتقاد، والتمييز، ولطف الذوق في نقد أجزاء الكلام وتفصيل القول مما نعرفه في زماننا لأمة الفرنسيين.

وأما نصارى الشمال، فعلى خلاف ذلك كلّه، فإنّهم وإن كانوا سلاسل أمة قديمة فحالتهم حالة أمة حادثة<sup>(١)</sup>، أجلاف جفّاة أجنب عن العلم، منقطعوا السبب في العرفان، نعم كان عند بعض أمرائهم مسكة من التربية، لكنّهم في هذا الأمر مساكين في جانب أمراء العرب، وأنّما كان المسيحيّون هناك أنجاد حرب وأحلاس نزال<sup>(٢)</sup>، يحبّون الهيجاء<sup>(٣)</sup>، مثل أقرانهم المسلمين لكنّهم أقوم منهم عليها وأصبر على تحمّل مشاقها، ولم يكن عندهم ما

(١) جدية.

(٢) أي أعوان حرب، وشجعان أكفاء في حُرّض المارك والقتال.

(٣) الحرب.

تصوّره لنا هذه الخيالات الشعرية من أخلاق الفروسية، بل إنّما كانوا ضرابي سيف“ انتهى الحديث، وقد يحملهم فقرهم على المحاربة بالأجرة، وتقديم من يزيد لهم على غيره في الخدمة، وقد رأينا كيف أنّ الوزير المنصور استخدم جمّاً منهم في حرب ليون وفتح سانت ياغو. وتاريخ شمالي إسبانية، مملوء بشواهد ذلك من استخدام أمراء المسلمين لفرسان النصارى في الجيش.

وتما يؤيد قول هذا المؤرّخ الإنكليزي ما ورد في تاريخ المنصور بن أبي عامر من أنه ”في انكفائه عن باب، سكنت ياقب، بتلك الغزوة التي لم يبلغ مثلها أحد، وقع في عمل القوامس المعاهدين الذين في عسكره، فأمر بالكف عنها، ومرّ مجتازاً حتى خرج على حصن بيلية من افتتاحه، فأجاز هنالك القوامس“<sup>(١)</sup> بجملتهم على أقدارهم“ انتهى. ويظهر أنهم لم يقتصروا في الخدمة على ملوك الأندلس، بل ربّما أجازوا إلى المغرب أجناداً عند ملوكه، وابن خلدون يروي أنه كان يغمّرين بن زيّان صاحب تلمسان، قد استخدم طائفة منهم، مستكثراً بهم، معتدّاً بمكانهم، مباهياً بهم في المواقف والمشاهد.

ونعد إلى كلام ستانلي لانبول قال: ”لكن لم يوجد من هؤلاء من بلغ شهرة السيد بطل إسبانية، واسمه لذريق دياز البيفاري، ولُقّب بالسيد لكون ذلك هو اللقب الذي كان يدعوه به المغاربة وهو مخفّف عن سيد بالتشديد“<sup>(٢)</sup> إلى أن قال: ”وهو محارب شهير كان يتقدّم الصفوف مثل جلياد أمام جيوش بني اسرائيل، ولم يُعرف أحد طار له من الشهرة في الغزو أكثر من ”سيدي القمبدور“، كما كانوا يدعونه، كما أنه ليس من السهل أن يقرّر الإنسان الحقيقة ويمحصّ الواقع بما يحاط به اسم السيد من الوقائع، لأنّ مؤرّخي النصارى يقولون إنه يستحيل الإحاطة بوصفه، وأنّ الأناشيد الإسبانية تتوجّج السيد بالفضائل والكمالات، وتنسى أنّ تلك الفضائل كانت مجهولة، أو غير مُعتبرة عند نفس السيد ومعاصريه، وكتاب العرب الذين هم غالباً أحسن إنصافاً للحقوق، تجدهم شدّدوا الحكم على ذلك النصراني الذي أذاق مسلمي بلنسية ما أذاقهم من الوبال“<sup>(٣)</sup>، قلت وأيّ تشديد فإنّك ترى كيف جاء اسم القنبطور مردوفاً باللعنة في ”نوح الطيب“ وبأيّ شعرٍ نظم ابن خفاجة نثر عمران تلك البلدة.

(١) اللوامي.

(٢) بل هو على أصله فالسيد بكسر السين وسكون الياء والذنب والتنشيه به عند العرب ذمّ لأنه مفترس غادر حقير بخلاف التشبيه بالأسد فإنّه مدح.

(٣) الشنة.

قال ستانلي لانبول: "ونحن في عصر انتقاد، مضطرون إلى طرح المفرح من أفاصيص مؤرخينا التي تليق بالأحداث، والسيد لم يُستن من الانتقاد، بل إن أحد المستشرقين الراسخين أَلَفَ عنه كتاباً مستقلاً، قرَّر فيه أنَّ السَّيد لم يكن ذلك البطل الذي قُدِّر أنه كان، بل رجلاً غداراً سفاكاً نهاباً فتاكاً، ناكث العهد، ناقض الزمام. كذلك الأستاذ دوزي (مؤرخ إسبانية الجليل)، ذهب إلى أنَّ قصَّة السَّيد هذه اختراعية، وكتب عن السَّيد الحقيقي نقيض، ما ورد في تلك الأفاصيص" إلى أن قال: "وغير صحيح أنه كان حامياً الدين، فإنه قاتل في مصافِّ المسلمين، كما قاتل في مصافِّ النصارى". وذكر أنه استولى على بَلَنْسِيَّة بسبب التحريك والفرقة، بإعانة ملك سَرَقُسْطَة ودخلها صلحاً. وهذا طبق ما ذكر مؤرِّخو العرب، من أنَّ الذي أنهضه هو يوسف بن أحمد بن هود صاحب سَرَقُسْطَة.

وأما لافاله فيقول في شأنه: "أنه هو بطل الإسبانول المُقَدَّم، حبيب الشعب الذي يُحوِّله بجميع فضائل الأبطال ويتفتنون بوقائعه في الأشعار والأزجال، فإذا شاء المؤرِّخ معرفة الحقيقة من الوهم، أشكل عليه الأمر بما يعرِّض له من الاختلاط، فقد يقع أنَّ المؤرِّخ لأجل الخروج من حيرته، ينتهي إلى إنكار وجود المؤرِّخ عنه أصلاً، كما أنكر ماسدو وجود السَّيد قمبدور، ولم يبلغ الشك من غيره درجة إنكار وجوده، بل أنكروا عليه المآثور من الفضائل وتخيلوه زعيم أشقياء ورئيس عصابة شرّ، بعد أن جعلته القصص مثلاً تاماً للفضل والشهامة والنبل".

فأنت تجد أنَّ السَّيد، ككثير من الرجال الذين ولعت بذكرهم العامة منهم، من جعله سَيِّداً غَطْرِيماً<sup>(١)</sup> بالتشديد، ومنهم من جعله سَيِّداً عَمَلَسَا<sup>(٢)</sup> بالتخفيف، ومات السَّيد سنة ١٠٩٩ وهي التي فتح الصليبية فيها بيت المقدس، وبعد موته عادت بَلَنْسِيَّة إلى الإسلام، وبقيت زماناً، حتَّى استولى عليها جقوم كما ذكرنا سابقاً، وحُمِلَتْ جَنَّةُ السَّيد محنطة على جواده المشهور، ويده أحد سَيْفِيهِ المسمَّى تيزونة، وقُدِّمَ نَعْسُهُ في الجمع كما كان هو مقدِّماً في الحروب، ودُفِنَ في كنيسة مار بطرس دو كردنه، وماتت شيمانة امرأته بعده بستين، وبقيت رايته وسيوفه في ذلك الدير يحملها ملوك قشتالة في حروبهم تيمُّناً بالنصر، ورواية كورنيل المسمَّاة بالسَّيد أشهر من قفا نيك.

(١) السَّيد الشريف.

(٢) لراد بها (مُناً) الفلب الحيت.

## - الحرب الثانية بين قشتالة وأراغون

ولنعد إلى ذكر مملكة قشتالة فنقول: إنَّ الأذُنش أو ألفونس السادس، استفحل أمره إلى أن لُقِّب بإمبراطور إسبانية، لكنَّ المرابطين هزموه مراراً، وفي المرّة الأخيرة انهزمت جيوشه في وقعة أفليش، وقُتل ولده فمات من الغمّ، وترك الملك لابنته أوراك، فتزوَّجت بألفونس الأول ملك أراغون ونافار، وكادت تتحد الممالك الثلاث، إلّا أن أوراك أرادت الاستقلال بملك قشتالة وأساءت معاملته زوجها، ووقع الشقاق بينهما فحبسها في قصر قسطلار، فأفلتت، وجمعت عساكرها ووقعت الحرب بين أراغون وقشتالة، ودخل البابا في الصلح فلم ينته الخلاف إلّا بفسخ الزواج بين ألفونس وامراته، بعد أن أهرج<sup>(١)</sup> خصامهما البلاد، ولكن لم يستوثق الأمر لأوراك في مملكتها بما كانت العامة نعمت عليها من مجاهرتها بالخلاعة، وتجريرها أذيال العهر<sup>(٢)</sup>، وقد اشتهر بين عشاقها الدون غونسالز دو لاره والدون غوميز دو كاندسبينا، وحكي أن لها من هذا الأخير ولدا اسمه فرناندو ولقبه هرتادو، ويقال إنَّ آل هرتادو الأعيان ينتسبون إليه، وكانت قد تزوّجت في الأول بالكونت ريموند الجليقي، فولد له منها ألفونس السابع، فلما بلغ أشده وشاهد أحوال أمّه ثار عليها، وشاطرها المُلْك، وانحازت إليه كثير من البلاد ولما ماتت في سنة ١١٢٦، استقلَّ بملك قشتالة، واستفحل أمره وأخذ قلعة رباح من المسلمين، وهو الذي تناول منهم المرية وبقيت في حوزة الإشبانيول مدة، ثمَّ استرجعها المسلمون إلى أن انطوت مع ما انطوى من بساط الأندلس، وتلقَّب هذا الملك أيضًا بإمبراطور إسبانية، إلّا أن دولة بني عبد المؤمن، ظهرت في أيامه فأصابه من الموحّدين ما أصاب جدّه من المرابطين، ومات غمًّا، وقسم مملكته بين ولديه الواحد على ليون، والثاني على قشتالة، فبقيت هذه القسمة ثلاثًا وستين سنة، فتولّى شأنجُه البكر قشتالة وفرديناند الثاني، ليون وجليقية. وخلف شأنجُه ابنه ألفونس الثامن، وهو في الرابعة من عمره، فكفله الدون دو غاسترو إلى أن بلغ سنَّ الرشد، وخلف فرديناند ابنه ألفونس التاسع، وفي تلك المدّة زحف الموحّدون إلى إسبانية، وهزموا ألفونس الثامن وجيوش الإشبانيول، في وقعة الأرك الشهيرة التي روى مؤرّخو الإفرنج أنه هلك فيها ثلاثون ألفًا من المسيحيين، أكثرهم من فرسان نظام قلعة رباح ومار يعقوب ومار يليان، وبعد النصره جيء بألوف من الأسارى إلى يعقوب المنصور فمنَّ بإطلاقهم، وترتب على هذه الوقعة استرجاع

(١) جعلها في اختلاط وفوضى وضوضاء.

(٢) عَنَل للكر والهجور.

المسلمين كثيرًا من المواقع والمدن، ثمّ انعقدت المودعة<sup>(١)</sup> لعشر سنين، في أثنائها تقاتل ألفونس الثامن مع ابن عمّه ملك ليون، فأجمع رأي الأساقفة على تزويج ملك ليون بأبنة ملك قشتالة، تأييدًا للصالح على ما بينهما من درجة القرابة الحائلة دون ذلك ومع كون ملك ليون تزوّج بأبنة ملك البرتغال ففسخت الكنيسة الزواج لمثل تلك العلة، إلا أن الزواج الثاني أمضي في سبيله، بالرغم من حرم الدين، وجاء عنه الملك فرديناند الممدود في القديسين، ومن غريب الإتفاق أن البنت الثانية لألفونس الثامن، ولدت قديسًا أيضًا وهو مار لويس، فيكون الإذفونش المذكور جدًا لقديسين من جهة الدم.

وفي أيام ألفونس أيضًا، حصلت هزيمة العقاب<sup>(٢)</sup> على المسلمين، وقتل منهم مائتا ألف، وفرّ الناصر محمّد أمير الموحّدين شريدًا، وقد بالغ بعض مؤرّخي العرب في عدد قتلى تلك المعركة فقالوا: "إنّه لم ينجُ من الستمائة ألف التي جمعها الناصر إلا ألف فقط" ونسبوا ذلك إلى سوء تدبير الناصر، وقتله الرجال العارفين بقتال الإفرينج، وجعل بعض محقّقي الإفرينج السبب في هذه الهزيمة البعيدة عن التصديق التفاوت العظيم في السلاح بين الفريقين، لأنّ أكثر المسلمين كانوا كأنهم بدون سلاح، والجلالقة كان معظمهم تحت المغافر والدروع. وقيل في كتاب ألفونس إلى البابا أنّ عدد المسيحيين الذين جراحاتهم تُنذر بالخطر على أثر الواقعة، هم مائتان وخمسة وعشرون فقط، وقد انتقد كثير من المدقّقين هذا القول، ونسبوه إلى ضعف ملكة النقد في ذلك العصر، ووافق يوم العقاب الرابع عشر من صفر سنة ٦٠٩ وفق ١٦ تموز سنة ١٢١٢، واشترك فيه جميع ملوك الإيبانيول، لذلك تقاسموا أسلاب المسلمين ووسّع كلُّ منهم بسطة إمارته في أملاكهم.

### — وحدة تاجي ليون، وقشتالة

ولمّا مات ليون، قام بالأمر بعده ابنه فرديناند القديس، ولمّا كانت أمّه ابنة ملك قشتالة، وكان أخوها الدون أنريك قد مات يافعًا، انحصر إرث التاجين في فرديناند، على أنه في حياة أبيه كان قد وقع النزاع بينهما، فلم يخلُ له الجوّ إلا بعد موته. وفي أيامه أخذت قُرُطبة من يد الإسلام وانتشر سلك الجزيرة من الوسط، وتلا أخذ قُرُطبة ذهاب إشبيلية بعد حصار سنتين، وجلاء ثلاثمائة ألف من أهلها إلى غرناطة، وفي أيامه استفحل أمر محمّد بن

(١) المُسَدِّمة، الهُدنة (في لفاظ هذا العصر).

(٢) في الأندلس، بين جيّان وقلعة رباح. وقد ورد هذا اللفظ بضمّ العين كما وردَ بِكسرِها، وهذا لا يؤثّر على مجرى التاريخ.

الأحمر، وحالفه، وأدى له الجزية، وعصفت ربح قشتالة في إسبانية، وعَلَّت كلمة الصليب في تلك الأرض، لذلك جُعِلَ فرديناند في صفِّ القديسين وعُدَّ من أعظم الملوك، إلا أنه مع تسميته قديسًا، روى عنه بعض مؤرّخي الإفرنجية أنه في سنة ١٢٣٦، بينما كان يحرق أحد الخوارج في الدين، أخذ يؤرث<sup>(١)</sup> النار بيده، ويضع الحطب، لعل ذلك من زيادة الحماسة والله أعلم.

وحلّف فرديناند ابنه ألفونس الفلكي الملقّب بالصايي، وكان فريد وقته في الملوك في طلب العلم، وألّف في الفلك التاليف، وكانت له فيها آراء نازعة إلى مذاهب الأعصر التي بعده، فقيل إنهم بينما كانوا يتذكرون أمامه في الهيئة على المذهب الذي كان لعهدده قال لهم: "إن كان ما تقولون حقًا فيا ليت الله استشارني قبل ترتيب الأفلاك" فأنكروها عليه وعدّوها كفرًا، وإنما كان يريد بها التهكم بآراء العلماء في ذلك العصر، على أن مكانه في السياسة لم يكن في درجة مكانته في العلم، فإن مؤرّخي الإفرنج ينسبون إليه الاشتغال بالأفلاك عن الأملاك، ومعرفة ما في السماء مع جهل ما تحت قدميه.

وفي أيامه استصرخ المسلمون يعقوب بن عبد الحقّ سلطان المغرب من بني مرين، فأجاز إلى الأندلس ونصر الإسلام نصرًا عزيزًا وأثنى في بلاد العدو، بما أعاد ذكر الأيام الأولى، وخیل رجوع الأموية والمثمنين وتلك الدول، وهذا الملك ألفونس هو الذي عقّه ولده شانجّه، وطرده بمساعدة الروساء والأعيان، فاستغاث بالمسلمين ونصروه وعزّزوه. وعند وفاته كتب وصية، حرّمه فيها من ولاية عهده، وعهد لألفونس حفيده ابن فرديناند بكره المتوفى، وذلك لكونه عقّه ونش<sup>(٢)</sup> عليه، وأثار الروساء والدون فيليب أخاه الذي ذهب مع جماعة من الأمراء إلى غرناطة، وأقاموا عند سلطانها، لكن وصية الصايي لم تُغن عن الملك شيئًا، فإنّه ما أغمض عينيه حتّى قام شانجّه بالأمر ونازعه أخوه جويان قليلاً، لكنّه اضطرّ إلى الإذعان، وفي مدّة شانجّه أخذت طريف من يد ابن مرين، فأعمل<sup>(٣)</sup> في الجهاد، وسرّب البعوث لاسترجاعها، وأجاز إليه الدون جويان أخو شانجّه، بحسب رواية بعض مؤرّخي الإفرنجية، وحضر حصار طريف مع المسلمين. ومما يُحكى في هذا الحصار والعهددة فيه على الراوي، أن جويان جاء بأحد أولاد دو غوزمان قائد طريف من قبل

(١) يؤرثها.

(٢) عصاه وخرج عن طاعته.

(٣) قام به.

شأنجُه، ووقف به على شفير الخندق، ونادى القائد قائلاً له أن سلّم البلد أو لأقذفن بالولد، فلم يجاوبه دو غوزمان ببنتِ شفة<sup>(١)</sup>، بل شهر سيفه ورمى به نحوه، فرمى المحاصرون الولد في الحفرة. وهذه من حكايات الإسبانيول التي يطاولون بها الجميع في المفاخرة، وعلى بقائها مثلاً نادراً في الأمانة والوفاء، لو صحّت فهي دون رواية السموأل\* الذي لم يسلم الدروع ولم يخفر ذمته ولو بهلاك ولده، فإن كان عند الإسبانيول شيء من هذه الأخلاق العظيمة، فهي من رشح التربية العربية في تلك البلاد كما يقرّر ذلك أرباب التحقيق من مؤرّخي أوروبا أنفسهم.

ومات شأنجُه في ٢٥ نيسان سنة ١٢٥٩ تاركاً الملك لولده فرديناند وهو شاب غضّ الاهداب<sup>(٢)</sup>، فاستلم الزمام والمُلك جمرة تضطرم، والفتنة من كلّ ناحية تحتدم. وفي أيامه ألغى نظام الفرسان الهيكليين، وسببه أن هؤلاء الفرسان كانوا قد بلغوا درجة من القوة والثروة أعيت على سواهم، ووقفت بالألماني من دون مبلغهم فنمّسوا<sup>(٣)</sup> عليهم أمرهم، وأغروا بهم الملك وزبّوا ما شاؤوا من خيرهم، حملاً له على الإيقاع بهم، وتذرّعوا إلى ذلك بمقالات لفقوها عنهم، ورموهم بالإلحاد والتعطيل، والناس في أمرهم بين مصدّق ومكذّب فصدرت الأوامر باستئصالهم، فأحرق منهم جماعة، ومات فرديناند هذا، لسبع عشرة سنة من ولايته. وقيل في كفيّة موته إن أميرين من جهة مارتوس، أتّهما ظلماً بقتل جويان ألونزو دو بونافيدز، وهو منصرف من قصر الملك، فقُبض عليهما وأمر بقتلهما بدون أن يُسمع لهما دفاع، فقيل إنهما لمّا كانا يُساقان إلى الموت، انظرا<sup>(٤)</sup> الملك ثلاثين يوماً لكي يحضر في محكمة الديان تعالى، فلم يمض ثلاثون يوماً إلاّ ووجد فرديناند ميتاً في فراشه بدون سابق علة ولا سبب سوى الأجل.

وخلف فرديناند ابنه ألفونس الحادي عشر، وكان طفلاً، فقامت بكفالة أمّه ثمّ عمّاه دون بطرّه وجويان، إلى أن قُتِل في مرج غرناطة لعهد اسماعيل بن الأحمر. وفي مدته أجاز أبو الحسن المريني ابن أبا مالك برسم الجهاد في الأندلس، فقُتِل في إحدى الوقعات واستلّح<sup>(٥)</sup>

(١) كلمة.

(٥) شاعر جليلي، يُضرب به لُقْلُق في الوفاء، عاصره امرؤ القيس، توفي سنة ٥٦٠م.

(٢) طريّ الجلد، كتابة عن أنه لا زال في حسب شبهه.

(٣) خففوا عنهم ضيقهم.

(٤) ألقوا.

(٥) أُرْمِيَ في القتال.

مَنْ معه من المسلمين، واستنفر أبوه السلطان أبو الحسن قبائل المغرب للإجازة، وكانت المعركة البحرية بين أساطيل المسلمين والنصارى في بحر الزقاق، فتكثرت أساطيل الإيبانيول، وقُتِل أمير البحر جوفر توريو، واستُلحِم أكثر مقاتلته، وذلك في ٣ أغسطس (آب) سنة ١٣١٠، فالتزم ألفونس أن يهادن جميع ملوك إسبانية، ويؤكد معهم السلم جمعاً لكلمة النصرانية، وحصّن مواقعه وشحنها بالمقاتلة<sup>(١)</sup>، وأجاز ابن مَرين بجيوشه، وغنم كثيراً من أسطول الإيبانيول، إلى أن كانت الوقعة المشؤومة على المسلمين في حصار طريف. وقد بالغ الإفريخ في تقدير قتلاهم ذلك اليوم، فقالوا مائتا ألف، وليس هذا من الغرابة بما كان تقدير قتلى الإيبانيول فيه بعشرين رجلاً، ووقعت قلعة ابن زيد وزوطة<sup>(٢)</sup> وغيرها من المواقع، في أيدي الإيبانيول، وانتصروا في بعض المواقع البحرية، فجمع ألفونس حشوده، ونازل الجزيرة، وسرّب إليها ابن مَرين المدد، ويقال إنَّ العرب استعملوا في الدفاع عنها الآلات النارية، لأول مرّة عرفها الأوربيون. وقد مضى بعض وصف هذا الحصار الطويل، في الشقّ المتعلّق بأخبار المغاربة من هذا الكتاب، وأفاضت كتب الإفريخ في ذكر المعارك التي وقعت على أسوار الجزيرة، والدفاع والهجوم، ممّا استمرّ نحو عامين حتّى بنى ألفونس لجيشه معسكراً ثابتاً، جعل فيه الأسواق والدكاكين، وقفل كثير من الملوك والأمراء الذين معه إلى بلادهم، مثل كونت بيارون وقسطلبون وكونت دربي، وساليسبري، من أمراء الإنكليز. ومات ملك نافار وآل الأمر إلى الصلح عن يد ابن الأحمر بتسليم الجزيرة وخروج أهلها بالأمان. وتسلمها الإفريخ في ٢٧ آذار سنة ١٣٤٤ وانعقدت الهدنة لمُدّة عشر سنين، غير أنه لمّا رأى ألفونس اشتغال أبي الحسن بن مَرين ببعض الفتن في المغرب، اهتبل هذه الفرّة<sup>(٣)</sup>، ونازل جبل الفتح، لكنّه مات في هذا الحصار لستّة وعشرين من آذار سنة ١٣٥٠ وفق ١٦ المحرم سنة ٧٥١.

### - ملوك إسبانيا الجائرون -

وقام بالأمر بعده الدّون بطرّه الملقّب بالعاتي، ومن غريب الاتّفاق، أنّ إسبانية كان يليها في النصف الثاني من القرن الرابع عشر أربعة ملوك جائرين، لكلّ منهم سيرة فريدة في بابها: فكان الدّون بطرّه الملقّب بالخنجري في أراغون، وشارل الملقّب بالرديء في نافار

(١) المقتلون.

(٢) موضع في الأندلس، شهر بخصه.

(٣) انتهت هذه الفرّة.

والدّون بَطْرُهُ الملقَّب بالقاسط في البرتغال، والدّون بَطْرُهُ هذا المعروف بالعائمي أو الجاسي بقشتالة. وكان عند ارتقائه كرسي الملك لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، فعهد بتهدية إلى دون جويان ألونزو دو البوركك، الذي يقال إنّه كان تزلفاً إلى مرضاته، يزيّن له شهوته<sup>(١)</sup>، ويسوّغ له أفعاله، وكانت فاتحة أعماله قتله الدّونة ليونوره دو غوزمان، امرأة أبيه، ثمّ قتل غارسيلازو، من أمراء بورغوس، لتهمته إيّاه بالانحياز إلى بني لاره أعدائه، وأمر بطرح جثته في الأسواق، وعقب ذلك ضربه مالاً معلوماً على أهل بورغوس، فعارض في دفعه بعض أعيانها، فسُنِّق منهم ثلاثة، ثمّ غضب على الدّون ألونزو فرناندز كورونل، لكونه زوج ابنته جويان دو لاسردا، من أعداء الملك، ولما نسب إليه أثناء مرض ألفونس من القيام بدعوة جويان نونز دو لاره، فزحف إليه في مدته أغيلار وبور غيلوس ومونتلفان، وعات فيها، وتقبّض على الدّون ألونزو وقتله، ثمّ اتخذ الملك الدّونة ماريه دوياد، يليه حظيّة له، وكان ذلك بتشويق كافٍ، البوركك الذي كان يرجو أن تكون عَضُدًا له، ويستولي بها على قلب الملك، فخاب ظنّه وناصبته العداوة، فأراد أن يجعل لها ضرة، وصار يسعى في تزويج الملك، فخطب له بلانشة، ابنة دوق دو بوربون من فرنسا، وزُفّت إليه وكانت بارعة الجمال، متوقّدة الذهن، في السادسة عشرة من السنّ، فبعد يومين من دخوله بها، تركها ورجع إلى حظيّته. فخاف البوركك أن يبطش به، وفرّ إلى البرتغال واجتهدت والدة الملك أن تحوّل ميله فلم تُفلح في سعيها، وأمر أخيراً باعتقال امرأته بلانشة في قصر أريفالو، بدون أن يأذن لأحد أن يراها. ثمّ اقترن بالدّونة جويانة دو كاسترو وكانت على جانب من الحسن والذكاء، واستفتى في فسخ نكاحه<sup>(٢)</sup> الأول الأساقفة، فأفتوه على الرغم منهم، لكنّه لم تطل مدّته أيضًا مع هذه العروس الجديدة وهجرها، فارتحلت إلى دويناس، وولدت ابنتها جويان وانضمّ أهلها بنو كاسترو إلى الفئة الناقمة، وعمّت حركة الانتفاض مملكة قشتالة، وثار تُلِيُطَّة، وفي أثناء ذلك، أغرى الملك طيبياً إيطالياً فسمّ البوركك مهذبّه، فازدادت الحركة وتقرّرت العُصبة وحاول القبض على امرأته الأولى بلانشة، فنصرها الشعب وانضمت والدته إلى الثّوار، فقبضوا عليه أخيراً وحجروه، وأبعدوا عن داره من كانوا ممالئيه على مقاصده، لكن لم تطل المدة، أن انقسم روساء الثّورة، وفرّ الملك من معتقله، واستنفر أشياعه وقتل بهم أعداءه، فظفر بهم، واستمال جماعة منهم، وأمر بضرب أعناق روساء تُلِيُطَّة،

(١) يُغريه.

(٢) زواجه.

فقيل إنه كان منهم رجل صائغ قد ذرّفَ على الثمانين<sup>(١)</sup>، وكان له ولد في سنّ الثمانية عشرة جاشت به الحمية على أبيه، فالتمس أن يُقتل مكان أبيه، فلم تأخذ الملك رافة بشبابه ولا بشيخوخة أبيه، فقبل البدل وقتل الولد محلّ الوالد.

### - الحرب من جديد بين قشتالة وأراغون

وبعد أن استراح بطرّه من ثوار الداخل، وشرّدهم إلى فرسا وغيرها، نشب في حرب مع أراغون، سببها أن فرنسيس بيرلوس قائد البحر، عند بطرّه ملك أراغون، كان ذاهباً ببعض أسطوله يساعد فرنسا على إنكلترة في حرب ببحر المانش، فلمّا وصل إلى ثغر سان لوكار دو براميدا في فم الوادي الكبير، صادف مراكب جتّوية فضبطها، لوقوع الحرب يومئذ بين أراغون وجنوى بسبب سردانية، فسأله بطرّه الجاسي الإفراج عن تلك المراكب وكان هناك يتنزّه، فأبى، فامتعض منه وأرسل إلى رصيفه<sup>(٢)</sup> في الرتبة والخصال بطرّه الملقّب بالخنجري، يسأله تسليم فرنسيس المذكور فأجابه أن فرنسيس لم يزل غائباً، وعند رجوعه تجري محاكمته بما يرضي ملك قشتالة، لكن لا يمكن تسليمه، فشهّر بطرّه الحرب على جاره وسميه وانضمّ إلى ملك أراغون جميع الناقمين من إخوة ملك قشتالة وأعيان مملكته، وخفّ الدون أنريك من فرنسا إلى أراغون، وكما كان في جانب بطرّه الأراغوني كثير من أمراء قشتالة، كان في جانب بطرّه القشتالي كثير من أمراء أراغون، مثل الدون جويان والدون فرناند، ولكنّ شراسة أخلاق مولاهم وسوء عشرته، آلا بكثير منهم إلى الانحياز عنه، فابتدأ بذلك الدون فرناندو وفارقه، وقيل إنّ منهم الدون ألفار بيريز دو غوزمان، فكانت له امرأة حسناء اسمها الدونة الدونزة، أعجبت الملك فحدّثته نفسه باغتصابها من زوجها، ففرّ إلى أراغون وانحاز ابن عمّه الدون جويان دو لا سردا إلى الأندلس، فجمع عسكرياً من مقاطعته واجتاح البلاد، لكنّه لم يساعده القدر إذ وقع أسيراً في أيدي جند الملك، وسبق إلى إشبيلية فأرسل بطرّه في الحال من بطانته لُدْرِيْق دو كاسترو، لقتله، وبلغ امرأته الدونة مارية ما حلّ بزوجها، فجاءت إلى الملك تبكي وتلطم خدّها، وضرعت إليه جاثية على رجلها أن يعفو عن بلعها، فأعطهاها أمراً بالعفو على يقينه بأنّ الأمر قد قُضي، فلمّا وصلت إلى إشبيلية وجدت أنّ قد سبق السيف العذل.

(١) زاد حُمره على الثمانين سنة.

(٢) كَيْفُهُ.

ثمَّ وفدت عليه الدّونة الدونزه كورونل بعد انعقاد الهدنة بينه وبين أراغون، واستماحت منه العفو عن الدّون الفار بيريز دو غوزمان، وكان الملك قد حاول سابقاً اغتصابها فامتنتت منه، فسبحان مُقلّب القلوب، إذ مالت إليه هذه المرّة وحظيت عنده، فأسكنها في برج الذهب، على ضفّة الوادي الكبير، وتمتعت زمناً بالأمر، إلى أن ملها وعاد على حظّيته الأولى ماريه دو باديليه، كأنه لا حبّ إلاّ للحبيب الأوّل، ثمّ لسبب ضعيف أو لغير سبب، قتل بطرّه أخاه الدّون فادريك رئيس نظام مار يعقوب، وارتكبها فيه شعاعاً، إذ أجرى ذلك بحضوره، واسترجع فيه الحرس مراراً، حتّى تناولوه ضرباً بالدبابيس، فأثووه<sup>(١)</sup> لوقته، وذهب الملك يسأل عن رفاق أخيه في القصر، فلم يعثر إلاّ على رجل يقال له سانشو، فقتله بيده وهو ماسك بأذيال ابنة الملك طلباً للنجاة. وعاد فتناول الغداء في القاعة التي كانت مطروحة فيها جثة أخيه، وبعد أن فنك بفادريك، دعا أخاه الثاني جويان ووعدته بولاية يسكاي، واستصحبه إليها لقتل متولّيها أخيه الدّون تلو، وقاطعه إيّاه، ففرّ تلو إلى فرنسا واستنجز الدّون جويان وعَدّ أخيه، فبعث إليه بالحضور، فقدم ومعه ثلاثة بقوا خارجاً، ودخل جويان ليس معه سوى خنجر صغير، فجاء بعض حاشية الملك وألوهو وعلى غفلة منه سلبوه الخنجر، وما حصل في قبضتهم حتّى صرعوه واثالوا عليه بالدبابيس على أمّ رأسه فمات لحينه، وقذف به الملك من غرفته إلى الساحة، وبعد ذلك تُقبض على خالته الملكة ليونوره وإيزابيلا دو لاره، امرأة الدّون جويان، ولما طال الحرب بينه وبين أراغون وأبى الملك أراغون قبول مطالب بطرّه، نسّب هذا رفضه، إلى دسائس الدّون أنريك دو تراستامار، والدّون تلو، والدّون فرناند مركزيز طرطوشة، فانتقم منهم، بقتل أمهم خالته، ثمّ اعتقل امرأة الدّون تلو الباقية كانت في البلاد، ثمّ قتلها، ثمّ قتل أخويه الصغيرين الدّون جويان الذي كان في التاسعة عشرة من العمر، والدّون بطرّه، الذي كان في الرابعة عشرة، بدون ذنب اقترفاه، وكانت الحرب لا تزال قائمة على قدم وساق بين أراغون وقشتالة، فحضر لدى الملك مرّة كاهن من سان دومينيك دو لاشوسه، وطلب أن يقابل الملك، فمكّنوه من ذلك فقال له مولاي، رأيت في النوم مار دومينيك الكبير فأمرني أن أجيء إليك، وأنذرك لكي تأخذ حذرک لأنك ستموت مقتولاً بيد الكونت أنريك أخيك، فراجع الملك إن كان بعثه أحد ليقول له هذا القول فأصرّ على أن هذه هي رسالة سان دومينيك، فاستعاد حديثه بملاً من الناس فأعاده، فأمر بحرقه حياً ولم يبال بمرساله، ثمّ قتل

(١) لزنوه قتلاً.

أمين صندوقه صموئيل لاوي اليهودي، الذي كان ملاً خزائنه ذهباً، واستصفى جميع أمواله ثم بعد عقد الصلح مع أراغون قتل امرأته الملكة بلانشة التي كانت قد قضت معظم حياتها بإسبانية رهن الاعتقال، وكانت كأسمها نقيّة البياض بديعة الحسن جذابة الملامح فسُقِيَت كأس حفنها في الخامسة والعشرين من سنّها، ومضت طاهرة الإزار<sup>(١)</sup>، حتّى قيل على لسانها في أغاني العامة ما معناه: "أموت بدون أن يعرفني الملك وأذهب بين العذارى" مع هذا لم تنجُ هذه الملكة من أوهام القصاصين الذين رموها بمعاشقة الدون فادريك أخي الملك، ودافع عنها كثير من المؤرّخين، بكون زواجها وقع أثناء غياب فادريك، وأنها بعد ذلك لم تجتمع به فأين تمكّن من رويتها؟ وهذا الملك هو الذي التجأ إليه أبو سعيد بن الأحمر المنتزي على محمّد الخامس، فقتله قيل مع سبعة وثلاثين فارساً من بطانته، وتولّى قتله بيده قائلاً له: "هذا من أجل المعاهدة المذمومة التي اضطررتني أن أعقدها مع أراغون" فعنّفه ابن الأحمر وسبّه ولكنّه بادله كلّما بكلم، ولمّا قتل مع جماعته أرسل برووسهم إلى سلطان الأندلس، وتصافيا ولمّا أمّن من جهة المسلمين، خاف أن يناقشه ملك فرنسا الحساب على قتل الملكة بلانشة، فأكد العهد مع صاحب إنكلترة ومدّ يده إلى ملك البرتغال وملك نافار، وزحف معه نحو ملك أراغون فانهزمت جيوشه، وآل الأمر إلى الصلح، على شرط أن يتزوج دون بطرّه ملك قشتالة ابنة دون بطرّه ملك أراغون، وأن ولي عهد أراغون يقترن بأبنة ملك قشتالة من حظيّة ماريه دو باديليه، وأن ملك أراغون يسلم إليه الدون أنريك دوتر استامار والدون فرناند مركزيز طرطوشة، فقبل بذلك رصيفه، وقتل فرناند وحاول اغتيال الثاني، ففرّ واعصوب<sup>(٢)</sup> حوله القشتاليون.

### - الخلاف هي قشتالة -

وذهب أنريك إلى فرنسا واستجاشها<sup>(٣)</sup> على أخيه، وكان لهم ثار في قتل بلانشة، فأرسلوا ثلاثين ألف مقاتل معقوداً عليهم ليرتران دو غوكلين، فدخل مع أنريك مملكة قشتالة ونودي بهذا ملكاً في كثير من مدائننا التي كان أهلها ينتظرون الفرصة لخلع طاعة الظالم، ففرّ بطرّه إلى البرتغال فأبى ملكها قبوله، فعاد وأفلت إلى جليقية حيث لقي فرناند دو كاسترو ومطران سان جاك، فوعده بالنصرة، وجهّز له المطران كنيّة مؤلّفة من ١٢٠٠

(١) بمعنى، شريفة.

(٢) اجتمع حوله، واللفّ حوله.

(٣) جمّعه.

مقاتل، لكنّه جوزيَّ جزء سنمار، وغدر به بطرّه واستصفى أمواله وذهب بها بحرًا إلى بيون، وكانت في يد الإنكليز، واستتب الأمر لأخيه الدون أنريك في قشتالة، إلا أنّ الإنكليز أجازوا بطرّه، وأصبحوه بجحفل جرّار<sup>(١)</sup> لافتتاح مملكته، وكان أنريك قد أعاد أكثر الفرنسيين الذين معه إلى بلادهم، فضعفت قوّته، وانهزم أمام البرنس دو غال في واقعة نافاريت، فلاحق بفرنسا، ودخل بطرّه الجاسي مع البرنس دو غال إلى البلاد، وحاول قتل الأسارى الذين أخذوا في الواقعة، فوبّخه البرنس ومنعه، ثمّ طالبه بنفقات الحرب، فأخذ يطوف في البلاد ويقتل أعيانها ليأخذ أموالهم، وأهلك في تلك الجولة خلقًا كثيرًا حتّى فرّ كثير منهم إلى أخيه المنهزم وشدّوا أزره، وأقلع البرنس دو غال غير راضٍ عن أعماله، وعاد الدون أنريك إلى البلاد ومعه جماعة من الفرنسيين، فقامت أكثر المدن بدعوته، وحصر طليطلة، فدافعه عنها الدون فرناند الفارز أو الفارس من قواد الملك بطرّه، وجاء هذا مع حليفه ابن الأحمر يحاصر قرطبة، التي كانت تقبلت دعوة أخيه، فضيقا عليها وهجم المسلمون على الأسوار، فاحتلّوا منها برجًا، لكنّ القرطبيين كروا على المحاصرين فكشفوهم فازمعا العودة، واهتبل محمّد سلطان غرناطة هذه الغرّة، فعاث في بلادهم، واسترجع بعض الحصون، واكتسح جيّان وأبّدة، وغيرهما من المدن المحالفة للدون أنريك.

وفي ١٤ آذار سنة ١٣٦٩، انتشبت بين الأخوين معركة بقرب مونتيل، وانكشف الدون بطرّه واعتم بصقر مونتيل، فبنى أخوه أنريك جدارًا بحجارة يابسة، أعجل بناءه حول القصر ليقطع رجاء بطرّه في الخروج، فلمّا شاهد ذلك أخوه وأعوانه وقد منهم معرفة<sup>(٢)</sup> لبرتران دو غوكلين، فداخله في غضّ الطّرف عن فرار الدون بطرّه، لقاء جائزة سنّية، فرفض برتران، وأخبر بذلك الدون أنريك، فأشار إليه بأن يقبل هذه المداخلة ويسمح للدون بطرّه بالحضور عنده، وفي ليلة ٢٣ آذار المذكور، انسلّ الملك قاصدًا خيمة القائد دو غوكلين، فلمّا استقرّ بها، دخل عليه أخوه الدون أنريك بالشكّة الكاملة ولأول وهلة لم يعرف أخاه لطول عهده به، فقال له أحد فرسان الفرنسيين ها هوذا خصمك - وأشار إلى الدون بطرّه - فأجابته نعم ها أنذا، فوثب عليه أنريك ونفحه بشفرة قصيرة في وجهه، فتلقاه بطرّه بذرّاعيه، وتصارعا فسقط الاثنان على الأرض فوجأه<sup>(٣)</sup> أنريك بخنجره جملة طعنات

(١) جيش عظيم.

(٢) أي أنه أخبروه بالأمر.

(٣) السلاح.

(٣) وجاء: ضربته، لكره.

حتى أتوا<sup>(١)</sup>، وقيل، بل عندما سقط الملكان على الأرض جاء بطرء فوق أنريك، لكن القائد دو غوكلين قلب الثاني فوق الأول، حتى مكّنه من قتله، وكان عمره يومئذٍ أربعاً وثلاثين سنة وسبعة أشهر، وخلفه الدون أنريك قتله.

وقد أطلننا قليلاً في قصة هذا الملك الجاسي لغرابة أحواله، وشذوذ مبادئه، وهاك ما لحّصه ابن خلدون من خبره قال:

”قد تقدّم ذكر تغلب الطاغية ابن الهنشة، على الجزيرة سنة ثلاث وأربعين، وأنه نازل بعدها جبل الفتح سنة إحدى وخمسين، ومات بالطاعون وهو محاصر له، عندما استفحل أمره، واشتدت شوكته، وكفّهي الله شأنه، ووُلّي أمر الخلافة بعده ابنه بطرء، وعدا على سائر إخوته، وفرّ أخوه القمط، ابن حظية أبيه، المسماة بلغتهم أريق ”بهمزة“ إلى قمط برشلونة، فأجاره، وأنزله خير نزل، ولحق به من الزعماء المريكس ابن خالته، وغيره من أقماطهم، وبعث إليه بطرء ملك قشتالة في إسلام أخيه<sup>(٢)</sup>، فأبى من أخضاره جواره، وحدثت بينهما بذلك الفتنة الطويلة افتتح فيها بطرء كثيراً من معاقل صاحب برشلونة، وأوطأ عساكره نواحي أرضه، وحاصر بكنسية قاعدة شرق الأندلس مراراً، وأوقف<sup>(٣)</sup> عليها بعساكره، وملأ البحر إليها بأساطيله، إلى أن ثقلت على النصرانية وطأته، وساءت فيها ملكته، فانتفضوا عليه ودعوا القمط أخاه، فزحف إلى قرطبة، وثار على بطرء أهل إشبيلية وتيقن صاغية النصرارى إليه ففرّ عن مملكه، ولحق بملك الإفرنج، وراء جيبيقية في الجوف<sup>(٤)</sup> عنها، وهو صاحب إنكلترا، واسمه الفللس غالس، ووفد عليه صريحاً سنة سبع وستين، فجمع قومه، وخرج في صريحه إلى أن استولى على مملكه، ورجع ملك الإفرنج فعاد النصرارى إلى شأنهم مع بطرء، وغلب القمط على سائر الممالك، ففتح بطرء إلى ثغوره، مما يلي بلاد المسلمين، ونادى صريحاً بأبن الأحمر، فانتهاز الفرصة ودخل بعساكر المسلمين فأثخن في أرض النصرانية، وخرّب معاقلهم ومدنهم، مثل أبدّة وجيان وغيرهما من أمهات أمصارهم، ثم رجع إلى غرناطة ولم تزل الفتنة قائمة بين بطرء وأخيه القمط إلى أن غلب عليه القمط وقتله“ انتهى.

(١) ارداه قتيلاً.

(٢) أي إسلامه إليه.

(٣) أسرع.

(٤) الوادي.

(٥) الاستفانة، وخرج في صريحه: خرج مُغيثاً.

وقال ابن خلدون في سفارته عن السلطان ابن الأحمر إلى إشبيلية ما نصّه: «وسفرت عنه ستة خمس وستين إلى الطاغية ملك قشتالة يومئذٍ بطرّه بن الهنّسة بن أذفونش، لإتمام عقد الصلح بينه وبين ملوك العُدوة بهديّة فاخرة من ثياب الحرير والجياد المقربات بمراكب الذهب الثقيلة<sup>(١)</sup>، فلقيت الطاغية بإشبيلية، وعانيت آثار سلفي بها، وعاملني من الكرامة بما لا مزيد عليه، وأظهر الاغتباط بمكاني وعلم أوليّة سلفنا بإشبيلية وأثنى عليّ عنده، طيبه ابراهيم بن زورر اليهودي المقدّم في الطبّ والنجامة<sup>(٢)</sup>، وكان لقيني بمجلس السلطان أبي عنان، وقد استدعاه يستطبّه، وهو يومئذٍ بدار ابن الأحمر بالأندلس، ثمّ نزع بعد مهلك رضوان القائم بدولتهم إلى الطاغية فأقام عنده، ونظمه في أطبائه، فلمّا قدمتُ أنا عليه أثنى عليّ عنده، فطلب الطاغية حينئذٍ المقام عنده، وأن يردّ عليّ تراث سلفي بإشبيلية، وكان بيد زعماء دولته فتفاديت من ذلك بما قبله، ولم يزل عليّ اغتباطه إلى أن انصرفتُ عنه فرّودني، وأحمّلتني<sup>(٣)</sup>، واختصّني ببغلة فارهة، بمركب ثقيل ولجام ذهبيين، أهديتهما إلى السلطان فاقطعني قرية البيرة من أراضي السقي بمرج غرناطة» انتهى.



وبعد أن أدبل الدّون أنريك؛ قام ملك البرتغال يطالب بالخلافة، بحجّة أنه هو الوارث الشرعي الوحيد لتخت<sup>(٤)</sup> قشتالة، لأنّ والده بطرّه القاسط، هو ابن بنت شأنجّه الرابع ملك قشتالة، ولأنّ الدّون أنريك ابن الحظيّة، فقد نشبت الحرب، واستولى أنريك على كثير من معاقل البرتغال وحاصر أشبونة عاصمتهم، ثمّ انعقد السلم بتوسّط وكيل البابا، وكان أولاد الدّون بطرّه الملك السابق مع خزائنه في قرْمونة، فحاصرها الدّون أنريك ودافعه قائدها مرّتين لويز دو قرطبة، إلى أن نفذت الأقوات<sup>(٥)</sup>، واضطرّ مع حاميته إلى التسليم على شرط الأمان، فأتمّهم رئيس مار يعقوب من قواد أنريك، لكن هذا أبقى تصديق عهد القابتد، وقتل مرّتين صبراً، واستولى على الخزان وأرسل أولاد أخيه إلى طليطلة حيث أودعهم السجن.

(١) اللإسة سُروج الذهب على ظهورها، وقوله: مُفربات، كأنها تلبس الذهب، كما تلبس السيف قِرابه، فهو مُفترَب.

(٥) لفظ قياس: العلم بالنجوم وسيارات الفلك.

(٢) حمّلتني من هدلهاء وأعطيتة.

(٣) عرش.

(٤) مفردتها، قوت: طعام.

وسنة ١٣٧٢، وقعت الحرب بين الإنكليز والفرنسيين، فأرسل الدون أنريك قائد بحره أمبروسيوبو كانغره لمساعدة الفرنسيين؛ فهزم أسطول الإنكليز، ثم تحارب مع ملك أراغون من أجل مُرسية، وانتهت الفتنة بتزويج جويان ولي عهده بأبنة صاحب أراغون، وكان الدوق دولنكاستر، رابع أولاد أدوار ملك إنكلترا قد تزوج في بيون بالدونة قسطنسه ابنة بطرّه الجاسي، وكان والدها قد عهد لها بالملك، فخال هذا الدوق أنه صار صاحب الحقّ في خلافته، فجمع عسكرياً جرّاراً وزحف صوب إسبانية فناوشه الفرنسيين القتال في طريقه، ومات أكثر جيشه، فعاد بحقّي حنين<sup>(١)</sup>، ثمّ لعهد، وقع بين شارل الرديئ ملك نافار والإنكليز، زحف إليه الفرنسيين من جهة والقشتاليون من أخرى فالتزم أن يضرم<sup>(٢)</sup> ذلك الحبل، ومات الدون أنريك في ٢٩ أيار ١٣٧٩.

وجلس على كرسي الإمارة ابنة جويان، وولّد له في أوائل ملكه ولد سمّاه أنريك، وكان فرديناند صاحب البرتغال لم يُرزق غلاماً، وأنما ولد ابنة يُخشى بعد موته ضياع حقّها، فخطر له أن يجعلها حليمة<sup>(٣)</sup> لابن الدون جويان، فيتمكّن من حفظ حقّها؛ فخاف الإنكليز عاقبة هذا الزواج وكان الدوق دولنكاستر لم ينزل عن دعواه، فدخلوا البرتغال في فسح ذلك العقد، وحملوهم على الحرب، فاصطلت بين الملكتين عواناً<sup>(٤)</sup>، وطالت زماناً، ووفد الإنكليز بالمدد على أشبونة، وفي تلك المدة توقّيت ليونورة امرأة الدون جويان، فرأى صاحب البرتغال أن يزوجه ابنته التي كان يريد إعطاءها لابنه، وهي المسماة بالدونة بياتريزة ويختم بذلك الحرب، فانصاع عنه الإنكليز، وعقد للدون جويان على ابنته المذكورة، وبعد زفافها عليه بأربعة أشهر، مات الدون فرديناند ونودي بكرمته ملكة على البرتغال، فأسف رعيّة هذه الملكة أن يروا عليهم أجنبيّاً، ولم يقبلوا بالدون جويان، فزحف إلى عاصمتهم أشبونة وحاصرها برّاً وبحراً حتّى هلك كثير من أهلها ومن عساكره، فانكفأ عنها وطمع فيه البرتغال فقاتلوا من أطاعه منهم، واجتمعوا وقرروا تحت رئاسة قائد أشبونة أنّ بياتريزة ليست ولدّاً شرعيّاً لفرديناند، لأنّ أمّها كانت متزوّجة بالدون جوان لورانسو دوا كونها، حينما نقلت إلى الملك فرديناند، فبايع البرتغال الدون جويان بن بطرّه القاسط، وانضمّوا إليه، وكان متولّي الدفاع عن أشبونة، فزحف ملك قشتالة لقتاله

(١) مثلّ يُغرب لمن عاد خالياً خاسراً، صغرّ البدين.

(٢) يقطع.

(٣) زوجة.

(٤) التي قوتلّ فيها كرة بعد مرة.

فالتقيا في ١٤ آب سنة ٨٤ بعد الثلاثمائة والألف، بقرب قرية الجبروته، فانهمز ملك قشتالة وهلك من جيشه عشرة آلاف، ومن البرتغال ألف، وهي وقعة مذكورة في التاريخ بقي البرتغال يحتفلون بتذكارتها أزماناً، فتوطد بذلك أمر الدون جوان البرتغالي، وجاء الدوق دو لنكاستر الإنكليزي فدخل قشتالة بجيش، واستولى على بعض البلاد ومدّ يده إلى يد ملك البرتغال وهياّ قسمة بلاد عدوّهما، لكنّ هذا استجاش بالفرنسيس فأمدّوه بالمال والرجال، ولم يُفْزْ أعداؤه بطائل، فانتهت الفتنة كغيرها من الفتن التي تضمّنها هذا التاريخ بزواج أنريك ابن ملك قشتالة بكاتالان بنت الدوق دو لنكاستر من امرأته ابنة بطرّه الجاسي، وفي ٩ أكتوبر (تشرين الأول) سنة ٣٩٠ بعد الألف، بينما كان الملك يجري فرسه في ميدان مع بعض فرسان النصارى الجالين من أفريقية، وكانوا موصوفين بالفروسية، إذ كبا به جواده فخرّ صريعاً، وحُمِلَ بدون حراك، فخلفه ابنه الدون أنريك في الثانية عشرة من العمر، وكفله مجلس مؤلّف من الدون فادريك ابن الدون أنريك جدّ الملك من حظّيته، ومن الدون بطرّه، حفيد فادريك رئيس نظام مار يعقوب، الذي قتله أخوه بطرّه، ومن أساقفة طليطلة وسان جاك وغيرهم من القواد، فانتشرت السلطة وعمخّصت الحال بالفتنة، وصارت الناس فوضى، وفي هيعة<sup>(١)</sup> ذلك، هجمت العامة في قرطبة على اليهود، فقتلوا منهم خلقاً، وانتهبوا أموالهم، وفي مُدّته قام محمّد ثاني أولاد يوسف بن الأحمر على أبيه ورماه بالضعف عن الجهاد، وأثار عليه العامة، فالتزم يوسف أن يخرج بعساكره ويجتاح بلاد النصارى لينفي تُهمة ابنه الذي آخذها حجة للخروج، إلاّ أنه لمّا كان ميّالاً بطبعه إلى السلم لم يلبث أن هادنهم وقل.

وفي تلك المدة ظهر رجل عند الإسبانيول يُدعى سيو، معروف بالنسك والزهادة وقبول الدعاء، وصار لعامتهم فيه اعتقاد كبير، فأنبأ رئيس فرسان القنطرة بأنه يفتح غرناطة، كما فتح السيّد بَلَنْسِيَة فصدّقه، وأرسل اثنين من أعوانه إلى سلطان غرناطة برسالة تضمّنت قذفاً وطعنًا في دينه، وتهديدًا وإنذارًا من بطشه، وهو يدعو إلى التّزال، ويعدّه أن احجم<sup>(٢)</sup> من الأندال، ويقاتله بفتة قليلة، له أن يجمع بإزاتها أضعافها، فلم يكثر صاحب الأندلس بكلامه إلاّ كما يكثر بهذيان الموسوسين، وطرد الرُّسل من حضرته مذمومين مدحورين، فلمّا بلغ ذلك مارتين يانس أستاذ القنطرة، جهّز خمسة آلاف مقاتل وسار بهم

(١) كلّ ما لغزك من صوت، ومجازاً، الضوضاء.

(٢) كَفَّ عن مصاحبهم. وفعل الأمر مُسَوِّغ في هذا السياق.

نحو غرناطة، وقيل إنَّ الدَّونَ أنريك نهاء عن المسير لما فيه من النكث بالمعاهدات، فلم ينته قاتلاً إنَّها مسألة دينية لا سياسية، يلزم فيها الخضوع للملك، ولَمَّا مرَّ بجيشه بقرطبة، حاول بعضهم أن يمنعه من جواز<sup>(١)</sup> الجسر، فثارت العامة واعترضت على تلك الممانعة، فأذن له وفي ٢٦ نيسان سنة ٣٩٤ بعد الألف وصل إلى ثغور غرناطة وحاصر بُرجاً اسمه برج إيجة وبعث إلى الحامية يعرض عليهم التسليم والنصرانية، وإلا فالسيف، فهزئوا به وجاوبوه بالنشأ والحجارة، فمَجْرَح الأستاذ وقُتل معه ثلاثة من أبطاله، فدعا الناسك سيو وقال له، أكَّدت لنا أنه لا يهلك منا أحد وهوذا ثلاثة قد سقطوا صرعى فقال له الناسك، نعم قلت ولا أزال أقول، لكن إنَّما أردت بذلك الحرب في السهل لا الحصار أمام الحصون، فأخذ يجمع أكداساً من الحطب بقصد إحراق البرج، وإذا بعساكر المسلمين قد أقبلت، فذعر أصحاب يانس من كثرتها، وصاروا ينسلون هاربين، فوضع رايته والصليب في الوسط، وأحاط بهما في نخبة رجاله، إلا أنَّ العدوَّ أحاط بالجميع، فلم ينبجُ من الخمسة آلاف سوى ألف وخمسمائة، وأمَّا معلَّم القنطرة، فسقط مع جميع الرجال الذين انتخبهم ليكونوا في موطنه، وانتشر خبر هذه الهزيمة في إسبانية، فخاف النصارى أن يستأسد المسلمون ويوقعوا بهم، لكنَّ السلطان يوسف، حصر القتال في مكانه مع هذا الرجل المتحمس، ولم ينكث بعهد معهم، إلاَّ أنه لَمَّا مات وخلفه ولده محمَّد استؤنفت الحرب، وأخذ كلُّ من الفريقين ينحي باللائمة على الآخر في إخفار الذمَّة.

وعام أربعة بعد الأربعمائة والألف، خرج محمَّد بن يوسف غازياً في جيش كثيف، فاكسح البساط وعات في بلاد الإِسبانيول، وفي السنة التالية، غزا جيَّان وأذاقها مرَّ القتال، وقفل بالغنائم، فأخذ الدَّونَ أنريك يُحصِّن ثغوره دُقْعاً لعادية المغاربة.

وسنة ١٤٠٦، قضى نَحْبُه تاركاً من الولد طفلاً وابنتين، فأوصى بتربية أولاده أخاه الدَّونَ فرناند الملقَّب بالرشيد وامرأته الملكة كاترينه، وكان من فوائح أعمالها التجهيز لحرب غرناطة، فشنت الغارات وعطَّلت الثغور، ومات أثناءها محمَّد بن يوسف، وخلفه أخوه البكر يوسف فتجدد القتال في مدته، وتزاحف الفريقان في سنة عشر بعد الأربعمائة والألف، وحاصر الإِسبانيول النقيرة وأخذوها، واستفحل بذلك شأن فرناند.

وفي هاتيك الآونة، مات صاحب أراغون عن غير ولد شرعي كما قدَّمنا في أخبار أراغون، فأجمع رأي نواب تلك الأمة على انتخاب فرناند، الرشيد، ملكاً عليهم لمكانه من

(١) اجتياز.

القرابة وما عُرف من ذمته وأمانته وعفته عن اغتصاب ملك ابن أخيه، الذي استودعه طفلاً رضيعاً، فتوج فرناند ملكاً على أراغون، وبقي كافلاً لابن أخيه في قشتالة، وبينما كان سائراً لغزو المسلمين سنة ١٤١٦، وافاه أجله، فاستقلّ بكفالة ملك قشتالة أمه كاترينة بنت دوق لنكاستر الإنكليزي، وكانت ممدوحة السيرة إلا أنها كانت مغرمة بالخمرة، ونقم عليها الإسبانيول عدم كراهيتها الشديدة للإسلام، فماتت حنفاً أنفها<sup>(١)</sup> في غرة حزيران سنة ١٨، فتسلم ابنها ملك جويان أزيمة المُلْك وهو في نحو الثالثة عشرة من العمر، فتنازع الرئاسة الأمراء والقواد، وانتشبت الفتن، وتوالت المحن، إلى أن تمكّن من رأب الصدع<sup>(٢)</sup>.

وفي تلك الأيام حدثت في غرناطة حوادث جمّة من وفاة يوسف بن الأحمر، وقيام ولده محمد الأعرس مقامه، وخلع هذا، وقيام محمد الصغير، وخلعه، ورجوع الأعرس، وانتزاع يوسف ابن عمّه عليه، وجلسه على تخت الإمارة، وموته ورجوع الأعرس ثالثة، ثم استوفيناها في أخبار غرناطة. وامتدّت لجويان في قضايا المسلمين، بعضهم مع بعض، يد طولى، واستفاد من انقسامهم، فهزهم وأثنخ في بلادهم. وتماماً سود صحيفته، نكبتة لأمر الجيوش الدون ألفارو دو لونة، الذي حضنه ورباه ونصره على أعدائه وأخلص في مناصحته مدة ثلاثين سنة، فجزاه شرّ الجزاء بسبب اختياره ابنة ملك البرتغال لزواجه بعد وفاة زوجته الدونة مارية، حال كون، جويان يهوى رادغوند ابنة شارل السابع ملك فرنسا، والصحيح أن الدون ألفارو كان في دولة قشتالة لعهد جويان أشبه بيحيى ابن خالد البرمكي في دولة الرشيد، لا يُقطع أمر بدونه ولا تُمضى قضية إلا على مقتضى إرادته، حتى انصرفت إليه الناس من دون الملك؛ وازدحمت في بابه الأقدام، وثقل على جويان احتمال هذا الأمر أكثر مما احتمله، إلا أنه لم يعمر زماناً بعد وفاة ألفارو، ومضى لسبيله في ٢١ تموز سنة ١٤٥٤ وكان ملكه مشوباً بالفتن، ورأيه نسيباً للعجز، إلا أنه كان ممن يحب العلم خصوصاً التاريخ والأدب.

وخلفه ابنه الدون أنريك الرابع فأول ما فكر فيه عند استوائه على الكرسي، أن ينسل ولدًا يورثه الملك. فاقرن بالدونة جويانة البرتغالية، لكن لم يلبث أن اتخذ من دونها الحظايا، فاختر كاتالينه دو صندوقال، مدة، ثم تركها، ولما علم أنها علقت بفارس غيره، أمر بضرب عنقه، ثم بلغه أن دير راهبات مار بطرس دولاس دويناس محتاج إلى

(١) مات على فراشه ولم يُقتل.

(٢) إصلاح الحال.

الإصلاح، فعين معشوقته هذه رئيسة للراهبات، واتخذ الدونة غيومار دو كاسترو عشيقته، فحكّمها في إرادته، وانقطع إليها دون العالمين، فثار عليها حسد الملكة واشتدت الفتنة بينهما، حتى أنهما مرّة تعاركتا وتضاربتا وقتل من ساعد<sup>(١)</sup> الملكة ما في صدرها من الغيظ ممن اغتصبها حقّها، فأمسكت بذواتب<sup>(٢)</sup> الحظيّة وصرعتها في الأرض، فحضر الملك مسرعًا، ورفس الملكة فأنامها لوقتها مغشيًا عليها. قال المؤرّخ لافال: "وهذه الوقائع المخجلة لم تكن إلاّ مقدّمة لحوادث أعظم فضيحة وأظهر عارًا، وروى من عشق الملكة لبرتران دو لاكوفا، ومن تهتكها وولادتها، ودعوة الملك أمراء البلاد لحلف بين الأمانة لابنته الجديدة، وإبائهم ذلك اشتباهاً في صحّة نسبها للملك، إلى غير هذا من الأمور الفاضحة، ما أمسكنا عن تفصيله ضناً بشأن التيجان، وحرمة لمقام الصولجان، خصوصاً وإنّ لهذا الملك فيه السهم الأوفر من العار". وبالإجمال فنقول إنّ أمراء قشتالة خرجوا على أميرهم أنريك، ولاشتهار عجزه عن الزواج عندهم، رفضوا أن يقبلوا عليهم وليّ عهد من سلالته، إذ ليس عندهم ممن له سلالة، فولّوا عهد الإمارة أخاه ألفونس، وطوّح ببعض الثّوار بغض الملك واحتقاره، حتى نصبوا له علمًا في محفل غاصّ، ووضعوا عليه جميع شارات الملك، وعصوبه بالتاج وقام واحد فقرأ على الملأ فاضحًا سيرته فأخذوا عند كلّ نبذة ينزعون قطعة حتى جرّدوا النصب<sup>(٣)</sup>، ثمّ لم ينتهوا حتى حطّوه للأرض، وبايعوا ألفونس ملكًا، وجمهروا حوله، وحصروا بعض المدن، فزحف إليهم أنريك وناصره من الأمراء والأعيان، من أحفظه عمل الثّوار، ولم يحطب في جبال الفوضى<sup>(٤)</sup>، فالتقى الجمعان في ظاهر أولميدو وتناجزوا<sup>(٥)</sup> مناجزة الأضداد، إذا ملأت صدورهم الأحقاد، وفصل كلّ من الفريقين مدعيًا لنفسه النصر، والصحيح أنه لم يتعين لأحد. ولم تزل الثائرة حتى جاء ما لم يكن في الحسبان، وهو وفاة الدون ألفونس في ٥ تموز من أشهر عام ٦٨ بعد الأربعمائة والألف، فلمّا لم يجد الخوارج من يقدّمونه عليهم، جاؤوا مبايعين الدونة إيزابيلا أخت الملك أنريك، فأبت مزاحمة أخيها وذكّرتهم بما عليهم من فروض الطاعة لمليّكهم، إلّا أنها طالبت بحقّ الوراثة، فلمّا عرض ذلك على الملك، عدّه مغنمًا بشرط دخول القوم في الطاعة، وسكن الثّوار على

(١) جملة قويًا.

(٢) ذواية: ناصية أو منبتها من الرّلس (الشّعر).

(٣) العَلَمُ المنسوب.

(٤) لم ينصر الفوضى، ورفضها.

(٥) تقاتلوا وتناجزوا.

وثيقة استخلاف الدّونة إيزابيلا، والعمو العام عنهم، ورضي الملك بذلك واعترضت الملكة، داعية لابنتها التي تقدّم خبرها، فلم يسمع لها، وحلّ وكيل البابا الأمراء الذين أفسموا يمين الأمانة لتلك البنت من عقدة اليمين.

### - فرديناند ملك أراغون، وإيزابيلا ملكة قشتالة

وكانت إيزابيلا، جامعة بين جمال المنظر وجودة الإدراك، وأحسن منهما أنها وارثة ملك قشتالة، فأخذ جميع ملوك عصرها يتسابقون على خطبتها، إلا أنّ اختيارها وقع على فرديناند ملك أراغون، ومضت إليه رغماً عن إرادة الكثيرين من أعيان المملكة، فالتقيا في وادي الوليد وتمّ عقد النكاح بينهما في سنة ١٤٦٩.

فأحفظ<sup>(١)</sup> ذلك، المركيز دو فيلنه مستشار الملك، فقام يسعى في إيجاد خطيب من الملوك لابنة الملك، أملاً بمنازعة إيزابيلا الوريثة، فمالوا إلى ملك البرتغال، ثمّ أبرزوا الدوق دو غويان واحتفلوا بالخطبة، لكنّ سفراء الدوق اشتراطوا على الملكة أن تحلف على رُوس الأَشهاد، بأنّ هذه الفتاة هي ابنة الملك أنريك، وعليه أيضاً أن يحلف بأنه أبوها، ففعلاً ومع ذلك بقي الخطيب مشتبهاً، حتّى أنه لم يهجم على النكاح. وأخطبوا لها أمير آخر اسمه الدون أنريك، ثمّ لسوء ملكته كره الملك تزويجها منه، فبقيت بدون عرس، إلى ما بعد مهلك الدون أنريك الذي وقع في ١٢ كانون الأول سنة ١٤٧٤.

فانتقل الملك إلى إيزابيلا زوجة فرديناند، وفي أوائل الأمر كاد يقع بين الزوجين الشقاق، لكون فرديناند يزعم أنه هو الملك الوحيد، لأنه لا يوجد رجل سواه من سلالة الدون أنريك دو تراستامار، وإيزابيلا تزعم أنّ انتقال الأمر إلى النساء معروف في عادات مملكة قشتالة، وهي أقرب وارث إلى آخر ملك، فلها الحقّ وحدها في الملك، وحكم الزوجان من يفصل الخطاب، فحكموا على الملك فرديناند، فأجمع الرحلة عائداً إلى أراغون فحينئذ أخذت إيزابيلا تقدّم له البراهين، مقرونة بالرجاء بأنّ دعواها هذه ضرورية لمصلحة ابنتهما، إذ لو فرض أنّهما لم يُرزقا ذكراً، وكان حقّ المرأة ساقطاً في الإمارة، لزم أن ينتقل ذلك إلى زوجها الذي يكون أجنبيّاً، فيكون قد أسقط ابنته من حقّها، ثمّ وعدته بأنّها تحكّم وإياه بدون أن تخالفه إلى شيء، وأنها تقدّم اسمه على اسمها في الأوامر، لكن لها

(١) أعاظ وشار.

وحدها الحقّ في نصب الحكّام والولاية، وهكذا هُضِمَ الأمر، وطال الرفاء بينهما، وتمّ ما تمّ على يدهما، فكانت شدّة التحامهما سبباً لانسلاخ الأندلس عن بلاد الإسلام.

وكان المركيز دو فيلنه قد مات وخلفه ابنه، وارتأى عداوة إيزابيلا من أبيه فتحرك مع الدون ألفونس كاريلو رئيس أساقفة طليطلة لأجل مناصبة الملكة وزوجها، وأغريا ملك البرتغال بالاقتران بالدوتة جويانة المشكوك في نسبها، فأطاعهما ومع كونها ابنة شقيقته، أقدم على ذلك، ملتتمساً من البابا الإسعاف في سُؤله<sup>(١)</sup>، وخطبها، ودخل مملكة قشتالة داعياً لنفسه، فاعصّوصب حوله أصداد الملكين، وكثرت الفتنة عن نابها، وكثُر العيث وحوصرت المدن، وضيق فرديناند على قلعة زامورة، ونهّد إلى صاحب البرتغال بقرب (ثورو) فانكشف البرتغال، وقتل منهم جمٌّ وافر، وسلمت قلعة زامورة وذهب ملك البرتغال مستصرحاً لويس الحادي عشر صاحب فرنسا فلم يصرخه<sup>(٢)</sup> وخذله أحزاب خطيبته، وراجع البابا نفسه في الرخصة التي أعطاهها في شأن زواجه بأبنة أخته، وقال إنّها كانت على غير ترو، فنسخها<sup>(٣)</sup> بمنع لاحق، ورأت تلك المسكينة أنّ زواجها من أحد أصبح عسيراً، وأنّ نسبها إلى الملك أنريك أصبح مسألة خلافية، والقائمون بنصرتها قليلون، فتبتلت راهبة في دير سانت كلير دو قويمبرة وكانت تُلقب بالبلترانينجه.

وكان يكثر في ممالك إسبانية لذلك العهد اللصوص وقطاع السوابل<sup>(٤)</sup>، وقلّما تخلو كورة من عيْتهم وفسادهم، وربّما كان لبعض أمراء البلاد يد في إمدادهم، فوجّه فرديناند وإيزابيلا عزمهم لاستئصال اللصوص ونظماً عسكرياً خاصاً لتأثيرهم وقطع دابهم، وسعيّاه هرمانداد، وخصّصا له مالاّ معيّنًا، وعقدا عليه للدون ألفونس أخي فرديناند من حظية أبيه، فجرى في أثر اللصوص ونكّل بهم في كلّ سهل وجبل حتّى لم يبقَ من هذه الدعارة إلاّ القليل.

وفي هاتيك المدّة، هلك الدون جويان الثاني ملك أراغون، وتولّى مكانه ابنه فرديناند الكاثوليكي، فضمّ أراغون وبلنسية وكاتالونه وصقلية وميورقة إلى قشتالة، فبينما كانت ممالك النصرانية العظيمة تتّحد في تلك الأقطار، كانت مملكة الإسلام الوحيدة فيها، تزداد فتقاً على فتق ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

(١) السؤال والتساؤل.

(٢) لم يَنْهيه ولم يساعده.

(٣) أزغها "لغناها".

(٤) الطرقات السالكة.

## في ذكر مشيخة المرابطين والغرّاة من الإسلام والنصرانية

كانت الثغور منذ القديم مواطن الأمم المتناظرة، ومواقف الأقران من حُماة الأقبام المتبارزة، وكما<sup>(١)</sup> الشعوب المتحاجزة، ومقامات صدق المجاهدين، ومظان<sup>(٢)</sup> النخوة الجائشة بالروس للذب<sup>(٣)</sup> عن العرّض والدين، ومنذ ظهرت دولة الإسلام بما شرع فيها من الجهاد لم تبرح مرابطة الثغور، ومحافظة الدروب، وبعوث الصوائف<sup>(٤)</sup>، من أركان الملة وقواعد الدولة وأعمدة سُرادق الخلافة، يتنافس في الوفاء بها والقيام عليها الأطول يدًا، والأبعد همًا، والأشدّ عزيمة، والأرعى في المجد غاية، من خلائف الإسلام وسلاطينه<sup>(٥)</sup> وأمرء التوحيد وأساطينه، مَن رفعوا في تعزيز الملة، وإجابة داعي الجنة شأن الجهاد، ولم تزل آثار مساعيهم ظاهرة بهذه البقية من البلاد، فإن كان للإسلام لواء خافق فوق روس بنيه، فهو بقية ما عقد بأيدي الغرّاة والمجاهدين، وإن كان تحت أقدامهم مواقع للإمتناع، فهي نتيجة مواقع السيوف من رقاب المناهدين<sup>(٦)</sup>. ولمّا كانت الجزيرة الأندلسية - بموقعها من الاتّصال ببرّ العُدوة الأوروبية، والموازة لبرّ العُدوة المغربية، غير منفصلة عنه، إلاّ ببحر الزقاق الذي يتراءى الساحل من ورائه - تُعدُّ ثغر الثغور بين البرّين الكبيرين، وموطن الرباط، ومعترك الثقاف من العنصرين العظيمين، استمرّ الجهاد فيها ثمانمائة سنة ونيّفًا، بين حُماة الحنيفية والنصرانية، منازعة الأرض بالشبر، إذ كان الإسلام هناك في عُنجهته<sup>(٧)</sup>، والعرب تترامى إلى الأندلس للاعتماد من جميع الأقطار، قد عصفت ريحهم بألم الفرنج، وأجفلت هذه بين أيديهم، وانهمزمت من أوجههم، وانتظمت دولة بني أمية في ذلك الصقع أعظم ما كان

(١) مفردها كمي: الشجاع.

(٢) النخوة: مكان وجودها.

(٣) ذب: دفع ومنع.

(٤) الجيوش التي تحارب في الصيف، وهو لفظ خاصّ بأهل المغرب، وقد أنكره عليهم منظم اللغويين.

(٥) (مجازًا) المُقلدون في كلّ علم.

(٦) الصائد بوجه العُدو.

(٧) الحنق والكبر.

العرب نصارة، وأكمل عزاً وأبعد في العدو مُغاراً<sup>(١)</sup>، مضت على الإسلام في الأندلس قرون، كفت فيها نفسها مؤونة الجهاد، وقامت وحدها في وجه العدو، الذي كان قد انضم بعد التخاذل واستمسك بعد الاسترسال، إلى أن انقضى حبل الخلافة الروانية، وتشعبت الكلمة، وصار الأمر إلى ملوك الطوائف، فاستأسد الفريج، واقتحموا نفور المسلمين، وأجلوهم عن كثير من القواعد والضواحي، فاستصرخ هؤلاء إخوانهم من وراء البحر، بحسب الانقطاع في تلك الجزيرة، فوافاهم مدد المرابطين من بني لتونة، واستجاش يوسف بن تاشفين المغرب، فرمى إليه بأفلاذ أكباده، من زناتة وصنهاجة وغيرهما، وأجاز إلى الأندلس بجحافلها، فردّ عادية النصارى، واسترجع كثيراً من القواعد، ولم يلبث أن تأذن<sup>(٢)</sup> الله بانقراض أمد تلك الدولة وقيام دولة الموحدين بني عبد المؤمن، فاقتدوا بسلفهم في الجهاد، وأجازوا إلى الأندلس على ظمأ من أهلها لنجدتهم، فصدموا تقدّم العدو، وفلّوا غرّبه، ولم يسعد الإسلام الحظّ بطول انتظامهم، وامتداد التثامهم، فخامر دولتهم الضعف، واستولى عليها الانقسام، وظهر في عقبها الفشل، وجاءت وقعة العقاب، لعهد الناصر من أمرائهم، الطامة الكبرى على الإسلام فلم تقم له بعدها قائمة تُحمد فيما وراء البحر، وانجلى أهله أمام العدو المتقدم إلى سيف البحر، وحشروا في مملكة ابن نصر، الذي ضمّ شملهم في غرناطة وجوارها، ورأى المسلمون أنّ الأمر كاد يُفلت من أيديهم، وأنّ منزلهم هناك أصبح قلعة، وأنّ زيالهم لتلك الديار أضحى قريب الأجل<sup>(٣)</sup>، كما يُستدلّ على ذلك من كلام علمائهم وشعرائهم كقول أبي البقاء الرندي:

قواعدٌ كُنَّ أركانَ البلادِ فما عسى البقاء إذا لم تَبُقْ أركانُ  
وكقول غيره:

حُتُّوا رواجِلُكمْ يا أهلَ أندلسِ فما المقامُ بها إلا من الغلَطِ  
الثوبُ يُنسلُّ من أطرافِهِ وأرى ثوبَ الجزيرة منسولاً من الوَسَطِ

وقول لسان الدين بن الخطيب وزير غرناطة الكبير، من جملة نصيحته لأولاده:

”وَمَنْ رَزِقَ مِنْكُمْ مَالاً بِهَذَا الْوَطْنِ الْقَلِقِ الْمَهَادِ<sup>(٤)</sup>، الَّذِي لَا يَصِلِحُ لِغَيْرِ الْجِهَادِ، فَلَا

(١) قَتَلَ الْعَدُوَّ بِشِدَّةٍ، مَخْتَرِقًا صَفْوَةً.

(٢) أَدْنَى.

(٣) الْأَجَلُ: الْمَوْتُ، وَالزَّيَالُ: الْخُرُوجُ، لَفَةٌ فِي زَوَالِ.

(٤) الْمَضْطَرَبُ الْأَرْضِاع.

يستهلكه أجمع في العقار، فيصبح عرضة للذلة والاحتقار، وساعياً لنفسه إن تغلب العدو على بلده في الإفئضاح والإفتقار، ومعوقاً عن الانتقال أمام التوب<sup>(١)</sup> التغال<sup>(٢)</sup>.”

### - عامر بن إدريس، والأعياص من بني مرين

ولمّا ضعفت حامية الأندلس بعد ذهاب بني عبد المؤمن، وضاعت مسالك المسلمين في الجزيرة، وتسامع بذلك أهل المغرب، نفروا للجهاد، وسابق إلى ذلك الأمير أبو زكريّا بن أبي حفص صاحب أفريقية، فأمدّهم بالمال والرجال، وأعطوه بيعتهم، ولمّا قامت دولة بني مرين، واستفحل أمر يعقوب بن عبد الحقّ، واستبدّ بسلطنة المغرب، وكان عظيم الاستعداد في نفسه لإحراز تلك المثوبة، وبلوغ هاتيك الرتبة؛ وأهمّه شأن ابن أخيه إدريس بن عبد الحقّ لمل وقع بينهما من المنافسة، واستأذنه عامر بن إدريس في الجهاد، اغتتم هذه الفرصة وعقد له على ثلاثة آلاف من مطوّعة زناتة<sup>(٣)</sup>، وأجاز معه رحو ابن عمّه ابن عبد الله بن عبد الحقّ، فكان لهم في الأندلس مقام كريم في الجهاد، ثمّ صارت الإجازة والجهاد شأن ذوي القرابة من ملوك المغرب، المنافسين في الملّك والمزاحمين في الدولة، اغتناماً للأجر والذكر، وتوسّلاً إلى قطع أسباب المنافسة بالغرّبة والانقطاع وهؤلاء مثل أبناء عمّ الملوك من بني مرين الملقّبين بالأعياص<sup>(٤)</sup> ومثل عبد الملّك يغمراسن بن زيّان، وعامر بن مندبل بن عبد الرحمن، وزيّان بن محمّد بن عبد القوي، فامتلأت الأندلس بأقيال<sup>(٥)</sup> (زناتة) وأعياصهم، وكان ممّن أجاز معهم بنو عيسى بن يحيى بن وسناف بن عتبّ بن أبي بكر بن حمّامة، ومنهم سليمان وإبراهيم اللذان كرّم مقامهما في الرباط، ثمّ أجاز موسى بن رحو بن عبد الله مع أولاد عمّه أبي عياد بن عبد الحقّ، فولّاه السلطان ابن الأحمر رئاسة الغزاة والمجاهدين، ثمّ انصرف إلى المغرب، فولّى مكانه أخاه عبد الحقّ، ثمّ انصرف، فولّى مكانه إبراهيم بن عيسى بن يحيى بن وسناف، ثمّ رجعا فرجعت إمارة الغزاة إلى موسى، وبقي فيها إلى أن هلك، فولّياها<sup>(٦)</sup> أخوه عبد الحقّ إلى أن هلك سنة ٦٧٩، فولّياها ابنه حمو بن عبد الحقّ بن رحو. وفي تلك المدّة، خرج عبد الحقّ بن عثمان من ولد محمّد بن عبد الحقّ، ثاني الأمراء على بني مرين،

(١) مفردها نائة: المصيبة الشديدة.

(٢) ناحية بسرقسطة من جزيرة الأندلس.

(٣) أعياص مفردها عيص: الأصل والشجر الكثير الملتف الأصول أو جماعة الشجر ذي الشوك أو ما اجتمع وتداني والفضّ من العضة أو عالمي الشجر أو منبت خيار الشجر أو أصوله. والأعياص في قرش: أولاد أميّة بن عبد شمس الأربعة.

(٤) ملوك.

(٥) تولّاها.

على السلطان أبي الربيع المريني، وأجاز إلى الأندلس لعهد سلطانها أبي الجيوش بن محمد الفقيه، وخاطب ملك المغرب سلطان غرناطة في اعتقاله، فقبض هذا عليه، ففرَّ من السجن لاحقاً بالطاغية، وعندما ثار أبو الوليد ابن الرئيس أبي سعيد، ودعا لنفسه، وبويع بمالقة، ووقعت الحرب بينه وبين ابن عمه سلطان غرناطة، وأخذ فيها حمو بن عبد الحق أسيراً، وسبق إلى أبي الوليد أطلق سراحه إكراماً لعمه أبي العباس بن رحو، فرجع إلى سلطانه، فأرتاب به وولي مشيخة الغزاة عبد الحق بن عثمان، فاستدعاه من دار الحرب ثم ارتحل هذا إلى أفريقية، إلى أن قُتل في تلمسان.

### - عثمان بن أبي العلاء شيخ الغزاة

ولمَّا انتزى أبو الوليد بن الرئيس أبي سعيد فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر، على ابن عمه صاحب غرناطة كان شيخ زناته بمالقة عثمان بن أبي العلاء من آل عبد الحق، فانصرف به أبو الوليد على ابن عمه، ولمَّا استتبَّ له الأمر عقد له على الغزاة من زناته، وصرف عن تلك الرئاسة عثمان بن عبد الحق بن عثمان، فلحق بوادي آش مع السلطان أبي الجيوش، وصار حمو بن عبد الحق بن رحو، من جملة عثمان بن أبي العلاء بعد أن كانت الرئاسة له، وبعُدَّ صيت ابن أبي العلاء، واستفحل أمره، وعَلَّتْ رايته، وأتاح الله للمسلمين من النصر على يده ما لم يتوقعوه، ولمَّا مات أبو الوليد سلطان غرناطة وبويع ابنه، صييا لنظر<sup>(١)</sup> الوزير ابن المحروق، استبدَّ عليه ابن أبي العلاء شيخ الغزاة، فوقعت الفتنة بينه وبين الوزير، ونصب الوزير له كفوًّا من ذوي قرياه، يحيى بن عمر بن رحو، وارتحل عثمان، وبقي إلى أن استبدَّ بالأمر السلطان محمد بن الأحمر، ونكب ابن المحروق، فاستدعى عثمان ثانية لمشيخة المجاهدين، وبات لسبع وثلاثين سنة من إمارته عليهم وكان مكتوباً على قبره هكذا:

”هذا قبر شيخ الحماة، وصدر الأبطال والكُماة، واحد الجلالة، ليث الإقدام والبسالة، علَّم الأعلام، حامى دمار الإسلام، صاحب الكتائب المنصورة، والأفعال المشهورة، والمغازي المسطورة، إمام الصفوف القائم بباب الجنَّة تحت ظلال السيوف، سيف الجهاد، قاصم الأعداء، وأسد الآساد، العالي الهمم، الثابت القَدَم، الهَمَّام المجاهد، البطل الأرضى، الباسل الأَمْضى، المقدَّس المرحوم أبي سعيد عثمان، ابن الشيخ الجليل، الإمام الكبير،

(١) بلوياً لعينه، كما هو عين ينظر الوزير بها. واصطلاحاً: فهو متروك لرأي الوزير، وتحت إشرافه.

الأصيل الشهير، المقدّس المرحوم، أبي العلاء إدريس بن عبد الله بن عبد الحقّ. كان عمره ثمانياً وثمانين سنة، أنفق ما بين روحة في سبيل الله وغدوة، حتّى استوفى في المشهور سبعمائة واثنين وثلاثين غزوة" إلى آخر ما هنالك.

### -رئاسة الغزاة بعد عثمان بن أبي العلاء

وقام برئاسة الغزاة بعد عثمان الغازي هذا، ابنه أبو ثابت عامر، وكثرت عصابته، واشتدّت وطأته، حتّى استبدّ على ابن الأحمر هو وقومه، وهم الذين قتلوه، بعد رجوعه فائزاً من جبل الفتح، بعد أن قتلوا عاصماً خادمه، وبايعوا أخاه يوسف، فقبلها منهم، لكن على حذر في الباطن، فلمّا وجّه السلطان أبو الحسن ابن مرين عزائمه إلى الجهاد، داخل ابن الأحمر في إزاحة الغزاة هؤلاء عن الأندلس، فأجابه، وقبض على أبي ثابت أميرهم وإخوته إدريس، ومنصور، وسلطان، وفرّ أخوهم سليمان، فلحق بالطاغية، ثمّ غربهم سلطان الأندلس إلى أفريقية، وأعاد إمارة الغزاة إلى يحيى بن عمر بن رحو، فكرّم في الجهاد مقامه، وحُمدت آثاره، وبقي فيها إلى أن هلك السلطان أبو الحجاج بن الأحمر، وقام بالأمر ولده محمّد، وأخذ له البيعة الحاجب رضوان، فقاسم يحيى بن عمر هذا، في الشأن، وشارك في الدولة، فلمّا انتزى الرئيس أبو سعيد قائماً بدعوة ابن عمّه اسماعيل أخي السلطان، واغتصبوا منه المُلْك حسبما تقدّم، وأجاز إلى المغرب، مستجيراً بالسلطان أبي سالم بن مرين ومعه وزيره ابن الخطيب، وقتلوا الحاجب رضوان، ولم يثقوا بيحيى بن عمر، فاستدعوا لإمارة الغزاة إدريس بن عثمان بن أبي العلاء، وكان ببرشلونة، فحفّ وانهمز يحيى إلى دار الحرب، ثمّ ترك فيها ابنه، وأجاز إلى سلطان المغرب لاحقاً بالسلطان محمّد المخلوع، فبقي في صحبته إلى أن قيض الله له الرجوع على يد أبي سالم والطاغية، فرجع يحيى إلى إمارة الغزاة وخلطه<sup>(١)</sup> السلطان بنفسه، وبقي على حاله إلى أن وقعت المنافسة بينه وبين ابن الخطيب الوزير، فأغرى السلطان به وبقومه، فأشخصهم<sup>(٢)</sup> إلى المشرق، فركب يحيى إلى الإسكندرية، ثمّ عاد إلى المغرب، وعاد بعض ولده إلى الأندلس غزاة على عادتهم.

(١) بمعنى، جفّله قريباً منه.

(٢) لشخصه إلى المكان: أنقذه إليه.

وأما إدريس ففرَّ بعد رجوع المخلوع مع الرئيس أبي سعيد إلى الطاغية باشيلية، فلَمَّا غدر الطاغية بأبي سعيد حسبما تقدّم الخبر، أودع إدريس السجن، فلم يزل فيه حتّى تحيل<sup>(١)</sup> للخلاص بمدخلة أسير مسلم، فلحق بأرض الإسلام، وآتبعوه فلم يدركوه، وجاء إلى السلطان محمّد المخلوع، فأكرمه واستأذنه في اللحاق بالمغرب، فأسغفه، وآل أمره إلى الاعتقال في أيام السلطان عبد العزيز بن مرين، وقُتل خنقًا بحبس، وتولّى إمارة الغزاة بالأندلس علي بن بدر الدين بن موسى بن رحو بن عبد الله بن عبد الحق، وآثره ابن الأحمر أبو الحجاج، لممانعته دونه ليلة لحاقه بوادي آش مفلتًا من شرك النكبة بالحمراء كما سبق به النبأ، فاستمرّ في رئاسته هذه إلى أن توفّي حتف أنفه سنة ٧٦٨.

### - سلطان الأندلس يباشر الغزو بنفسه، بعد انتهاء أمر الغزاة فيها

وقام برئاسة الغزاة بعده، الأمير عبد الرحمن بن علي بن يغلوسين ابن السلطان أبي علي، قلّده إياها سلطان الأندلس، لقرب نسبه من سلطان المغرب، وكون هذه الخطة مخصوصة بأعياص بن مرين كما قدّمنا، فأهمّ ذلك صاحب المغرب لَمَّا خشي من عاقبة الترشيح، وكانت بينه وبين لسان الدين بن الخطيب مراسلات سرّية، فأقضى إليه بميله إلى الإفساد ما بين سلطان غرناطة وأمير زناتة في الأندلس، فاشتغل ابن الخطيب ذلك طبقًا خاطره، حتّى حمل سلطانه على اعتقال الأمير عبد الرحمن وبطانته، فألقاهم في السجن، واسترضى بذلك سلطان المغرب، فلَمَّا نزع ابن الخطيب إلى هذا السلطان، وتبيّن لأبن الأحمر احتياله في شأنهم، أطلق سبيلهم وجهّز لهم الأسطول، فأجازوا إلى العُدوة منازعين في المُلْك، واستبدّ الأمير عبد الرحمن بقسم من أعمالها، وعفا رسم<sup>(٢)</sup> هذه الخطة من الأندلس، وصار سلطانها يباشر أمور الغزو بنفسه، وربّما عقد على الغزاة لأحد أولاده، وكان محو هذه الخطة من الجزيرة لسنة ٧٨٣، وأكثر السبب استبداد أمراء الغزاة أبناء عمّ الملوك، على سلاطين بني الأحمر، ومقاسمتهم إياهم الجبايات للتفريق على الجند، ومع هذا فقد احتملوا دالتهم مدّة مديدة لمقامهم في الجهاد، وأثرهم في دفع العدو، وأخيرًا لَمَّا ضاقوا بهم ذرعًا، رأوا الأحزم تحويل هذا الرسم إلى أبنائهم، فقلّد محمّد الغني بالله بن الأحمر، ولده الأمير يوسف مشيخة الغزاة.

(١) نوّسل حيلة للخلاص والفرار.

(٢) إمضى، ولم يبق منه إلاّ الأحمر.

## - لسان الدين بن الخطيب، ورسم إمارة الغزاة

وفي هذا التقليد يقول لسان الدين بن الخطيب: " هذا ظهير<sup>(١)</sup> كريم، فاتح بنشر الألوية والبنود، وقود العساكر والجنود، وأجال في ميدان الوجود، جياذ البأس والوجود، وأضفى ستر الحماية والوقاية بالتهائم<sup>(٢)</sup> والنجود، على الطائفين والعاكفين والرتع السجود، عقد للمعتمد به عقد التشريف، والقدر المثيف زاكي الشهود، وأوجب المنافسة بين مجالس السروج ومضاجع المهود، وبشر السيوف في الغمود، وأنشأ ربح النصر آمنة من الخمود، أمضى أحكامه، وأنهد العزّ أمامه، وفتح عن زهر السرور والخبور أكمامه، أمير المسلمين عبد الله محمد بن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن فرج بن نصر، أيد الله تعالى أمره، وخلد ذكره، لكبير ولده، وسابق أمده وريحانة خلدته، وياقوتة الملك على يده الأمير الكبير، الطاهر الظاهر الأعلى؛ واسطة السلك وهلال سماء المملك، ومصباح الظلم الحلك، ومظنة العناية الإلهية، من مدير الفلك ومُجري الفلك، عنوان سعده، وحسام نصره وعضده، وسمي جدّه وسلالة فضله ومجده، السعيد المظفر الهتمام الأعلى الأمضى، العالم العامل الأرضي، المجاهد المومل المعظم أبي الحجاج يوسف ألبسه الله تعالى من رضاه عنه حلالاً لا تخلق جدتها الأيام، ولا تبلغ كنهها الأفهام، وبلغه في خدمته المبالغ التي يسرّها بها الإسلام".

إلى أن يقول: "رأى - والله الكفيل لنجح رأيه، وشكر سعيه، وصلة حفظه ورعيه - أن يجهد لهم اختياره، ويحسن لديهم آثاره، ويستنب في ما بينه وبين سيوف جهاده، وأبطال جلاده، وحماة أحوازه، وآلات اعتزازه، من يجري مجرى نفسه النفيسة في كل مبنى، ويكون له لفظ الولاية وله - أيده الله تعالى - المعنى، فقدّمه على الجماعة الأولى كبرى الكتاب، ومقادة الجنائب، وأجمة الأبطال، ومزنة<sup>(٣)</sup> الودق<sup>(٤)</sup> الهطال، المشتملة من الغزاة على مشيخة آل يعقوب نساء الملوك الكرام، وأعلام الإسلام، وسائر قبائل بني مرين، ليوث العرين، وغيرهم من أصناف القبائل؛ وأولي الوسائل، ليحوط جماعتهم، ويستخلص لله تعالى ولأبيه - أيده الله تعالى - طاعتهم، ويشرف بإمارته مواكبهم، ويزين بهلاله الناهض إلى الإبدار على فلك سعادة الأقدار كواكبهم، تقدماً أشرق له وجه الدين

(١) أظهر الكتاب: قرأ على ظهر لسانه، والظهير هنا بمعنى الرسالة أو الكتاب، يتلوه ناقله للمرسل إليه، يتسه.

(٢) مفردها التهم: الأرض المنصوبة إلى البحر.

(٣) السحابة الممطرة.

(٤) قطر المطر.

الحنيف وتهلّل، وأحسن باقتراب ما أمّل، فللخيل اختيال ومراح، وللأسل السمر اهتزاز  
وارتياح، وللصدر انشراح، وللآمال مغدَى في فضل الله تعالى ورواح، فليتولّ ذلك -  
أسعده الله تعالى - تولّي مثله ممّن أسرة الملك أسرته، وأسوة النبي صلوات الله تعالى عليه  
أسوته، والملك الكريم أصل لفرعه، والنسب العربي مَحْتَدٍ لطيب طبعه“... إلخ.

وقال في تقليد الأمير سعد أخي الأمير يوسف: ”هذا ظهير جعل الله تعالى له الملائكة  
ظهيراً<sup>(١)</sup>“، وعقد منه في سبيل الله تعالى، لواء منصوراً، وأعطى المعتمد به باليمن كتاباً  
منشوراً، ﴿وما كانَ عطاءُ ربِّكَ محظوراً﴾ وأطلع صبح العناية المبصرة الآية يبهـر سُفوراً  
ويسطع نوراً، وأقرّ عيوناً للمسلمين وشرح صدوراً، ووعد الأهلّة<sup>(٢)</sup> أن تصير بإمداد شمس  
الهدى إيّاهـا بدوراً، وبسّر الإسلام بالنصر المنتظر، والفتح الرائق الفرر، مواسط وثغوراً؛  
وتابع حُماة الدين لواء الإمارة السعيدة النصرية، فأسعد بها أمراً وأكرم بها مأموراً، أمر به،  
وأَمْضَى العمل بمقتضاه وحسبه، أمير المسلمين عبد الله محمّد ابن أمير المسلمين المجاهد في  
سبيل ربّ العالمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل ربّ العالمين أبي الوليد بن  
فرج بن نصر، أعلى الله رايته وسدّد رأيه، وشكر عن الإسلام والمسلمين سعيه، لقرّة عينه،  
ومقتضى حقّه من العدوّ ودينه، وغصن دوحه، وآية لوجّه، ودرّة قلاذته، ودرّي أفلاك  
مجادته، وسيف نصره، وهلال قصره، ولده الأسعد، وسليل ملكه المؤيد:

إلى أن يقول:

”حامي الحمى تحت ظلّ طاعته، وكافي الإسلام الذي يأمن من إضاعته، المحرز مزايا  
الأعمار الطويلة، حظّ الشهر في يومه، وحظّ اليوم في ساعته، الموقر المهيب المؤمل المعظم  
أبي النصر سعد، عرفه الله تعالى ببركة سعد بن عبادة جدّه، خال رسول الله (ﷺ) وأعظم  
بمجده، ووزيره في حلّه وعقدّه، وأجناه ثمرة النصر الذي كتّاه به، ووصل سببه بسببه، فما  
النصر إلّا من عنده“.

إلى أن يقول: ”اختار لقيادة مغانيه المنصورة، وإمارة غزواته المبرورة، أقرب الناس إلى  
نفسه نسباً، وأوصلهم به سبباً، وأحقهم بالرتب النيفة، والمظاهر الشريفة ذاتاً وأباً، وصرف  
إليه آماله، واستعمل في أسنته يمينه وفي أعتته شماله، وعقد عليه ألويته الخافقة لعزّة نصره،

(١) سنن.

(٢) مفردها هلال.

ورأى الظهور على أعداء الله تعالى جنى فهياً لهصره، وأدار هالة قتام الجهاد عن قرب بالولادة على بدره، ونَبَّ نفوس المسلمين على جلاله قدره، وقدمه على الكتيبة الثانية من عسكر الغزاة، المشتملة على الأشياخ من أولاد يعقوب كبار بني مرين، وسائر قبائلهم المكرمين... إلخ.

### - رسائل لسان الدين بن الخطيب إلى ملوك العدو -

وكانت رسائل بني الأحمر إلى ملوك العدو تترى بالنفير والاستنجاد كلما بدأ للعدو كربة، وأجلها ما كتب بقلم لسان الدين بن الخطيب أيام وزارته ونقل منها بعض الجمل إجمالاً لمعنى الحالة، ونأثر بعض الفقر الدالة على فقر الأندلس إلى المغرب كلما أمنع العدو في الاستطالة، فمن ذلك ما كتبه من كتاب على لسان سلطانه إلى ابن مرين:

"ونحن نرتقب ما يخلق الله تعالى من مهادنة تحصل بها الأقوات المهيأة للانتساف<sup>(١)</sup>، وتُسكَّن ما ساء البلاد المسلمة من هذا الإرجاف<sup>(٢)</sup>، ونفرغ الوقت لمطاردة هذه الآمال العجاف، أو حرب يبلغ الاستبصار فيه غايته، حتى يظهر الله تعالى في نصر الفئة القليلة آيته، ولم نجعل سبب الاعتزاز في ما أردناه، وشموخ الأنف في ما أصدرناه، إلا ما أشعنا من عزمكم على نصرة الإسلام، وارتقاب حقوق الأعلام، والنهوض إلى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، وأن الأرض حمية لله تعالى قد اهتزت، والنفرة قد غلبت النفوس واستفرت، واستظهرنا بكتبكم التي تضمنت ضرب المواعد، وشمرت عن السواعد، وأن الخيل قد أطلقت إلى الجهاد في سبيل الله الأعتة، والثنايا سدتها بروق الأستة، وفرض الجهاد قد قام به المؤمنون، والأموال قد سمح بها المسلمون، وهذه الأمور التي تمشت بقربها أو بعيدها أحوال الإسلام، والأمانى المعدة لتزجية الأيام، ثم اتصل بنا الخبر الكارث بما كان من حور العزائم المؤمنة بعد كورها، وتسويق مواعد النصر بعد استشعار قورها، وأن الحركة مبعمة إلى مراكش الجهة التي في يديكم زمامها، وإليكم وإن تراخى الطول ترجع أحكامها، والقطر الذي لا يفوتكم مع الغفلة، ولا يعجزكم عن الصولة، ولا يطلبكم إن تركتموه، ولا يمنعكم إن طرقتموه وعركتموه، فسقط في الأيدي المملودة، واختلفت المواعد المحدودة، وخسئت الأبصار المرتقبة، ورجفت المعائل الأشبية، وساءت الظنون، وذرفت

(١) (مجازاً) نفاذ الأقوات.

(٢) الخوض في الأخبار السيئة، والفتن.

العيون، وأكذب الفضلاء الخبر، ونفوا أن يُعتبر، وقالوا هذا لا يمكن حيث الدين الحنيف، والمُلك المنيف، والعلماء الذين أخذ الله تعالى ميثاقهم، وحَمَلَ النصيحة أعناقهم، هذا المفترض الذي يبعد، والقائم الذي يقعد، يباه الله تعالى والإسلام، وتأباه العلماء الأعلام، وتأباه المآذن والمنابر، وتأباه الهمم والأكابر، فبادرنا نستطلع طلع هذا النبأ الذي إذا كان باطلاً فهو الظنّ، والله المنّ، وإن كان خلافة لرأي ترجّح، وتنقّ بقرب الملك وتبجّح، فنحن نوفد كلّ مَنْ يقدم إلى الله تعالى بهذا القطر في شفاعته، ويمدّ إليه كفّ ضراعة، ومَنْ يُوسم بصلاح وعبادة، ويقصد في الدين بثّ إفادة، يتطرّحون عليكم في نقض ما أبرم، ونسخ ما أحكم، فإنكم تجنون به على مَنْ استصبركم عكس ما قصد، وتخلّون عليه ما عقد، وهب العذر يُقبل في عدم الإعانة، وضرورة الإستعانة والإستكانة، أيّ عذر يُقبل الإطراح، والإعراض الصراح؟ كأنّ الدين غير واحد، كأنّ هذا القطر لكلمة الإسلام جاحد، كأنّ ذمّ الإسلام غير جامع، كأنّ الله غير راءٍ ولا سامعٍ... الخ.

ومن كتاب آخر في وصف ضيق المسلمين بالأندلس قوله "وإن تشوّقتم إلى أحوال هذا القطر ومَنْ به من المسلمين، بمقتضى الدين المتين والفضل المبين، فاعلموا إنّنا في هذه الأيام ندافع من العدو تياراً، ونكابرها بحرّاً زخاراً، ونتوقّع - إلاّ أنّ وقى الله تعالى - خطوباً كباراً، ونمّد اليد إلى الله تعالى انتصاراً، ونلجأ إليه اضطراراً ونستمدّ دعاء المسلمين بكلّ قطر استعداداً به واستظهاراً، ونستشير من خواطر الفضلاء ما يحفظ أخطاراً، وينشئ ريح رُوح الله طيبة معطاراً، فإنّ القوميس الأعظم قيوم دين النصرانية الذي يأمرها فتطيع، ومخالفته لا تستطيع، رمى هذه الأمة الغربية المنقطعة منهم بجراد لا يسدّ طريقها، ولا يُحصى فريقها، التفت على أخي صاحب قشتالة وعزمها أن تملكه بدله، وتبلغه أمله، ويكون الكلّ يداً واحدة على المسلمين، ومُناسبة هذا الدين، واستئصال شأفة<sup>(١)</sup> المؤمنين، وهي شدة ليس لأجل هذا الوطن بها عهد، ولا عرفها نجد ولا وَهد، وقد اقتحموا الحدود القريبة، والله تعالى وليّ هذه الأمة الغربية، وقد جعلنا مقاليد أمورنا بيد مَنْ يُقوي الضعيف، ويدرأ الخطب الخفيف، ورجونا أن نكون مَن قال الله تعالى فيهم ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ إلى آخر ما قال. وله من جملة كتاب عن سلطانه إلى سلطان المغرب في ذلك المقصد: "وليعلم

(١) الأهل، واستاصل شافته: أزاله من أصله.

مقامكم، وهو من أصالة النظر غنيّ عن الإعلام، ولكن لا بدّ من الاستراحة بالكلام، والتنتّف بنفثات الأرقام، إنّنا إنّما نجري أمورنا مع هذا العدو الذي رُمينا بجواره، وبُلينا والحمد لله بمصادمة تيّاره، على تعداد أقطاره، وآساع براريه وبحاره، بأن تكون الأمة المحمّدية بالعدوّتين تحت وفاق، وأسواق النفاق غير ذات نفاق، والجماهير تحت عهد من الله تعالى وميثاق، فمهما تعرّفنا أنّ اثنين اختلفت منهما بالعدوّتين عقد، ووقع بينهما في قبول الطاعة ردّ، ساءنا واقعه، وعظّمت لدينا مواقعه، وسألنا بأن يتدارك الخرق راقعه، لما نتوقّعه من التشاغل عن نصرنا، وتفترغ العدو إلى ضرنا". إلى آخر ما قال وأنعم في المقال.

وله في مثل ذلك عن سلطانه إلى أحد أولاد السلطان أبي الحسن المريني قيل إلى السلطان أبي فارس عبد العزيز وهو قوله:

"إنّ هذا القطر الذي تعدّدت فيه المحارِب والمنابر، والراكم والساجد، والذاكر والعابد، والعالم واللفيف، والأرملة والضعيف، قد انقطع عنه إرفاد الإسلام، وشحّت الأيدي به منذ أعوام، وقوبلت ضرائره بالأعدار، والمواعيد المستغرقة للأعمار، وإن عرضت شواغل وفتن، وشواغب وإحن، فقد كانت بحيث لا يقطع السبب بجملته ولا يذهب المعروف بكليته.

ولا بُدّ من سُكوى إلى ذي مُروءةٍ يُؤاسيك أو يُسليك أو يتوجّع

ولو كانت الأشغاب تقطع المعروف، وتصرف عن الواجب، لم يفتح المقدّس والدكم جبل الفتح، وهو منازل أخاه بسجلماسة، ولا أمّده ولده السلطان أبو عنان وهو بمراكش (إلى أن يقول) ولا كالحسرة في الجبل باب الأندلس، وركاب الجهاد، وحسنة بني مرين، ومآثر آل يعقوب، وكرامة الله للسلطان المقدّس أبي الحسن والد الملوك، وكبير الخلفاء والمجاهدين والدكم الذي تردّ على قبره مع الساعات والأنفاس وفود الرحمة، وهدايا الزلفة وريحان الجنة، فلولا أنكم على علم من أحواله لشرحنا المجل، وشكلنا المهمل، إنّما هو اليوم شبح مائد وطلل بائد، لولا أنّ الله تعالى شغل العدو عنه بفتنة، لم يصرف وجهه إلّا إليه، ولا حوّم طيره إلّا عليه، ولكان بصدد أن يتخذ الصليب داراً، وأن يقرّ به عينا، والعدوة فضلاً عن الأندلس، قد أوسعها شراً، وأرهب ما يجاوره عُسراً، نسأل الله أن لا يُسوّد الوجوه بالفجع فيه، ولا يسمع المسلمين الشكلة"، إلى أن يقول:

"فمن يُستدعى لنصر دين الله وحفظ أمانة نبيّه إلّا أهل ذلك الوطن؟ حيث المآذن بذكر الله تملأ الأفاق، وكلمة الإسلام قد عمّت الربي والوهاد، إنّما الإسلام غريق قد تشبّث

بأهدابكم، يناشدكم الله في بقية الرمق، وقبل الرمي تُراش<sup>(١)</sup> السهام، وهذا أوان الاعتناء، واختبار الحماة، وأعداد الأقوات، قبل أن يضيق المجال، وتمتع الموانع، وقد وجَّهنا هذا الوفد المبارك للحضور بين يديكم، مقررًا الضرورة منهياً الرغبة، مذكراً بما يقرب عند الله، مذكراً لذم الإسلام، جالبًا على مَنْ وراءهم بحول الله تعالى من المسلمين البشرى التي تشرح الصدور، وتُسني الآمال، وتستدعي الدعاء والثناء، فالمؤمن كثير بأخيه، ويد الله مع الجماعة، والمسلمون يد على سواهم، والمؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً، والتعاون على البرِّ والتقوى مشروع، وفي الذكر الحكيم مذكور، وحقّ الجار مشهور، وما كان جبريل يوصي به في الصحيح مكتوب... إلخ.

### - تخاذل المسلمين عن إنقاذ إخوانهم في الأندلس

وما زالت الأندلس تستجيش بالمغرب أوان الضعف، وملوك بني الأحمر يستصرخون بني مَرين من وراء البحر، إلى المائة التاسعة، حيث صار السائل لا يجد مجيباً، والصارخ لا يسمع ملبياً، وتخاذل المسلمون عن النصر، وشغلوا في المغرب بشؤونهم الخاصة، وقتنهم الناجمة<sup>(٢)</sup> عن مدّ اليد إلى إخوانهم في إسبانية، بل انصرمت جبال آمالهم بقاء ذلك القطر على الكلمة، وأيقنوا أنّ سوف لا يبقى أحد في ذلك البرّ من الأمة المسلمة، فصارت تردّ عليهم الأخبار وهم ساهون، وتحذتهم الجالية والركبان، بما خلفوا وراءهم من الفجائع والفظائع، وهم لاهون، وإذا ثار بأحدهم نائر للجهاد، لم يجد علماً ينضوي إليه، ولا سنداً يُعول عليه، ولا جماعة ينتظم فيها. ذلك بما أصاب المغرب من افتراق الكلمة وانحطاط الدول، وتحول الأحوال الأول، فلما سقطت الأندلس كانت أختها العذوة ناظرة إليها وهي تنشد:

ألا ربّ يومٍ لو رمّنتي رميتها  
ولكنّ عهدي بالنضال قديمٌ

### - أوروبا تنجد الإشبانيول، وإنشاء أنظمة الفرسان لمحاربة المسلمين

وأما النصارى، ففي بداية برازهم مع المسلمين في الجزيرة الأندلسية، كانوا يستجدون إخوانهم وراء جبال البيرانية، فتخف إلى صربخهم<sup>(٣)</sup> أم الفرنج والألمان والإنكليز، وربما

(١) راشر بریش ريشاً السهم: ركب عليه الريش.

(٢) لفظ قياسي، يريد به النجّامون، ومن الخطأ قولهم: المنجمين.

(٣) بمعنى استفتاتهم، والصربخ: الاستغاثة.

نهض معهم أم أخرى من جميع أقطار النصرانية، ولولا نجدات البرّ الكبير لأهل إسبانية لتحوّلت الجزيرة بأسرها إلى الإسلام، وكان الفاصل بين الفريقين جبال البيرانية، بدل أن يكون بحر الزقاق، كما أنه لولا شارل مارتل، المعروف عند العرب بـ قارلّه، لسَحَّر المسلمون قسماً من أوروبا، وربّما كانوا وصلوا إلى القسطنطينية العظمى من طريقها، حسبما كان يتخيّل موسى بن نصير، ولكن دول أوروبا خصوصاً ما جاور منها إسبانية كانت، لا تَصْن على هذه البلاد بدم، ولا مال في مدافعة المسلمين، تخلّصاً من غاراتهم إلى ما وراء الجبال. وحصولهم في قلب أوروبا، وكان نصارى إسبانية أنفسهم أهل شدّة ومراس على الحرب، وكان أمراهم عند القتال يجمعون مَن في أقطاعهم من المقاتلة، وينضمّون إلى الملك، وبقي هذا شأنهم، إلى أن علقت آمالهم بإجلاء المسلمين عن البلاد، ووجدوا في حالة الجند من جهة المؤونة، قصوراً عن إدراك المرام، فأروا إنشاء مرابطة أشبه بمرابطة الإسلام، لا شغل لها إلا الصلاة والقتال، وسبق إلى تحقيق هذه الوطر<sup>(١)</sup> ألفونس الباتليور صاحب أراغون، فأنشأ جنديّة سماها بنظام المخلص، وجعل لها قوانين وعلامات، وقاتل بستة آلاف من رجالها في غارته على بلاد المسلمين، ثمّ ظهر نظام الفرسان الهيكليين الذي أنشئ سنة ١١١٩، فلم تمضِ بضعة عشرة سنة، حتّى بلغ من القوّة والاستفحال المبالغ، التي لا تصحّح إلاّ للدول، وسنة ١١٥٦ أنشأ اثنان من أمراء الإيبانيول أحدهما اسمه سويرو، والثاني غرمان مار جوليان الإجاوص، وذلك لكونهما بنيّاً حصّناً، في مكان مخصّص بمار جوليان، فيه غيضة<sup>(٢)</sup> إجاوص، نزل لهما عنها مطران طلمنكة.

وسنة ١١٥٧ بعد وفاة الإمبراطور ألفونس السابع، حينما جمع الموحدون عساكرهم لمنازلة طليطلة، خارت عزائم الفرسان الهيكليين الذين في يدهم قلعة رباح، فنزلوا عنها للدون سانشو أو شانجه الملقّب بالمأسوف عليه، فأعلن هذا الأمير أنّ مَن أراد من أمراء البلاد الدفاع عن قلعة رباح فهي له إقطاعاً بملحقاتها، فلم ينهض أحد وبعثت الحمية راهباً من دير فيترو، سمّي فيما بعد مار ريموند، وراهباً آخر اسمه دياغو فلسكيز، فطافا في البلاد وبالغا في التحريض والتفجير، حتّى جمعا عشرين ألف مقاتل في تلك القلعة، وامتألت ذخائر، فأنشأ لهم ريموند نظاماً، وقيدهم بروابط وسمّى هذه الجنديّة الدينية بنظام قلعة رباح، وجاءها الثبيت من البابا، واستمسكت بقوانين ماربنوا، وكانت علامتها الفارقة رداءً

(١) لوكر الغابة والهدف.

(٢) مجتمع الشجر في مفيضة ماء.

أبيض وَقَلْتُسُوَّة<sup>(١)</sup> مُرسلة من الرأس على المنكبين، وبعد ذلك صارت علامتها صليبيًا أحمر على الثياب، وفي هاتيك المدة تألفت نظام رهباني حربي آخر، يقال له نظام مار يعقوب السيف، وَبَنِيته البابا اسكندر الثالث، وَجُعِلت لأصحابه علامات فارقة في الثوب، وشكل الصليب، وغير ذلك، وكانت مدينة القنطرة في يد فرسان قلعة رباح، فأسلموها إلى فرسان مار يعقوب، وصارت مركزًا لهم، ومن هذه الفرق الرهبانية المرابطة أيضًا، فرسان مار جرجس الفامه، نَظَّمهم ألفونس الثاني ملك أراغون سنة ١٢٠١، في نواحي طَرطوشة، وسنة ١٣١٧ بعد استئصال الهيكلين، تألفت في مونتيزه من أراغون، نظام آخر بأسم مار جرجس، فانضمَّ إليه النظام الأول وصارا واحدًا، وكان لكلِّ نظام من هؤلاء رئيس اسمه المعلم أو الأستاذ ورتبته أعلى الرتب، ويتلوه القائد الكبير، وينوب عنه إذا غاب، ويتلوه الكلافرو، وهو دهقان<sup>(٢)</sup> القوم المكلف بإدارة الأملاك وحفظ الأموال، وكان في نظام مار يعقوب، مجلس مؤلف من ثلاثة عشر أخًا، لا يعقد ولا يحلّ المعلم بدون قرارهم.

#### ـ رهبانيات النصارى المرصدة لمجاهدة المسلمين

وَوُجِدَ في إسبانية نظام راهبات محاربات، سُمِّي بنظام سيّدات الفأس، وأصل تأسيسه، أن المسلمين بعد أن خسروا طَرطوشة، كَرَّوا لاسترجاعها، وحاميتها قليلة، فكادت تسقط، لولا ما قيل من أن النساء هجمنَ نحو الأسوار وبذلنَ أنفسهنَّ حتَّى رَدَدْنَ العدو، فتأسس من ذلك الوقت نظام جنديّة للنساء، وسنة ١٣٧٩، قَلَّد جويان الأول سيف الفروسيّة، مائة شاب من أبناء الأعيان، وأعطاهم وسام الحمامة، وكان عقد الوسام، عبارة عن سلسلة ذهب، معلقة بها حمامة من الفضة في دائرة من الذهب، وكان نذر أولئك الفرسان أن يكونوا أمناء لنسائهم.

وأما مقصد هذه الرهبانيات كلّها، فهو حرب المسلمين وغزوهم، وقد وجد غير ما ذكرنا لكن هذه هي المشهورة، وقد آتست سلطتها وانبسطت قوتها، حتَّى صار يخشاها الملوك، وأصبحت تستبدّ عليهم استبداد غزاة المغرب على ملوك غرناطة، فلما نُزل عرش غرناطة، وتمَّ مقصد فرديناند وإيزابيلا، وأدى هؤلاء الفرسان خدمتهم، عَوَّل الملك وامرأته على إلغاء هذه المنظمات، ونال من البابا أبنوشنسيوس الثامن، أمرًا بإدارة هذه الرهبانيات، وصارت منذ ذلك الحين إلى نظر الملك.

(١) لباس للرأس.

(٢) لفظ فارسي، معرّب، رئيس الإقليم، القويّ على التصرف.

## في سقوط غرناطة والجلء الأخير

### - عودة إلى ذكر بني الأحمر، فتنة الزغل

وصلنا في ذكر دولة بني الأحمر إلى أبي الحسن علي، المتولّي المُلْك بعد محمّد بن اسماعيل، والذي يُفهم من بعض مؤرّخي الفرج أنه هو ابنه البكر وفي "الفتح" يقول "إنّه هو أبو الحسن علي بن سعد بن علي بن يوسف بن محمّد الغني بالله" ولا يذكر كيف أفصّت إليه الإمارة، بل جُلّ ما يقول هنالك: "إنّ بني الأحمر ملوك الأندلس الباقية بعد استيلاء العدو على الجُلّ، كانوا في جهاد وجلاد في غالب أوقاتهم، إلى زمان السلطان أبي الحسن علي بن سعد النصرى الغالبي الأحمرى، واجتمعت الكلمة عليه بعد أن كان أخوه أبو عبد الله محمّد ابن سعد، المدعو بالزغل، قد بويح بمالقة بعد أن جاء به بعض القوّاد من عند النصرى، وبقي بمالقة برهة، ثمّ ذهب إلى أخيه أبي الحسن، وانقضت الفتنّة".

### - السلطان أبي الحسن علي بن الأحمر، والحرب بينه وبين

#### فرديناند وإيزابيلا

وقال مؤرّخو الفرج، أنه لمّا ثار الزغل على أخيه، وسرح أخوه الجيش في أثره، فرّ هذا إلى الدّون أنريك ملك قشتالة، فتجاوز أبو الحسن حدود بلاده، وأغار على بلاد الإسبانيول، لكن روى دو ليون، قائد الثغور، قابله بأخذ مدينة مونتيجقار، ثمّ مات الدّون أنريك، وتولّى فرديناند وإيزابيلا، فراسلها أبو الحسن في المهادنة، فقبلا بها على شريطة أن يعترف سلطان غرناطة بسيادة ملك قشتالة، فأجاب سفراء ابن الأحمر أنهم غير مفوّضين بذلك، فأشخص<sup>(١)</sup> فرديناند وإيزابيلا سفراءهما بطلب الجزية واقتضاء الخضوع من صاحب غرناطة، فلمّا عرضوا ذلك على السلطان أبي الحسن، أبى قبوله كلّ الإباء، وقال لهم "أذهبوا وأخبروا من أرسلكم أنّ الملوك الذين كانوا يؤدّون الجزية قد ماتوا منذ طويل، وأنّ دار الضرب في غرناطة عادت لا تضرب فضّة ولا ذهباً، ولا تضرب إلّا نسيوقاً وحراباً".

(١) أرسل، ووجه.

وحيث كان فرديناند وإيزابيلا مشغولين بحرب البرتغال، احتملا منه هذا الجواب، وأجلاً الانتقام منه إلى وقت آخر.

وأما أبو الحسن، فافتتح الحرب على النصارى، ودهم قلعة الصخرة التي كان الإسبانيول قد استولوا عليها في أيام فرناند الرشيد، لما بلغه من ضعف حاميتها<sup>(١)</sup>، فسلّقت عساكره أسوارها ليلاً ووضعت السيف في الحامية، وساقَت البقية مقرنين في الأصفاد<sup>(٢)</sup> إلى غرناطة، وقفل أبو الحسن ظافراً منصوراً إلى حاضرتة، فخرج الأعيان لملاقاته، ولكن عامة أهالي غرناطة بزعم مؤرخي الإسبانيول، لم يحتفلوا بما صنعه أبو الحسن؛ خصوصاً بسبي النساء، فأظهروا الامتعاض، ووزعوا المآكل على الأسرى، وقيل إنه لما اجتمع الأمراء والفقهاء، لتهنئة السلطان بهذا الفتح، إذا بصوت هائل ارتفع فيهم يقول الويل لغرناطة قد دنا أجلها، إن أنقاض الصخرة ستقع على ريو سنا؛ فأرجف هذا الصوت جميع الحضور، وتطلّعوا فإذا بشيخ طاعن في السن من طبقة الدراويش، قد خرج يطوف في الأسواق ناعقاً بالخراب، ولا نعاق الغراب، حتّى أجزع الجميع، وتطير<sup>(٣)</sup> منه الرفيع والوضيع، وأما أبو الحسن فعده من جملة الموسوسين ولم يلتفت إليه.

#### - حدود مملكة غرناطة، وسكانها

وقال بعض أولئك المؤرخين، إن مملكة غرناطة لعهد أبي الحسن، كانت مشتملة على أربع عشرة مدينة عظيمة، وسبع وتسعين قلعة، عدا الأبراج والحصون والقرى العامرة، وورد في التاريخ العام للعلامة كثنو الشهير: أن سلطنة غرناطة في تلك الأيام كانت تحتوي ثلاثين مصرّاً، وثمانين مدينة صغيرة، وبعدها لا يُحصى من الأبراج والحصون والداكر، وقد قَدَّر بعض المؤرخين عدد بقية المسلمين في الأندلس بأربعة ملايين من النسَم، وقالوا إن السلطان أبا الحسن بن الأحمر داخلته الخيلاء وخامره العُجب ببسطة سلطانه وكثرة جنوده، ففي سنة ١٤٧٨، لما حضر الدون جان دو فيرا من فرسان فرديناند، وإيزابيلا، ومعه جماعة يتقاضى الجزية المعتادة من مولاي أبي الحسن، احتفل السلطان بلقائه، وظنّ في الأول أنه قادم لمبارزة أحد فرسان المسلمين، لما كانت جارية به العادة بين الفريقين من البراز

(١) أصلّت فيهم السيوف.

(٢) فقيود يشدّ بها وثاق الأسير (عموماً).

(٣) تشام وهي من العيرة: ما يُشام به من الفاك الرديء.

والسجال في ألعاب الفروسية أيام المودعة، فلمّا عرض له الأمر، أجابه الجواب السابق من أنّ الذين سبق لهم أن يؤدّوا الجزية قد ماتوا والآن دار ضربنا عادت لا تضرب إلاّ نصلاً وحرّاباً، فلم يتمكّن الملك وزوجته من جواب أبي الحسن إلاّ بعد ثلاث سنوات لاشتغالهما بحرب البرتغال. وكان بين ملوك الإسلام والإسبانيول عهد على أن لكلّ فريق أن يشنّ الغارة على أرض الفريق الآخر خفية، بدون نشر بنود ولا قرع طبول، بشرط أن لا تطول مدة غارته فوق ثلاثة أيام، فعلم أبو الحسن أن قلعة الصخرة قليلة الحامية، وهي قلعة أمنع من عقاب الجوّ، مبنية على قُتّة جبل، لها طريق واحد منحوت في الصخرة، فقبل عيد الميلاد بأيام، انتبه أهل الصخرة ليلاً على صياح: "المغاربة! المغاربة!" فدخلوا القلعة وقتلوا الحراس وأسروا من سلّم، وساقوهم إلى غرناطة وجرى ما جرى.

وقال المقرري في شأن مُلك هذا السلطان ما يأتي:

"واستقلّ السلطان أبو الحسن بما بقي من مُلك المسلمين بالأندلس، وجاهد الأعداء وافتتح عدّة أماكن، ولاحث له بارقة الكرّة على العدو، وخافوه، وطلبوا هدنته، وكثرت جيوشه، فأجمع على عرضها بين يديه، وأعدّ لذلك مجلساً أقيم له خارج الحمراء، وكان ابتداء هذا العرّض يوم الثلاثاء تاسع عشر ذي الحجّة عام اثنين وثمانين وثمانمائة، ولم تزل الجنود تعرض عليه كلّ يوم إلى الثاني والعشرين من محرّم السنة التي تليها، وهو يوم ختام العرض، وكان معظم المنتزّمين بالسيكة<sup>(١)</sup> وما قارب ذلك؛ فبعث الله سيلاً عرماً<sup>(٢)</sup> على وادي حدرة، بحجارة وماء غزير كأفواه القرب، عقاباً من الله وتاديباً لهم لمجاهرتهم بالفسق والمنكر، واحتمل الوادي ما على حافته من حوانيت، ودُور، ومعاصر، وفنادق، وأسواق، وقناطر، وحدائق، وبلغ تيار السيل إلى رجة الجامع الأعظم، ولم يُسمع بمثل هذا السيل في تلك البلاد، وكان بين روساء الإفريخ في ذلك الوقت اختلاف عظيم، فبعضهم استقلّ بمُلك قرطبة، وبعضهم بإشبيلية، وبعض بشرى، وعلى ذلك كان السلطان أبو الحسن قد استرسل في اللدّات، وركن إلى الراحة، وأضاع الأجناد، وأبسد الأمر إلى بعض وزرائه، واحتجب عن الناس، ورفض الجهاد، والنظر في المُلك، ليقضي الله تعالى ما يشاء، وكثرت المظالم والمغارم، فأنكر الخاصّة والعامة ذلك منه، وكان أيضاً قد قتل كبار القوّاد، وهو يظنّ

(١) هو السهل المنبسط، الذي تُشرف عليه "الحمراء" من الناحية الشرقية.

(٢) الطر الشديد.

أنَّ النَّصَارَى لَا يَغْزُونَ الْبِلَادَ، وَلَا تَقْضِي بَيْنَهُمُ الْفِتْنَةَ، وَلَا يَنْقُطِعُ الْفَسَادُ، وَاتَّفَقَ أَنَّ صَاحِبَ قَشْتَالَةَ تَغَلَّبَ عَلَى بِلَادِهَا، وَاتَّقَادَ لَهُ الرُّوسَاءُ الْمُخَالَفُونَ، وَوَجَدَتِ النَّصَارَى الطَّرِيقَ إِلَى الْإِفْسَادِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ كَانَ لِلسُّلْطَانِ أَبِي الْحَسَنِ وَلِدَانٍ مُحَمَّدٌ وَيُوسُفٌ، وَهُمُ مِنْ بَنَاتِ عَمِّهِ السُّلْطَانِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الْأَيْسَرِ، وَكَانَ قَدْ اصْطَفَى عَلَى أُمَّهُمَا رُومِيَّةً لَهُ مِنْهَا بَعْضُ ذُرِّيَّةٍ، وَكَانَتْ حَظِيَّةً عِنْدَهُ، مَقْدَمَةٌ فِي كُلِّ قَضِيَّةٍ، فَخِيفَ أَنْ يَاقِدَ أَوْلَادَ الرُّومِيَّةِ عَلَى أَوْلَادِ بَنَاتِ عَمِّهِ السُّنِّيَّةِ، وَحَدَّثَ بَيْنَ خِدَامِ الدَّوْلَةِ التَّنَافُرَ وَالتَّعَصُّبَ لِمَيْلِ بَعْضِهِمْ إِلَى أَوْلَادِ الْحَرَّةِ، وَبَعْضِهِمْ إِلَى أَوْلَادِ الرُّومِيَّةِ، وَكَانَ النَّصَارَى أَيَّامَ الْفِتْنَةِ بَيْنَهُمْ، هَادِنُوا السُّلْطَانَ لِأَمْدِ حَدِّدِهِ وَضَرْبِهِ، وَلَمَّا تَمَّ أَمْدُ الصَّلْحِ، وَافَقَ وَقْتَهُ هَذَا الشَّأْنُ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الدَّوْلَةِ بِسَبَبِ الْأَوْلَادِ، وَتَشَكَّى النَّاسُ مَعَ ذَلِكَ بِالْوُزَرَاءِ وَالْعَمَّالِ، لِسُوءِ مَا عَامَلُوا بِهِ النَّاسَ مِنَ الْحَيْفِ<sup>(١)</sup> وَالْجَوْرِ<sup>(٢)</sup>، فَلَمْ يَصْغِرْ إِلَيْهِمْ، وَكَثُرَ الْخِلَافُ وَاشْتَدَّ الْخَطْبُ<sup>(٣)</sup>، وَطَلَبَ النَّاسُ تَأْخِيرَ الْوَزِيرِ وَتَفَاقَمَ الْأَمْرَ<sup>(٤)</sup> أَنْتَهَى.

### - زَوْجَتَا أَبِي الْحَسَنِ، وَالْفِتْنَةُ

وَرَدَ فِي تَوَارِيخِ الْإِفْرَاقِ "أَنَّ السُّلْطَانَ أَبَا الْحَسَنِ كَانَ مَتْرُوجًا بِأَمْرَاتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا ابْنَةُ عَمِّهِ وَاسْمُهَا عَائِشَةُ الْحَرَّةِ، وَالثَّانِيَةُ ثُرَيَّا، إِسْبَانِيُولِيَّةٌ أَسْلَمَتْ، كَانَ أَبُوهَا قَائِدَ مَرْتُوسَ، وَهُوَ مِنْ الْأَوْلَى أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدٌ، وَيَلْفِظُ فِي بِلَدِهِ بِالتَّخْفِيفِ، فَيُقَالُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، وَحَرْفَهُ الْإِسْبَانِيُولِ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، وَمِنْ الثَّانِيَةِ وَلِدَانٌ، أَحَدُهُمَا سَيِّدِي يَحْيَى الَّذِي كَانَ يَرِيدُ أَبُوهُ أَنْ يُوَلِّيَهُ عَهْدَهُ إِكْرَامًا لِوَالِدَتِهِ الْحَظِيَّةِ، وَبِهَذِهِ الْمُنَاطَرَاتِ انْقَسَمَتِ غَرْنَاطَةُ إِلَى قَسْمَيْنِ، وَمَالَ قَسْمٌ مِنَ الرُّوسَاءِ وَالْأَعْيَانِ نَحْوَ الْأَمِيرِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، وَاشْتَدَّتْ الْفِتْنَةُ الَّتِي مَصَدَرُهَا النِّسَاءُ، وَفِي خِلَالِهَا ارْتَكَبَ السُّلْطَانُ أَبُو الْحَسَنِ الْخَطَأَ فِي مُنَازَلَةِ الصَّخْرَةِ<sup>(١)</sup> لَوْقُوعِ الْفِرْقَةِ فِي مَمْلَكَتِهِ".

### - نَكْبَةُ الْعَامَّةِ

"لَمَّا بَلَغَ خَيْرٌ أَخَذَ الصَّخْرَةَ الْمَلِكُ فَرْدِينَانْدَ، جَزَعُ جَزَعًا شَدِيدًا؛ وَأَعْمَلَ فِي النَّفِيرِ، وَجَمَعَ مَقَاتِلَةَ الثَّنُورِ، وَبَثَّ الرَّهَابِينَ<sup>(٢)</sup> فِي جَمِيعِ الْأَقْطَارِ يَسْتَفِرُّونَ فَرَسَانَ النَّصْرَانِيَّةِ لِقِتَالِ

(١) الظلم.

(٢) تبيض العدل.

(٣) المصاب الشديد.

(٤) من أقاليم أكتونية بالأندلس.

(٥) الرهبان.

الإسلام، فأول مَنْ لَبِيَ الدعوة الدَّوْنَ لُدْرِيْق بونس ليون، الملقَّب بمركيز قادس، وكان له في الأندلس أراض واسعة، وحصون عديدة، وعنده مقاتلة كثيرة، فأجمع الغارة وبلغه أن قلعة الحامة قليلة الحراس، فأرسل من جماعته رجلاً حاذقاً، مقداماً، تريباً باقتحام الثغور، خبيراً بتسلُّق الجدران اسمه أورتغادو برادوفر، أدله<sup>(١)</sup> في نواحي الحامة، بليلة مدلهمة<sup>(٢)</sup> وطاف حول الأسوار، وصعد القلعة وعيَّن مكان وضع السلالم، وعاد مخبراً، مولاه بما شهد، فجمع هذا أصحابه وساروا في ثلاثة آلاف فارس وأربعة آلاف ماش، وكانوا في النهار يكمنون، وفي الليل يسرون بدون جلبه ولا ضوضاء، حتَّى وافوا الحامة قبل انبلاج الفجر بساعتين، فسار أورتغا بثلاثمائة مقاتل، وثلاثين من حملة السلالم إلى جانب القلعة فتسلَّقوها بدون عائق، وقتلوا بعض الحراس، وارتفعت الصيحة ومُلكت القلعة، لكنَّ أهل المدينة وإن كانوا في الأغلب تجاراً وصنّاعاً، فقد كانوا ذوي حفاظ، وشدة بأس، وبصائر في الحرب، كسائر المغاربة، فرشقوا المحاصرين بالنبال والحجارة، وحملوا على القلعة، فضيقوا عليها حتَّى خاف الإسبانول أن يسترجعوها منهم، وتشاوروا في حرقها، والخروج منها، فنهاهم المركيز عن ذلك وحرَّضهم على الثبات، واستحرَّ القتل بين الفريقين، وقتل أهل الحامة نساءً ورجالاً صغاراً وكباراً قتال الأسود عن أشبالها، لكنَّ العدو تغلَّب عليهم فقتل بعضاً، وأسر بعضاً، ونهب البلدة ودمَّرها تدميراً.

وأسرع فارس مغرَّبِي إلى الحمراء، يخبر السلطان أنَّ النصرارى قد دهموا تلك الليلة قلعة الحامة، وحدث عراك شديد على الأسوار وأنه عندما فارق المدينة كانت القلعة في يد النصرارى، فأرسل من غرناطة ألف فارس، لأجل المُشاركة واستقصاء الخبر، فوجدوا العدو قد تسلَّم القلعة والبلدة، فزحف السلطان أبو الحسن بثلاثة آلاف فارس وخمسين ألف راجل، ولم يستأنِ ريثما يجهِّز جيشه بالمدافع والعدَّة، وكان للمركيز صاحب هو الدَّوْنَ ألونزو القرطبي، قدِمَ لنصرة صاحبه، فلمَّا أحسَّ بقدم أبي الحسن فرَّ إلى النقيرة<sup>(٣)</sup>، فلم يتعبه السلطان، وظلَّ قاصداً الحامة، وحصرها من كلِّ جهة وركَّز الأعلام حوالها، لكن حيث كان جيشه مكشوقاً للعدو أصبح هدفاً للسهم فقتل منه كثيرون، وارتدوا على أعقابهم، وأدرك ابن الأحمر خطاه بالزحف بدون آلات الحصار، ولكنَّه لم يرجع عن

(١) تقول الله في الجهات: دَخَلَهَا مُسْتَجِيرًا.

(٢) شديدة السواد.

(٣) جهة كثيرة الماء، بين "ناج" و"كاظمة".

كيد، بل أمر بحفر الخنادق حول السور وواصل القتال فقتل وجرح من المسلمين نحو الألفين.

فأعمل المسلمون الحيلة في قطع المدد عن الحامّة، وكان لها نهر يسقيها فأداروه عنها، بعد أن تقاتلوا عليه قتال اليأس، وإذ لم يكن فيها عيون ولا آبار، اشتدّ الخناق بالإسبانول، ولم يبقَ لهم مورد سوى قناة صغيرة، وعليهم إذ وردوها أن يقاتل منهم فريق، ويشرب فريق، حتّى يصحّ أن يقال إنّ كلّ نقطة ماء بنقطة دم.

ثمّ سقطوا على بثر، أغاثهم ماوها قليلاً، ولكن بلغ منهم الضيق حدّه، فأرسلوا بالصريخ إلى ملوكهم، فأصرخهم دوق مدينة سيدونيا من إشبيلية في خمسة آلاف فارس وخمسين ألف ماشٍ، وظاهره<sup>(١)</sup> رئيس فرسان قلعة رباح، وتقدّم فرديناند بحاشية غير وافرة، وأرسل يقول للدوق أن ينتظر اجتماع الحشود، فأجابه الدوق أنه لا يمكنه الانتظار لكون الذين تحت الحصار في ضيق شديد، وإذ علم أبو الحسن بدنوّ الجيوش، عزم على الهجمة الأخيرة، وفي صباح يوم اجتمع نخبة من أبطال المسلمين، وتسلّقوا السور من ناحية برج عالٍ ووضعوا السلالم، وقتلوا الخفراء، ووصلوا إلى السوق وكادوا يبلغون الأبواب، وهم نحو سبعين رجلاً فقط، فأحاط بهم الإسبانول إحاطة السوار بالمعصم، فانضمّوا شبه دائرة رافعين في وسطهم راية النبي (ﷺ) وظلّوا يدافعون عن حوضهم دفاع الليوث، حتّى لم يبقَ منهم سوى رجل واحد، سقط وهو معتنق الراية النبوية، فأصاب أبا الحسن اليأس من هذا الفشل، وأقلع عن الحامّة إلى غرناطة ووصلها المدد الكثيف. انتهى ما ذكره الإفرينج في شأن الحامّة وهاك ما ورد في "نفتح الطيب" بهذا الشأن.

"وصحّ عند النصارى ضعف الدولة واختلاف القلوب، فبادروا إلى الحامّة فأختنوها غدراً آخر أيام الصلح، على يد صاحب قادس، سنة سبع وثمانين وثمانمائة، وغدوا للقلعة وتحصّنها بها، ثمّ شرعوا في أخذ البلد فملأوا الطرق خيلاً ورجالاً، وبذلوا السيف فيمنّ ظهر من المسلمين، ونهبوا الحرم والناس في غفلة الأيام من غير استعداد كالسكارى، فقتل من قضى الله تعالى بتمام أجله، وهرب البعض وترك أولاده وحريمه، واحتوى العدو على البلد بما فيه، وخرج العامة والخاصّة من أهل غرناطة عندما بلغهم العلم، وكان النصارى عشرة آلاف بين ماشٍ وفارس، وكانوا عازمين على الخروج بما غنموه، وإذا بالسرعان من

(١) اي اعنّه.

أهل غرناطة وصلوا، فرجع العدو إلى البلد، فحاصرهم المسلمون وشدّوا في ذلك، ثم تكاثر المسلمون خيلاً ورجالاً، من جميع بلاد الأندلس، ونازلوا الحامة، وطمعوا في منع الماء عن العدو، وتبيّن للعامة أنّ الجند لم ينصحوا، فأطلقوا ألسنتهم بأقبح الكلام فيهم وفي الوزير، وبينما هم كذلك، إذا بالنذير جاء، أنّ النصارى أقبلوا في جمع عظيم، لإغاثة من بالحامة من النصارى، فأقلع جند المسلمين من الحامة وقصدوا ملاقاته الواردين من بلاد العدو، ولمّا علم بهم العدو ولّوا الإِدبار، من غير ملاقاته، محتجّين بقتلهم وكان رئيسهم صاحب قُرْطُبة.

ثم إنَّ صاحب إشبيلية جمع جنداً عظيماً من جيش النصارى الفرسان والرجال، وأتى لنصرة من في الحامة من النصارى، وعندما صحَّ هذا عند العسكر، اجتمعوا وأشاعوا عند الناس، أنهم خرجوا بغير زاد ولا استعداد، والصلاح الرجوع إلى غرناطة، ليستعدّ الناس، ويأخذوا ما يحتاج إليه الحصار، من العدة والعدد، فعندما أقلع المسلمون عنها، دخلتها النصارى الواردون، وتشاوروا في إخلائها أو سكنائها، وأنفقوا على الإقامة بها وحصّنها، وجعلوا فيها جميع ما يُحتاج إليه، وانصرف صاحب إشبيلية، وترك أجناده، وفرّق فيهم الأموال، ثمَّ عاد المسلمون لحصارها، وضيقوا عليها وطمعوا فيها من جهة موضع كان النصارى في غفلة منه، ودخل على النصارى جملة وافرة من المسلمين، وخاب السعد بذلك، بأن شعر بهم النصارى، فعادوا عليهم، وتردّى بعضهم من أعلى الجبل؛ وقتل أكثرهم، وكانوا من أهل بَسْطَة ووادي آش، فانقطع أمل الناس من الحامة ووقع الإيأس<sup>(١١)</sup> من ردّها“ انتهى.

فأنت ترى قرب الروايات العربية من الإفريقية في مؤدّاه، وقد آثرنا المقابلة بين الثقلين، زيادة في التمهيص، وإمعاناً في النصح، لقلة تداول هذا التاريخ في العربية.

ثمَّ قال صاحب “نفع الطيب” “وفي جمادى الأولى من السنة، تواترت الأخبار أنّ صاحب قشتالة أتى في جنود لا تُحصى ولا تُحصَر، فاجتمع الناس بغرناطة، وتكلّموا في ذلك، وإذا به قد قصد لَوْسَة، ونازلها قصد أن يضيفها إلى الحامة، وجاء بالعدة والعدد، وأغارت على النصارى جملة من المسلمين، فقتلوا من لحقوه، وأخذوا جملة من المدافع الكبار، ثمَّ جاءت جماعة أخرى من أهل غرناطة وناوشوا النصارى، فلبّأوهم إلى الخروج

(١١) لُقَّة) في اليأس.

عن الخيام، وأخذوها، فهرب النصارى وتركوا طعاماً كثيراً، وآلة ثقيلة وذلك في السابع والعشرين من جمادى الأولى من السنة المذكورة<sup>(١)</sup> انتهى.

وقال مؤرخو الإفرنج "إنَّ فرديناند عقد مجلساً في قُرْبُبة، ليرى ماذا يفعل بالحامة، فأشار أكثرهم: بذكر حصونها وإخلائها لصعوبة حفظها من طارقة العدو، ولزوم حياتها دائماً بحامية وافرة تقتضي نفقات باهظة، فعارضت في ذلك الملكة إيزابيلا، وأصرّت على إبقائها، وجعلت حمايتها لنظر قائد اسمه فرناند بورتو كريرو، مع أربعمئة فارس وألف راجل.

### - الحرب على نُوشة -

وأجمع فرديناند على حصار نُوشة وهي موقع حصين على مقربة من الحامة، فاستنفر جميع المدن، وبالغ في حشد العساكر، وبلغ ذلك المسلمين، فراسلوا إخوانهم من وراء البحر. فأرسل فرديناند وإيزابيلا أسطولهما لمنع إجازة المدد<sup>(٢)</sup>، واكساح أرياف برّ أفريقية، وسار من قُرْبُبة، وقد ترك أكثر جنوده في إستجّة<sup>(٣)</sup>، وإنما استصحب خمسة آلاف فارس، وثمانية آلاف ماش، فنازل نُوشة، فشهد من حصانة نُوشة، وصعوبة مسلكها، ومنعة النهر المطيف<sup>(٤)</sup> بها ما هاله، فأدرك خطاه بسرعة الأقدام، لكنّه أرسل كتيبة من جيشه للنزول بربرة محاذية للجسر، يسمّيها المغاربة "صنتو أبو الحسن" وكان قائد نُوشة، رجلاً يقال له علي العطار، شيخاً عالي السنّ، مناهزاً التسعين، لكنّه لم يفقد شيئاً من صلابة جنانه<sup>(٥)</sup>، ولا قوّة إدراكه، وهو حمو الأمير أبي عبد الله ابن السلطان أبي الحسن، وكان عنده ثلاثة آلاف فارس، فأرسل في الليل طائفة من جنده، فكمنوا وراء "صنتو أبي الحسن"، وعند الصباح خرج وهاجم المسيحيين، فثاروا في وجهه، فانهزم أمامهم خديعة منه، فطاردوه مُلِحِّين، وإذا بالأصوات ارتفعت من خلفهم، فالتفتوا فإذا بالمغاربة مُقبِلين، فرجعوا للمحافظة على خيامهم، فكّر عليهم علي العطار وأرهب فيهم السيف، وبقي يطاردهم ويستلحم منهم، حتّى تكاثرت نُجدهاتهم، فعاد عنهم وقد قتل منهم جملة وافرة، وفيهم من أكابر فرسانهم لذريق جيرون صاحب قلعة رباح، الذي استشعر الإسبانول فقده كثيراً، فلمّا رأى الملك

(١) وُصول الإمدادات.

(٢) بين القبلة والغرب من قُرْبُبة.

(٣) المحيط بها.

(٤) بنتح الجيم: القلب.

فرديناند ما رأى، أيقن بلزوم الرجعة، وتأقب للإقلاع، وإذ رأى علي العطار حركته في الرجوع، برز كالأسد إذا جاع، وهجم على معسكر الإسبانول، فهزم منه جانباً، فتداعى كلّه للفرار، وارتفعت الضوضاء والصياح وبذل المسلمون فيهم السلاح. فثبت فرديناند وبطانته ريثما أمكنهم نقل الخيام، والمدافع والميرة، لكنّه كاد يلقى حتفه مرتين، لولا تهالك الدّون جان دور ييرا، في وقايته، وما زال في ذلك المأزق حتّى وصل مركزيز قادس، وحال بينه وبين العدو، فنجّا الملك، وفرّ إلى بلاده وعلي العطار يطارده إلى ريو فريو، فلحق بقرطبة مدحوراً كسير القلب<sup>١</sup>.

وعلى رواية أخرى "أنّ السلطان أبا الحسن خفّ إلى نجدة لؤسة، وأنه في ٢٦ جمادى الأولى سنة ٨٨٧ الموافق ١٣ تموز سنة ١٤٨٢، هاجم معسكر فرديناند من وراء بينما كان علي العطار قد نهد إليه من جهة المدينة، وأنه بذلك دارت الدائرة على الإسبانول" وهذه الرواية أقرب إلى خبر "نفع الطيب"، إذ فيه أنّ جماعة من أهل غرناطة ذهبوا إلى لؤسة وناوشوا النصارى، فأخرجوهم من الخيام.

وقال آخرون، إنّ أبا الحسن لمّا حضر بجيشه نجدة للوشة، وجد فرديناند بجيشه قد جاز الدروب، وإنّه لمّا بلغت أخبار لؤسة حامية الحامة هلمت قلوبهم، فقصدهم أبو الحسن، فأسرع فرديناند بإصراخهم، فارتدّ ابن الأحمر عنهم، وقصد مدينة قانيت، فاستولى عليها، وقفل إلى غرناطة، فبلغه أنها بايعت ولده أبا عبد الله محمّد وتبعها كثير من مدن المملكة، فتوجّه إلى مالقة، التي حافظت على عهده، هي ووادي آش، وبسطة.

- انتقاض أبي عبد الله محمّد على أبيه السلطان أبي الحسن، وهراره

### إلى مالقة

قال بعض مؤرّخي الإفرنج إنّه في تلك الآونة استحكمت عرى الخلاف في بيت ملك غرناطة، وأخذ بنو سراج (عشيرة من أعيان غرناطة أصلهم من قرطبة)<sup>(١)</sup> بالخلاف مع بني زغبة، واستفحل أمر أبي عبد الله نجل السلطان أبي الحسن، ومالت إليه العامة بما نعموا على أبيه ذهاب الحامة، وهي مفتاح غرناطة، فلما قفل عنها المرّة الأخيرة خائباً، وجد الحاضرة مقفلة الأبواب في وجهه، فمال إلى بسطة، وهناك جمع خمسمائة رجل وحضر بهم إلى

(١) رواية سناتلي لان يول المورّخ الإنكليزي أنّ أصلهم من قرطبة فيكون بنو سراج غرناطة هم سلالة بني سراج قرطبة المذكورين في "نفع الطيب".<sup>٩</sup>

الحمراء، فقتل من التقاه في الدور والساحات، ولمّا أصبح الصباح تكاثروا عليه؛ فأفنوا أكثر جماعته، ففر شريدًا إلى مالقة، وفي هذه الحادثة يقول المقرئ: "إنه هرب الأميران أبو عبد الله محمّد وأبو الحجاج يوسف خوفًا من أبيهما أن يفتك بهما، بإشارة حظيته الرومية ثريًا، واستقرًا بوادي آش، وقامت بدعوتهما ثمّ بايعتهما تلك البلاد، المريّة، وسطة، وغرناطة، وهرب أبوهما السلطان أبو الحسن إلى مالقة".

وفي روايته شيء من مخالفة الرواية الإفرنجية، لكن على اتفاق في النتيجة، فانظروا أيّ زمن اختاره أمراء غرناطة للشقاق والخلاف، وإذا أراد الله شيئًا هيأ أسبابه.

### - غزوات أبي الحسن في طريف

أمّا أبو الحسن، فأصبح بعد انقسام المملكة، غير قادر على مناطحة فرديناند قرناً<sup>(١)</sup> لقرن، ولكنه يراقب الفرصة للقيام بعمل يمكنه من قلوب المغاربة، ويعيد عليه سلطانه، فعزم على الغارة في أراضي دوق سيدونا، وزحف بستة آلاف راجل وألف وخمسمائة فارس، فلمّا حصل في بلاد النصرارى بين جبل طارق وقسطليّة سرح أربعمائة فارس نحو حصن الجبل، وأرسل أربعمائة أخرى نحو طريف، فعادوا بفنائم لا تحصى، ثمّ رفا<sup>(٢)</sup> إلى ميناء الحصن أسطول بقيادة كارلوس دوفاليرا، فالتمس منه بطرّه دوفرغاز أن يتولّى قيادة الحصن مكانه ليخرج إلى لقاء العدو، وسار بسبعين فارساً إلى جهة قسطليّة وكانت طلائع السلطان منفصلة عن جيشه، فتاوشها القتال، فخرج إليه ثمانون فارساً وحمي الوطيس<sup>(٣)</sup>، فقتل جماعة من أبطالهم، وجرح دوفرغاز، وعاد كلٌّ من الفريقين إلى مكانه، فخيم أبو الحسن بساحة قسطليّة وأحرق بعض بيوتها، ولم تمكّنها منها، ولكنه أعجب بشجاعة دوفرغاز، فاستدعى إليه أسيرين من النصرارى وسألهما ما هي وظائف قائد جبل طارق، فأجاباه أنّ له على كلّ قطع يمرّ بأرضه كبشاً، فصاح: "أعوذ بالله من أن أعتدي على فارس مقدام كهذا". وأرسل إليه اثني عشر رأس غنم، عن الاثني عشر قطعاً التي عنده قائلاً لمن أمره بسوقها، اعتذر له عني بجهلي الواجب، فأجاب دوفرغاز الرسول قبل لي يدي جلالته وقلّ له إنني أسيف<sup>(٤)</sup> من أنه لم يوجد عندي جند أكثر من هذا لأقوم بواجب لقاءه، وأملي

(١) المثلل والنظير والكنف والشبيه.

(٢) رفا السفينة، أدناها من الشط.

(٣) قوله "حمي الوطيس": أي اشتدت الحرب.

(٤) سيف.

عند وصول الثلاثمائة فارس الذين أرسلت بطلبهم من شريش، أن أحتفل له بوليمة فاخرة، ثمَّ صرف الرسول مكرِّمًا.

### - غزوات الأمير أبو عبد الله الزغل أخى السلطان أبي الحسن

ولمَّا بلغ أمراء الإشبانيول غزاة<sup>(١)</sup> أبي الحسن، عقدوا النيَّة على أخذ الثَّار. واهتبلوا<sup>(٢)</sup> هذه الغزاة من اشتغال المسلمين بالفتنة في ما بينهم، فاجتمعوا في النقيرة تحت زعامة مركزيز قادس الدَّون بطره هنريكس، وقائد إشبيلية الكونت دو سيفونتاز، والدَّون ألونزو دو كردناز، والدَّون ألونزو دو أغيلار، وغيرهم. وبلغ عدد فرسانهم نحو ثلاثة آلاف مع رجالة كثيرة، وجعلوا وجهتهم الجبال لوجود قطعان الضان فيها بكثرة، وخبَّلت لهم أنفسهم الوصول إلى وادي آش، والاستيلاء عليها بغتَّة لضعف حاميتها، فساروا مجتهدين في إخفاء أثرهم، ولكن بلغ خبرهم وادي آش وهي إن كانت حاميتها قليلة فكان عليها قائد هو جيش بنفسه وأمة برأسه<sup>(٣)</sup>، ألا وهو الأمير أبو عبد الله الزغل أخو السلطان أبي الحسن، وكان أخاه أيضًا في البسالة والإقدام، لكنَّه أحنق وألبق وأدرب بكيد العدو، وأبصر بمواقع الكرِّ والفرِّ، ومعنى الزغل عندهم الفتى الغضَّ الشاب، وكان هذا الاسم وحده يلقي الرعب في قلوب الإشبانيول.

فلمَّا أشرف الإشبانيول من الجبل المطلَّ على مرج مألقة، ابتهجوا بروية تلك الأرض ابتهاج بني إسرائيل بأرض الميعاد، وإذ شعر بهم الأهالي جمعوا قطعانهم ولاذوا بحصون الجبال، فأحرق الإشبانيول المنازل المهجورة وأخذوا بشباب تلك الجبال، فتردَّى بعضهم في الأوعار، فبصر بهم المغاربة من أبراجهم، فخرجوا ونضحوهم<sup>(٤)</sup> بالنبل، ورموهم بالحجارة، وتصايحوا بهم من كلِّ جانب، وارتفعت الأصوات، وتجاوت الأصداء، فوقع الرعب في قلوب الإشبانيول وأغاث بعضهم بعضًا وانضوا إلى مكان واحد، وتشاوروا في ما يصنعون، فأجمعوا الرحلة وترك الغنائم، فساروا في الوعر والمغاربة يُمطِّرونهم سيلاً دافقًا من النبل. حتَّى خارت قواهم، وجاهدوا سحابة يومهم إلى أن جنَّ الظلام، فحصلوا في وادٍ عميق وإذا بصوت قد ملأ الربي والوهاد: "الزغل الزغل".

(١) (اسم) من الفزو.

(٢) انتهزوا الفرصة.

(٣) أي أنه كان جيشًا وائمةً وحثه.

(٤) رموهم بالسهم؛ رشقوهم بها.

فسأل صاحب أُنْتياغو: "ما هذا؟"

فأجابه أحد فرسانه: "هذا صوت الزغل فلعلّه قريب".

فقال لفرسانه: "لنطلع هذا الجبل، ذلك خيرٌ لنا من أن نُذبح كالغنم في قعر الوادي". فأخذوا صعداً والنشاب والحجارة في ظهورهم، حتّى استلحموا، لا سيّما الرجالة الذين كانوا يتشبّهون بأذنان الخيل، فتھوي بهم وبفرسانها فيهلكون جميعاً، وما زالوا في هذا الضيق، إلى أن بلغ كردنازقة الجبل، فالتفت، فإذا به قد حمل رايته وجماً من أصحابه وأنسابه، ورأى نفسه محاطاً من كلّ جانب، ثمّ تردّى<sup>(١)</sup> في مضيق حرج جدّاً، وانشر نظام جيشه.

### - هزيمة مركزيز قادس والكونت دو سيفنتاز ورفاقهم

أمّا مركزيز قادس، فسار من جهة أخرى، ومعه الكونت دو سيفنتاز وألوزو دو أغيلار، فالتقوا بعساكر الزغل فتناجزوا<sup>(٢)</sup>، وضافر الزغل من هنالك من أبطال الجبلين، فانكشف الإسبانول، وأُخِن فيهم المسلمون قتلاً وأسراً، وأذرعوا الفتك<sup>(٣)</sup>، فقاوم المركزيز مقاومة شديدة، لكن سقط أخواه وولدا أخيه صرعى بجانبه ولمّا رأى الثالث من إخوته قد خرّ صريعاً طار قلبه شعاعاً<sup>(٤)</sup>، وأجهش بالعويل<sup>(٥)</sup>، ولم يتمالك من البكاء وقتل فرسه، فقدم له فرس آخر، والتمس منه أصحابه الفرار، فساعدهم فيه، وانهمز بقلّهم إلى النقيرة. وأمّا الكونت دو سيفنتاز، فبقي في الجبل مع جماعة، وأرادوا اللحاق بالمركزيز، فمروا بجث القتلى من إخوانهم وفيهم سُراة<sup>(٦)</sup> الإسبانول وأمائل رجالهم ومغاوير أبطالهم، فأصابهم جزع شديد، وظلّوا منهزمين إلى النقيرة وتاه منهم جملة وافرة في الشعاب، فأسرهم الجبليّون حتّى النساء، واعتقلوا منهم بحصن مألقة نحو مائتين وخمسين فارساً، وأكثر من خمسمائة راجل.

(١) سقط.

(٢) تقابلوا وتبارزوا.

(٣) بلّغوا في القتل، بشكل فظيع.

(٤) تمزق وتبدّد من الخوف.

(٥) نهياً رافقاً صوته بالبكاء.

(٦) مفرداً سرّياً: شريف ذو مروءة.

ولمَّا وصل مركز قادس إلى النقيرة مفلولاً شريدًا أشعث أغبر<sup>(١)</sup> مخضبًا بالدم، عظمت النكاية في قلوب الإسبانول؛ لأنه كان عظيم المكانة فيهم، ولم يجسر أحد أن يعزّيه بأخوته، بل لزم غرفته كثيبًا حزينًا، وانتشر خبر هذه الهزيمة الشنعاء في البلاد فارتجت الثغور، وساحت العبرات<sup>(٢)</sup>، وهلعت القلوب، حتّى قلب فرديناند وإيزابيللا في وسط قصرهما؛ أمّا المغاربة فطارت قلوبهم فرحًا، لا سيّما عندما شاهدوا أمراء الإسبانول وأعيانهم مقيدّين بالسلاسل، تجلبهم فلاحو الجبال، وفي أيديهم راياتهم، والكونت دو سيفنتاز من جملة من ثَقّفهم<sup>(٣)</sup>.

وهاك ما ورد في "الفتح" بشأن هذه الواقعة قال: "في صفر سنة ثمان وثمانين وثمانمائة، اجتمع رؤساء النصارى وقصدوا قرى مالقة وبلش في نحو الثمانية آلاف، وفيهم صاحب إشبيلية، وصاحب شريش، وصاحب إستجة، وصاحب النقيرة، وغيرهم، فلم يتمكنوا من أخذ حصن، ونشبو في أوعار ومضايق وخنادق وجبال، واجتمع عليهم أهل بلش ومالقة، وصار المسلمون ينالون منهم في كلّ محلّ، حتّى بلغوا مالقة، ففرّ كبيرهم ومن بقي قُتل أو أسر. وكان السلطان أبو الحسن في ذلك الوقت قد تحرّك لنواحي المنكب، وبقي أخوه أبو عبد الله بمالقة، ومعه بعض الجند وقتل من النصارى في هذه الواقعة ثلاثة آلاف، وأسر نحو ألفين من جملة خال السلطان وصاحب إشبيلية، وصاحب شريش، وصاحب النقيرة، وغيرهم، وهم نحو الثلاثمائة من الأكابر، وغنم المسلمون غنيمة وافرة من الأنفس والأموال والعدة والذهب والفضّة" انتهى.

### - أبو عبد الله يخفق هي فتح لشانة ويؤسر

وأما غرناطة، فغبطت أبا الحسن على ما أصاب من الغنم والفوز، وثارَت بأبي عبد الله ولده لأجل الجهاد، فلبّى الدعوة، وعقد عزمًا موفورًا على إبلاغ الغارة حدود قرطبة، فحشد سبعمائة فارس وسبعة آلاف ماش، وسار إلى لوشة حيث وافاه حموه علي العطار، بجيش من الفرسان كلهم مغاوير، ثمّ دخل أرض النصارى واكتسح بلادهم إلى حدود لشانة.

(١) شعث الشعر، كان مُتبركًا متلبّدًا، فصاحبه لثمت ملطخًا بالدمار.

(٢) جرت الدموع.

(٣) ظفروا بهم وأخذوهم.

وكان علي العطار خيرًا بالأرض لكثرة ما قاتل فيها في زمانه، فأبصر نارًا على علم<sup>(١)</sup>، فقال لصهره لقد أصبحنا مكشوفين فلنسرع إلى فتح لشانة، فسار معه أبو عبد الله وكان الدون دياغو دوق قُرْطُبة في حصن بانية، وقد علم بقدوم المغاربة فخرج بمائتين وخمسين فارسًا وألّمين ومائتي راجل لإنجاد ابن أخيه في لشانة، وفي الطريق تذكّر أنه نسي راية بانية، التي هي شارة بيته، فنشر راية قَبْرَة<sup>(٢)</sup>، وعند وصوله، انتعش به ابن أخيه ثمّ اعتراه من خوف العدو، وبرز الكونت لمنازلة العدو، فتلاقيا وراء ربي وهضاب، وقد أثقلت الغنائم حركة المغاربة وشوهد أبو عبد الله ممتطيًا جواده الأشهب، تحفّ به بطانته الباهرة، ولمّا ظهر لأبي عبد الله جيش النصارى سأل حَمَاه عن رايتهم فأجابته لست أعرف يا سيدي هذه الراية، وأظنّ الأندلس كلّها زاحفة إلينا، إذ لا يمكن أنّ أهل مدينة واحدة يقتحمون لقاعنا، واشتعلت نار الحرب وإذا بأحد القواد قد جاء الإسبانول بمدد جديد، وعزف بموسيقى إيطالية، فقال علي العطار، هذه ألحان طليانية لعلّ العالم كلّه أصبح ضدّنا، وكان الضباب كثيفًا فغمّ على المسلمين أمر العدو، وظنّوه أضعاف ما هو، فكانوا يقاتلون رجوعًا حتّى بلغوا ساقية هناك، فوقف السلطان أبو عبد الله على ضفّتها حتّى عبرتها رجاله وبقي الحرس حوالبه والقتال بينهم وبين الإسبانول، فانهمز الحرس وعبروا الماء، وأصبح السلطان فريدًا برأسه، فترجّل وتوارى وراء الصفصاف لئلاّ يعرفه الإسبانول فحضروا إليه وأمسكوه، وظنّوه كبيرًا من كبراء المغاربة فعادوا به إلى لشانة، أمّا علي العطار فلبث سائرًا والعدوّ في أثره، لكنّه كان يكرّ عليهم، فبيدّد شملهم، ويستأنف سيره، ولمّا وصل الخبر إلى فرسان النقيرة، اغتتموها فرصة لإدراك الثأر، وسار الدون ألونزو دو أغيلار بجيش فالتقى بالمغاربة على ضفاف الشنيل، فاقتلوا شديدًا وزعموا أنّ علي العطار أبصر الدون ألونزو فقصدته وطلعته بحربة فأثبتهما في قسم من درعه، ولم تُصِبه بضرر، فانتضى<sup>(٣)</sup> حسامه ووثب عليه كالليث الذي قد ثكل شبّله<sup>(٤)</sup>، فدفع الفارس الإسباني عن نفسه، وبقي القرنان يتساوران<sup>(٥)</sup> ساعة، تارة على ضفّة النهر، وطورًا في الماء وأنخن ذلك الشيخ العجيب جراحات، فرقّ الدون لشيخوخته، وعرض عليه التسليم فأباه، فدهمه الدون بضرية على أمّ رأسه، فخرّ صريعًا في النهر.

(١) جَبَل.

(٢) مدينة بالأندلس.

(٣) سلّه من غيبه.

(٤) قَدّه.

(٥) يتوالتان، واحدهم على الآخر.

قالوا: "وكان مصرعه سبياً في فشل المغاربة، فعبروا النهر مفلولين<sup>(١)</sup>، وغرق منهم كثير" وأما أبو عبد الله فأحضر لدى كونت قَبْرَة فأعظم موصله وعزاه بما يناسب المقام، قائلاً له، إنَّ القضاء الذي قضى عليه هذه المرّة ربّما يقضي له مرّة أخرى.

### - عودة أبي الحسن إلى غرناطة -

وصل سيدي غالب الغرناطي بالصرىخ إلى لَوْشَة فغرناطة، وأخبر أن السلطان أبا عبد الله قد وقع في يد العدو، وأنَّ العطار قد قُتِل، فجزع المسلمون جزعاً شديداً ومالت القلوب إلى السلطان أبي الحسن، وتطيروا<sup>(٢)</sup> من أبي عبد الله، واستشعروا صدق أقوال المنجمين بحقّه، بأنه سيكون سقوط غرناطة على يده ممّا لَقِب لأجله بالشقيتواي (الشقي)، ودخل أبو الحسن الحمراء واستقرّ ثانية في كرسيه، وانحازت امرأته الحرّة إلى محلّة البيازين، وانقسمت العاصمة شطرين، فكتب أبو الحسن إلى الملك فرديناند والملكة إيزابيلا أن يسلّما إليه ولده وهو يسلّمهما الكونت سيفنتاز وسبعة أمراء آخرين، فأبيا تسليمه خوفاً من أن يقتله، لا حذراً عليه، بل خشيةً من انقضاء الفتنة بينهما، وأرسلت أمّه من جهة أخرى تعرض عليهما ردّه إليها على وثيقة أن يعترف بسلطة ملك قشتالة، ويؤدّي جزية وافرة كلّ سنة، ويقدم النفقات العسكرية، ويردّ أربعمائة أسير نصراني، ويقدم سنوياً سبعين رقيقاً مدة خمس سنوات، ويرهن على ذلك ولده الوحيد، وأولاد اثني عشر بيتاً من بيوتات المغاربة.

وحيث كانت إيزابيلا غائبة لم تحظْ عائشة بجواب، وخرج فرديناند فكسّن الغارة على أراضي غرناطة، وأبو الحسن ملازم مكانه، لا يخرج إليه خوفاً من أن يعود فيجد الأبواب موصدة في وجهه كالعادة، فكان نظير النمر الكاسر المحبوس في القفص وصيّدهُ بإزاته، وهذه نتيجة استبداد النساء بالأمور ودخولهنّ في الأحكام، ثمّ عادت إيزابيلا فأطلقت مولاي أبا عبد الله على شريطة أن يعترف بسلطانها وسلطان زوجها، ويُطلق مَنْ في جانبه من أسرى المسيحيين، فخرج أبو عبد الله بحاشية وافرة لزيارة الملك فرديناند، فلماً قابله انحنى لأجل تقبيل يده فأبى فرديناند ذلك، وأنهضه بيده ولاطفه وأكرمه.

### - إطلاق سراح أبي عبد الله، وعودة الفتنة بعودته إلى غرناطة -

قالوا: "وقدم ابن سراج من غرناطة ومعه ولده أبي عبد الله وأبناء الأشراف الغرناطيين،

(١) منهزمين متفركين (منصوبة على الحاية).

(٢) تشاسوا.

فأودعوهم رهناً، وحيء بالسلطان أبي عبد الله إلى غرناطة، وسار فرديناند في تشييعه بضع ساعات، ولمّا وصل أبو عبد الله إلى الحاضرة ثار به والده وأصحاب والده من جهة وانتصرت له والدته ومن إليها من جهة أخرى، فكان هناك في ذلك الوقت الضيق مشهد الحماقة الأعظم، وجرى من الأمور المنكرة ما ليس في كتاب، وامتلات الأسواق بالمقاتلين، بعضهم ينادي بأسم أبي عبد الله، والبعض الآخر بأسم والده أبي الحسن، وكان أكثر ميل العامة إلى أبي عبد الله، فسالت الدماء وأصبحت حمراء غرناطة اسماً على مُسمَى، إلى أنّ كلّ الناس من تقتيل بعضهم بعضاً والعدوّ على الأبواب، وشموا من إهدار دماء المسلمين أعظم ما كانت الحاجة إلى اتخارها لدفاع العدو، وارتضى أبو عبد الله أخيراً بالخروج من غرناطة والانحياز إلى المريّة المدينة الثانية بعد تلك في الأبهة والشان وتشامخ البنيان، إلا أنّ والدته حرسها الله، لم تكن راضية عن ذلك، بل قالت له إنّ الملك الذي لا يقدر أن يستقرّ في عاصمة مُلكه لا يصحّ أن يسمّى ملكاً، وكان بوّدها أن يبقى ابنها في الحمراء، ولو استمرت الفتنة وجرى من الدم أضعاف ما جرى، والحق أنّ لهذه المرأة، ولضرتها الثريّا، اليد الطولى في تعجيل سقوط غرناطة“.

## \* يا ربّي ممّا تجرّ النساء \*

### - وقائع رُندة، والصخرة، والحامة -

على أنّه وإن كان أبو عبد الله قد ارتحل عن غرناطة، فقد بقي له في البيازين رجال كلّما اغتاظوا من أبيه نادوا بأسمه، فأجمع أبو الحسن أخيراً على الغزو في بلاد العدو لعلّه يزداد تمكّيناً، وكان فرديناند بقسم كبير من جيشه في غزاة بعيدة، فعقد السلطان على الجند لقائد مألّقة، وجعل معهد اللقاء رُندة، وهي حصن مشهور المنعة، كان لذلك الوقت عشّ الدعارة، ومركز قطاع السبل وماوى الفتاك، وأهله لا يألون النصارى خبال<sup>(١)</sup>، ولا يفترون عن مغاورتهم من حصنهم، وسجونهم ملأى بأسراهم، وعليهم قائد يليق بهم، اسمه حامد الزغبى من بني زغبة، الموصوفين بالشدة والقسوة، وعندهم طائفة من الأفريقيين، من غمارة، ولم يكن في الدنيا أحسن من هؤلاء إذا ركبوا، لأنهم سريعو الكرة، عُقبان عند

(١) لا يوفرون جُهناً في إهلاكهم وإرهابهم.

الوثوب، شديدو الوطأة، إذا أقبلوا من معاصمهم<sup>(١)</sup> اندفقوا على مروج الأندلس، ولا اندفاق السيل المنهمر من الجبال، فاجتمعت الأجناد في رُنْدَة وكانت نحو أربعين ألف ماش وألف وخمسمائة فارس، وزحفوا تحت قيادة قائد رُنْدَة، وقائد مألقة، وذلك في ١٧ أيلول سنة ١٤٨٣ فانتشروا في السهول وامتلات أيديهم من الغنائم، وامتد الصريخ بين رؤساء النصارى، فجمع صاحباً قادس وبويرتو جيشاً كثيفاً، ونهضا لمداغة العدو، وكان المسلمون قد أقاموا كمينين أحدهما عند مدخل سهل الأندلس، والثاني حفافي نهر لوبرة، فلما انتشروا في أرض العدو نهد إليهم جيش من أوتررة فالتزموا الرجوع نحو لوبرة، فطاردهم الإسبانيول حتى وصلوا إلى الكامينين فأزوا<sup>(٢)</sup> بهم، وحمل الجميع على الإسبانيول فهزم موهم. فأنجدهم بويرتو كيررو فتشددوا به، وأعاد الكرة فثبت المسلمون في مواقعهم، لكن أسر قائدهم، فدُعروا وانشطروا شطرين فتأنف<sup>(٣)</sup> الإسبانيول أحدهما وألحوا عليه، والتقى الآخر بصاحب قادس فناوشه، وإذ رأى جواد أخيه المقتول في الواقعة السابقة تحت أحد فرسان المغاربة، ورأى الإسبانيول خيول إخوانهم القتلى في جبال مألقة تحت فرسان أعدائهم، غلت في صدورهم مراجل<sup>(٤)</sup> الغيظ، وثاروا لأخذ الثأر، فحملوا على المسلمين حملة الرجل الواحد فكشفوهم، وضلّ حامد طريقه إلى رُنْدَة، فردّه إليه أحد المتمسلمة<sup>(٥)</sup> من النصارى.

وكان عند صاحب قادس بعض العيون والجواسيس، أكثرهم من متنصرة المغاربة، فأخبروه بضعف حامية الصخرة، فتهماً لقصدها، واستجاش ببويرتو السابق الذكر وجويان المارز، فبادرا لإجابته، وزحفوا في ٢٨ أكتوبر سنة ١٤٨٣ بستمائة فارس وألف وخمسمائة ماش، قبلغوها ليلاً بدون أن يشعر بهم أحد. وكمن أورتغادو برادو المعهود، بعشرة من أقرانه تحت السور، ومعهم سلالم، وكان رجال الحصن قد خرجوا إلى المدينة، وناشبهم الإسبانيول القتال، ريثما تمكّن هؤلاء الكامنون من صعود الحصن، فعندما أيقنوا أن العدو أصبح فيه، سقط في أيديهم، واتفقوا مع العدو على الخروج بالأمان.

(١) مواضع احتصلمهم.

(٢) اجتمعوا.

(٣) تألفه الناس: احتوشوه فصاروا حوالبه كالأثنية.

(٤) مفرداً مِرْجَلٌ: قَدْرٌ يُطْبَخُ فِيهَا حَتَّى تَقْلَى، واستعملها هنا على المجاز.

(٥) الذين اعتنقوا الإسلام.

وبعث السلطان أبو الحسن جيشًا إلى الحامة، وكان قائدها الكونت طنديلة فذب<sup>(١)</sup> عنها حسنًا، وفي أحد ليالي الشتاء، خرَّ جانب من سورها، فخاف الكونت أن يدري المسلمون فيقتحموا الثغرة، فنشر غطاءً كبيرًا من النسيج، وجعل وراءه الفعلة يشتغلون حتى أكمل بناء الحصن المتهدم.

- سقوط أريولة في يد الإسبانول، ونزول السلطان أبي الحسن عن الملك

### لأخيه الزغل

وفي تلك المدة احتشد أمراء الإسبانول ثانية للغزو، وزحفوا بستة آلاف فارس واثني عشر ألف راجل وعليهم مركز قادس، وكونت قبرة، وقائد القنطرة، وصاحب صنتياغو، والدون ألونزو دواغيلار، وبويرتو كريرو، وغونسالف القرطبي، وغيرهم، فاجتاحوا أراضي مالقة، وحطّموا زرعها، وأحرقوا البيوت المنفردة، ونهض إليهم الملقيون، فلم يفوزوا منهم بطائل.

وكان فرديناند قد استبدل بالآلات الحصار القديمة المدافع النارية الجديدة، ونزل بها على أريولة، ولم يكن لأهلها عهد بهذه الأدوات الجهتمية، فارتاعوا، وسلّموا بلدتهم صلحًا، وانحاشوا<sup>(٢)</sup> إلى مالقة، فلم يقبلهم أهلها ظنًا بأنهم جنوا عن القتال، وخاموا<sup>(٣)</sup> عن اللقاء، ثم سير فرديناند بهذه الآلات جيوشًا اكتسحت بسائط غرناطة، فسأله أبو الحسن الهدنة، وأظهر التعصّب لابنه أبي عبد الله، وبعث إليه بالمدد بمكانه من المرية، وكان أبو الحسن قد بلغ من الكبر عتياً<sup>(٤)</sup>، وكفّ بصره، ولزم الفراش، فنزل عن الحكومة والقيادة لأخيه أبي عبد الله الملقّب بالزغل، وكان له أمينًا وبه برًا، فهاج أهالي المرية على أبي عبد الله محمّد، وقاموا ببيعة عمّه، ولم يلبث أن حضر هذا إليهم بنفسه، فافتتح قلعة المرية، وفرّ ابن أخيه شريدًا إلى قرطبة، مستغيثًا بالملك والمملكة، واستوسق أمر غرناطة كلّها للزغل، وسار إلى مالقة، وحوّمت عليه الخواطر، وانشرحت له الصدور، وعقد به مغاربة إسبانية أنواط الآمال.

٤

(١) دفع وحامى.

(٢) تهازوا وأرادوا هنا لجأوا ولاذوا.

(٣) جنوا وتكصوا.

(٤) تقدّم به العمر وأصبح عجوزًا.

قال (صاحب النسخ) بشأن الوقائع المتقدمة: "ولمَّا استقرَّ السلطان أبو عبد الله ابن السلطان أبي الحسن بقرنطة، وطاعت له البلاد غير مالقة والغريبة، تحرَّك السلطان أبو الحسن على المنكب ونواحيها، وأتى ابنه السلطان أبو عبد الله في جند غرناطة والجهة الشرقية، والتقوا في موضع يُعرف بالدب، فكسر السلطان أبو عبد الله. ولمَّا سمع السلطان أبو عبد الله صاحب غرناطة بأنَّ عمه بمالقة غنم من النصارى أعمل السفر للغزو بأهل بلاده من غرناطة والشرقية، وذلك في ربيع الأول من السنة، إلى أن بلغ نواحي لشانة، وقتل وأسر وغنم، فتجمعت عليه النصارى من جميع تلك النواحي ومعهم كبير قبيرة، وحالوا بين المسلمين وبلادهم في جبال وأوعار، فانكسر الجند، وأسر من الناس كثير، وقتل آخرون، وكان في جملة من أسر، السلطان أبو عبد الله ولم يُعرف، ثمَّ علِمَ به صاحب لشانة، وأراد صاحب قبيرة أن يأخذه منه، فهرب به ليلاً وبلغه إلى صاحب قشتالة، ونال بذلك عنده رفعة على جميع القواد وتفاعل به، فقلما توجه لجهة أو بعث سرية إلاَّ وبعثه فيها، ولمَّا أسر السلطان أبو عبد الله، اجتمع كبراء غرناطة، وأعيان الأندلس، وذهبوا لمالقة للسلطان أبي الحسن، وذهبوا به لقرنطة، وبايعوه مع أنه كان أصابه مثل الصرع إلى أن ذهب بصره، وأصابه ضرر، ولمَّا تعدَّر أمره أقام أخاه أبا عبد الله، وخلع له نفسه، ونزل بالمنكب، فأقام بها إلى أن مات، واستقلَّ أخوه أبو عبد الله المعروف بالزغل بالملك بعده". انتهى.

وقد سار المؤلف، رحمه الله، في تاريخ هذه الوقائع كلها على قاعدة، الإيجاز فيه البلاغة.

### - فرديناند يقصد مالقة، والزغل يرده عنها، وسقوط رُنْدَة -

ثمَّ إنَّ فرديناند أعاد الكرة سنة ١٤٨٥ خامس إبريل، فحشد في قرطبة تسعة آلاف فارس وعشرين ألف راجل، وقصد بها مالقة لأنها ميناء غرناطة، ومنها كان يتسرَّب المدد من جهة البحر، فابتدأ بفتح الحصون التي في طريقه، وأشهرها ذكوان، فأسرع حامد الزغبى لإغايتها، فوجد أهلها قد استأمنوا وخرجوا منها. وفي "النسخ" "إنَّ ألف دارع من النصارى دخلوا ذكوان عنوة، فأظفر الله تعالى أهل ذكوان بهم، فقتلهم جميعاً، ثمَّ طلبوا الأمان وخرجوا. فسار إلى مالقة، فخرج إليه الزغل بألف فارس فردّه، وقتل من الفريقين، فانعطف صوب رُنْدَة، بإشارة مركيز قادس لمُنعة هذا الحصن، وكثرة ما فيه من أسرى المسيحيين، وكان قائد رُنْدَة قد خرج للغزو، وعاد بغنائم لا تُسهي، وعندما وجد الإسبانيول

منازلين حصنه، بعث بالصرخ إلى أهل الجبال المجاورة فأسرعوا إليه، وأشعلوا الحرب، وأقدموا إقدام الأثمي<sup>(١)</sup>، ولم تؤخذ رُنْدَةٌ إلا بسبب عين كان يستقي منها أهلها، وينزلون إليها بدلهيز طويل، ولا ماء لهم غيرها، فلَمَّا تَمَكَّنَ العدو من هذه العين، لم ينضمهم الثبات، وطلبوا الأمان على شرط الإجازة إلى أفريقية، فأذن لهم وخرجوا ووجد في أسْرِهِم عدد غفير من كبار الإِسْبَانِيُولِ وأبناء الأمراء.

### - الزغل ينتصر على كبير قبيرة

ثمَّ عزم فرديناند على منازلة حصن مكلين لما بلغه من ضعف الجند المرتب له، وحصل التواعد بين الملك وبين كبير قبيرة على المسير معاً، فبادر الزغل إلى الجهاد، وبرز إلى ملاقاتهما، فلم يصبر صاحب قبيرة عن ملاقاته وحده، وناوشه بأربعة آلاف غير الشيقتو، والفرق شاسع بين أبوي عبد الله ابني الأحمر، فوصل صاحب قبيرة إلى وادٍ عميق وكَمَنَ فيه، لكن القمر بغى عليه وخانه، فافتضح أمره للمغاربة وانهالوا عليه بنبل متابع، فاستسلم جيشه وقُتِلَ أخوه، وهلك جواده، فامتطى جواد أخيه، ولمَّا رأى شدة فتك المغاربة بأصحابه، فرَّ شريداً فطاردوه مدة، وأذرعوا في عسكره القتل، فهلك في ذلك اليوم جملة وافرة من أمراء النصارى وأبناء البيوتات الإِسْبَانِيَةِ، وآب الزغل بالغنيمة.

### - سقوط حصن قنبيل في يد الإِسْبَانِيُولِ

وساء جداً وقع هذه الواقعة عند الإِسْبَانِيُولِ، فأراد الملك محو أثرها، وأجمع على مهاجمة حصن قنبيل والحصن الذي بجانبه<sup>(٢)</sup> وهما مبنيان على صخرتين متناوحتين<sup>(٣)</sup> ترتبطان بجسر، ولهما حامية شديدة تكثر المغاورة في أراضي العدو خصوصاً جهة جيان وقائد الحصنين محمَّد بن يوسف بن سراج، من رؤوس فرسان العرب، فوضع الملك المدافع النارية الجديدة بإزاء الحصنين، وشرع يرسل عليهما النيران، وأدار الحركة الذون فرنسيسكو راميرز، أول مهندس في إسبانية لوقته، واستمرَّ إطلاق النار يوماً كاملاً حتَّى خرت الجدران، وهلكت الأبطال، ولم يجد ابن سراج فائدة من المقاومة بإزاء هذه النيران المحرقة التي لم تكن عنده فسلم القلعتين على شرط الخروج إلى غرناطة فأجيب إلى ذلك.

(١) لسيل الجراف للغريب.

(٢) يقصد حصن الحائر، وهو إلى جانب حصن قنبيل.

(٣) مقالين.

## - سقوط قلعة زالعة

وكان قائد الحامّة الدّون غايتارز دو بادبلا، فحضر لديه مرّة مغربي من طبقة التجّار الذين من عادتهم أن يلحقوا الجيش لشراء السلب، وطلب الكلام معه قائلاً: "كم تنقديني من المال إذا سلّمتك قلعة زالعة؟" فأجابه: "وكيف يكون ذلك؟" قال: "إن لي فيها أخواً أو عزّ إليه سرّاً فيمكنّ جنودك من دخولها ليلاً". قال له: "وهل تخون دينك وأمتك لأجل المال؟" قال المغربي: "إنني بدلت ديني وأمتي وأمي أمة إسبانية وقائد زالعة رجل ظالم، سلّبتني مالي فأريد الانتقام منه". فأرسل الدّون رجالاً راسلوا الخائن فأنزل إليهم سلماً تسلّقوا بها الحصن، فذبحوا نصف رجاله واستولوا عليه.

## - الحرب بين الزغل وابن أخيه أبي عبد الله وقسمة المملكة بينهما

وكان أبو عبد الله ابن أخي الزغل قد جعل حاضرة ملكه بلّش البلانكو، وتقوى به حزبه سكان البيازين، وعادت الحال إلى مكانها بينهم وبين أصحاب الزغل، وتخصّبت غرناطة بالدماء من أبنائها، وازدادت الحمراء حمرة مع جميع ما اشتقّ من هذا المصدر، ونكثت قرحاً على قرح<sup>(١)</sup>. وبينما هم كذلك إذ بلغهم تأهب العدو لاكساح البلاد، فتكلّم الناس في الصلح واتفقوا على قسمة المملكة بين الزغل وابن أخيه، فجعلوا للزغل غرناطة ومالقة وبلّش، ومالقة والمريّة وما يلحق بها، وتركوا الباقي لعهدة أبي عبد الله وسألوه أن يُقيم بلووشة لكونها ثمر المسلمين، طمعاً في دفع العدو عنها لمكان السلطان أبي عبد الله من الاتّصال بالطاغية.

## - سقوط لووشة هي يد فرديناند، بعد أن تكبّد جيشه خسائر فادحة

سار الزغل إلى لووشة وبعث إلى فرديناند يسأله التجانف<sup>(٢)</sup> عنها فلم يُجبه، بل إنه في ربيع عام ١٤٨٦ زحف الطاغية بجحفل جرّار<sup>(٣)</sup> مؤلّف من ١٢ ألف فارس و ٤٠ ألف ماش و ٦ آلاف من مّمهدى الطرق، وكان في جيشه كثير من مطوّعة الفرنسيّس، وفيهم من المشاهير مثل غاسطون اليونى، ومن غزاة الإنكليز وفيهم اللورد سكالس، وكان معه آلات ومدافع تفوق الإحصاء، بإدارة جند ألمانيين بادروا لإجابة داعي الحرب المقدّسة من أقاصي

(١) فشرّه قبل أن يبرأ فعاد إلى النزف.

(٢) مجانف عن طريقه: عدل عنها.

(٣) الجيش الكثير العدد والمعدّ.

بلادهم، فقبل الوصول إلى نَوْسَةَ استأذن مركز قادس من الملك أن يتبوأ رابية "أبو الحسن" التي حَقَّت فيها الهزيمة على الإِسبانيول المرَّة السابقة، والتمس كبير قَبْرَة أن يكون في طليعة الجيش، فأذن لكلِّ بما سأل، وخبِّم مركز قادس في أبو الحسن بخمسة آلاف فارس، واتني عشر ألف راجل، وأخذ كونت قَبْرَة، باتباع الوادي طامعاً في أسر أبي عبد الله، وأمَّا هذا فبرز إلى القتال يطلب الموت، وتقدَّم الصفوف ينافح ويكافح، وما زال يخوض غمرات المنايا إلى أن أصيب بجرحين كبيرين، فالتزمت حاشيته أن يرجعوا به، ولكنَّ القتال بقي مشتتاً وتبايع الفريقان على الموت، وتحاجزوا وتناجزوا، وإذا بفارس مغربي، زَميت<sup>(١)</sup> المنظر، شديد الروعة، راكباً جواداً أدهم كالليل الحالك قد أهدق<sup>(٢)</sup> به أبطال من غمارة، ووثب كالأسد الحارذ<sup>(٣)</sup>، فاخترق مصافَّ الإِسبانيول وهزم مَن لقيه، فاشتدَّ به بأس المسلمين وراجعوا بصائرهم، ونَبَّهوا عزائمهم، وحملوا حملة الرجل الواحد فاختلَّ مصافَّ الأعداء على كثافة جموعهم، وكان هذا الفارس هو حامد الزغبى، فانكشف الإِسبانيول من جهة الوادي، وكاد صاحب قادس يقع في الأسر، فبادر الملك فرديناند ببقية الجيش وإلى جانبه اللورد سكالس، البطل الإنكليزي ومعه غزاة الإنكليز يقاتلون بالفؤوس على عادة بلادهم، ولم يكن ذلك معهوداً عند المغاربة فدُعروا وجُرح الزغبى، فاحتملوه إلى المدينة، وارتخت عزائمهم فنكسوا إلى الأرباض وألحَّ عليهم الإِسبانيول، فاشتدَّ العراك وراجع المسلمون ضمائرهم وصدقوا الحملة فكشفوا العدو، وجُرح اللورد الإنكليزي، وحُمِل إلى الخيام، فنصب الطاغية مدافعه وأخذ يرمي البلدة بالنيران الدائمة، فهدم أسوارها وحاول أهلها ترميم جدرانها، وسدَّ فرجها<sup>(٤)</sup>، فلم يُفلحوا، وكان النساء والأطفال والشيوخ، تحت نيران المدافع، يصابرون على مرِّ الحمام، فيئس من ذلك المسلمون وحملوا على الإِسبانيول فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، واستمرَّوا يفتكون بهم ليلتين ويوماً، لكن تهتَّم بلدتهم، وموقفهم بإزاء النيران المُحرقة، اضطراًهم أخيراً إلى التسليم، على شرط الانصراف آمنين فأجيبوا إلى ما سألوه، وخرجوا إلى رباغو على ثلاث ساعات من نَوْسَةَ.

(١) زَفور.

(٢) أحاط به.

(٣) من أسماء الأسد.

(٤) سدَّ الفتحة (في الجندل).

· وهاك ما ورد في النسخ بشأن ما تقدّم ببعض تصرّف قال:

”ثمّ انتقل (أي الطاغية) في جمادى الأولى إلى رُنْدَة، وحاصرها وكان أهلها قد خرجوا إلى نصرة ذكوان وسواها، فحاصر رُنْدَة وهدّ أسوارها، وخرج أهلها على الأمان وطاعت له جميع البلاد ولم يبقَ بغربي مألقة إلاّ من دخل في طاعته وتحت ذمته، وضيق بمألقة وفرّق حصصها على بعض الحصون ليحاصر مألقة وعاد إلى بلاده.

وفي تاسع عشر شعبان من العام، سافر صاحب غرناطة لتحصين بعض البلاد، وبينما هو كذلك إذ بالخبر جاءه أنّ محلّة العدو<sup>(١)</sup> خارجة لذلك الحصن<sup>(٢)</sup>، وفي صبيحة الثاني والعشرين من شعبان أصبحت جنود النصارى على الحصن، كانوا قد سرّوا إليه ليلاً، وأصبحوا عند الفجر مع جند المسلمين، فقاتلهم المسلمون من غير تعبئة، فاختلّ نظام المسلمين، ووصل النصارى إلى خيابه السلطان، ثمّ التحم القتال واشتدّ وقوى الله تعالى المسلمين، فهزموا النصارى شرّ هزيمة، وقتلوا منهم خلاق، وقصر المسلمون خوفاً من محلّة سلطان النصارى إذ كانت قادمة في أثر هذه، ولما رجعت إليهم الفلول، رجعوا القهقري، واستولى المسلمون على غنائم كثيرة وآلات وجعلوا ذلك كلّه بالحصن، ولم يحدث شيء بعد إلى رمضان، فتوجّه العدو لحصن قبيل، ونازله وهدّ أسواره، ولما رأى المسلمون أنّ الحصن قد دخل طلبوا الأمان، وخرجوا بأموالهم وأولادهم وفرّ الناس من تلك المواضع، واستولى العدو على عدّة حصون مثل مشافر وحصن اللوز، وضيق بجميع بلاد المسلمين ولم يتوجّه لناحية إلاّ استأصلها، ثمّ إنّ العدو دبر الحيلة مع ما هو عليه من القوّة فبعث إلى السلطان أبي عبد الله الذي تحت أسر، وكساه، ووعدته بكلّ ما يتمناه، وصرفه لشرقي بسنطة، وأعطاه المال والرجال ووعدته أنّ من دخل تحت حكمه من المسلمين فإنّه في الهدنة والصلح، وخرج لبئس فاطاعه أهلها، ونودي بالصلح في الأسواق، وصرّحت به في تلك البلاد الشياطين، وسرى هذا الأمر حتّى بلغ أرض البيازين من غرناطة، وكانوا من التعصّب وحمية الجاهلية والجهل بالمقام الذي لا يخفى، وتبعهم بعض المفسدين، المحبين تفريق كلمة المسلمين، وممن مال إلى الصلح عامّة غرناطة لضعف الدولة، ووسوس للناس شياطين الفتنة وسماستها بتقبيح وتحسين، إلى أن قام ربض<sup>(٣)</sup> البيازين بدعوة السلطان

(١) يكان العدو.

(٢) خارجة لذلك الحصن: قادمة إليه.

(٣) قناحية، وكلّ ما يؤدى.

الذي كان مأسورًا، ووقعت فتنة عظيمة في غرناطة نفسها، لما أراد الله من استيلاء العدو على تلك الأقطار، ورجموا البيازين بالحجارة من القلعة، وعظم الخطب وكانت الثورة ثالث شهر ربيع الأول عام أحد وتسعين وثمانمائة ودامت الفتنة إلى منتصف جمادى الأولى من العام، وبلغ الخبر إنَّ السلطان الذي قاموا بدعوته قدم على كُوْشَة، ودخلها على وجه رجاء الصلح بينه وبين عمِّه الزغل صاحب قلعة غرناطة، بأنَّ العمَّ يكون له الملك وابن أخيه تحت إيلته بَلُوْشَة أو بأيِّ المواضع أحبَّ، ويكونون يداً واحدة على عدوِّ الدين، وبينما هم كذلك، إذا بصاحب قشتالة قد خرج بجند عظيم ومحلَّة قويَّة، وعدد وعدد ونازل كُوْشَة، حيث السلطان أبو عبد الله، وضيَّق عليها الحصار وقد كان دخلها جماعة من أهل البيازين بنية الجهاد ولمعاوضة وليَّهم، وخاف أهل غرناطة وسواها، من أن يكون ذلك حيلة فلم يأت نصرتهم غير البيازين (انظر إلى ما تجنيه الفرقة واختلاف النية من ثمرة التخاذل) واشتدَّ عليهم الحصار وكثرت الأقاويل بأنَّ ذلك باتِّفاق بين السلطان المأسور وصاحب قشتالة، ودخل على أهل كُوْشَة في ربضهم، وخافوا من الاستئصال، فطلبوا الأمان في أنفسهم وأموالهم، فوفى لهم صاحب قشتالة بذلك وأخذ البلد في السادس والعشرين من جمادى الأولى سنة إحدى وتسعين، وهاجر أهل كُوْشَة إلى غرناطة. وبقي السلطان أبو عبد الله بَلُوْشَة، فصرخ عند ذلك أهل غرناطة، بأنه ما جاء كُوْشَة إلاَّ ليدخلها العدو، وقيل إنَّه سرح له حينئذٍ ابنه الذي كان مرهونًا في الفداء، ثمَّ رجع صاحب قشتالة إلى بلاده ومعه السلطان المذكور، وفي نصف جمادى الآخرة، خرج إلى البيرة فهذَّب بعض الأسوار، وتوغَّد الناس، فأعطاه أهله الحصن على الأمان، فخرجوا وقدموا على غرناطة، وانتقل للصخرة فأخذها، وحصَّن هذه الحصون كلَّها وشحنها بالرجال والعدَّة، ورَتَّب فيها الخيل لمحاصرة غرناطة، ثمَّ عاد لبلاده، وتعاهد مع السلطان الذي في أسره بأنَّ من دخل في حكمه فهو في الأمان، وأشاعوا أنَّ ذلك بسبب فتنة وقعت بينه وبين صاحب إفرنسية، فخرج لِبَلُّش وأطاعته، ثمَّ بعث لمن والاه من البلاد، أنه أتى بصلح صحيح وعقد وثيق، وأنَّ من دخل تحت أمره، أمنَ من حركة النصارى عليه، وأنَّ معه وثائق بخطوط السلاطين، فلم يقبل الناس ذلك إلاَّ القليل منهم مثل أهل البيازين، فلهجوا بهذا الصلح وأقاموا على صحته الدلائل وتكلَّموا في أهل غرناطة بالكلام القبيح مع تمكَّن الفتنة والعداوة في القلوب، فبعث له أهل البيازين أنه إذا قدم بهذه الحجج أتبعه الناس وقاموا بدعوته من غير التباس، فأتى على حين غفلة ولم يكن يظنَّ إتيانه بنفسه. فدخل البيازين ونادى في أسواقها بالصلح التامَّ الصحيح، فلم

يقبل ذلك منه أهل غرناطة وقالوا: ما بعهد لوكسة من قدم. ودخل ربض البيازين بالرجال، سادس عشر شوال سنة إحدى وتسعين وثمانمائة وعمه بالحمرء، واشتد أمر الفتنة، وأمد صاحب قشتالة صاحب البيازين بالرجال والعدّة والبارود واشتد أمره بذلك وعظمت أسباب الفتنة، وفشا في الناس القتل والنهب، انتهى.

وفي رواية المقرري اختلاف مع الروايات الإفريقية في بعض المظان، من تقديم وتأخير وتصغير وتكبير، كما لا يخفى على من تدبّر النقلين وقال مؤرّخو الإشبانيول: "ثم زحف فرديناند نحو "أيلورة"<sup>(١)</sup> الواقعة على ستة عشر ألف متر فقط من غرناطة، فضيّق عليها، ورماها بالنيران، فسلمها سكانها وخرجوا، وكان حصن (متن فريد) من أمنع حصون المغاربة، وقد حفر الزغل حوله الخنادق وأرسل من فيه من النساء والأولاد إلى غرناطة، فأناخ عليه<sup>(٢)</sup> فرديناند يرميه بالمحرقات حتّى اشتعل مخزن البارود. وفي "الفتح" يقول "دار العدة، وتهدمت المنازل، وهلك الناس، فطلبوا الأمان وخرجوا إلى غرناطة ودخل ملوك النصرارى الحصن. ووجدوا فيه جملة وافرة من أسرى المسيحيين، هذا، والزغل لا يتحرّك من مكانه بالحمرء، خوفاً من انتقاض أهل البيازين الذين كان لهم مع نساء القصر السهم الأوفر في إسقاط تلك السلطنة".

وزعموا أن قائدي (متن فريد) وأيلورة، وكانا أخوين في البأس كما في النسب والمغاربة يحبّونهما كثيراً لإقدامهما، فبعد تسليم الحصنين تبدّلت محبّتهما قلى<sup>(٣)</sup>، فيسسا من الحياة، وشرعا يجذّان في استعادة منزلتهما، واستأذنا السلطان في نزال النصرارى، فعقد لهما على جيش وافر وخرجا للجهاد، فالتقيا بالإشبانيول عند جسر بينوس على مسافة ساعتين من غرناطة، فكانت ساعة مؤرّخة في وقائع حروب الدنيا أبدى فيها الإخوان من حُسن البلاء، وصدّق الجِلاّد ما لا يدخل تحت وصف، فكانا كيفما حملا في مصافّ العدو اختلّت أمامهما الصفوف، وتهاوت أمامهما الأبطال، وكان مركيز قادس قائد الطليعة فأوشك أن يولّي منهزماً، فأسرع لإغاثنه كونت قبرة فلم يقض أرباباً، فبادر الدّون جويان ابن أخي الملك، فلم يشف غليلاً، فوافاهم الطاغية الكبير بنفسه، وبياقى جيشه، فردّ المغاربة بكثرة العديد، وبقي الأخوان المستميتان يقاتلان في مقدّمة الجند، وقد أحاط بهما سرّذمة<sup>(٤)</sup> من

(١) ذكرها كتاب "الروض المطار في خبر الأبطال"، وهو مجمع جغرافي مع مسرد عام، للحميري.

(٢) بمعنى أنزك به، أو أهوى بقله عليه.

(٣) بمعنى بنفض على غير قياس.

(٤) جماعة قليلة.

أنجاد الغارة، إلى أن وقعا صريعين الواحد بعد الآخر، فعظم الخطب فيهما، واشتدَّت النكابة بموتهما، وبكاهما أهل غرناطة بسبول الدموع.

وعاد فرديناند إلى قرطبة، بعد أن اجتاحت مرج غرناطة، وأخنى على نضارته<sup>(١)</sup>، ولم يكذب يخلص إلى بلاده، حتى استؤنفت الفتنة في غرناطة بين الزغل وابن أخيه، وكان ما كان من حضور أبي عبد الله إلى البيازين وقيام دعوته فيها، واستمرار القتال بين الفئتين أياماً حتى قيل إنَّ السلطانين تبارزا بأنفسهما في أسواق غرناطة فلم يُغز أحدهما بالآخر.

### - وصول خبير الأندلس إلى المشرق، والاتفاق على الإغاثة

وذكر مؤرِّخو الفرنجية، أن أخبار الأندلس كانت وصلت إلى المشرق، فارتج لها العالم الإسلامي، ووافقت حصول الفتنة بين السلطان بايزيد الثاني وصاحب مصر. فتهاذنا، ووقع الاتفاق على أن يُرسل بايزيد أسطولاً على سواحل صقلية لكونها تابعة مملكة إسبانية، وأن يجهز صاحب مصر بُعوثاً من جهة إفريقية.

### - خوف فرديناند وسقوط بلش

فلماً أحسَّ بذلك فرديناند وإيزابيلا، أجمعا على سدِّ الثغور البحرية كلها عن غرناطة قطعاً للإمداد، ولَمَّا كانت مألقة هي الثغر الأعظم، وميناء الأندلس ومركز التجارة مع مصر والشام، ومنها كانت تتسرب الأموال والأسلحة والجنود والخيول من تونس وطرابلس وسائر المغرب، كان أول ما أعملا فيه الاستيلاء على مألقة، ولكن قبل النزول على مألقة عزموا على أخذ بلش القريبة منها، ففي ربيع سنة ١٤٨٧، زحف الطاغية بعشرين ألف فارس وخمسين ألف ماش، قسمها قسمين: أخدهما بقيادة صاحب القنطرة، والثاني قاده بنفسه، وأخذ الأول بطريق الوادي، وسار الثاني بطريق الجبل، وأمامه نحو أربعة آلاف من الصنّاع ومهمدي الطرق، فلم يزل حتى أطلَّ على مرج بلش وجنانها، وهي من أزهى بقاع الأرض، وأبدع أقاليم الدنيا، وقد ارتفعت في حفايفها الحصون والأبراج، وهناك قوم من الجبليين أهل شدة ونجدة، فما خيم الملك حتى انقضوا عليه من وراء الصخور، انقضاض النسور من الوكور، فهزموا طائفة من جنده، واستلحموا جماعة، فقتل جملة وافرقة من أبطاله، وأصيب ابن الدوق براغانس بجراحة، ثم أرسل جنوداً للمحافظة على الذخيرة

(١) بمعنى "الهدم" و"التلف نضارته".

الآتية بطريق الجبل، فلم يتمكنوا من حفظها وأصابها المغاربة، وأبعدوا في معسكره النكاية<sup>(١)</sup>، وأخذوا يضرمون النيران في الليالي على رؤوس الجبال إشارة بعضهم إلى بعض على حد ما قال:

وضعوا السلاح إلى الصباح وأقبلوا يتكلمون بالسِّن النيران

وكبسوا معسكر الطاغية بيئات، مراراً جمّة، وأخيراً تجمّعوا من كلّ ناحية وهاجموا المعسكر، وبعد قتال عنيف ارتدّوا إلى جبالهم، هذا والحرب الداخلية لم تزل قائمة على سوقها<sup>(٢)</sup> في أسواق غرناطة، فلمّا شاهد المسلمون ما هم عليه من الغفلة والاشتغال بمناظرة بعضهم لبعض، أحوج ما كانوا إلى الانضمام والوثام شدّدوا النكير على السلطانين، ونصحوا لهما بالعدول عن الشأن الذي هما فيه، فأبى أبو عبد الله التخلّي لعمّه عن المُلْك وأصرّ على المطالبة غير متأمل في عواقب هذه الحال التي ستنزِع المُلْك منه، ومن عمّه، ومن جميع أهل بيته وملته، في أرض عمّروها ثمانية قرون، إلّا أنّ الزغل لم يصبر عن نجدة بلّش فأبقى في الحمراء حامية كافية لدفع ابن أخيه المشؤوم، وخرج ليلاً بألف فارس وعشرين ألف ماش، واجتمع إليه من أهل الجبال أعداد، وعلا الصوت في الربي والوهاد، "الزغل الزغل" فوق الرعب في قلوب الإسبانول، وكانت مدافع الطاغية في الطريق، فحاول رضوان المكناسي استخلاصها، فلم يفز بطائل، وكتب الزغل إلى قائد بلّش، يأمره أنه عندما يشاهد النار ليلاً يخرج من إحدى جهات المدينة، وهو يقابله من الجهة الثانية وكان الرسول من المتمسلة، فوقع الكتاب في يد فرديناند فخاف جداً وخافت الملكة أكثر منه، ولكن أفادهما الظفر بذلك الكتاب، عدم وقوف قائد بلّش على أمر الزغل، فبقي في المدينة لا ييدي حركة وتقدّم الزغل نحو معسكر الإسبانول فلم يجدوا أحداً خرج من البلدة، فلم ينكصوا على أعقابهم<sup>(٣)</sup>، بل اقتتلوا اقتتالاً شديداً، وانتظر المغاربة أن يخرج أهالي بلّش لمساعدتهم؛ فطال الأمد ولم يبرز أحد، فأصابهم الهلع وتقهقروا وتقدّم صاحب قادس، فتبّوا مرقباً عاليّاً ركب فيه ريحهم<sup>(٤)</sup>، فاجتهد الزغل في ضمّ شملهم فلم يفلح، فعاد بهم إلى غرناطة، ولمّا طار الخبر إليها بما حلّ به من الفشل بايع أهلها ابن أخيه، ففُضرب هذا أعناق أربعة من أعيان الغرناطيين أنصار عمّه، ولمّا بلغ الزغل نهر شنيل، أخبره بعض

(١) لهدوا في معسكره النكاية: لجادوا في معسكره قتلاً، فلقروا فيه، وقهروه.

(٢) لو على ساقها: اشتنت.

(٣) أحجموا وعادوا عمّا كانوا عليه. ارتدّوا.

(٤) استعلى بالقلبة عليهم، وحلّ من نصرته عليهم مكثاً مرتفعاً.

حواشيه أن الحضرة بايعت ابن أخيه، فتحول إلى المريّة، فالمنكب، فوادي آش. ولمّا أصبح أهالي بلّش وقد رأوا الزغل أقلع بعسكره عنهم، وهت عزائمهم فعولوا على التسليم، وعقدت شروط الصلح بين رضوان قائد البلدة، وبين الكونت دو سيفونتاز صاحب شريش الذي كان أسيراً في بلّش، وخرج أهل بلّش بأموالهم إلى غرناطة، وانطلق أسرى الإسبانيول، وأطاعت جبال البشرات، ونحو أربعين بلدة فيما قيل بنواحي مالقة، وطالبوا حماية الطاغية، وصار المسلمون في جميع هاتيك النواحي مُدجّنين.

وقال صاحب "نفع الطيب" بشأن الحوادث المتقدمة ما ملخصه "إن صاحب غرناطة، بعث إلى الأجناد والقواد من أهل بسطة، ووادي آش، والمريّة والمنكب، وبلّش، ومالقة، وجميع الأقطار وتجمّعوا بغرناطة، وتعاهدوا وتحالفوا على أن يدهم واحدة على عدو الدين، ونصرة من قصده العدو من المسلمين، وخاف صاحب البيازين، فبعث لصاحب قشتالة في ذلك، فخرج بمحلته قاصداً نواحي بلّش، وبعث صاحب البيازين وزيره، إلى مالقة وإلى حصن المنشأة؛ يذكر ويخوف، ومعه النسخة من عقود الصلح، فقامت مالقة وحصن المنشأة بدعوته، خوفاً من صاحب قشتالة وطمعاً في الصلح، ثمّ اجتمع كبار مالقة مع أهل بلّش، وذكروا لهم سبب دخولهم في هذه الدعوة والسبب الحامل لهم على ذلك، فلم يرجع أهل بلّش عمّا عاهدوا عليه أهل غرناطة وسائر الأندلس من العهد، وخرج صاحب قشتالة قاصداً بلّش مالقة، ونزل عليها في ربيع الثاني سنة اثنتين وتسعين وثمانمائة، وحاصرها ولمّا صحّ عند صاحب غرناطة ذلك، اجتمع بالناس فأشاروا بالمسير لإغاثة بلّش للعهد الذي عقده، وأتى أهل وادي آش وغيرها وحشود البشرات، وخرج صاحب غرناطة منها في الرابع والعشرين لربيع الثاني من السنة، ووصل بلّش، فوجد العدو نازلاً عليها براً وبحراً فنزل بجبل هناك وكثر لفظ الناس، وحملوا على النصارى من غير تعبئة، وحين حركتهم للحملة، بلغ السلطان الزغل أن غرناطة بايعت صاحب البيازين، فالتقوا مع النصارى فشلين، وقبل الالتحام انهزموا وتبددت جموعهم، مع كون النصارى خائفين وجلين منهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله، فرجعوا وقد شاع عند الخواص ثورة غرناطة على السلطان، فقصدوا وادي آش، وعاد النصارى إلى بلّش، ودخلوا ريضها عنوة، ولمّا رأى أهلها تكالب العدو عليهم، وإدبار جيوش المسلمين عنهم، طلبوا الأمان، فخرجوا يوم الجمعة عاشر جمادى الأولى من السنة، وأطاعت النصارى جميع البلاد التي بشرقي مالقة وحصن قمارش" انتهى.

## - حصار مالقة، ومحاولة تسليمها صلحاً

ثمّ ذكروا أنّ فرديناند أجمع على حصار مالقة، وكانت من قواعد سلطنة غرناطة وميناء الأندلس، وثغرها المحروس كما تقدّم الخبر، وهي مبنية في قعر وادٍ خصيب، فاتح فاه لجهة البحر، تمنعها الجبال والأبراج والأسوار من البرّ، والأمواج المتكسّرة على الأسوار من البحر، وعلى رابية في أحد طرفي المدينة القصبة، (دار حكومة باصطلاح المغرب) وفوق القصبة صخرة شامخة عليها المنارة البحرية المسماة بالفار، ولها وراء السور روضان، أمّا المناوح<sup>(١)</sup> منهما للبحر، فجنتات معروشات<sup>(٢)</sup> وغير معروشات، ومنازل رحبات، وأمّا المقابل للبرّ فكان مشتبكاً بالعمارة متصل البيوت. وكان لمالقة حامية وافرّة مجرّبون في الحروب ومعتادون لقاء الأهوال، وأهلها من ذوي الحركة والنشاط والعمل والحزم، أكثرهم تجار وفيهم عدد من ذوي اليسار، وفي مقدّمة هؤلاء التجار الموسرين، رجل يقال له علي دردوق، له عدّة سفن تجارية تسافر إلى جميع موانئ الشرق، وله في ثغر مالقة الكلمة العالية والرأي المقدّم، فجمع هذا عصابة من كبار القوم وسار إلى قائد القصبة ويّين له الدفاع وخلوّ المقاومة من كلّ جدوى، وأنّ الأجدر بهم قبول دعوة السلطان أبي عبد الله حليف الطاغية، فرضي القائد وسار إلى خيام الإسبانيول للمكالمة في شروط التسليم وترك القيادة لأخيه.

## - حامد الزغبى وجماعة الزغل يابون الاستسلام

وكان حامد الزغبى المشهور بلدد<sup>(٣)</sup> العداوة للنصارى، قائد موقع المنارة البحرية، وعنده من بني غمارة، طائفة كلهم على شاكلته من شدّة البأس وصعوبة المراس، فطارت عقولهم عندما سمعوا بما عزم عليه أهل البلدة، واستنفروا من كان باقياً من أهلها على عهد الزغل، واستدعى حامد الخواص إلى حضرته، فحضرها جميعاً، ولم يتخلف منهم إلّا دردوق الآنف الذكر، فقرّروا وجوب الدفاع ونقضوا ما أبرمه قائد القصبة بتمامه.

وكان صاحب قادس قد عرف في بلّس مالقة رجلاً شهيراً، من تجار المغاربة، وعده بقتل ذوابة<sup>(٤)</sup> حامد عن المقاومة، فعرض الأمر للملك، فقوّضه بالعمل وأركبه المركيز

(١) المناوح: المقابل.

(٢) العروش، المليء بالدوالي والأشجار والظلال.

(٣) شدّة العداوة والخصومة.

(٤) خادعة حتى أزلقه من رأيه.

جواده، وقلده سلاحه، وأردفه بمغربي آخر من أنسابه بكتب يعرض فيها على حامد مدينة كوهين، مع أربعة آلاف ذهب إن سلم قصر المنارة أو جبل نارو، وإن رضي بتسليم البلدة كلها كان جزاؤه أعظم، وكان حامد يحترم مركز قادس احترام الأبطال بعضهم لبعض، فأكرم الرسل وأصغى إليهم، لكنّه رفض خيانة ملته ووطنه رفضاً باتاً، فكرّر فرديناند الرسالة فكاد الأهالي يقبلون بالصلح لولا ما قال حامد للرسول وهو: "أذهب وقل لسيدك إنني قد تسلّمت مدينة مألقة لأحميها لا لأسلمها" فعندما يتس فرديناند منهم قدّم المدافع، وزحف بالجيش وقابلته أساطيله من البحر فأحرق حامد الأرباض، وسيّر ثلاث فرق لمصادمة العدو، وذلك أنه لمّا كان لا بدّ للإسبانيول من المرور بمضيق بين قصر المنارة والجبل، أمر الزغبى فرقة من جيشه باحتلال المضيق، وفرقة أخرى باحتلال الصخرة المشرفة، وفرقة ثالثة بالنزول بالجهة البحرية.

### - القتال وصمود مألقة -

وانتشرت الحرب بدايةً في المضيق المذكور، وتصارعوا قرناً لقرن، وعوّلوا على القتل أكثر من الأسر، وتلاحقت النجدات للمسيحيين، فعظم سوادهم<sup>(١)</sup>، واشتدت وطأتهم، لكنّ المغاربة ثبتوا في مواقعهم، وفلّوا<sup>(٢)</sup> حدودهم، فالزموهم الرجوع، فنكصوا على أعقابهم، ولما يقضوا وطراً<sup>(٣)</sup>، وكان فرديناند مشتغلاً بتركيب مدافعه وتصويبها ممّا اقتضى من المشقة ما لا يوصف، فلما تمّ له ذلك رمى البلدة بالنيران، وظهرته الحراقات من البحر، وارتفع دوي المدافع ولكنّ المدينة قاومت مقاومة شديدة لثانة أسوارها، ومنعة مواقعها، ولم تؤثّر النيران إلاّ في برج واحد كبير تداعى أكثره للخراب، فاهتبل النصارى فيه الغرّة وتسلقوه، فدرهم المسلمون أول مرة وأهلكوا منهم خلقاً كبيراً، فحملوا ثانيةً وصدقوا الحملة، فأزاحوا المسلمين، وملكوا الحصن، فتجمّع المسلمون وحملوا عليه، واحترفوا عند ركنه أخذوداً، ووضعوا النار في الأخدود<sup>(٤)</sup> فخرّ منه جانب، وهلك بسقوطه جمٌّ غفير من الإسبانيول، ففتحوا منه ثغر لجهة معسكرهم، يتسرّب لهم بها المدد، وبقي الفريقان يراوحن القتال، ويغادونه يومين وليلتين، وانكفاً المسلمون، ولم يتمكّنوا من الحصن،

(١) كثرتهم.

(٢) هزموا.

(٣) حقّ الهدف، وأدرك الغاية.

(٤) الحفرة السطيلة في الأرض.

واشتدَّت عزائم الإِسبانيول بأخذه، ولكنَّهُم لم يطمعوا في مهاجمة المدينة لما فيها من الجيوش المدرَّبة على القتال، وطال بهم المقام، فسثموا وتبرَّموا وخافوا العاقبة، ووقر<sup>(١)</sup> في نفوسهم، من خوف الزغبي وطائفته، ما آل بهم إلى القنوط<sup>(٢)</sup>، ففرَّ منهم جماعة وافرة إلى المدينة وانضمَّوا إلى المسلمين، وأخبروهم عن ضيق الحالة بالنصارى، وبالغوا في الحكاية فثارت الحمية برووس هؤلاء فأخذوا يندلقون على الإِسبانيول اندلاق السيوف من الأغماد، ويندققون اندفاق السيول من الأنجاد<sup>(٣)</sup>، فلا يلقونهم في مأزق، إلا مزقوا شملهم كلَّ ممزق.

### - هرديناند يجدد طلب التسليم

واتصل بفرديناند، أنَّ النصارى الخائنين بسرَّوا حامدًا بكون الملكة ترجَّت زوجها كثيرًا برفع الحصار عن مالقة، فذهب إلى تقطيع آمالهم باستدعاء الملكة إلى المعسكر، فجاءت وصحبها ابنتها، وبعد وصولها راجع حامدًا في التسليم، فجبَّه حامد الرسل، وأنكر الأمر وترجَّاه بعض الخواص بالقبول، فقبل إنَّه قتلهم، فأمر الطاغية بإطلاق المدافع، فأطلقت نيرانها دراكًا<sup>(٤)</sup>، واتفق أن حضر الملك والملكة إلى معسكر صاحب قادس، فجرَّب في حضرتهما بعض مدافعه الكبار، ولم ينشب أن أبصر الراية التي فقدها في جبال مالقة وهي تخفق فوق برج قريب من جبل فارة أو المنارة، فأثَّر ذلك في خاطره، ولجَّ في إطلاق النيران، ثمَّ تقدَّم بالجند نحو ذلك الحصن وطمع في أخذه، فانهاه عليه ألف مغربي من ذويان<sup>(٥)</sup> الجيش فذبحوا أجناده ذبح الشياه<sup>(٦)</sup>، وهزموا من سلِّم منهم، فتلاحق المدد للنصارى، فأعادوا الكرة والتحم الفريقان، وهلك منهما خلق كثير، وتولَّى الصبر مقام المغاربة فكاد المركيز يهزم ثانية، وكادت رايته تقع أيضًا في يد العدو، لولا أن قائد تلك القطعة من جيش المسلمين إبراهيم بن زناتة جُرِّح في معمة القتال، فعاد به قومه إلى الحصن، وأرسلوا من هناك نبالهم فثالت من الإِسبانيول، وتقهقر عسكر المركيز وفشا فيه القتل، وهلك في هذه الواقعة أورتاغو دو يرادوا، الفارس الشهير أول من تسلَّق قلعة الحامة فكان يومًا شديدًا على الإِسبانيول.

(١) لقلها وقر فيها، واسترَّ.

(٢) ليلس.

(٣) مفريدها نجد: الطريق المرتفع.

(٤) دارك الشيء دراكًا، أتبع بعينه لبعض.

(٥) هنا بمعنى ذئاب.

(٦) الواحدة من الغنم.

## - القتال المرير من جديد -

ومن ثمة أصبح الكفاح بين الفريقين، بأس المرء من الحياة، ومبايعة الأرواح في أسواق المنايا، وتهالكت المقاتلة وتكالب الجند بعضهم على بعض، وشرع حامد يرمم المتهدم من أسوار المدينة، حتّى أنه عزم على بناء ست سفن حراقات بقصد الهجوم على أسطول الإسبانول، وأمّا الملك والملكة فاستجلبا الذخائر والأقوات من جميع مدن إسبانيا، وأمرا ببناء أبراج من الخشب يسع الواحد منها مائة مقاتل تمشي على دواليب، ولها سلالم لأجل التسور<sup>(١)</sup> والنزول، وعقبا ذلك بحفر الخنادق ونقب الأسوار، وحشرا لهذه الغاية الفعلة والصتاع، واستكثرا من العدة والآلة، وقام العمل على قدم وساق، وحامد لا يترك للمحاصرين راحة ولا يمهلمهم فوآقا<sup>(٢)</sup>، بل يغاديهم النزال، ويراوهم، حتّى ملّوا وامتلأت الخيام بالجرحى والمرضى، ثمّ لم يلبث أهل مالقة أن اكتشفوا الحفر التي أداروها على جدران المدينة، فحفروا بإزائها ونقبوا تحت الأرض إلى أن اتّصل بعضها ببعض، فكان الفعلة يتلاقون من المسلمين والنصارى في تلك الدهاليز، ويتصارعون في بطن الأرض صراعهم فوق ظهرها، إلّا أنّ الظهور كان للمسلمين هناك دائما، وكان الإسبانول يخرجون من أخاديدهم مدحورين ويُهال<sup>(٣)</sup> على ما حفروه.

## - تفضي الجوع في مالقة -

ثمّ تجمّع المحصورون، وحملوا من البحر والبرّ حملة واحدة، واستمرّ القتال ست ساعات فلم يكشفوا العدو، وعادوا إلى مراكزهم، وكان الجوع قد فشا في مالقة، وانقطع عنها المدد وسُدّت دونها المسالك، وفنيت في أمرائها الغلال، فاشتدّ الضيق بالناس، واجتمعوا عند علي دردوق، وأجمعوا على مراسلة الطاغية، في أمر التسليم بشرط الأمان، عل النفوس والنفائس، وأنفذوا بالرسالة رجلا، آب إليهم بجواب شافٍ طبّق ما يشتهون، فشرع به أصحاب حامد فرشقوه بالسهم فأصيب وانهمز صوب مخيم الإسبانول.

## - الزل يسير جيشا لنجدة مالقة حينهزم أمام ابن أخيه -

هذا ولما رأى أهل وادي آش ما حلّ بأهل مالقة من الضيق، سألوا السلطان الزغل

(١) قنسلق، تقول: تسور الحائط، والسرور: صمد عليه.

(٢) القصير من الوقت، وقصد بها: لم يترك لهم فرصة لانتقاط أنفاسهم.

(٣) صبة.

المُسَيَّر لنجدهم. فساعدهم فيه، وحشد جيشًا وجَهَّز له ما يلزم، وبلغ ذلك السلطان أبا عبد الله ابن أخيه، فأرسل جيشًا لمعارضة جيش عمه في الطريق إثباتًا لأمانته وتأكيدًا لصداقته للملوك النصارى، ولم تأخذه رافةً بأبناء جلدته<sup>(١)</sup>، وقضى الله بظهور أصحاب أبي عبد الله الملقَّب بالشقي، فقفَل جيش الزغل إلى وادي آش، وفرح أبو عبد الله فرحًا جزيلًا بهذه النصره، وبعث بالبشائر مع تفصيل الواقعة إلى فرديناند وإيزابيلا، وأسنى الهدية فجوابه شكرًا وتمجيدًا، وظنَّ أنه قضى بذلك وطرًا، لكنَّه أوغَر<sup>(٢)</sup> عليه بهذه الفعلة قلوب المسلمين، فمال عنه كثير من حزبه وخاف على نفسه، فأرسل يستمدُّ فرديناند فأمدَّه بألف فارس وعشرة آلاف راجل لأجل حراسته. لعمرى جدير بملك كهذا أن يكون آخرًا للملوك قومه.

وفي هاتيك المدَّة، وصل وفد من مَلِك تِلْمَسَان إلى فرديناند وإيزابيلا بهدايا فاخرة، وقد تضمَّنت رسالتهم الكلام في شأن أهل مَالْقَة فاستقبل الملك وامرأته ذلك الوفد برًّا وترحيبًا واقتصرا على ذلك، واشتدَّ الجوع بأهل مَالْقَة، وأكلوا الخيل وهلك منهم سغبًا<sup>(٣)</sup> خلق كثير.

#### - النجادات تترى<sup>(٤)</sup> إلى مَالْقَة وإلى فرديناند

ثمَّ ظهر من وادي آش رجل يُدعى بأبراهيم، ويُلقَّب بالصانتو، أي الولي؛ فلمَّا رأى رجوع عساكر الزغل عن نجدة مَالْقَة، أخذ يطوف في أسواق وادي آش مناديًا، إنَّ الله أوحى إليه كيفية خلاص مَالْقَة فسألوه عن كيفية خلاص مَالْقَة، فاجتمع حوله أربعمائة رجل من أولي النجدة وساروا بصحبته إلى تلك المدينة، فرأوا أوفق مكان للدخول جهة معسكر المريكز صاحب قادس، فهجموا عليه، فمَنَعهم من قتل الخفراء. ومنهم من ألقى بنفسه في البحر، ثمَّ تَسَوَّر جدران البلدة فبلغ منهم مائتان المدينة وانهمز الباقون.

أمَّا الصانتو فلم يَغشَّ الكريهة<sup>(٥)</sup>، بل دَلَّف إليه الإِسبانيول، فوجدوه ساجدًا قانتًا لا يتحرَّك، فأخذه إلى المريكز فسأله عن حاله، فأجابه إنَّه وليَّ الله وإنَّ الله تعالى قد كاشفه بفتح مدينة مَالْقَة، فسأله عن كيفية ذلك فأجابه إنَّه نُهي عن كشف ذلك السرِّ، إلَّا للملوك، فأرسله المريكز إلى الملك والمملكة وكان فرديناند قد طعم<sup>(٦)</sup> ونام، فلم يَنْهوه، وقادوا المغربي

(١) نَوَّر قومه.

(٢) وَغَرَّ عليه صدره، توفَّقه عليه من الغيظ.

(٣) الجوع الشديد.

(٤) متواصلة.

(٥) دَخَلَ بالمركة.

(٦) تناول طعامه.

إلى سُرادق المركيزة موياء والدوق ألفارو دو برتغال، فتشابه هذان عليه بالملك والملكة لما رأى من إجلال الجند لهما، وما شاهد من الرّياش<sup>(١)</sup> الفاخر في فسطاطهما<sup>(٢)</sup> فطلب ماء ليشرب، وبينما هو يمدّ يده لتناول القدح، إذ استلّ من تحت جنبه شفرة فاجأ بها الدوق بضربة فصرعه، ثمّ أراد أن ينثي على المركيزة فأخطأها، ووقع خنجره في نضائد الديباج<sup>(٣)</sup>، فوثب عليه الجند وقتلوه، وأفحشوا المثلثة<sup>(٤)</sup> في جسده، وطرحوه إلى أهل مالقة، فأخذها غمارة، وغسلوها ودفنوها بكلّ إكرام، ثمّ ذبحوا أحد كبراء الإسبانول المأسورين عنده، وناطوا جثته بذيول حمار وسرحوه بها إلى معسكر المسيحيين.

فارتاب النصرارى من ذلك، وزادوا عدّة الحرس على فسطاط الملوك، وأمروا جميع المدجّنين أي المغاربة الخاضعين، بالانصراف من المعسكر، ولم يمتّ ابراهيم الولي حتّى قام في مالقة وليّ آخر وأدعى مثل دعواه، ونشر راية، وفرمها حامد فوق الأبراج تشديداً للمحصورين.

وفي تلك المدة حضرت النجيدات الوافرة لمعسكر الطاغية، فكان ما ورد من قبّل دوق مدينة سيدونيا، ما خلا الجيوش، مائة سفينة دخلت جون مالقة مؤقّرة<sup>(٥)</sup> بالميرة<sup>(٦)</sup> والكراع<sup>(٧)</sup>، وأكثر من عشرين ألف ذهب من النقود، وعند ذلك راجعت الملكة أهل مالقة في أمر التسليم، فرفض حامد كلّ الرّفص ومنع انعقاد الصلح، فعزم المسيحيون على الحملة العامّة والوقعة الفاصلة.

وكان عند المدينة جسر ذو أربع قناطر، على كلّ من طرفيه برج شاهق، فتولّى قائد المدفعية الأكبر فرنسيسكو راميرز افتتاحه فحفر أخذوداً تحت الأرض وجعل منه مسرباً إلى البرجين، وتقدّم بالجيش ووضع البارود في الأخدود، وقذف بنيران المدافع فأصاب الشرر أثناء المعركة البارود الذي في الدهليز فخرت طائفة من البرج وقُتل من حُماته جماعة، وفرّ البقية فاستولى عليه الإسبانول وناشبو الحصن الثاني.

(١) اللباس الفاخر.

(٢) السرداق من الأبنية، مجازاً: القصر.

(٣) وسائل الحرير.

(٤) (بالضم): التنكيل والمعقوبة.

(٥) محمّلة ثقيلاً.

(٦) الطعام.

(٧) الخيل والبنغال والحمير، وهنا، نوع من دواسم قطعام.

## القتال الأخير وسقوط مائقة

وكان الجوع قد عضَّ أهل مائقة بنابه، حتَّى طلبوا لحم الخيل فلم يجدوه، فأكلوا الجلود وطبخوا الورق بالزيت، وهلك منهم خلق كثير، والتجأ جماعة إلى معسكر النصارى، مؤثرين الرِّقَ على الموت جوعاً، فعند ذلك توجه علي دردوق وجماعة من أعيان البلدة إلى حامد، فوجدوا عنده الدرويش، المارَّ الذكر، فقالوا له إننا نتوسَّل إليك بالله وبرسوله أن لا تُصرَّ على مقاومة عقيمة من الجدوى، فإنَّ أسوارنا دون أسوار رُنْدَة وقد تهدمت رُنْدَة.

وإنَّ رجالنا ليسوا بأشدَّ من رجال تُوَيْسَة وقد سلَّمت تُوَيْسَة، وليس لنا في غرناطة كبير أمل، فإنَّ سلطانها أبا عبد الله تابع للملك النصارى، وإنَّ الزغل عمَّه طريد منها شريد في وادي آش، فما ننتظر، ونساونا وأطفالنا يهلكون أماناً جوعاً، فأجابهم حامد علينا بعد، هجمة أخيرة، فلا تثبطوا عزائمنا عنها، وخرج في اليوم الثاني رافعاً راية الدرويش ووراءه ابراهيم الزناتي، وجماعة غمارة، ورثب المصاف وصعد النساء والأولاد على أعالي الأبراج لمشاهدة الواقعة الأخيرة وتزاحفت الصفوف وجاءت الهجمة على معسكر صاحب قلعة رباح، ومعسكر سانتياغو فصدَّق المسلمون الحملة، وهبَّت الريح المبشرة، فخفقت لها راية الدرويش، وحمي الوطيس، وتسابقت غمارة إلى تسنُّم الحجة، وقاتلت بما يُعرف من بأسها وصدق جلادها فانكشف الإسبانول، وطاردهم المغاربة بالقتل والأسر، وأذرعوا الفتك، فوقع الرعب في قلوبهم، وتداعوا من كلِّ ناحية للفرار، وبينما الأمر كذلك إذ خرَّ الدرويش صريعاً بحجر أصابه، وسقطت الراية فتطير<sup>(١)</sup> المسلمون، ونزل بهم الهلع، ورجعوا أدراجهم، فلمَّا رأهم النساء مُذبرين<sup>(٢)</sup> ارتفع عويلهنَّ وناذرنَّ بالويل والشبور، ولبت حامد سائراً إلى معقله مع قومه الغماريين، وانقطع أمل المالكين، وعولوا على التسليم فراسلوا الملك ملتمسين الأمان على النفوس والنفاس، فلم يجابوا إليه وقيل لهم إنَّ أيام الرأفة قد مضت، فراجعوا في ذلك فأجيبوا بالإعراض أيضاً، حينئذ أرسلوا إلى الملك يقولون له إنَّهم عزموا أن يشنقوا ألفاً وخمسمائة أسير مسيحي فوق السور، ويجمعوا نساءهم وذريتهم في القلعة ويحرقوا البلد ويخرجوا منه بالسيف مقاتلين إلى آخر نفس من حياتهم، فعندها حسبوا لذلك حساباً، ورضوا منهم التسليم على ذلك الشرط، ودخلوا

(١) تشام، من "طيرة".

(٢) ما هنا بمعنى هارب، فالرَّ.

مأقّة وتبوأوا الحصون، وبقي الزغبى ممتنعاً في مكانه، إلا أن جماعته جَنَحُوا إلى التسليم من الجوع. والتزم أن يتابعهم فبعث إلى فرديناند بذلك فأجابه إنه لا يناله إلا ما ينال أهل مأقّة، فلماً استسلم غدر به، وأخذ هو وأصحابه أرقاء، وحينما سأله عن سبب مقاومته الشديدة أجابه، أقسمت أن أجاهد في سبيل ديني ووطني وسلطاني ولو طاعوني جندي ما أسلمت السلاح أبداً، فغضب الطاغية وأمر به فحُمِل على الأدهم.

### - فرديناند يدخل إلى مأقّة ويحوّل مسجدها إلى كنيسة

وعندما دخل مأقّة حوّل المسجد الأعظم كنيسة، وأقام بالقصبة، وأقامت الملكة بجبل فارة، وبعد فتح المدينة أطاع غربي البلاد كلّها، وخُصِدَت شوكة أهلها<sup>(١)</sup>، وجُدع<sup>(٢)</sup> مارن<sup>(٣)</sup> عزّمهم<sup>(٤)</sup>، وسكنت سورة بأسهم<sup>(٥)</sup>، وأمّا السلطان أبو عبد الله فبعث يهتئ الملك والملكة بهذا الفتح، ولم يكن هذا المسكين يدعُ فرصة لإظهار أمانته إلاّ ويتنزهها، فلم تنفعه تلك الأمانة إلاّ حينما كان مظاهراً للطاغية على عمّه، وللإسبانيول على قومه، حتّى إذا خارت قوى مناظريه واستسلموا إلى العدو، وظنّ الأمر قد استتبّ له، نزلت الصاعقة على رأسه، وأخذ من حيث كان يرجو الأمن، وخُتِمَ به ملك آبائه، وشقيت مئات من الألوف بشقائه، ولم ينبجُ من المحنة سكان البيازين الذين ظاهروه على غيّه، وشاركوه في فساد سعيه.

وتأمل في ما قال المقرئ بشأن حصار مأقّة، تجده منطبقاً على الرواية الفرنجية لولا شدة الاختصار قال: "وكان أهل مأقّة قد دخلوا في الصلح وأطاعوا صاحب البيازين، وأتى إليها النصرارى بالميرة، ولماً نزل بلّش، بعثوا هدية لصاحب قشتالة مع قائدهم وزير صاحب البيازين، وقائد شريش، الذي كان مأسوراً عندهم فلم يلتفت إليهم صاحب قشتالة، لقيام جبل فارة وهو حصن مأقّة بدعوة صاحب وادي آش، وارتحل صاحب قشتالة إلى مأقّة، ونازلها برّاً وبحراً، وقتله أهلها قتالاً عظيماً بمدافعهم وعدتهم وخيلهم ورجلهم، وطال الحصار، حتّى أداروا على مأقّة الخنادق من البرّ، والسور والأجفان<sup>(٦)</sup> من البحر، ومُنِعَ

(١) خضد الشوك: قطعه، والشوكة: القوّة والباس. "وخضد شوكتهم": كسرهم وأخضعهم.

(٢) الجُدع: (لُتنة) قطع الأنف.

(٣) طَرَفَ الأنف: أو ما لأنّ من طَرَفِهِ.

(٤) الأثمة والحميّة، والمعنى (لأنه أرغم لثقتهم وأذلّهم بعد عزّة).

(٥) سورة بأسهم: السورة أثر الحميد، وعلامته وارتشاعه، وسورة السلطان: سطوته. والسورة: المنزلة والشرف. والباس القوّة والشدة. والمعنى:

هدلت صوتهم وسكنت قوتهم.

(٦) السفن والمراقبة. (لمولدة). كقولها: لرسل العيون، أي الجواسيس.

الداخل إليها، ولم يدخلها غير جماعة من المرابطين حال الحصار، وحاربوا حرباً شديداً وقربوا المدافع، ودخلوا الأرباض، وضيقوا عليهم بالحصار إلى أن فني ما عندهم من الطعام، فأكلوا المواشي والخيل والحمير، وبعثوا الكتب للعدوتين، وهم طامعون في الإغاثة، فلم يأت إليهم أحد (ولكن عهدى بالنضال قديم) وأثر فيهم الجوع، وفشا في أهل نجدتهم القتل، ولم يُظهروا مع ذلك هَلَعًا ولا ضعفاً، إلى أن ضعف حالهم، ويشوا من ناصر أو مغيث من البرّ والبحر، فتكلموا مع النصارى في الأمان كما وقع ممن سواهم، فعوتبوا على ما صدر منهم، وما وقع من الجفاء، وقيل لهم لَمَّا تحقّق العدو التجاهم: تُؤْمِنُونَ مِنَ الْمَوْتِ وَتُعْطُونَ مِفْتَاحَ الْقَلْعَةِ وَالْحَصْنَ، وَالسُّلْطَانَ مَا يَعْمَلُكُمْ إِلَّا بِالْخَيْرِ، إِذَا فَعَلْتُمْ، وَهَذَا خِدَاعٌ فَلَمَّا تَمَكَّنَ الْعَدُوُّ مِنْهُمْ أَخَذَهُمْ أَسْرَى، وَذَلِكَ أَوَّخِرَ شَعْبَانَ سَنَةِ اثْنَتَيْنِ وَتِسْعِينَ وَثَمَانِمِائَةَ، وَلَمْ يَبْقَ فِي تِلْكَ الْأَنْوَاحِ مَوْضِعٌ إِلَّا وَمَلِكُهُ النَّصَارَى“ انتهى.

### - كَرَّةُ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ الزُّغَلِ

وفي هاتيك الأيام، خرج الزغل بمساكره من وادي آش منقّصاً كالصاعقة على الإسبانيول، فأجلب على الأطراف، وشنّ الغارات في البساتط، وقتل وأتخن وسبى وغنم، وعاد بالأسرى والغنائم إلى وادي آش، ثمّ جمع فرديناند حشوده كلّها في مُرْسِيَةِ فِي ربيع ١٤٨٨، وزحف بها على ديار الإسلام، فدخل في طاعته نحو ستين بلدة، إلاّ المُرْسِيَةَ، فإنّ سالماً قائدها هزم جيوش الطاغية، فمال إلى بسطة، وكان الزغل قد وصل إليها، ووضع كميناً في واديهما، فزحفت طلائع الإِسبَانِيُولِ فصدّمتها الزغل صدمة رثبال، وبعد مقاتلة شديدة أخذ يتقهقر حتّى أصبح الكمين من ورائها، فلَمَّا حصلت بين الجيشين كَرَّةُ الزُّغَلِ مِنْ نَاحِيَةِ، وَالنَّفَرِ الْكَاْمِنُونَ مِنْ أُخْرَى، وَانْقَصَوْا عَلَى الْإِسبَانِيُولِ انْقِضَاضَ النَّسُورِ، فَأَفْهَمَ بَحْدَ السِّيفِ، وَلَمْ يَسْلَمْ مِنْهُمْ إِلَّا الطَّوِيلُ الْعَمْرُ، فَقَدِمَ الْمَلِكُ فَرْدِينَانْدَ لِلْكَرَّةِ، فَصَدَّمَهُ الزُّغَلُ صَدْمَةً جَدِيدَةً، وَعَلَا الصِّيَاحُ فِي الرَّبِيِّ وَالْوَهَادِ "الزُّغَلُ الزُّغَلُ"، فَهَلَعَتْ قُلُوبُ الْإِسبَانِيُولِ، فَانْهَزَمُوا، وَمِنْحُوا الْقَوْمَ أَكْثَافَهُمْ، فَتَعَقَّبَهُمُ الْمَغَارِبَةُ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ، فَأَهْلَكُوا مِنْهُمْ خَلْقًا كَثِيرًا وَأَجَلَّتِ الْوَاقِعَةُ عَنِ مِصْرَعِ الدُّونِ فِيلِيبِ الْأَرْغَوَانِي، مِنْ كِبَارِ أَمْرَاءِ إِسبَانِيَةَ، وَغَيْرِهِ مِنَ الْأَمْرَاءِ، وَلَمْ يَرْجِعِ الزُّغَلُ عَنْهُمْ حَتَّى وَافَاهُمُ الْمَدَدُ، فَانْصَاعَ فَرْدِينَانْدَ إِلَى نَهْرِ قَرِيبٍ، وَفَرَّقَ كِتَابَهُ عَلَى الْمَدِينِ وَالْحَصُونِ، فَخَرَجَ الزُّغَلُ، وَدَهَمَ هَذِهِ الْمَدِينُ فَلَمْ يَدَعْ فِيهَا إِسبَانِيُولِيًّا فِيهِ عَيْنٌ تَطَّرَفُ وَأَفْنَى خَلَاتِقٌ لَا تُحْصَى فِي قَلْعَةِ نَزَارِ.

وكان قائد قلعة قنار، معتمداً على متانة جدرانها، ومركزه من قمة الجبل. محاطاً بالأهاوي<sup>(١)</sup> والأودية، فغاب عنها، فدهمها الزغل والسيف مشهور بيده، فانهزم الإسبانول من وجهه ولاذوا طراً بالحصن، وكان لهم قائد مقدم اسمُه جوان دو أفلوا، فأحسن البلاء، وأحكم التدبير فلم يتمكن الزغل من الحصن، فأدار حوله الخنادق، وهدم جانباً من السور، وأوشك أن يدخل الحصن عنوةً، لولا ما أمطروه من النُشاب والحجارة، وقذفوا عليه من الأنفاط والزفت، وبقي القتال خمسة أيام متوالية لم يسيغوا فيها الريق<sup>(٢)</sup>، حتّى يشت الحامية ومالت إلى التسليم، فأنذرهم القائد بأنّ الزغل يُفحش فيهم العقوبة والانتقام بما هو معهود من قسوته، فاعتبروا قوله وفضّلوا الموت تحت الحصار على الموت صبراً بين يديّ العدو، وما زالوا في الصنك<sup>(٣)</sup>، إلى أن نفس من خناقهم بوير تودو كيريو، بنجدة وافرة فأحرق الزغل المدينة وقفل إلى وادي آش.

### - غارات المسلمين في بلاد الإسبانول

ثم إن مغاربة المريّة وطبرنة، وبرُسنّة، خرجوا وأغاروا على مُرسية وجهاتها، ونار كثير من المغاربة الذين عاهدوا العدو، وفي هاتيك الأيام هطلت أمطار غزيرة وجاءت سيول جارفة، هدمت كثيراً من البيان في مملكتي قشتالة وأراغون، واشتدت عواصف البحر فتحطم كثير من السفن.

### - حصار بسنطة

ولمّا أقبل ربيع سنة ١٤٨٩، عرض فرديناند جيوشه في جيان، فبلغت ١٣ ألف فارس و٤٠ ألف راجل، فزحف بها قاصداً مدينة بسنطة، موطناً نفسه على إبادة ملك الزغل، فأعدّ الزغل قوته لمصادمته، لكنّه لم يتجرأ أن ينهد إليه بنفسه خوفاً من أن يشدّ عليه ابن أخيه من الوراء فيقع بين عدوين كبيرين ليس أدناهما إليه بالأقلّ عدواناً، فسرح إلى بسنطة جميع الأجناد التي يستغني عنها في وادي الآشات، واستنفر العامة إلى الجهاد فامتلات برُسنّة، وطبرنة، وقلاع البشرات، بالخيّل والرّجل، ورنت الأودية بقعقة السلاح وصليل<sup>(٤)</sup>

(١) جمع الجمع لهوا، وكذلك للوهدة العميقة (أهوية).

(٢) لم يسيغوا فيها الريق: كناية عن أنهم لم يُطعموا شيئاً.

(٣) الضيق.

(٤) صوت وقع الحديد، بعضه على بعض، وغلّب صوت وقع السيف مطلقاً.

البوارق<sup>(١)</sup>، وكان ابن الزغل سيدي يحيى الناصر بن سالم، في المرية، وكان قائداً مجرباً مقداماً، وللزغل فيه مزيد الثقة، فاستدعاه من مكانه وأرسله إلى بسطة، بعشرة آلاف من شجعان المغاربة، فتقوّت بسطة بهذا العدد، وبلغ مقاتلتها عشرين ألفاً، عليهم ثلاثة من أكابر قوّاد الأندلس الأول محمّد بن حسن، من أبطال عصره المشاهير، والثاني حامد أبو حلى قائد الجند المحيّم ببسطة، والثالث قائد قيجار، وكان من رؤوس القوّاد وكانت القيادة العامة لسيدي يحيى، ولكن علوّ الرأي كان لمحمّد بن حسن لمزيد خبرته وبلائه، وسداد آرائه وأنحائه.

وبسطة بلدة حصينة، واقعة في وادٍ خصيب متّسع الأجزاء، طوله ثمانى مراحل<sup>(٢)</sup>، وعرضه ثلاث، يُسمّى الهوية، محاطة بسلسلة روابي اسمها جبل الكحل، ويسيل في واديهما نهران يسقيان أرضها، والمدينة مبنية في السهل، لكنّها محصّنة من أحد طرفيها بوعر الجبل وبقلعة متينة، ومن الطرف الآخر بسور مكين عليه أبراج شاهقة، ولها ريبض إلى جهة السهل فيه حصون وأبراج، وفي مقدّمة هذا الريبض غوطة أشجار، مسافتها مرحلة، مشتبكة السرح<sup>(٣)</sup>، فينانة الدوح<sup>(٤)</sup>! كأنها أجمة واحدة تدور عليها المياه بأقنية متشعبة، تسقي جميع غياضها، وفيها مئات من الأبراج متفرّقة في البساتين، فكانت هذه الغوطة بما فيها من اشتباك الشجر، وكثرة مجاري المياه، وعدد الأبراج والحصون، تجعل مُقرب تلك المدينة في غاية الصعوبة.

### - أهالي بسطة يتأهبون للقتال والحصار الطويل

ف عندما قصد جيش الطاغية نزال بسطة، أخذ أهلها يتأهبون للمقاومة، ويعدّون ما استطاعوا من قوّة، فحصدوا زروعهم قبل أن يستفرك<sup>(٥)</sup> الحبّ في السنبلّة، وادّخروا لمؤنّتهم جميع ما وصلت إليه أيديهم، فكنت ترى أقاطيع المواشي تباعاً، داخلة من الأبواب، والبهائم موقرة<sup>(٦)</sup> أحمالاً من المون، والميرة، والسلاح، والكرع، من كلّ نوع،

(١) جمع البارق، وهنا السيف.

(٢) مفردها مرحلة، وهي المسافة التي يقطعها المسافر في يوم.

(٣) شجر له ثمر، لا شوك فيه، وقيل كلّ شجر طال.

(٤) هي الحسنة الشجر الطويلة. / أي أنّ الأشجار كثيفة الأغصان.

(٥) يسمن ويشتدّ.

(٦) محمّلة.

فيمكن أن يقال على وجه التقريب إنَّ بسْطَةَ أخذت عدَّة الحصار خمسين شهرًا، ولمَّا أناخت عساكر فرديناند بساحة الموقع، اشتدَّت الحركة في البلدة، وازدادت الجَلْبَة من قرع الطبول وتقليب السلاح، وجاء فرديناند فضرب خيامه في الوادي بين البساتين، وبعث إلى أهل المدينة يدعوهم إلى التسليم على شروط موافقة لهم، إن انقادوا إلى ذلك منذ البداية، ويؤكد لهم أنه لا يرفع الحصار ولا يُفرج عن البلدة أبدًا حتَّى يتمكَّن منها، فعقد قواد المغاربة مجلسًا حربيًّا وتشاوروا في ما يجاوبون به ملك الإسبانيول، وكان سيدي يحيى قد استاء من إنذار فرديناند فأراد أن يجاوبه بأنَّ حامية بسْطَةَ لا تُسلم أبدًا، ولكنها تقاتله حتَّى تفنى جميعًا تحت أنقاض السور، فأجابه محمَّد بن حسن أن لا فائدة لنا من هذا الجواب، فلنجهد أن يكون في فعلنا ما يُنقِص إعلان الطاغية، وأن تزيد فصاحة العمل على فصاحة القول، وهكذا فقد أرسلوا إلى الملك فرديناند جوابًا في غاية اللطف والإيجاز يشكرونه فيه على عرضه التسليم بشروط خفيفة، لكن يعتذرون له عن الرفض بكونهم أوتمنا على المدينة ليحافظوا عليها لا ليسلموها.

#### - الحرب والقتال الشديد

ف عندما أخذ الملك جواهم شحذ غرار العزيمة<sup>(١)</sup>، وعوَّل على التضيق والأخذ بالمُحْتَق، فتقدَّم بحملته صوب السور لأجل تمكين المحرقات من البلدة، وأوجف<sup>(٢)</sup> بخيله ورجله، وتغلغل الإسبانيول في البساتين ليَتَّخذوا مركزًا يمنعون فيه المغاربة من الخروج، وانتشروا في أطرافها، وكان الشبان الأغرار منهم، متقدمين، كأنما يوفضون<sup>(٣)</sup> إلى أعراس، إلا أنَّ أهل الحنكة والتجربة كانوا يرون في كلِّ خطوة بين تلك الغياض خطرًا، وأمَّا صاحب صانتياغو فحثَّ أصحابه، وتقدَّم بهم ووعدهم عن الله بالنصر، وبينما هم على هذه الحال إذ ارتجَّت الأرجاء بقرع الطبول، وأصوات الهيجاء واندفعت فرقة من المغاربة يقودها سيدي يحيى بنفسه لصدَّ الإسبانيول عن التقدُّم، فالتقت الفتان في مشتبك تلك الغياض مُبَالِطَة<sup>(٤)</sup> بالسيوف، ومناضلة بالسهام، ومطاعنة بالحِراب، لكن طبيعة ميدان الحرب من جهة التفاف الشجر وتقطع البساتين بالأقنية وكثرة الأبراج والبيوت جعلت الريح للمغاربة

(١) شحذ غرار العزيمة: (كتابة) كقولك: حَفَذَ العزيمة، وصمَّم.

(٢) هنا وسار.

(٣) هنا وأسرع.

(٤) تقول تبالط القوم، أي: تجالندوا بالسيوف.

الذين كانوا يقاتلون مُشاةً، حالُ كون الإِسبانيول رُكبَانًا، زدَ على هذا كَوْن أولئك أخير بالأرض وثناياها وزواياها، وأذربَ على الكرّ والفرّ، فلمَّا رأى قوَاد الإِسبانيول ذلك أوعزوا إلى كثير من الخيالة أن يترجّلوا ويقاتلوا على أرجلهم، فعندها استحرّ<sup>(١)</sup> القتل وحمي الوطيس، ولم تكن معركة عامّة، بل مجتمع معارك متفرّقة، إذ كلّ بستان أصبح ميدانًا لمعركة، وكلّ روضة صارت موطنًا للنزال، وعاد كلٌّ من المقاتلة لا يبصر إلاّ الذي حواليه، ولا يعلم بالبعيد عنه، وعادت القيادة وقرع الطبول عبثًا، لأنّ كلاً من الجند مشغول بنفسه متجرّد لِقْرِنِه، وفي بعض الأماكن كان الإِسبانيول هم الظاهرين، وفي غيرها كان العلوّ للمغاربة، وربّما انهزمت فئة من وجه فئة فتبعتها فسقطت على فئة ظافرة، فانضمَّ إليها شمل المنهزمين وجدّدوا الكرّة، وقد يقصد بعضهم الفرار من شدّة الهول، فيقع في جهة ولا يدري إلاّ وهو فيهم، ذلك من عدم تمييز العدو من الصاحب في مشتبك تلك الغياض، وانصرف جهد كلّ من الفريقين إلى احتلال تلك الأبراج القائمة في وسط البساتين، ووضعت في كثير منها النار، فامتدّ الحريق وارتفع اللهب، وخرّت الجدران وعَلّت الأصوات كقيام الساعة<sup>(٢)</sup>، وازداد مشهد القتال هولاً وزوعًا. هذا وفرديناند ينتظر بذهاب الصبر نتيجة المصاف، وهو في غاية القلق والجزع، لا يعلم شيئًا ممَّا وراء هاتيك الأشجار الحاجبة لنور الشمس، فكان يسرّب البعوث والنجيدات، إلى المواقع التي يخشى فيها الدائرة على قومه، وأجلّت المعركة عن مهلك الدون جويان دولارة، من أفراد ناشئة الإِسبانيول وأعيانهم، وأحْبَبهم إلى قلب الملك، وكان قد اقترن حديثًا بالدوثة كاتالانية دو أوريا من أبداع فتيات عصرها.

وأما من الجهة الثانية فكان القائد محمّد بن حسن، وحوله جماعة من القوَاد مراقبين حركات القتال من فوق الأسوار مدّة اثنتي عشرة ساعة استمرّت فيها المناجزة<sup>(٣)</sup>، وكانت كثافة ورق الأشجار تحول دون رؤية التفاصيل فلم يكن يرى إلاّ بريق الخوذ<sup>(٤)</sup> ولا يلمح سوى لمعان النصال، ثمّ أخذت تفدّ الجرحى، فارتفع عويل النساء، وكانت ضجّة هائلة عند موصل جثة رضوان ذي الفرغى من مُتمسّلة النصارى الذي صار من أعظم قادة المسلمين، ثمّ أخذ المغاربة يتقهقرون إلى جهة المدينة، وأمر فرديناند بنقل خيامه إلى هاتيك

(١) اشتدّ.

(٢) يوم القيامة.

(٣) المقاتلة والمبارزة.

(٤) مفردا خوذة: مفغر من حديد بقي رأس المقاتل.

الجهة وعندها طار محمد بن حسن إلى نجدة سيدي يحيى، واجتهد أن يُزخِّح الإسبانول عن مراكزهم الجديدة، لكن هجوم الظلام، حال بينه وبين المرام، فوقف متربِّصاً مكانه ولم يدع للعدوِّ راحة الليل بطوله، ولمَّا أصبح الصباح كان مشهد القتال هائلاً فالأرض مغطاة بجثث القتلى، تنبئ بلسان حالها عمَّا احتملت من الحرب وأحوالها، وهكذا أصبحت تلك الخمائل وهاتيك الحدائق مجرى العوالي<sup>(١)</sup> ومجرى السوابق<sup>(٢)</sup>.

### - تراجع هرديناند وعزمه على الرحيل

ثمَّ إنَّ فرديناند أدرك حرج الموقف الذي ضرب فيه خيامه وشدة الخطر الحائق<sup>(٣)</sup>، فأجمع على تقويض خيامه منه، لكنَّهُ قدَّم طائفة من جيشه تُشَاغل العدوِّ إلى أن يتمكَّن من إعادة المعسكر إلى محلِّه الأول، فأغار سيدي يحيى بقوة جسيمة من الخيل والرجال فلم يُعزَّ من المعسكر بطائل يُذكَر، لكن رجوع المحلَّة إلى المكان الأول جعل المغاربة في منجاة من سوء عند الكرِّ والفرِّ نحو المدينة، فعقد الملك مجلساً مؤلِّفاً من كبار القادة، واستشار في ما يفعل، فأشار عليه مركيز قادس بترك الحصار، مؤقتاً، بزعمه أنَّ المدينة محصَّنة مكفِّية في الميرة والذخيرة والسلاح وعدد المقاتلة، لا يمكن افتتاحها الآن والجيش في تربُّصه أمامها مُعرَّض للمرض. وإذا جاء الشتاء تعذَّر القتال وسالت الأودية، وإنَّ من رأيه أن يعتاض عن الإصرار على منازل بَسْطَة، باجتياح الكورة وإفساد زرعها، وإطلاق الغارة على المدن والقرى المجاورة، إلى أن تكون تهيأت فرصة أخرى. وأمَّا الدون غوتيارو دو كردناس أمير لاره فذهب إلى أن رفع الحصار عن بَسْطَة يتخذهُ العدوُّ دليلاً على الضعف، ويزيد المغاربة جرأة ويستأسد به الزغل وربِّما يكون سبباً لانتقاض أهل غرناطة على أبي عبد الله وميلهم إليه فهو يرى الإفراج من سَفَهِ الرأي، وكان الملك متردِّداً بين أن يُقلع أو أن يقيم. تارة يتصوَّر المشاق التي ستحيط بعسكره، خصوصاً في جلب الذخيرة فيعوَّل على رأي صاحب قادس، وطوراً يتأمل في ما يترتَّب على الانصراف من استغلاظ أمر العدوِّ، فيميل إلى رأي أمير لاره، ويَلْعَجُ الجند ما كان من تشوُّر الملك، واهتمامه، وعزمه على الرحيل ضنًّا براحتهم، فقاموا يطلبون الإقامة في ساحة البلد إلى أن يتمَّ لهم فتحه، ولمَّا تضاربت الآراء

(١) الرماح.

(٢) الخيل.

(٣) أحاط به: أحاط.

بعث الملك يسأل الملكة رأيها بمكانها من جيان، وكانت بينهما بُرْدٌ<sup>(١)</sup> مُرْتَبَةٌ، ذات مراكز يقوم أصحاب كلِّ مركزٍ منها بقطع المسافة التي تخصه بحيث تصل الرسالة في عشر ساعات، فأجابته أنها تترك قضية الإقامة أو الظعن إلى رأي الملك ووزرائه، لكن في ما لو أريد الاستمرار تستعين الله في تقديم جميع ما يلزم للجيش من المؤونة والمال إلى أن تكون البلدة قد أطاعت، فأجمع حينئذٍ فرديناند على الإقامة، وعندما بلغ الجند عزيمة الملك ارتفع ضجيج السرور كأنهم أصابوا غنماً أو أحرزوا فتحاً.

### - فرديناند يهيد تنظيم جيشه -

وأتصل سيدي يحيى ما هو واقع من المراء<sup>(٢)</sup> في أمر الحصار، فعلّل النفس بالأمال، وترقب الفرج برحيل الملك لكن محمّد بن حسن لم يكن يصدّق ذلك، وإذا بحركة فجائية في صبيحة يوم كادت تحقّق رجاء سيدي يحيى، فإنّ الخيام قوّضت والآلة أنهضت، والمدافع تعاورها النقل، وخيّل أن قد شالت نعامة<sup>(٣)</sup> الإسبانيول وخمدت لهم بارقة النصر، وإذا بالطاغية قد قسّم جيشه شطرين فجعل مركز قانس على أربعة آلاف فارس وثمانية آلاف راجل، وأصحابه بالدون ألونزو دو أغيلار ولويس فرديناند روبرتو كريرو وغيرهما من مشاهير أبطالهم، وجعل معه المدافع، وسيّره إلى الجهة المقابلة للجبل واتخذ الملك لنفسه قيادة القسم الثاني وهو مؤلّف من ستة آلاف فارس، وجيش من المشاة كثيف، وعدد من الجبلين، واستظهر بجماعة من عظماء المملكة، مثل الكونت دو تنديلا وصاحب سانتياغو، فأقام كلّ فريق على طرف من البساتين. وضرب أوتاده هناك، فنظر محمّد بن حسن قائد بسطة فقال؛ أما إنّه لم يزل بينهما حاجز من الشجر، لكن لم يكد يخرج منه هذا القول حتّى ملأ الفضاء صوت انقمار الأشجار، وأعمل الإسبانيول الفأس فطارت قلوب المغاربة شعاعاً، بما أصاب بساتينهم وتصايحوا للممانعة دون القطع والتحطيم، فاشتبك القتال أياماً وتعدّدت الوقائع وانصلت الكرات، واستمات البشر دون الشجر، ورخصت الأرواح في سبيل الأدواح، واستمرّت المناوشات أربعين يوماً، تمكّن خلالها الإسبانيول من استئصال تلك الغياض وإبادة هاتيك النضرة بملاحقة العمل والصبر على هجمات العدو، وأزيل

(١) جمع شاذل "بريد": الرُّسُل، يتفلون الرسائل.

(٢) اللشك.

(٣) مثل يضرب للقوم، إذا رملوا عن متّهمهم ونفروا.

الحاجز الذي كان بين المحلّتين وعُظلت بَسْطَة من حلاها، وعريت في آن واحد من جَنَّة نزهتها وجَنَّة<sup>(١)</sup> وقايتها. ثمَّ جعل الإسبانول من إحدى المحلّتين إلى الثانية مرًّا، وضربوا دونه السدود، وربّوا مجاري المياه وبنوا الأبراج على الجوانب بحيث أصبح من المُحال أن يحال بين المحلّتين، ثمَّ طمع فرديناند في منع الماء عن بَسْطَة وقال بعض الإسبانول ثَمَّ أرخ الوقائع إنَّ الماء ضروري لهؤلاء أكثر من الخبز، لأنهم على اضطرارهم إليه لأجل الشرب، يحتاجون إليه لأجل الوضوء والغسل وإسقاط الجَنابة<sup>(٢)</sup> ثَمَّ تأمر به ديانتهم، ولا نحتاج إليه نحن الإسبانول. وكان لبَسْطَة عين تجري من قَمَّة «أبو الحسن» وراء البلدة وكانوا يتبركون بمائها، فلمَّا أحسوا بما أجمع عليه الإسبانول خرجوا تحت جناح الليل، وأقاموا عندها من الحصون ما يعصمها<sup>(٣)</sup> من كلِّ غارة.

وفي خلال هذا الحصار، خطر لبعض فتيان الإسبانول شنّ الغارة على نواحي وادي آش، وكان في مقدّمهم فرنسيكو دو بازان، وأنطونيو دو كويفا، فجمعا نحوًا من ثلاثمائة فارس ومثي راجل وسارا مسترين بجناح الليل، أخذين بشعاب الجبل، حتّى وافيا قرى الوادي قبل تحقّق الفجر، فأسروا مَنْ صادفوه من أهلها وانتهبوا مالها، وحطّموا زرعها، وساقوا نعمها، كلَّ ذلك في لحظة، وقفلوا غائمين قبل أن يشعر بهم أحد، فطار رعاة المواشي الذين خلصوا من شرّهم، وأعلموا بهم الزغل فسرح في أثرهم ستمائة من نخبة فرسانه ورجاله فأدركوهم في طريق انصرافهم، ولمّا التقت العين بالعين، وجد الإسبانول أنفسهم دونهم في العديد والقوّة، فتصوّروا ترك الغنيمة والرضى بالإياب، لكن فرنسيكو دو بازان، وأنطونيو دو كويفا، لم يوافقاهم على الفرار، بحجّة أنّ المشاة الذين معهما لو فروا لاستلحهم العدو، وأنّ المقاومة هي أنجي لهم في تلك الحال، فاختلفت الآراء بينهم وأراد القواد حسم النزاع فأمرّوا حامل الراية أن يتقدّم، فتوقّف وكاد القوم يولون الإدبار، فتقدّم فارس من الحرس الملكي اسمه هرناندو بيرز دلبلغار، قائد حصن سالار، ورفع مندبلاً كان متلقًا<sup>(٤)</sup> به على حسب عادة أهل الأندلس، وعقده برأس الحرّبة ونادى أصحابه، فدبّت الحميّة برووسهم وكروا بقلب واحد وصدقوا الحمّلة، فانكشف العدو دون انتظار، وقُتل

(١) الشّرة، وكلّ ما وقى من السلاح، كالدرع.

(٢) (لغة وشرعًا): التنجس، وجب إسقاطه قبل الصلاة.

(٣) يقيها.

(٤) الرجل بالثوب، اشتمل به وتغطّى.

نحو ثلاثمائة من المغاربة، وأسروا جماعة وقفلوا ظافرين فكافأ الملك هرناندو المذكور بلقب فارس، وأجاز له رفع ذلك المنديل في مواطن قتاله.

### - الزغل يعجز عن إمداد بسطة خوفاً من ابن أخيه

وبينما كان الزغل ينتظر إياب أصحابه بالغنيمة، إذ رآهم راجعين فرقا، مغلوبين حزقا<sup>(١)</sup>، فرأى الأقدار معاكسة له والدهر قد قلب ظهر الميجن<sup>(٢)</sup>، بما كان يترامى إليه من أخبار بسطة، وهلاك قسم كبير من حاميتها، واشتداد الكظام بأهلها، ولم يكن في وسعه أن يخف إليها بذاته، خوفاً من أن يقتحم تلك الفرجة ابن أخيه من غرناطة، فيسلبه ملكه، فكان يبعث إليها بالمدد بعد المدد، لكن الإسبانول كانوا يلاقون الأمداد فيقلونها قبل الوصول إلى المدينة، مع ذلك بقيت حالته أجمل من حالة ابن أخيه السلطان أبي عبد الله، لأنه حفظ لنفسه هيبه سلطان ذي صولة وصاحب دولة.

وأما ابن أخيه فكان ملكاً تابعاً للملوك قشتالة، وحزب القتال في غرناطة لم يكن ليساوي بين المجاهد المرابط المठाغر، والخائن الخاضع الخانع لغير أهل الدين، وأخبار بسطة كل يوم تنكا قلوبهم، وتفت في أعضادهم، حتى تمست المراسلات في ما بينهم في الوثوب على الحمراء وقتل أبي عبد الله، والنفور من غرناطة حزباً واحداً إلى وادي آش، ومنها إلى بسطة للإفراج عن المحصورين، لكن لحسن بخت أبي عبد الله، وسوء طالع الأندلس، عُرف هذا الملك بالمكيدة فضرب أعناق رؤساء الحركة، ورفع رؤوسهم فوق جدران الحمراء، فأنزل بذلك الرعب في القلوب، ولم يبق في غرناطة عرق ينبض لثورة، وأحسن فرديناند بما كان في عزم الغرناطين فازداد حذره، وضاعف القوة، ووضع المحارس، وبيث العيون والرواد، وأخذ يظهر لأهل بسطة كل يوم من القوة بمظهر جديد، وهم ينتظرون النجدة، ولا يحضر لصريخهم أحد، حتى يشسوا، وغلب عليهم القنوط، فأراد محمّد بن حسن أن ينبّه عزائمهم، ويحيي آمالهم، فقال لسيدي يحيى: "يلزم أن نُظهر للعدو أننا لم نهن، ولم نزل على عزمنا وقوتنا". فجمعا جيوشهما، وخرجا بقوة عظيمة، فالتقاهما فرديناند بجموعه، وهذرت طبول الحرب، وتزاحفت الصفوف من كل جانب، واستماتت كتائب المسلمين، فانكشف الإسبانول، ووقع الخلل في مصافهم، ولم تتم عليهم

(١) الحزق: الحزاق: من لا يملك أمر نفسه في سرعة المشي.

(٢) الميجن (صموئيل). وهو مثل يضرب لمن كان لصاحبه على مودة ورعاية، ثم حال عن العهد.

الهمزة لوفرة أعدادهم، وسعة محلّتهم، فقفل المسلمون بالغنائم، ودخلوا البلد ظافرين، ومن ثمة أخذوا يرسلون الجنود من جهة الجبل، فيهبطون السهل كالمح البصر، ويتغنمون المواشي ويعودون بها إلى بسطة، وجرى خلال ذلك وقائع متفرقة شديدة، امتاز فيها بين الأقران الدون ألونزو دو أغيلار.

ومّا يروى، أنّ أحد فرسان الإسبانول المسمّى مارتين غالندو، شاهد لمغيب الشمس، فارساً مغريباً شديد الصولة باهر الفتك، يحمل على الإسبانول فلا يقف في وجهه فارس إلا جدّله<sup>(١)</sup>، ولا يساوره قرن إلا صرعه، فتصدى غالندو لبرازه، فتصاولا وتجاولا ساعة، فجرح المغربي في وجهه، وانقلب عن سهوته فقبل أن يقحم الإسبانولي جواده ليفتك به، كان المغربي نهض على رجليه واستلّ حربته فأعجله بجرح في رأسه، ومع كونه على رجليه وكون قرنه راكباً، كاد لشدة بأسه وخفة حركته يورده حتفه لولا إسراع رفاق للإسبانولي بنجدته، فعندها أخذ المغربي يتقهقر رويداً رويداً إلى أن صار بين أصحابه فُشّل عنه فإذا به من عشيرة بني سراج. ولمّا كان الوجه في أكثر هذه المبارزات الفردية للمغاربة، شدّد الطاغية في منع قومه عن قبول هذا البراز، وحظّر عليهم المناوشات الخاصة لعلمه اليقين أنّ المغاربة أقوم من كلّ شعب في الأرض على هذا النوع من القتال، وأنهم أدري بالأرض وأهدى فيها سبيلاً.

#### - إنذار سلطان مصر إلى هرديناند

قالوا: وبينما كان الإسبانول يحصرون بسطة، إذ شوهد في المعسكر اثنان من أجلاء رهبان الفرنسيسكان: الواحد منهما ذو هيئة وهيئة ووقار عظيم، راكب جواداً كريماً بسرّج مذهب، والآخر متصاغر متضائل يسمّى وراء الأول راكباً رمكة<sup>(٢)</sup> بسرّج خالٍ من الزينة، وكان دائماً مطرّقاً في الأرض، ماشياً القصد، خافض الجناح، فلمّا شوهد هذان القسيسان في الجيش تكلم الناس في مجيئهما، على أنه كان معهوداً حضور الرهبان في هاتيك الحروب المقدّسة، فطالما اجتمعت الخوذة والقلنسوة تحت راية واحدة، فظنّ من البداية أنهما من الرهبان المجاهدين، لكن فهم أخيراً أنهما قادمان من الأراضي المقدّسة برسالة مهمة. أمّا صاحب الوقار والتصدّر وعلو النغمة فهو الأب أنطونيو ميلان رئيس دير الفرنسيسكان في

(١) صرّعه، وقيل ألقاه أرضاً فصلبه وصرّعه.

(٢) الرمكة: الفرس: البرذوة تضخ للسل (مرب) جمها رمك ورمك ورمكات وجمع الجمع أرمك.

بيت المقدس، كان ممتلئ الجسم، جهير الصوت، طلق اللسان، ذا أساليب خطابية كمن تعوّد أن يقول في الناس، ويسمع له الناس، وأمّا رفيقه فكان صغير القدّ، مختصر الجرم<sup>(١)</sup>، مصفرّ اللون، ليّن الحديث، خفيّ الإشارة، خافت الصوت، وكان من التواضع وخفض الجناح، على ما ينبغي أن يكون عليه من اتّمسق إلى مثل دعوته، وتلبس بمثال حُلّته، لكنّه كان من أهمّ رهبان الدير وأحمسهم وأدربهم، كان إذا رفع نظره من الأرض، انقدحت عيناه شراراً، فيبينما يظنّه الإنسان أودع من الورقاء<sup>(٢)</sup>، إذا هو أدهى من الحية الرقشاء<sup>(٣)</sup>.

وكان هذان الراهبان، آتيين من عند سلطان مصر في ذلك الوقت، الملقّب من قبل الإفريجة بسودان مصر، لأنه كان الاتّفاق بين هذا السلطان وبين السلطان بايزيد الثاني صاحب القسطنطينية على إصرّاح مملكة غرناطة، ووضعاً فيما بينهما أوزار الحرب، اجتماعاً على مظاهرة الملة وتفريغاً للجهاد، ثمّ أوفد صاحب مصر هذين الراهبين بكتاب منه إلى ملوك قشتالة، وإلى البابا، وإلى ملك نابلي، مُنكراً عليهم ما هو واقع من العذاب على مغاربة غرناطة، الذين هم من بني ملته وجلدته، بينما عدد كبير من المسيحيين، راتعون في مملكه في بحايح الراحة والأمان، متمتّعون بأملاكهم وحقوقهم، ناعمون بحريتهم الدينية، فهو يُلحّ في الإفراج عن مسلمي الأندلس، وتمكينهم من الأملاك التي اغتصبوهم إياها، وأجلوهم عنها، وإلاّ فإنّه يحو بدباب<sup>(٤)</sup> السيف، جميع النصراري الذين هم في مملكه، ويخرّب معابدهم، ويجعل كنيسة القيامة في القدس قاعاً صافصفاً. وكان خبر هذا الإنذار قد ذاع بين مسيحيي الشرق فأقضى مضاجعهم، وروّع قلوبهم، وصاروا ينتظرون خلاص مسلمي الغرب، لثلاً يؤخذوا بجزيرة المعتدين عليهم.

فالتقى فرديناند دينك<sup>(٥)</sup> الوافدين برّاً وتجملة<sup>(٦)</sup>، كمادته من ملاقة رجال الدين، وخلا بهما مراراً، مستقصياً منهما ملياً عن أحوال النصرانية في المشرق.

وكان الوافدان قد عاجا<sup>(٧)</sup> برومة، لتسليم البابا كتاب سلطان مصر، فكتب البابا معهما إلى ملوك قشتالة، يستشير فيما يجب أن يجاوب على خطاب صاحب مصر، وكتب بمثل

(١) الجسم.

(٢) مؤنث الأورق: الجملة.

(٣) المنقطة بسواد وبياض.

(٤) حنة.

(٥) متى "ذلك".

(٦) العظمة، تجملة: تنظيماً.

(٧) أقام به.

ذلك ملك نابلي، وتوخى في كتابه تخطئة ملوك قشتالة، ولو من طرفٍ خفيٍّ فيما هم مباشروه، ومَّا جاء فيه: "إنَّه ولئن كان المغاربة مخالفين في المذهب، فليس من الجائز الإساءة إليهم بدون سببٍ عادل، وإنَّه إن كان ملوك قشتالة لا يصبرون على أدنى إساءة من مسلمي إسبانية، فليس من اللائق بمقامهم أن يأتوا أقلَّ عمل، من شأنه أن يجرَّ على النصرانية وبالاً"<sup>(١)</sup> إلى آخر ما ذكر من هذا القبيل، ممَّا نقله بعض الإسبانول، وعقبه بالظن في ذلك الملك، والقُدْح في أمانته للنصرانية، وأتهامه بالعصبة مع صاحب مصر، إلا أنَّ بترو باركا، لا يعزو ركوب ملك نابلي، ظَهَرَ الخلاف في هذه المسألة إلى نقص في حميَّة الدينية، بل لمآرب سياسية أنه كان يعتقد بأنه إن تمكَّن فرديناند من فتح غرناطة أمكنته الفرصة، وتهيأت له الوسيلة، للإدعاء بملك نابلي، أنه تابع لمملكة أراغون.

أمَّا فرديناند فأجاب ذلك الملك جوابًا في غاية اللطف والرشاقة، أتى فيه على تفاصيل تلك الحرب، وبيَّن له وجوه الحقِّ في غشيانها<sup>(٢)</sup>، وختم كتابه بتسكين رُوِّعِه من جهة نصارى المشرق، مؤكِّدًا له أنَّ الأموال التي يدفَعونها هي الجِزَّة الواقية لهم، دون ما يتهدَّد به سلطان مصر من استئصالهم، وكتب إلى البابا يعرض له أسباب الحرب، وهي تنحصر في ثلاثة: الأولى استرجاع أرض تملكها المغاربة بالسيف، والثاني مجازاتهم على سيِّء المعاملة التي عاملوا بها المسيحيين، والثالث أنها حرب مقدَّسة يقصد بها إعلاء مجد الكنيسة.

ويعد أن أقام الراهبان الوافدان بالرسالة مدَّة بمحلَّة الملك، يُقَصِّان على قواد الجيش أخبار المشرق، سَخِّصًا<sup>(٣)</sup> إلى جيَّان لمقابلة أعظم الملكات كثلكة، ألا وهي الملكة إيزابيلا، فاستقبلتهما من البرِّ والاحتفاء بما يفوق الإطراء، وعيَّنت لديرهما في بيت المقدس، إحسانًا سنويًّا نحو ألف دوَّكًا، وعند انصرافهما سلَّمتهما غشاء<sup>(٤)</sup> باهر النفاسة، مطرِّزًا بيدها الملوكية لوضعه على القبر المقدَّس.

### - فرديناند، يُرسل المؤرِّخ بطرة مارتيل بسفارة إلى مصر

قال الكاتب الإنكليزي الشهير واشنطن أرفن: "ولم يذكر الأب أغايبدا مؤرِّخ هذه

(١) سوء العاقبة والشدَّة والوخامة.

(٢) دخل بها.

(٣) تَهَبَّ.

(٤) غطاء.

الوقائع، نتيجة الرسالة التي وفد بها ذانك<sup>(١)</sup> الراهبان، وهي أنه في ما بعد أزعج<sup>(٢)</sup> فرديناند وإيزابيلا، المؤرّخ الشهير بطرة مارتير أنغلريا، سفيراً إلى الشرق لدى صاحب مصر، أو بحسب قولهم السودان الأعظم، فأبدى من الحدق والمهارة بتلك السفارة، ما أفتح به ذلك الملك الشرقي، واستجلب به ميله، وفاز منه بإيثار غرّضه، وحصل على أوامر، برفع كثير من المغارم عن زوّار القدس الشريف، ولبطرة المذكور رحلة شهيرة في بلادهم ضمنها جمّاً من الفوائد والنوادر<sup>(٣)</sup>.

هذا وبقي الحصار مستمراً على بسّطة، ونفير فرديناند وإيزابيلا ينبعث إلى آفاق إسبانية، فتكثّف الجيوش وتتوارّد المقاتلة من كلّ فجّ، ولم يكن العناء كلّه في جمع الأجناد، بل بإزاحة عيّنهم وتوفير أقواتهم، ولم تنحصر النفقة في الجيش المقاتل وحده، بل كان يلزم الملك وامرأته، تسريب الذخيرة لجميع المدن التي دخلت في حوزتهما، وكفاية حماتهما، لما سبق أخذها من الإكساح والعبث الذي غادرها كجوف العير، فرتبت الملكة الوفاً من البهائم لنقل الأقوات، وجعلت عليها خفارة وافرة لصدّ غارات المغاربة في الطريق وأقامت تواصل الأمداد صباح مساء، ولمّا فرغت خزينتها من النقد، استعانت بأعيان البلاد والبطارقة، فقدّم كلّ منهم ما وصلت إليه يده من النقد، وبعضهم قدّم ما عنده من الحلّي والجواهر، وباع الأساقفة آتية الكنائس، واستنزفوا ما في خزائن الأوقاف من الكنوز، وتبرّع التجّار بمبالغ طائلة من المال، وجاد كثير من العشائر الأصيلّة بذخائرهم ونفائسهم، وأخيراً أرسلت الملكة نفسها حلّيها وآتية القصر الثمينة إلى برشلونة وبلنسية، وباعتها لأجل شراء الأقوات والميرة، وإزاحة عيّل العساكر.

وبينما كانت قَطْر<sup>(٤)</sup> الحيوانات تَرِدُ تبعاً، مَوْقِرَةٌ بالذخيرة والطعام إلى مخيم الملك فرديناند، وقوة الإشبانيول تتعزّز يوماً فيوماً بإزاء بسّطة، كانت الأقوات ابتدأت تنفد في البلدة، والمجاعة تعضّ الحامية بنايها، لكن بقي لأهل بسّطة أمل في الفرج بهجوم الشتاء، وتراكم الأمطار، وحسبوا أنّ لا بدّ من أنّ السيول المتحدّرة من الجبال تضطرّ الطاغية

(١) مثنى ذلك، اسم إشارة، على الرفع.

(٢) تهلّقه، وقلمه من مكانه، وممناها (هنا): أرسله.

(٣) لا يوجد حلّ لهذه المسائل إلاّ بوجه واحد وهو أنّ الشرقيين أكرم أخلاقاً من الغربيين وأنّ قاعدة "إذا ملكت فأسحج" لا تعرفها أوروبا. (السجّح: أحسن العفو).

(٤) جمع الجمع لقطار، مصالّ الجمال، بخاصّة في قافلة متصلة.

لِلظَّن<sup>(١)</sup> بِمَحَلَّتِهِ، وَبَيْنَمَا هُمْ يَتَسَلَّوْنَ بِهَذَا الْأَمَلِ، إِذْ أَخَذَ الْإِسْبَانِيُّوْلُ يَبْنُوْنَ بِيُوْتًا مِّنَ الْخَشْبِ مَسْقُوْفَةً بِالْأَجْرُ، حَتَّى كَمَلَ لَهُمْ نَحْوُ أَلْفِ بَيْتٍ عَلَى هَذِهِ الصُّوْرَةِ لِإِقَامَةِ الْأَمْرَاءِ وَالْقَوَادِ، وَاتَّخَذَ الْأَجْنَادُ لِأَنْفُسِهِمْ بِيُوْتًا مِّنَ الطِّينِ مَوْطِدَةً بِفُرُوعِ الْأَشْجَارِ وَمَغْطَاةً بِالْخُتُوْسِ<sup>(٢)</sup>، وَصَارَتِ الْمَحَلَّةُ عِبَارَةً عَنِ مَدِيْنَةِ قَائِمٍ فِي وَسْطِهَا بِنَاءٌ كَبِيْرٌ لِنَزُوْلِ الْمَلِكِ، يَخْفِقُ فَوْقَهُ عِلْمَا أُرَاغُوْنَ وَقَشْتَالَةَ، وَقَدْ عَوَّلَ فَرْدِيْنَانْدُ عَلَى اخْتِطَاطِ<sup>(٣)</sup> هَذِهِ الْمَحَلَّةِ، تَوْقِيًّا مِّنَ السَّيْلِ، وَقَطْعًا لِأَمْلِ الْمَغَارِبَةِ مِنَ الْإِفْرَاجِ، إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يَكِدْ يَتِمُّ بِنَاؤُهَا حَتَّى عَصَفَ إِعْصَارٌ شَدِيْدٌ، صَحَبَهُ مَطَرٌ مِدْرَارٌ وَسَيْلٌ أَتَمَّ<sup>(٤)</sup> فَتَهَدَّمْ جَانِبٌ مِّنَ الْبِيُوْتِ، وَهَلَكَ خَلْقٌ كَثِيْرٌ مِّنَ الْجُنْدِ وَالْخَيْْلِ وَالْمَاشِيَةِ، وَفَسَدَتِ الْأَقْوَاتُ وَالذَّخِيْرَةُ، وَارْتَاعَ الْجَيْشُ، وَخَافُوا الْهَلَاكَ، وَلَكِنْ أَسْعَدَهُمُ الطَّالِعُ بِإِقْلَاعِ الْمَطْرِ، فَخَفَّتْ وَتَيَسَّرَتِ الْحَرَكَةُ، وَأُرْسِلَتِ الْمَلِكَةُ بِعَوْضٍ عَمَّا نَقَصَ مِنَ الزَّادِ، وَبَعَثَتْ سِتَّةَ أَلْفِ رَجُلٍ لِتَرْمِيمِ الطَّرِيقِ الَّتِي أَضْرَبَّ بِهَا السَّيْلُ، وَإِقَامَةِ الْمَعَابِرِ عَلَيْهَا، وَأَعَادَ الْمَلِكُ بِنَاءَ الْبِيُوْتِ الَّتِي تَهَدَّمَتْ فِي الْمَحَلَّةِ، وَرَجَعَ الْإِطْمِنَانُ إِلَى قُلُوْبِ الْإِسْبَانِيُّوْلِ.

وَخَافَ الطَّاعِيَةُ تَكَرُّرَ الْإِعْصَارِ، وَالغَرَقِ، وَتَفْسِيْهِ الْمَرْضِ فِي جَيْشِهِ، فَرَأَسَلَ أَهْلَ بَسْطَةَ فِي التَّسْلِيْمِ عَلَى أَنْ يُؤْمِنَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ وَنَفَاتْسِهِمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ مُحَمَّدُ ابْنُ حَسَنِ بِجَوَابٍ لَطِيْفٍ الْعِبَارَةَ سَلْبِيٍّ الْمَعْنَى، وَكَانَتْ أَخْبَارُ السَّيْلِ وَمَا أَلْحَقَهُ مِنَ الضَّرْرِ بِمَعْسَكِرِ فَرْدِيْنَانْدِ، قَدْ وَصَلَتْ إِلَيْهِمْ مَعَ الْمَبَالِغَةِ، فَطَمَعُوا فِي رَحِيْلِهِ، وَتَشَدَّدَتْ عَزَائِمُهُمْ، وَبَرَزُوا لِلْقِتَالِ، فَحَدَّثَتْ عِدَّةُ مَنَاوِشَاتٍ، هَلَكَ فِيهَا جَمَلَةٌ وَآفَرَةٌ مِّنَ رَجَالَاتِ الْفَرِيْقَيْنِ، وَحَدَّثُوا أَنَّ فِي إِحْدَى هَذِهِ الْوَقَائِعِ خَرَجَ نَحْوُ ثَلَاثِمِائَةِ فَارَسٍ وَالْقَمِي رَاجِلٍ، فَأَعْتَلُوا مَرْقَبًا وَرَاءَ الْمَدِيْنَةِ رَكِبُوا فِيهِ رِيْحَ الْإِسْبَانِيُّوْلِ، فَتَنَاوَشُوا سَاعَةً، وَاسْتَوَتْ الْهَزِيْمَةُ عَلَى هُوْلَاءِ فَتَبَعُوهُمْ، وَقَدْ فُقِدَ مِنْهُمْ جَمَلَةٌ، إِلَى أَنْ حَصَلُوا فِي مَحَلَّةٍ كَوْنَتْ تَنْدِيْلَةً، وَغُونَسَلَفَ الْقَرْطَبِيِّ، فَصَدَّقُوْهَا الْحَمَلَةَ فَتَدَاعَى رَجَالُهَا لِلْفَرَارِ، وَثَبَتَ الْكُوْنَتُ وَصَاحِبُهُ فِي مَوْطِنِهِمَا إِذْ وَجَدَا الثِّبَاتِ أَدْنَى إِلَى السَّلَامَةِ مِنَ الْهَرَبِ، فَانْضَمَّ إِلَيْهِمَا مَنْ صَبَّرَ مِنَ الْجُنْدِ، وَصَدَّوْا الْمَغَارِبَةَ، فَأَوْقَفُوهُمْ، وَلَكَّنَّهُمْ كَادُوا يَخْتَلُوْنَ فِي مَصَافِهِمْ وَتَحَقَّقَ عَلَيْهِمُ الْعَلْبَةُ، وَإِذَا بِالْوَنْزُو دُوْ أَيْغِيْلَارٍ، وَكُوْنَتُ أُوْرِيْنَةَ، وَجَمَاعَةٌ مِّنَ رَجَالِهِمَا قَدْ أَقْبَلُوا، فَتَلَقَّوْا الصَّدْمَةَ، وَتَكَاثَرُوا، فَارْتَدَّتِ الْمَغَارِبَةُ نَحْوَ الْمَدِيْنَةِ، وَجَرَى عَلَى

(١) الْمَسِيْر.

(٢) وَرَقِ النَّخْلِ وَغِيْرِهِ.

(٣) الْبَلْدُ أَوْ الْمَحَلَّةُ، رَسَمَ بِنَاْعَهَا.

(٤) الْأَتَمُّ: جَدُوْلٌ تُوْتِيهِ إِلَى أَرْضِكَ، السَّيْلُ الْغَرِيْبُ لَمْ يَصْبِكْ مَطْرًا، وَكُلُّ مَجْرَى مَاءٍ أَيْمٍ وَأَيْمٍ.

هذا النمط عدد من الوقائع، لم تخفق فيها راية ظفر تام لأحد، وكانت شِرة<sup>(١)</sup> المغاربة في القتال تزداد بازدياد بأسهم وخناقهم، وكان الأمير سيدي يحيى دائماً في مقدّمة جنده، لكنّ فراغ الخزائن من المال، ونفاد القوت، قطعاً من آماله، وتذاكر مع محمّد بن حسن في الحالة، فأجمعا على استمداد الأهالي، وبيناً لهم تعدُّر المقاومة مع إعواز القوت، فتشاور أهل بسطة بعضهم مع بعض، وجمعوا ما عندهم من الحلي والآنية، من ذهب وفضّة، ودفعوها لمحمّد بن حسن قائلين له: "خُذ هذه فاضربها نقدًا، أو فبِعها، أو فارهنها، واستحضر مالاً لقوت العسكر" وقالت نساء بسطة بعضهنّ لبعض: "هل يليق بنا أن نتبرّج ونتزيّن بهذه الحلي، حالة كون بلادنا خراباً، ورجالنا محتاجة إلى القوت الضروري" ثمّ جمعن ما عندهنّ من العقود والأساور وسائر الحلي، ودفعنها لمحمّد بن حسن قائلات له: "خُذها ودافع بها عن ديارنا وعيالتنا، فإنّ أفرج عن بسطة لم نحتج إلى الزينة لأجل إظهار فرحنا، وإن أخذت بسطة فأيّ حاجة للأسير بالحلي والجواهر".

فتمكّن محمّد بن حسن بهذه الإعانة من مداومة الدفاع، ونمى إلى الملك ما فعل أهالي بسطة، وما تجدد عندهم من النشاط، فعمد إلى مقابلتهم بما يوهن عزائمهم، وكتب إلى الملكة يدعوها إلى العسكر، فبينما محمّد بن حسن يشدّد حماة البلدة، ويسيطر لهم الأمل برحيل الملك، إذ سمع قرع الطبول، فشخصت الأنظار إلى جهة محلّة الإسبانول، فإذا بالملكة قادمة بجيش، يحف بها بطانة عظيمة بأبهى الملابس، وعلى يمينها كرميتها البرنسس إيزابيلا، وعلى الشمال الكردينال الأكبر في إسبانية، ووراءها جماعة من عقائل إسبانية السريات<sup>(٢)</sup>، فلمّا شاهد القائد محمّد هذا المشهد فتّ في عضده، والتفت إلى أصحابه قائلاً: "يا إخواني أصبح تسليم بسطة مقرّراً".

#### - سقوط بسطة صلحاً -

وقد كان لموصل الملكة إيزابيلا من الأبهة والوقار ما أثر في خواطر المغاربة أنفسهم، وعزم بعض رجالهم أن يهاجموا موكب الملكة لدى وصوله، فمنعهم الأمير سيدي يحيى حرمة لمقام الملكة، وأطلّ جميع سكان بسطة من السطوح، والمآذن، والأبراج، لمشاهدة وصول الموكب، وكان احتفالاً فائقاً وعلت فيه السكينة جميع الجوانب، وعندما أيقن

(١) الشِرة: الحرص: النشاط والرغبة ومنه شِرة الشباب.

(٢) صاحب المرومة في شرف، والسيد الشريف الجيد السخي.

المسلمون أن الملك والمملكة لا يرحلان إلا بتسليم بَسْطَة، مالوا إلى التسليم، وتمتت رجالات الإسبانيول بالصلح، فحضر الدون غوثيار دو كردناس، واجتمع بالقائد محمّد بن حسن وقال له بأسم الملك، إنّه إن سلّم أهل بَسْطَة الآن، يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وحرية اعتقادهم، وإلا فإن أصروا على المقاومة، لم يأمنوا خيراً لا على دم، ولا على مال، ولا على دين محمّد، وذكّره بما أصاب مدينة مالقة، فراجع سلطانهم الزغل في ذلك، وكتب له سيّدي يحيى كتاباً، وأرسل به القائد محمّد بن حسن، فلما وصل إلى وادي آش، وجد السلطان منقطعاً في جهة من قصره يتأمّل في سوء بخته، وما آلت إليه الأحوال، فسأله عن حال بَسْطَة؛ فأجابه: "تفهم من هذا الكتاب" ودفع إليه كتاب سيّدي يحيى فقرأه حتّى أتى على آخره، وعرف اضطراب البلد للتسليم، وما عرضه عليهم الطاغية من الشروط الموافقة، ولم يُخالج صدره أقلّ ريب في كلام سيّدي يحيى لما كان عليه من الثقة فيه، والتعويل عليه وخطئه بنفسه كأنهما شخص واحد، فتنفّس الصعداء، وتوجّع ملياً، وأخذ يفكر في ما يعمل مطرّقاً ساعة، ثمّ أمر فحضر الفقهاء والشيوخ، وتشاوروا في ما يفعلون، فأجلى المجلس عن تعذّر إمداد بَسْطَة بشيء، فاستدعى الزغل قائد بَسْطَة محمّد بن حسن، وقال له: "أذهب إلى ابن عمّي سيّدي يحيى وقُلْ له: (لا ينتظر متي نجدة لأنني لا أقدر على تليته بشيء فليفعل ما يبدو له)". فعاد القائد بالجواب، وكان أمراً مقصياً، لأنّ قواد بَسْطَة تصالحوا مع فرديناند على أن يدخل البلد، وينال الجميع الأمان، ويخرج من جاء في صريح بَسْطَة من فرسان المغاربة بخيلهم وأمتعتهم إلى حيث شاؤوا، ويكون تسليم البلدة والقلعة في ستة أيام، وأمّا أهل بَسْطَة، فلهم الخيار بين أن يرحلوا بأموالهم أو أن يقيموا بالربض متمتعين بأموالهم وحرّيتهم الدينية.

#### - فرديناند يكرّم القادة، وتنصّر الأمير يحيى

وخلع الملك فرديناند على القواد وأكرمهم، وأنعم عليهم واختصّ بإيثاره الأمير يحيى وأذناه، ونال هذا من الخطوة لديه، ولدى الملكة ما أكّد لهما صداقته، وتعلّق قلبه بالملكة بما بهره من جمالها ولطفها ورسانتها، فأخذ يسمى في خدمتها، ويتزلف<sup>(١)</sup> إلى مرضاتها بأنواع المناصحة، وحبّب إليه حبّها النصرانية.

(١) تقرّب.

فيقال إنّه تنصّر سرّاً، وقد أظنّب المؤرّخ أغاييدا الإسبانيولي، في وصف تلك النعمة، وعدّ هذه من فتوحات فرديناند، وذهب بعض مؤرّخي العرب بحسب قول واشنطون أرفن، إلى أنّ الطاغية استغوى هذا الأمير بإجزال الصلوات<sup>(١)</sup> وإسناء الجوائز وتوسيع الإقطاعات، ولكن أغاييدا يقول، إنّ ذلك كان حكمةً منه لأجل بسطّ يده، وإنفاذ كلمته فيما يعود باستمالة كثير من قومه إلى النصرانية، وإنّه بقصد إبقاء سطوة الأمير يحيى على المغاربة، صدر أمر الملكين بإبقاء مسألة تنصّره مكتومة إلى أن يكون قضى بواسطته أوطاره، كذلك دخل القائد المجربّ محمد بن حسن في خدمة فرديناند، واقتدى به كثير من فرسان المغاربة.

وكان تسليم بسطّة في رابع ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٤٨٩ بعد حصار ستّة أشهر وعشرين يوماً، ووُجد فيها نحو خمسمائة أسير نصراني، وهلك تحت أسوارها من عساكر الطاغية عشرون ألفاً، قتل منهم سبعة عشر ألفاً ماتوا بالأمراض. والباقون هلكوا في القتال. واقتدى ببسطة غيرها من المدن كالمنگب، وطبرنة، وكثير من حصون البشرات، ودخل أهل تلك الجهات جميعاً في ذمّة الطاغية، واعتنى في البداية بإحسان معاملتهم وإجزال العطاء في قوادهم، سياسةً منه لاستمالة جمهورهم إليه ورضاهم بسلطانه.

وكان من هؤلاء القواد رجل يقال له علي بن الفخار، في يده عدّة من المواقع والحصون، فحضر في جملة القواد الذين سلّموا مفاتيح حصونهم، وانقلبوا بالصلوات والجوائز، وكان شامخ الأنف شديد الزماتة<sup>(٢)</sup> والوقار، فلمّا وصل الدور إليه، خاطب الملكين بحريّة الرجل العسكري، وإن كان لم يستطع إخفاء بأسه وانكساره فقال لهما: "أنا رجل مسلم قائد لحصون طبرنة وبركّنة، قد تسلّمت هذه الحصون لأجل محافظتها، لكن الذين عهد إليّ بقيادتهم، فقدوا كلّ نهضة وقوّة، وعادوا لا يطلبون سوى الأمان، فهذه الحصون أصبحت أيها الملوك العظام لكم متى شتمت ابعثوا من يستلمها" فأمر فرديناند في الحال بإعطائه مبلغاً طائلاً من المال جزاء هذا التسليم الجزيل القدر، فامتنع من أخذه منكراً ذلك إنكاراً شديداً، وقال لهما: "أنا لم آت لأبيع ما ليس ملكي، بل لأسلم ما جعلته الأقدار الإلهية ملكاً لكما، وليكن يقيناً عند جلالتكما، إنّه لو وُجد من يُسعفني كما يجب، لكان الموت هو ثمن هذه الحصون بدلاً من الذهب الذي يُعرّض عليّ".

(١) مؤلّد، وُضِل فلان بالكلمات والهيئات.

(٢) تقول: زَمَتَ زَمَاتَةً، وتزَمَّت: كان جليلاً.

فأعجب الملكان بأنفة<sup>(١)</sup> هذا القائد وشهامته وأمانته، وتمنّيا أن يكون منتظما في جملتهم، ويدخل في خدمتهم، فأبى خدمة أعداء ملته وقومه، ولما يسأ منه قالت له الملكة إيزابيل: "إذا لا يوجد لك حاجة نظهر لك بقضائها ما لك في جانبنا من الاعتبار".

أجابها: "بلى! حاجتي عنكم إنني تركت في المدن والحصون التي سلّمتها كثيرا من بني ملتي البائسين، الذين لا يتيسر لهم الرحيل عن أوطانهم بنسائهم وأطفالهم، فأرجو أن تعطوني وعدا ملوكيا بحمايتهم، وإطلاق الحرّية لهم في دينهم وأملاكهم".

فوعدها بذلك ثمّ قالت له الملكة: "وهلّا تطلب شيئا لنفسك؟"، قال: "كلّ سوى الإذن في الإجازة"<sup>(٢)</sup> بحيلي ومتاعي".

فأراد الملكان أن يجبراه على قبول صلتهما من المال مع الخيل الثمينة السروج لا بقصد المكافأة، بل على سبيل الهدية، فأنكر أن يصيب هذه النعمة وذلك الوفر في زمن يؤس قومه وخراب وطنه، ثمّ أخذ تذكرة الإجازة من الملك فرديناند واستصحب خيوله وحَدَمَه وأمتعته وأسلحته، وألقى على بلاده نظرة الوداع، كاسف البال، بادي الكآبة، لكن بدون أن تسقط له دمعة، ولا يترطب له جفن، وركب جواده قاصدا البحر لأجل الإجازة إلى أفريقية.

وقال في "نفتح الطيب" بشأن بسطة وحصارها الطويل: "وفي عام أربعة وتسعين خرج لبعض حصون بسطة، فأخذها بعد حرب، واستولى على ما هنالك من الحصون، ثمّ نازل بسطة، وكان صاحب وادي آش لمّا تعين العدو بمحلته، بعث جميع جنده وقوّاده، وحشد أهل نجدة تلك البلاد من وادي آش، والمريّة، والمنكب، والبشرات، فلمّا نزل العدو بسطة، أتت الحشود المذكورة، ودخلوها ووقعت بين المسلمين والنصارى حروب عظيمة، حتّى تقهر العدو عن قرب بسطة، ولم يقدر على منع الداخل والخارج، وبقي الأمر كذلك رجب وشعبان ورمضان، ومحلات المسلمين نازلة خارج البلد، ثمّ إنّ العدو شدّ الحصار وجدّ في القتال، وقرب المدافع والآلات من الأسوار، حتّى منع، الداخل والخارج بعض منع واشتدّ الحال في القعدة والحجّة<sup>(٣)</sup>، وقلّ الطعام، وفي آخر الحجّة، اختبروا الطعام في خفية فلم يجدوا إلاّ القليل، وكانوا طامعين في إقلاع العدو عند دخول فصل الشتاء وإذا بالعدوّ

(١) اشتقاق من (أنف)، والعرب تخصّ الأنف، من بين الجوارح، بالقرّ أو الفلّ أو الرفعة والإباء.

(٢) بمعنى الإذن، تقول: أجازته، أعطاه الإجازة، أي الإذن.

(٣) القعدة والحجّة: شهران عربيّان، أراد بهما: ذو القعدة، وذو الحجّة.

بنى وعزم على الإقامة، وقويّ اليأس على المسلمين، فتكلّموا في الصلح على ما فعل غيرهم من الأماكن، وظنّ العدو أنّ الطعام لم يبقَ منه شيء، وأنّ ذلك هو المُلجئ<sup>(١)</sup> لهم للكلام، وفهموا عنه ذلك، فاحتالوا في إظهار جميع أنواع الطعام في الأسواق، وأبدوا للعدوّ القوّة مع كونهم في غاية الضعف، والحرب خدعة، فدخل بعض كبار النصارى للتكلّم معهم، وهو عَيّن ليرى ما عليه البلد، وما صفة الناس، وعند تحقّقهم بقاء الطعام والقوّة، أعطوهم الأمان على أنفسهم، دون مَنْ أعانهم من أهل وادي آش والمنكّب والمريّة والبشرات، فإن دافعوا هؤلاء عنهم صحّ لهم الأمان والأفلا، فلم يوافق أهل البلد على هذا، وطال الكلام، وخاف أهل البلد من كشف السرّ، فاتّفقوا أن تكون العقدة على بسطة، ووادي آش، والمريّة والمنكّب والبشرات، ففعلوا ذلك، ودخل جميع هؤلاء في طاعة العدو وعلى شروط شَرطوها، وأمور أظهرها لبعضها للناس، وبعضها مكتوم، وقبض الخواص مالا، وحصلت لهم فوائد. وفي يوم الجمعة عاشر محرّم سنة خمس وتسعين وثمانمائة، دخل النصارى قلعة بسطة وملكوها، ولم يعلم العوام كيفية ما وقع عليه الشرط والالتزام، وقالوا لهم: "مَنْ بقي بموضعه فهو آمن ومَنْ انصرف خرج بماله وسلاحه سالماً"، ثمّ أخرج العدو المسلمين من البلد وأسكنهم بالريض خوف الثورة<sup>(٢)</sup>.

### - الزغل يدخل في طاعة الطاغية

وكان الزغل قابعا في كسر بيته من وادي آش، يسمع كلّ يوم صريحا ويرن في أذنه كلّ ساعة صدى ويل، وبلاده تُسلم الواحدة بعد الأخرى إلى العدو، والأقدار تعاكسه اطرادا، والضربات تنهال عليه دراكما، وفي هذه الحالة قدم عليه ابن عمّه، سيدي يحيى، عدوا في ثياب صديق، وبعيدا في صفة قريب، مشاركا في الهمّ والدم، ولم يكن الزغل عليم بتصرّئه، إذ بقي ذلك سرا، فارتاح جدّا إلى روية ابن عمّه في ذلك الوقت الضيق، ولما أقبل عليه عانقه لزاما وضمه إلى صدره وبثّه همّه، فأخذ سيدي يحيى توطئة لما يتوخّى من خدمة الطاغية، يبيّن له اليأس من الحالة، وعقم الدفاع من الفائدة، لما هو مُقدّر من سقوط مملكة غرناطة بين أيدي النصارى، وأنّ المنجّمين لم يكذبوا فيما حكوه عن أبي عبد الله الشقي، وأنّ السقوط سيكون على يده، وأنه لَمّا أُسِرَ في لشانة، كان تبادر للظنّ، أنها هذه الواقعة التي أشار إليها المنجّمون، وأنّ النحس قد انقضى، فظهر الآن أنّ ليس المقصود واقعة

(١) لجأه إلى الأمر: اضطره إليه.

مفردة، بل وقوع المملكة بأسرها، فحيث كان أمر الله قَدْرًا مقدورًا، لزم التسليم لمشيئته تعالى ﴿وإذ وقع القضاء، فليس إلا التسليم والرّضى﴾، فأطرق الزغل ساعة وهو غريق في لُجج<sup>(١)</sup> الهواجس والأشجان، ذاهب من التأمل والتألم في بُحْران<sup>(٢)</sup>، ثم رفع رأسه وكبّر وحوقل<sup>(٣)</sup> وقال: "ليس من القضاء مفراً و﴿لن يصيينا إلا ما كتب الله لنا﴾ تالله لو لم يكن سقوط غرناطة قَدْرًا لكان سناني وحسامي زعيمين بحفظها".

فقال له سيدي يحيى: "وماذا استقرّ في عزمك الآن؟ هل أجمعت تسليم المدن الباقية لك إلى ابن أخيك أبي عبد الله حليف النصارى؟". فلَمَّا سمع الزغل ذلك اضطرب كلّه، وقال له: "كلاً! بل أفضل أن أرى رايات العدو خافقة فوق هذه الأبراج، من أن أسلمها لهذا الشقي" فاغتمت سيدي يحيى فيها الفرصة، وأخذ يرغبه في التسليم ويحسن له الانحياس<sup>(٤)</sup> إلى الطاغية والدخول في ذمته، إلى أن حصل أخيراً على موافقته، فانقلب إلى الطاغية بما أراد، وتقرّر تسليم المربة، ووادي آش، وسائر البلاد التي في يد الزغل، وأن يكون الزغل لقاء ذلك حليفاً للملكين، ويقطع أرضاً واسعة، في البشرات، مع نصف الملاحة، ويلقب بملك أندرش، ويكون إلهاً مُدجّن رعيّة له، ويتمتع بدخل أربعة ملايين مراويد - هذا إلى مواعد كثيرة.

وتقرّر بينهما على أن يكون التسليم في المربة، ففي سبع عشرة خلت من ديسمبر (كانون الأول)، تحرّك الملك فرديناند من بسطة بقسم من جيشه، وتبعته الملكة بالقسم الآخر ماراً بالمدن والحصون التي دخلت في طاعته، فلَمَّا صار على مقربة من المربة، لقي السلطان أبا عبد الله الزغل خارجاً في ملاقاته مع الأمير سيدي يحيى وجماعة من الخواص، ولم تُخفَ على وجه الزغل علامات الغيظ الشديد والأسف البالغ، وكان ظاهراً على خضوعه التكلّف، وفي مقادته الصعوبة، وكأنّ لسان حاله يحدث بأن خضوعه إنّما كان للقَدْر لا للقَدْر، والله لا للبشر.

على أنه لَمَّا اقترب الملك فرديناند ترجّل الزغل، وتقدّم إليه وهوى على يده كمن يريد استلامها، فتجافى الملك عن ذلك حرمةً للقب السلطنة، وانحنى إليه فعانقه، وأشار إليه

(١) مفردتها لُجّة، هي من الماء مُظلمه، كتابة عن الأعماق المتخبطة.

(٢) الهذيان، التفسير الذي يحدث للمريض دفعة، في الأمراض الحادة.

(٣) فلان، قال: "لا حول ولا قوة إلا بالله".

(٤) الانحياس.

باستئاف الركوب، وأجمل في مكالته، ولمّا تمّ له استلام البلاد، لحق للزغل بأرضه في جبل البشرات حيث انقطع يحشو على رأسه تراب الذلّ.

وحيث توخّينا نصحاً بالتاريخ وإمعاناً في تمحيص الروايات، مؤاخاة النقل الإفرنجي بالرواية العربية، نُتبع ما قاله بهذا المقام أيضاً "صاحب النصح" وهو "ثمّ ارتحل العدو للمرّة، وأطاعته جميع تلك البلاد، ونزل صاحب آش للمرّة ليلقاه بها فلقبه، وأخذ الحصون والقلاع والبروج، وباع له السلطان أبو عبد الله على أن يبقى تحت طاعته في البلاد التي تحت حكمه كما أحبّ، فوعده بذلك وانصرف معه إلى وادي آش ومكّنه من قلعتها أوائل صفر من العام المذكور، وأطاعته جميع البلاد ولم يبقَ غير غرناطة وقرها وجميع ما كان في حكم صاحب وادي آش صار للنصارى في طرفة عين، وجعل في كلّ قلعة قائداً نصرانياً وكان قائداً من المسلمين أصحاب هذه البلاد دفع لهم مالاً من عند صاحب قشتالة إكراماً منه لهم بزعمهم، فتبّاً لعقولهم وما ذلك منه إلاّ توفيراً لرجاله وعدّته، ودفع بالتّي هي أحسن، ثمّ أخذ برج الملاحه وغيره وبناه وحصّنه، وشحن الجميع بالرجال والذخيرة، وأظهر الصلح والصحبة مع صاحب وادي آش، وأباح الكلام بالسوء في حقّ صاحب غرناطة مكرّماً منه وخداعاً ودهاءً" انتهى.

### - هرديناند يطلب إلى أبي عبد الله تسليم غرناطة

وأما صاحب غرناطة الشيقو فلماً وصل إليه خبر نزول عمّه على حكم الطاغية طار فرحاً، وظنّ أنه بالغ أمنيته، وأنه من الآن فصاعداً آمنّ النزاع وأصبح بدون مناظر، وتمكّن سلطانه بتمكين ملك الإسبانيول الذي هو حليفه، إلى غير ذلك من الأمانى الكواذب، التي قلماً تخطر إلاّ في بال أمثاله ممّن يضيّعون مثلما أضاع، وكاد يأمر بالزينة لبشرى خذلان عمّه، لولا أن وزيره يوسف ابن كماشة تبّه من غفلته؛ وأصحاه من نشوته وقال له: "أفّق، فإنّ الزوبعة كانت في أفق واحد، فستنتقل إلى أفق آخر" مع هذا لم يقنع لحماقته وسخفه، وأمر فأسرج له جواده، وخرج للنزهة، فسمع بأذنه كلام السوء في حقّه، وأيقن بغضب البعامة منه، إذ كانوا يعتبرون الزغل هو السلطان المجاهد المرابط الحامي ذمار الملة، وأنه ما سبق إلى ما سبق إليه إلاّ اضطراراً بمظاهرة ابن أخيه للعدوّ عليه، فأسرع أبو عبد الله الأوية<sup>(١)</sup>

(١) العودة.

إلى قصره، وأرسل إلى فرديناند يستدعي نجدته خوف الانتقاض، فأجابه فرديناند يطلب النزول له عن غرناطة ويدّكره بالعهد الذي عقده معه بعد أسره، بأنه عندما يتمكن من وادي آش وقرية بسطة يمكنه من الحمراء، وهوذا قد تمكن فيتقاضاه الوفاء بالعهد الذي عاهدته إياه، فأجابه أبو عبد الله أن ذلك قد كان منه، ولكن حيث أصبحت غرناطة مجمعة لجالية المسلمين من جميع أقطار الأندلس، وملجأ للشذاذ والمشردين من المدائن التي دخلت في حوزة الإيبانول. وقد غلت في صدور الجميع مراجل الإحنة<sup>(١)</sup>، واستوفزوا<sup>(٢)</sup> للأخذ بالثار، فإن داخلهم في طاعة الملك فرديناند الآن، انتقضوا عليه، واستهدف للخطر المحيق، فهو يلتبس المهلة لأجل سكون نائهم، وانطفاء وقدتهم، ومن ثمة لا يبقى مانع من القيام بما عاهد عليه.

### - بوادر الحرب بين غرناطة وفرديناند -

فلم يقنع الطاغية من جواب أبي عبد الله، وقلّب له ظهر المجن، وكسّر له عن ناب العداوة، وأرسل إلى أعيان غرناطة، والقواد، يعرض عليهم تسليم القلاع والنزول عن الحمراء، وهو يفي لهم في مقابلة ذلك بشروط الأمان ويعاملهم بما عامل به أهل وادي آش والمريّة، والأفان حدثتهم أنفسهم بالمقاومة وأصرّوا على الجفاء، سار معهم سيرته، مع أهل مالقة، فمال جماعة التجار وأرباب الأشغال الذين يدور نجاحهم على السكون إلى رأي التسليم، وتابعهم فيه من خاف في عياله مغبة<sup>(٣)</sup> الحرب وعاقبة الخذلان<sup>(٤)</sup>، ولكن كانت غرناطة لذلك العهد، قد غصّت بالمطرودين والموتورين الواردين عليها من كل أوب، قد ملأ الضغن قلوبهم، وغلا الثار في صدورهم ووطن اليأس نفوسهم على الاستماتة وقد سُحّحت بالمقاتلة وأحلاس<sup>(٥)</sup> الحرب وأنجاد الغارة ممن وُلدوا على صهوات الجياد، ونشأوا في معامع الجهاد، ومَن لا حرفة لهم سوى الغزو والمرابطة، وكان فيها آخرون وإن لم تكن الحرب حرفة لهم، يرتزقون منها فإن همهم العربية تأبى لهم، وحميتهم الإسلامية تربأ بهم من أن يستسلموا للعدو صاغرين، ويروا غرناطة الحمراء قبة الإسلام في الأندلس،

(١) مفردتها إحنة: الحقد والغضب.

(٢) نهياً للثوب، عموماً.

(٣) هائلة.

(٤) حذله وحذله عنه حذلاً وحذلاً؛ خيبه وترك نصرتة وعونه.

(٥) اكفأوها وفرساتها.

العهد الأخير وحضرة العزِّ ومتبواً المنعة، مئين<sup>(١)</sup> من السنين، والمصر الذي يمجج بجموع المؤمنين قد وطنها الطاغية بقدوم استيلائه، وقاد شَمَمَها بزمام استعلائه.

### - موسى بن أبي حسان، روح الجهاد

وَاتَّفَقَتْ تواريخ الإفرنج على أنه كان واسطة عَقْد هذه الطبقة، المجلي في حَلْبَةِ الفِرَاسَةِ، الأمير موسى بن أبي الغَسَّان من سلالة الملوك، شأباً بعيد الهمة كريم السجية، أبي النفس باهر القوة مستوفياً شروط الفُتُوَّة، جامعاً بين صَبَاحَةِ الوجه وصَبَارَةِ الحُلُق<sup>(٢)</sup>، غَايَةً في بهاء الطلعة ونفاذ العزيمة، حدّاً في عَزَّة النفس وزكاء الطبع، كان لا يوجد أدْرَب منه في عصره بفنون الفروسية، ولا أحسن منه اقتعاداً لصهوات الخيل، ولا ألبق ولا أرقش حركة بالألعاب السيف والترس، وتقليب السلاح بأنواعه، كان إذا برز في ميدان، ترك أمره فتنه لحسان غَرَنَاطة، ومداراً لحديث الأندلسيات، وإذا شهد الكريهة<sup>(٣)</sup> قذف مشهده الرعب في قلوب الإسبانيول، وطالما نُصِرَ المسلمون بأسمه.

وكان موسى ناقماً على السلطان أبي عبد الله هوادته<sup>(٤)</sup> مع النصارى، ولين جانبه لهم، فعندما وصل إلى غَرَنَاطة رُسلُ الطاغية، وشاع ما طلبه من تسليم الحضرة، والنزول عن الحمراء، قام هو وتلك الفئة المائلة إلى الحرب، مُستغفرين العامة للجهاد، مستبغين في حثّ الهمم، وتنشيط العزائم، وتحذير القوم عواقب الخضوع، من فقد الأمن على الأعراس والدماء والأموال، وأعمل موسى في الإحتشاد وبالغ في النفير، فبادرت جَمْعُرة المسلمين إلى إجابة داعيه، وطمعت في استئثار الجنته، ونفرت فتيان غَرَنَاطة، تريد الموت في سبيل الدَبِّ عن ذمار الدين، وتطيع من موسى سيِّداً كانت تغضب له ألوفهم إذا غضب ولا يدرون لِمَ غضب، فكيف وقد غضب للدين، ونفر لحماية عرض المؤمنين، فأرسلوا الجواب إلى الطاغية قائلين له، إنهم يفضلون الموت على تسليم مدينتهم ويوعدون إن شاء الإجلاب<sup>(٥)</sup> بما استطاعوا من قُوَّة.

(١) مئات.

(٢) رجل ذو صبارة في حَلْقِهِ: مجتمع الحلق وثيقه.

(٣) من أسماء الحرب.

(٤) هوادة: الهوادة: اللين، وما يُرجى به الصلاح بين القوم، والمهابة.

(٥) الإبتيان للحرب، أو إشهار الحرب.

## - الحرب

فلَمَّا أيقن فرديناند بما أجمعوا عليه، أطلق الغارات على الأطراف، وجعل ذلك إلى نظر كونت تنديلا قائد ثغر جيّان، وشرع في التأهب والاستعداد للمعركة، وقام موسى بن أبي الغسان من الجهة الثانية وقد حفَّ به فتيان سُراة غرناطة، وتبايعوا على الموت تحت لوائه، ونفرت فرسان المسلمين من كلِّ أوب<sup>(١)</sup>، وماجت أسواق غرناطة وساحاتها بالحشود، وملأ الآفاق سهيل الخيول، وموسى روح الجهاد ومحطّ الآمال، وقبلة الخواطر وحياة نفوس المثارغين، واسمه الرعب المحيق بأقاصي الثغور.

فلَمَّا أخذ الإشبانيول يشنون الغارات، خرج الأمير موسى بفرسانه فوالى عليهم الهزائم، وصارت خيوله وسراياه تعود بالفنائم، وتدخل غرناطة دخول الظافر، ممَّا أعاد إلى خواطر القوم ذكر الأيام الماضية، وحدثهم بعود عزِّ الإسلام وأيام غلبته على تلك الأفطار، ومضى شتاء تلك السنة على هذه الحال وأقبل الربيع، فقال الطاغية علينا أن نجتاح هذه السنة كُور غرناطة، وفي التي بعدها نهاجم البلد بعد أن يكون قلَّ القوت وانقطع المدد، فحضر بخمسة آلاف فارس وعشرين ألف ماشٍ وأخذ يكسح مرج غرناطة البديع النضير المنقطع النظر، معه من أمراء بلاده دوق مدينة سيدونية، ومركيز قادس، ومركيز فيلنه، والدون ألونزو دو أغيلار، وغيرهم من رؤوس قوادهم، فشمّل تلك المروج عينًا وتخريبًا وبعث النار في جميع أرجائها، حتَّى غطى الدخان الأفق، وأظلم جوُّ غرناطة من دخان شجرها، هذا وأبو عبد الله لا يجسُر على الخروج من حمرائه خوفًا من فتك العامة به، لقولهم إنَّه هو سبب هذه المصائب، لكنَّ موسى قسَّم فرسانه إلى عدَّة كتائب وعقد على كلِّ كتيبة لواء من أحاد القادة، وأطلق الغارات على أطراف معسكر الإشبانيول، فأبلغ فيهم النكاية، وربَّما عمد لكثرة حشودهم إلى الخدعة والمكيدة أحيانًا، ففي إحدى المرّات بينما كانت قطعة من الجيش الإشبانيولي سائرة في سفح جبل، إذ التقت بجماعة من المغاربة تقهقروا أمامهم، فطمعت فيهم حتَّى نشبت<sup>(٢)</sup> بين صخور، فاندفق عليها المغاربة من وراء الجندل<sup>(٣)</sup>، فاستلحم الإشبانيول، وفرَّ منهم جماعة، وصبرت جماعة بقيت تقاتل في أرضها، وإذا بحيل الإسلام، قد أطلت مُنقِصَةَ إنقضاض العقبان، فحصلت في وسط الإشبانيول،

(١) من كلِّ أوب: من كلِّ ناحية وصوب.

(٢) حلقت.

(٣) الجندل: المكان الكثير الجندل والجندل: الحجارة.

وَحَمِيّ الوطيس، وكان مركيز فيلنه، وأخوه الدون ألونزو دو بشيكو، في بهرة المعمعة<sup>(١)</sup>، فما عمَّ أنْ جُرحَ المركيز وخرَّ الدون ألونزو، صريعًا وبجانبه أصطفان دو سوزون من صِيَابَةِ القُواد، وضاق الخناق بالإسبانيول، وشاهد الملك أنَّ الوجه للمغاربة<sup>(٢)</sup>، وأنَّ جماعته هالكون لا محالة، فأمرهم بالرجوع، فلم يترثثوا في تلبية أمره، وانكفؤوا خاسرين بعد دفاعٍ شديد.

ولمَّا رأى فرديناند أنَّ مناجزة المغاربة، خصوصًا في هذه المناوشات الخاصَّة، تعود غالبًا بالخسران على عسكريه، أصدر أمره الصارم باجتنب القتال معهم، والاعتماد على القيثِ في بلادهم، واكتساح أراضيهم، واستتصال أسباب القوت، ليأخذ غرناطة بالمجاعة بدل الحرب.

#### - سقوط حصن رومة هي يد هرديناند

وكان على مسافة مرحلتين من غرناطة حصن يقال له حصن رومة، من فوق هضبة مُشرِّفة على المرج، وكان في مكانه أعزَّ من الأبلق<sup>(٣)</sup>، يقصده المتجثون من المغاربة والشذاذ منهم وقلَّ العساكر إذا انهزمت، وهو شجًّا<sup>(٤)</sup> في حلق الإسبانيول، فلمَّا كان الطاغية نازلًا على مرج غرناطة، ازدادت يقظة حراس الحصن، وفي صبيحة يوم، بينما كانوا ينظرون إلى بعيد مراقبين حركات الطاغية، إذ تراءى لهم عمائم عجراة<sup>(٥)</sup>، وأسنة<sup>(٦)</sup> مغربية، ولم يكن غير قليل، حتَّى وصل حذاء القصر، نحو مائة وخمسين مغربيًّا، معهم قطع من المواشي مسرعين مهطعين<sup>(٧)</sup>، وتقدَّم منهم عريف عليه سيماء<sup>(٨)</sup> الشرف والنباهة، فالتمس الدخول قائلاً إنَّهم كانوا في غارة ببلاد النصرارى، وقد غنموا منهم، وقفلوا، لكنَّ النصرارى تطاردهم فهم يخافون أن يدركوهم في الطريق قبل أن يدرکوا غرناطة، ففي الحال أسرع الخفراء إلى

(١) سطوع المعركة الذي يخطف الأبصار.

(٢) الثخبة المُختارة.

(٣) الوجه لهم: (مجازًا) القلبي لهم.

(٤) حصن شهير للمسؤول.

(٥) ما اعترض في الخلق من عظم ونحوه.

(٦) تقول اعتجَّر الرجل، نَفَّ عمامته دون التحلي.

(٧) رماح.

(٨) هطع: أسرع مقلِّبًا خائفًا وهو مهطع.

(٩) علامة.

فتح الأبواب ودخل هؤلاء المغاربة وأظهروا الاطمئنان، وفرحوا بهم، إلا أنه ما كاد ينتشر حراس الحصن في باحاته حتى علت الصيحة بغتة، فأسرع كلٌّ إلى سلاحه مذعورًا، فوجدوا القصر في يد هؤلاء الدخلاء، فاستنموا إلى الخضوع، وعلم بعد ذلك أن سيدي يحيى السابق الذكر مع ولده، قدما من الجبل بجماعة من المدجنين لخدمة الطاغية، فأعملا الحيلة في الاستيلاء على هذا الحصن استزادة من الزلغى لديه، وبهذه الوسيلة تمكنا منه، وبعثا بالخبر إلى فرديناند، فأرسل وشحته بالمقاتلة، وأما حامية الحصن، فإن سيدي يحيى أبى عليهم وأطلق سراحهم، فانصرفوا إلى غرناطة، ولم ينفعه عند الغرناطين إبقاؤه على حياتهم مع خيانتهم في أمر الحصن، فانهاالت على اسمه اللعنات كالمطر الصيب، كما أنه من الجهة الثانية لم يحمل عمله كله على الخُلوص التام، فقد قال الأب أغايدا الإسبانيولي في تاريخه: "إن إطلاق سراحهم دليل على أن نصرانيته لم تكن كاملة، بل لم يزل في قلبه بعض ذرات من الإسلام"، وهذه غاية المنافقين أن يخلصوا من كل فنة.

#### - الزغل ينضم بجنوده إلى هرديناند

ثم أوغر صدور الغرناطين حنق آخر أشد من الأول، وهو من عمل مولاي أبي عبد الله الزغل ملك أندرش، الذي كان معتزلاً فيها، متسلباً بهذا اللقب عن أحزانه وأوجاعه، وكان المسلمون إلى ذلك الحين ينظرون إليه نظره إلى رجل مظلوم مخذول، وصل إلى الحالة التي وصل إليها اضطراراً وتسيراً، وزجّه في ما هو فيه كنود<sup>(١)</sup> ابن أخيه، وقرود بني ملته عن نصره، ففي أحد الأيام ساق الزغل عمايته في بغض ابن أخيه إلى النزول من أندرش بمشي مقاتل والانضمام إلى عسكر الإسبانيول، فلما رأى المسلمون راية الزغل بين رايات ملوك النصارى، تحقّقوا انحيازهم للطاغية، فألقوه بسيدي يحيى في المنزلة عندهم، وعلت عندهم مكانة ابن أخيه حينئذٍ، ونودي بأسمه في الأسواق، وهتفت الأصوات بالدعاء له، وعقدت به الآمال، فنفعه عمل عمّه، ونشط السلطان أبو عبد الله للحركة، وأعمل في الجهاد، بما رأى من إقبال قومه عليه.

#### - تراجع هرديناند، وقيام أبي عبد الله للجهاد

وبعد أن لبث الطاغية شهراً كاملاً يعيث في مرج غرناطة، حتى أخنى على نضارته،

(١) نُحْر.

قفل إلى قَرْطَبَة من طريق الجبل، فما تواری عن العين حتَّى نهض أبو عبد الله متقلِّداً سلاحه، وامطى جواده، ونفر واستنفر، فالتفت عليه فرسان غرناطة، وختت إليه سكان جبال البشرات، الموصوفون بشدة البأس، وماجت ساحات الحضرة بالحشود، وتبايع الناس على الموت، وتبارى الفرسان في ميدان النزال، يقدمهم الأمير موسى بن أبي الغسان، وهو روح النهضة، وسيف العزيمة، والفجر الصائح بليل الملمة<sup>(١)</sup>.

#### - سقوط حصن همدان في يد أبي عبد الله

فخرج السلطان من الحمراء في ١٥ حزيران ودهم حصن همدان على بضع مراحل من غرناطة وهو من أعزّ حصون النصارى، يحرسه مائتان وخمسون مقاتلاً من أبطالهم، معقوداً عليهم لفارس مغوار اسمه مندو دو كويشاده، فأناخ بساحته السلطان ستة أيام وست ليال، يغاديه القتال ويراوحه، حتَّى هلك أكثر حاميته، وسلّم الباقون فدمر السلطان الحصن وجعله دكاً<sup>(٢)</sup> وأرسل الأسرى إلى غرناطة.

#### - سقوط حصن مارشنة وحصن بلدة في يده أيضاً

ثمّ استولى أبو عبد الله على حصن مارشنة، وحصن بلدة من حصون النصارى، وشاع بين المسلمين أنّ السلطان أثنخ في النصارى، وافتح من معاقلهم، وأنّ الكثرة مأمولة، فقويت عزائمهم ولاحت لهم بارقة الأمل، وانتقض الخاضعون منهم للطاغية ناشرين راية أبي عبد الله، وأخذ خيالة غرناطة يغزون أرض النصارى من جهة ثغر جيّان، ويغنمون منهم، إلّا أنه، مرّة، بينما كان بعضهم عائدين بغنيمة وافرة كمن لهم كونت تندية في أحد الأودية، فدعروا وقتل منهم خمسة وثلاثون فارساً وأسر نحو من خمسين واستعاد الكونت الغنائم.

#### - أبو عبد الله يفكر بفتح شلوبانية على البحر ويقصدها ثم يدخلها

وبقيت سرايا الفريقين يغزو بعضها بعضاً، فرأى السلطان أبو عبد الله أنّ بقاء الحال على هذا النوال لا يزيد قوة، وأنه بعد أن جرى ما جرى، من حطم الزروع وقطع الأشجار، ونسف العمران حول عاصمته، لا بدّ أن يؤخذ بالجوع إن لم يؤخذ بالحرب،

(١) فتازلة الشديدة؛ والكارة الجليّة.

(٢) هتّمه وفوّضه جيّماً.

ففكر في فتح طريق بينه وبين البحر، والاستيلاء على فُرْصَة بحرية، يتسرّب منها إليه المدد حيث كانت جميع مواني الأندلس في أيدي النصارى، فوجّه عنايته نحو شلوبانية وهي مدينة كانت معدودة عند العرب من أحصن مدن الأرض وأصعبها مرتقى، وكان ملوكهم يستودعون فيها خزانهم وكنوزهم، وكان الطاغية لذلك العهد قد جعلها لِنَظَرِ الدّون فرنسيسكو راميرز دو مدريد، قائد المدفعية الأكبر، لكنّه كان عند زحف أبي عبد الله إليها غائباً في قُرْطُبة، ينوب عنه في القيادة أحد فرسانه، فانتهاز الفرصة سلطان غرناطة ونازل شلوبانية بجيش جرّار، وكان أهلها من المدجّنين، فلمّا رأوا رايات الإسلام قد أقبلت، انضوا تحتها وخلصوا طاعة العدو ورأت حامية البلدة من النصارى، إنّها لا تقدر على مدافعة أبي عبد الله، فاعتصمت بالقلعة، فدخل المدينة، واستولى عليها وامتعت عليه القلعة فنزلها، وطمع في منع الماء عنها، وامتدّ الصريخ في الجوار بأنّ المسلمين منازلون شلوبانية، فامتألت قلوب نصارى الساحل رعباً، وكان الدّون فرنسيسكو أنريك قائد بَلْش مألقة، فجمع جيشاً فيه فرناندو بيرز دلبلغار، صاحب المنديل، وحضر لإغاثة قلعة شلوبانية، فوجد المدينة في أيدي المسلمين فخيم تجاه القلعة، فاشتدّ به أزرُ الحامية، وانساب فرناندو سرّاً بسبعين من أشداء رجاله، فتسلّقوا القلعة من باب صغير قبل أن تمكّن العدو من الشعور بهم، ولم يلبثوا أن حضر إلى الميناء أسطول فيه جنود وموّن لإغاثة النصارى، فنزلوا في مكان حصين على شاطئ البحر، ولمّا نازل المسلمون القلعة صاروا بين عدوين، فارتدوا عنها، وعوّل أبو عبد الله على أخذ ميناء حُدْرَة الذي كان سلّمه إلى النصارى سيدي يحيى، السابق الذّكر، في ما تزلف به إليهم من الخدمة، إلّا أنه بلغه كون الملك فرديناند زاحفاً بعساكره، فهاجم القلعة الهجوم الأخير فلم يفرّ منها بطائل، فأقلع عن شلوبانية عائداً إلى غرناطة، واشتفى في مسيره بالعيث في الأراضي المختصة بسيدي يحيى، والانتقام من جماعته، ورجال عمّه الزغل، ودخل الحمراء بمغاثم كثيرة تسلّى بها عن فشله أمام شلوبانية، ولم يكده يستقرّ في مقعده بالحمراء، حتّى وصل الطاغية بجيش مؤلّف من سبعة آلاف فارس وعشرين ألف راجل بقصد إغاثة شلوبانية، فلمّا بلغه إقلاع ملك غرناطة عنها، مال إلى المرج، فاستقصى جهاته تخريباً وتدميرًا، واستأصل أشجاره، وأفسد زرعها، حتّى قيل إنّهُ لم يبقَ فيه غصناً أخضر ولا نعجة تسرح، فبينما هو مرج أخضر، إذ انقلب فقراً أغبر، ودافع أهل غرناطة عن حياضهم ورياضهم فلم يُجِدْهم دفاعهم، لانتشار العدو في بقاعهم، والتزامهم الانكماش في مدينتهم محافظةً على أسوارها.

## - فرديناند يُخرج أهالي وادي آش وبَسْطَةَ والمريّة من منازلهم

وفي تلك الأيام، كشف النصارى مكيدةً دبرها أهل وادي آش والمريّة وبَسْطَةَ، فأنهم راسلوا السلطان أبا عبد الله أن يزحف إلى مدنهم، وهم يفتكون بحاميات، ويفتحون له أبوابها، فبلغ ذلك مركز دو فيلته، فخفَّ إلى وادي آش بقوّة وافرة، وبحجّة أنه يريد أن يعرض الأهالي في مكان فسيح فأخرجهم خارج الأبواب ثمّ أغلق الأبواب في وجوهمهم، وأبلغهم أنه محظورٌ عليهم سكنى المدن، نعم أذن لهم بالدخول مثى مثى، أو ثلاث ثلاث، لأجل أخذ نسائهم وأولادهم، وحيث صاروا بدون مأوى اتخذوا مضارب وأكوأخا في الأرياض والبساتين وأوصلوا الشكوى من هذه المعاملة، فأجيبوا بأنّ عليهم الانتظار إلى أن تتحقّق براءتهم، ويصدر أمر الملك بشأنهم، فلمّا حضر الملك فرديناند، وفدوا عليه وشكوا لديه معاملة قوّاده لهم، خلافاً للعهد التي أعطاهم إيّاها فأجابهم بما معناه: يا أصحابي، بلغني أنّ كيداً هنا قد تدبّر بأن تقتلوا عمّالي وجنودي وتشرّكوا مع ملك غرناطة في قتالي، وقد تحقّقت تدبير هذه المكيدة في ما بينكم، فمن منكم ثبت براءته يعود إلى منزله، ومن دخل في هذه الدسيسة فإنّني لا أسامحه، لأنني كما أحبّ الرحمة أحبّ العدل أيضاً، وها أناذا الآن، أجعلكم في الخيار، فاختاروا الأُخفّ عليكم، إمّا أن تقوموا من هنا جالين عن البلاد بعيالكم وأموالكم وأنتم آمنون وسالمون في أنفسكم ونفسيكم، وإمّا أن تسلّموا إليّ رؤساء الفتنة الذين كادوا لي كيدهم. قال المؤرّخ غاييدا وهو من التعصّب والتحامل بالمقام الذي لا يخفى: "ولمّا كان أكثر أهل وادي آش مشتركين بهذه الدسيسة أتروا الرحيل بنسائهم وأطفالهم".

ثمّ خير فرديناند أهالي بَسْطَةَ والمريّة هذا التخيير نفسه، تخلّصاً منهم ففضّلوا الإجازة إلى أفريقية، ومن بقي منهم لاذ ببعض القرى والدساكر لابسين أثواب الذلّ ألواناً وأشكالاً.

## - النزحل يجوز<sup>(١)</sup> إلى أفريقية

وكان السلطان أبو عبد الله الزغل قد ينس من الحالة التي آل إليها وتكاعده<sup>(٢)</sup> الهمّ، واشتدّت عليه وطأة الأحزان ممّا جرى له من فقد الملك، وانتشار السلك، والنزول عن عرش سلطنة، إلى رتبة شيخ قرية، بل كان أهل أندرش ابتدأوا ينشّرون عليه، وبعد لحاقه الأخير

(١) غيّر.

(٢) نكاذ ونكاد الأمر: شقّ وصعب وتكاده: كابه وشقّ عليه وصلّى به.

بجيش الطاغية أصبح اسمه مسموياً<sup>(١)</sup> عند كل المسلمين، وصار رديفاً للجنة اللاعنين، فضاقت مذهبها، وعول على الرحيل من الأندلس، فقدم على الطاغية وطلب منه المساعدة في الإجازة، وعرض عليه شراء أملاكه الواسعة بثمن بخس، وكانت نحواً من ثلاث وعشرين بين مدينة قرية في وادي أندرش والهورين، فأعطي بدلها خمسة ملايين من السكة المعروفة بالمزاويد، وهب حصّة في الملاحه وأماكن أخر لابن عمه سيدي يحيى، وشدّ حقايبه وأجاز إلى أفريقية.

فلماً وصل إلى أفريقية، أخذه سلطان فاس وألقاه في السجن، وبعد ذلك سمل<sup>(٢)</sup> عينيه، بدعوى إنّه كان السبب في بلايا مسلمي الأندلس، وذهب غرناطة من اليد، واستصفى أمواله، واستبدّ بخزائنه، ولعلّ هذا هو السبب في نكبته، ثمّ خلى سبيله، فروى مؤرخو الفرنجة أنه التجأ إلى أمير بلش غمارة وكان صديقاً له، فأشبعه من جوع، وأواه من فقر، ولطف مصيبته بقدر الاستطاعة، حتّى إذا مضى هذا لسيله لم يبق له مئيت ولا ناصر، فهوى ثانية في وهدة الذلّ والفاقة، وقيل، إنّه آل أمره أخيراً إلى أن يستعطي في الأسواق، ويطوف، وعلى ثيابه رقّ غزال مكتوب عليه: "هذا سلطان الأندلس العاثر الجذ"<sup>(٣)</sup>، وهذا مخالف لرواية "نفع الطيب" كما سترى عند ذكره جواز الزغل.

#### - هرديناند يحاصر غرناطة من جديد -

هذا، وبعد أن عطّل فرديناند مروج غرناطة من حلاها، زحف في حادي عشر نيسان من ذلك العام، بأربعين ألف راجل وعشرة آلاف فارس لحصار المدينة، واستصحب في هذا السفر جميع عظماء قوّاده لُدْرِيْق بونس دوئي، ومركيز قادس، ومعلّم صانتياغو، ومركيز فيلنه، وكونت تنديله، وكونت قبرة وأورنية، والدون ألونزو دو أغيلار، وانعقدت العزائم على التضييق بالبلدة، ومزاولة الحصار إلى أن يتمّ تسليمها، وإنّه لا إفراج عنها هذه المرّة. وكانت الملكة إيزابيلا مع ولدها البرنس جويان وابنتها، جويانة مارية، وكاتالينه في حصن كونت تنديله تبعث بالممدّد والذخيرة إلى المعسكر.

فلماً رأى السلطان أبو عبد الله من شرفات الحمراء جيوش الطاغية مقبلة، وقد غطّى

(١) المّت: أشدّ البغض. عمقوت: مبعوض.

(٢) قَلَمَهَا.

(٣) الحَقْد.

عاجها<sup>(١)</sup> الفضاء وسدّ الأفق، عقد مجلساً مؤلفاً من أعيان غرناطة وروسائها، فاجتمعوا كاسفي البال، نادبي سوء الحال، وتحوّف بعضهم عواقب الحرب من نزول المعرّات<sup>(٢)</sup> في بيوتهم، فأشاروا على أبي عبد الله بتسليم مقاليد أمره إلى كرم فرديناند أملاً بأن ذلك يعود بشروط صلح مقبولة.

وستل الوزير أبو القاسم عبد الملك، أن يبيّن مقدار الباقي من الطعام والذخيرة لأجل الحصار، فأجاب أن الباقي يكفي مؤونة بضعة أشهر ما عدا الذي في مخازن التجار ومنازل الأغنياء، لكن أيّ فائدة من ذلك إذا كان حصار النصارى لا ينتهي، ثمّ سُئل عن عدد القتلة، فأجاب إنّه عدد عظيم، لكنّه ماذا ينتظر من جيش معظمه من سكان المدن يرغون، ويزيدون، في أماكنهم، حتّى إذا دكّف إليهم العدو سكنت ثائرتهم وانطفأت جمرتهم.

فلما سمع موسى بن أبي الغسان هذه الكلمات نهض قائلاً: «أيّ باعث بنا إلى اليأس؛ فإنّ دم الأبطال من عرب الأندلس فاتمي هذه الديار يجري في عروقنا، وعندنا قوّة وافرة، وجيوش معوّدة مجرّبة في الوقائع، لا نرتاب في إقدامها، إذ لدينا عشرون ألف شاب يمكنهم أن يدافعوا عن دورهم وأسوارهم، أعظم قوّة وأكثف جيش، فأما الطعام فلا نحتار في أمره، ولدينا عقبان من الجياد المسوّمة نظير بها إلى ديار المدجنين الذين استسلموا للنصارى وإلى بلاد العدو فنعود بالفتائم والأنفال»<sup>(٣)</sup>.

فبثت كلام موسى عزائم القوم ووطنهم على الدفاع وتوزعت القيادة فعهد إلى الوزير أبي القاسم بتجنيد الأجناد وتفريق المؤونة والسلاح، وإلى الأمير موسى بقيادة الخيالة وحفظ أبواب المدينة والمهاجمة، ومعه نعيم رضوان ومحمّد بن زاهدة، وإلى عبد الكريم الزغبى وقادة آخرين، بالمحافظة على الأسوار، وإلى قوّاد القصبه والأبراج الحمر، بالدفاع عن الحصون.

وأخذ الغرناطيون بالتأهب للجهاد، فلم يكن يُسمَع إلاّ قرع الطبول، وسليل أسنة وصهيل خيول، وانتظمت الفرسان بقيادة موسى كواكب، يتقدّمها شهاب ثاقب<sup>(٤)</sup>، فكان أنجاد الغارة وأحلاس القتال يُعجّبون ببسالته وإقدامه، وكانت العامّة تحوم عليه، هاتفين

(١) المعجاج: الغبار.

(٢) المعرّة: الفقر، وفناء الزاد.

(٣) نَقَلَ القائل الجند، جَمَلَ لهم ما غَنِمُوا في الحرب. والجمع أنفال.

(٤) كواكب بضمّ شهاب ثاقب: (كناية) عن الفرسان الذين يتقدمهم موسى بن أبي الغسان.

بالدعاء مهللين، وكان طائفة العَجَزَة من الشيوخ والنساء يسلّمون عليه ويباركونه، معتقدين أنه حاميمهم والِحَّة الواقية دونهم.

ولمّا قرب النصارى من المدينة أحكم المغاربة إقفال الأبواب وجعلوا وراءها السدود والسلاسل وأوثقوها بالأغلاق المتينة، فجاء موسى وأمر برفعها كلّها قائلاً: "قد عُهِدَ إليّ وإلى خيالي حراسة هذه الأبواب، وستكون أجسادنا سدوداً من دونها"، وجعل عند كلّ باب حرساً وافرّاً وكانت خيله دائماً حاضرة للنزال، ومقاتلته على أوفاز<sup>(١)</sup> للحرب، فإذا دنا العدو، انتقضت عليه كالصواعق وأفحشت فيه النكاية، فكان في أفعال موسى فضلة على أقواله.

قال الكاتب الشهير واشنطون أرفن: "فلو وُجِدَ عند الغرناطين عدّة رجال مثل موسى، أو كان ظهوره في بداية هذه الحرب لكان تأجّل سقوط مدينة غرناطة وبقى المسلمون مدّة مديدة بعد ذلك متبوّئين أبراج الحمراء".

#### - وقائع الأمير موسى بن أبي الفسّان

هذا ونظر فرديناند إلى حالة غرناطة ومَن فيها من جموع المسلمين، المنضوية إليها من سائر الأندلس تغلي في صدورهم الأوتار<sup>(٢)</sup> غلّي النار في المراحل، وفيهم من ذوبان الرجال، وأبطال النزال عدد يفوق الإحصاء، فرأى أنّ أخذ البلد بالسيف من قبيل الأحلام، واعتمد أن يأخذها بالحصر والتضييق، كما أخذ مدينة بسطة، فقطع عنها المدد واجتاح جبال البشرات، وصار يقبض على كلّ قافلة نازلة صوب غرناطة فكان موسى يشنّ الغارة في خيله على معسكر، فيغنم ويفتك ويعود بالسلب، فأمر الملك اتقاء غارات موسى بحفر خنادق وإقامة أسداد حول الخيم، وجعل الخيم أقساماً أربعة، على شكل مربع وبينها الأسواق والدكاكين.

وبعد أن تمّ ذلك على هذا المتوال استدعى امرأته الملكة إيزابيلا، فحضرت بأولادها وأقامت معه، وذلك دهاءً منه لقطع آمال الغرناطين من الرحيل عنهم، حتّى يُمكنوه من بلدتهم، وكان لقدومها في المعسكر ضجّة فرح عظيمة، أمّا المغاربة فلم ترتخ عزائمهم بذلك، وقال لهم موسى: "إنّ علينا الدفاع عن الأرض التي تحت أقدامنا لأنه إذا لم تبق لنا ذهب ملكتنا ومُحيت أسماؤنا".

(١) تقول: توفّر للشرّ. نبيّها: لو فاز: متابعون للحرب.

(٢) مفردتها وتُر: الظلم، والتستف، ومضمّ الحفوق.

## - المبارزات

ولمّا رأى موسى أنّ الملك فرديناند لا يناوشهم القتال مُتَنظراً تسليم البلد بالحصر والتصنيق وقطع الميرة، أخذ يُرسل فرسانه لمبارزة فرسان النصارى قرناً لقرن، فلم يكن يمضي يوم، إلّا ويقع فيه عدّة مبارزات بين شبّان الطائفتين، فرأى فرديناند أنّ هذه المصارعات الشخصية قد أثارت جأش المغاربة، وقوّت عزائمهم وأفقدته عددًا من فرسانه، فأمر جيشه بعدم قبول البراز. وغيرهم<sup>(١)</sup> المسلمون بذلك. فلم يخالفوا أمر الملك، فقال المسلمون: "أيّ فضل للملك يحاول أن يُخضعنا بإضعاف أجسادنا ويفرّ من لقاء أرواحنا". ومنذ ذلك الحين شرع فتية المسلمين يحركون شبّان الإِسبانيول للنزال بما أمكن من الوسائل، فكان بعضهم ينقضّ على معسكر فرديناند بيده حربة يثبّتها في أقصى معسكرهم وعليها اسمه، ورثمًا كتب مع اسمه بعض الشتائم تحميسًا للإِسبانيول، لكنّ هؤلاء كانوا يحتملون هذا الذلّ إطاعةً لأمر الملك. إلى أنه في أحد الأيام أغار فارس مغربي اسمه "طرفة" مشهور بقوّة جسمه وثبات جنانه، لكنّ شجاعته أميل إلى التوحّش، وغلظ الكبد نّمّا هي إلى النخوة والحميّة، فأثبت رمحه في الأرض أمام فسطاط الملك والملكة، ورجع كالبرق الخاطف، فجذّ الحرس في أثره فلم يدركوه، ودخل المدينة فنظروا إلى الرمح فوجدوا عليه رقًا<sup>(٢)</sup> مكتوبًا عليه بعض الشتائم عرفوا أنّ المقصود بها الملكة.

## - تسلّل الإِسبانيول إلى غرناطة وانسحابهم منها

فعظمت نكايه هذا الفعل في قلوب الإِسبانيول؛ وكادت فتیانهم تميّز<sup>(٣)</sup> من الغيظ، من هذه الجرأة، وفي الليلة التالية جمع فرناندو بيريز دلبلغار نخبة من الشبّان وسرى تحت الظلام إلى أحد أبواب المدينة، فوجد الحرس نائمين لعدم توقّعهم مثل هذا الهجوم، فدخل بجماعته وقام كلٌّ إلى سلاحه فتمكّن الإِسبانيول من اللباب وحفظوه، ريثما كان فرناندو قد أوغل في وسط المدينة، راکضًا جواده الذي يسابق الريح حتّى وصل إلى الجامع الأعظم، فأثبت في بابه لوحًا كان معه مكتوبًا عليه اسم "مريم العذراء" ورجع مسرعًا فوجد قومه ثابتين في مراكزهم، فخرجوا وافرّين وما انتبه أهل غرناطة لهذه الضجّة، وجدّت العساكر من كلّ نواحي البلد حتّى كان الإِسبانيول قد صاروا يقرب مضاجعهم.

(١) حانهم.

(٢) الجِلْدُ يُكْتَبُ عليه، وهو خاصّ بجلد الغزال.

(٣) تميّز من الغيظ: تقطّع.

ويقال إنَّ هذا الجامع بعد دخول الإسبانول إلى غرناطة تحوّل إلى كنيسة بأسم السيدة "مريم" وإنَّ الإمبراطور شرلكان، منح دلبغار هذا ودُرِّبته الحقّ في دفن أمواتهم بتلك الكنيسة.

وكان بُعد معسكر الإسبانول عن المدينة بحيث لا يمكن منها سوى لمحتها العامة، فأرادت الملكة إيزابيلا أن تشاهد تفاصيل البلد، وقلّ صبرها عن ذلك فهيّا مركز قادس بطانة وافرة وأحرّاساً متعدّدين وسيّر قطعة من الجيش بين خيل ورجل، وسار الملك والملكة وأولادهما وأمراء إسبانية بأفخر الزينة وأنّفس المراكب، وقصدوا مزرعة يقال لها "الزينة" في حدود الجبل، شمالي غرناطة مُشرّفة على حمرائها وأجمل أحيائها فلمّا قاربوا المحلّ تقدّم مركز فيلنه، وكونت أورينه، والدّون ألونزو دو أغيلار، بجنودهم وربطوا أعالي القرية ووقف مركز قادس، وكونت تنديله، وكونت قَبْره، والدّون ألونزو، وفرناند، بجموعهم حذاءها<sup>(١)</sup>، ودخل الملك والملكة أحد بيوت القرية حيث أعدّ المكان لجلوسهما وحف بهما الأمراء والأساقفة، ينظرون إلى غرناطة الحمراء، متأمّلين كيف تتحوّل قريباً مساجدها كنائس ومآذنها معالق للنواقيس<sup>(٢)</sup>.

(١) محاذتها (قربها).

(٢) مفردها ناقوس: جرس.

## القرناتيون يهاجمون موكب إيزابيلا

### - معركة "مناوشة الملكة"

ولمَّا رأى المغاربة اصطفاة جيش الإِسبانيول كَأَنَّمَا يريدون القتال، رأوا من الذلِّ الإِجرام عن مناجزتهم، فما مضت هنيهة، حتَّى شوهدت سرية من فرسان غرناطة قد خرجت من المدينة بالعدِّ الكاملة والأسِّة اللامعة، وعُلمَ أَنها فرسان موسى بن أبي الغَسَّان، فصدر أمر الملكة لمركيز قادس باجتنا ب القتال لأنها لا تريد أن يُراق بمقدار نغبة الطائر<sup>(١)</sup>، من الدم في سبيل نزهتها، فالتزم المركيز السكون ولم يعلم المغاربة السبب فيه فأخذوا يتحرَّشون بالإِسبانيول، ويدعونهم إلى النزال، والمملك يمنع قومه من الإِجابة، وألحَّ بعض فرسان المسلمين حتَّى صاروا في مصاف النصرارى يهزُّون أسنَّتهم ويحرِّكون حفاظ أعدائهم، وهؤلاء ساكنون في مواطنهم، وإذا بفارس زَميت<sup>(٢)</sup> الهيئة، مفتول السواعد، غريب الصولة، عظيم البطشة، قد تقدَّم ووراء جماعة فعرف بالقرينة، أنه هو "طرفة" الذي أهان الملكة حسبما تقدَّم، ونظر الإِسبانيول فإذا به معلقٌ بذيل جواده اللوح الذي كان دلبغا قد ركَّزه في باب الجامع الأعظم، بما فيه من الكتابة، فلمَّا رأى الإِسبانيول هذه الإهانة غاب صوابهم وضاع رشدهم، وأسرع أحد أبطالهم المدعو كارسيلاسو، فاستأذن الملك في النزول لمبارزة هذا الذي أهان السيِّدة "مريم"، فأجابه إلى ذلك إجلالاً لمقام الطلب، فعاد كارسيلاسو وتقلَّد سيفه، وتأنَّب بدرعه،<sup>(٣)</sup> واعتقل سنانه<sup>(٤)</sup>، وامتطى حصانه، ونزل لمبارزة الفارس المغربي، فتساور القرنان بمشهد من الجيشين الشاخصة أبصارهما وكان المغربي، بحسب رواية مؤرِّخي الفرنجة، أشدَّ ساعدًا وأعظم حَلَقًا وأوثق أضلاعًا وأحسن ركوبًا من خصمه، ولذلك كان النصرارى خائفين على فارسهم وفي الصدمة الأولى تزحزح كارسيلاسو عن صهوته وكاد يهوي لولا أنه تمكَّن حالاً من لجام حصانه، وعاد مستويًا على ظهره، فأخذ المغربي يدور حوله، متوتِّبًا به، دوران الباز الأشهب حول فريسته، وكان

(١) ما حسا من الماء الجرعة.

(٢) وقور.

(٣) نَيْسها، والإْتب: الدرع التي تُكسُّ فوق الثياب.

(٤) قبض على رُمح.

جواده طائعا له، وخيّل للناظرين عند كلّ ضربة يضربها، أنّ رأس الإيبانيولي قد طار عن جسّته أو فُلِقَ شطرين، لكن كارسيلاسو بسرعة حركته اتّقى ضربات طرّفة، تارةً بالنكوس<sup>(١)</sup> بجواده، وأخرى بالدّرَقِ يحتمي بها، ومع هذا فكانت كُلوّم البطلين قد غطّتهما بالدم، وخارت قوى الإيبانيولي ولحظ ذلك طرّفة منه، فوثب عليه وأهواه عن سرجه ولمّا حصل على الأرض صرعه على ظهره، ثمّ ركع فوق صدره واختلط خنجره وهمّ أن ينحره به، فصاح كارسيلاسو صيحة رجّ بها الفضاء ولم يكن إلاّ كالبرق حتّى سقط المغربي قتيلاً، وعُلم أنّ خصمه وجأه<sup>(٢)</sup> في أحشائه بمدية كانت معه، وقام من تحته وقد علا ضجيج النصارى من شدّة فرحهم بنجاة فارسهم، ونسبوا لمُدّد جاءه من السيّدة "مريم العذراء" التي انتصر لها، وقد رُوِيَتْ في هذا البراز قواعد الفروسية، فلم يتعرّض أحد من الفريقين لنجدة ابن جلدته، لكنّ المغاربة لمّا رأوا سقوط فارسهم، هاجت أحقادهم فأمر موسى بقطعيتين من مدافعه فأخذتا ترميان النار على صفوف الإيبانيول، فاختلّ مصافهم، فقال موسى لروساء جنده عليكم بالمهاجمة ولا نضيعنّ الوقت في المبارزات الشخصية، ثمّ وثب كالفضنفر الطاوي<sup>(٣)</sup>، وتبعه جماعة من خيل ورجال وحملوا حملة الرجل الواحد على صفوف النصارى، فشطروها وأوقعوا بها، فلمّا رأى مركز قادس ذلك لم يجد محلاً لطاعة أمر الملكة في التزام السكون وأمر بالقتال، واستحرّ الطعن والضرب من كلّ الجهات، وقال مؤرّخو الفرنج إنّ الملك والملكة وجميع حاشيتهما من الأساقفة والأمراء لمّا حمي الوطيس، جثوا على ركبهم بمكانهم من السطح المشرف على ميدان الحرب مستغيثين بـ "مريم العذراء"، وإنّ استغاثتهم قد صادفت القبول فإنّ الشدّة التي حمل بها المغاربة لم تلبث أن انحلتّ ووقع الرعب في قلوب رجالتهم، فوَلّوا الإِدبار، واجتهد موسى كثيراً مع خيالته في ضمّ شملهم فلم يُفلح، لأنّ أكثرهم انهزموا إلى الجبال، وبلغ، بحسب زعمهم، عدد من قُتِل وأُسِر وجُرِح من العرناطيين نحو الألفين، وهذه المعركة تُسمّى بمناوشة الملكة، ويقال إنّهُ بعد أن بردت البلاد للطاغية، ابتنت إيزابيلا ديراً في قرية، زبيبة، بأسم مار فرنسيسكو، لم يزل إلى الآن وفي حديقة الدير شجرة غار (شجرة النصر) مغروسة بيد الملكة نفسها.

(١) النكس: الجواد لا يسمو برأسه، والمعنى: الانعطاف الكامل بالجواد.

(٢) وجأ بالسكين أو الخنجر: طعن.

(٣) الأسد الجائع.

## - احتراق معسكر الإسبانيول -

وكان مرج غرناطة لم يزل باقيًا منه نطاق أخضر يحيط بأسوار المدينة، فاعتزم فرديناند أن لا يدع هناك غصنًا أخضر ولا عذبة مورقة<sup>(١)</sup> وأخذ يستعدّ لنقل محلّته صوب البلدة، وبينما هو في ذلك، إذ حصل حريق في خيمة الملكة وكانت من أبداع الفساطيط<sup>(٢)</sup> في النصرانية، وامتدّ لسان النار في المعسكر، فلم يكن إلاّ كلاًّ ولا، حتّى أصبحت تلك المدينة المتحرّكة هبّاءً مثورًا، ولكن لم يُصب أحد بأذى وظنّ النصارى في البداية أنها مكيدة من المغاربة بقصد أن يزحفوا إليهم أثناء اشتغالهم بالحريق، فأعدّت مركز قادس ثلاثة آلاف فارس وتقدّم بها نحو المدينة صدًا للغارة، فلم يبرز أحد وإنما شوهدت الرووس المعمّمة، متطلّعة من شرفات الأسوار نحو الحريق، وظنّ المسلمون أيضًا أنّ للنصارى مآربًا في إحراق معسكرهم وأنّ في طي ذلك كَيْدًا، والصحيح أنّ الملكة كانت أمرت إحدى جواريتها بنقل المصباح من جانب سريرها إلى جهة أخرى، فوضعتة الجارية في مكان آخر بقرب الستار، وهبّ عليه نسيم فاتّصل اللهب بالنسيج وأحدث ما أحدث.

## - فرديناند يزحف نحو الأسوار هيبرز له السلطان -

وكان فرديناند عارفًا بطباع المغاربة، فخاف أن يُحدث هذا الحريق في قلوبهم جرأة ويقوّي لهم أملا، فلم يُصبح الصباح حتّى عبّأ جيشه وزحف به نحو الأسوار مجتاحًا بقية البساتين التي كانت محيطة بالمدينة، فبرز السلطان أبو عبد الله من حمراه بنخبة جيشه يذبّ عن حوضه وينود عن روضه، في مواطن كاد الجبان فيه يساوي الشجاع، وأوشك الهيّابة<sup>(٣)</sup> أن يلقى السباع، إذ كان بنو الإسلام هناك يقاتلون في الدفاع عن أعراضهم وأوطانهم الأخيرة، ويناضلون عن أعزّ ما عندهم تحت أعين نسايمهم وأطفالهم وشيوخهم، المظّلين عليهم من مشارف الأبراج والمنازل، ولم تكن هناك واقعة واحدة، بل انتشرت المعارك بعدد الغياض والبساتين، ففي كلّ حديقة مُعترّك، وعند كلّ غيضة مُشْتَبَك، ولم يبقَ من الأرض قدم، إلاّ أريق عليه دم، وكانت خيل موسى تجول في الميدان مشدّدة من عزائم المغاربة حتّى

(١) الذين يزورون إسبانية في هذه الأيام يقولون إنّ جميع هذه المدن التي كانت زاخرة العمران في زمان العرب لا تزال منحلّة قليلة السكّان، وأنّ كلّ تلك الجنان لم يتجدّد منها إلاّ القليل مع أنه مضى على خرابها نحو أربعمئة سنة وصدق بعض مؤرّخي الإفريغ في قولهم إنّ إسبانية بعد العرب صارت جسمًا بلا روح.

(٢) جمع فسطاط، وهو نُزُل الملك.

(٣) الجبان، ويلقى السباع: يقابلها ويواجهها.

لو كان منهم جريحٌ مُعَفَّرٌ بالتراب، وشاهد مرور موسى انتفض قائمًا، وذهل عن جراحه، وكَم من صريع التفت صوب موسى ففَرَّت به عينه، ودعا له وحيّاه، وهو يفارق الحياة.

### - الإسبانيول يملكون بعض الأبراج، ودفاع موسى المستميت

وملك الإسبانيول بعض الأبراج بقرب البلدة، لكن بعد أن أذيقوا مرَّ الكفاح، وتساقوا كؤوس الحِمام<sup>(١)</sup> مساقاة الراح<sup>(٢)</sup> وأبلى أبو عبد الله في هذا العراك بلاء تحدّثت به الركبان، ولكن رجالته نكصت على الأعقاب، وكاد يقع في أيدي الأعداء لولا أنه نجا بفرسانه بخفة الحركة، وظلَّ قافلًا إلى المدينة، تاركًا في وسط الممعة موسى، الذي بذل جهد الاستطاعة في ضمّ شمل المشاة، وكان يناديهم مُعْتَمًا يَأْهِم، ويحرّضهم على الجهاد في سبيل حُرْمهم ودمهم، ولكن غلب الجزع على قلوبهم فلم يُجيبوا مناديًا ولا لبوا داعيًا، وتراجعت المشاة كلهم صوب المدينة، فثبتت موسى وفرسانه، وانتصب الميزان بينهم وبين العدو بأسره ولم يعترهم فتور ولا ملال، ولكن قُتل منهم جملة وافرّة وأُتخن الباقون جراحًا، فأخذ موسى يتقهقر بهم مدافعًا إلى أن بلغ المدينة فدخلها وأغلق الأبواب، وجعل وراءها الأثقال والسلاسل، قائلًا إنّه عديم الثمّة في المقاتلة المعينة لحراستها، وأمر بأن لا يخرج المشاة مرّة أخرى من المدينة لملاقاة العدو.

### - مدافع غرناطة تجبر فرديناند على التراجع

وكانت مدافع غرناطة النارية قد ففَرَّت<sup>(٣)</sup> أفواهاها، فرزأت<sup>(٤)</sup> طلّاع الإسبانيول، فأمر فرديناند برجوع الجيش، بعد أن أحرق آخر ما أحرق بغرناطة من الخضرّة، وغادرها تختنق بدخان أشجارها، وكانت هذه الواقعة الأخيرة التي خرج بها المغاربة للقاء الإسبانيول دفاعًا عن مدينتهم الفيحاء، وشهد سفير فرنسا الذي كان هناك، من باهر شجاعتهم وإقدامهم واقتحامهم حيّاض<sup>(٥)</sup> المنايا ما ملأه عجبًا. قال المؤرّخ واشنطون أرفن الإنكليزي "إنّ هذه الحرب حقبة عظيمة الشأن في تاريخ الدهر، بما تخلّلتها من باهر الثبات والإصرار، فإنّ

(١) الموت.

(٢) الحفرة.

(٣) فتحت أفواهاً.

(٤) أنزلت مُصاهبها بهم.

(٥) موارد الموت ومناهله.

النكبات توالى فيها على المغاربة مدة عشر سنوات بدون انقطاع، فأخذت مدائنهم الواحدة بعد الأخرى، وفنيت رجالهم قتلاً وأسراً وقتلوا عن كل مدينة وبلدة وحصن وبرج، بل عن كل صخرة، كأنما هم ينتظرون الفتح، ولم يجدوا مكاناً تثبت فيه أقدامهم، ولا جداراً يمكنهم رمي السهام من ورائه، إلا واعتصموا به. ينازعون العدو وطنهم المحبوب، حتى إذا لم يبق لهم إلا عاصمتهم مقطوعاً عنها عن كل مدد، غير طامعة في أدنى غوث، نازلاً على أسوارها أمة بقضئها وقضيضها<sup>(١)</sup>، لم يزالوا يدافعون عنها، كأنما هم يترقبون معجزة يرسلها الله في حقهم“. وقال غيره من المؤرخين القدماء: ”إن مقاومة الشديدة، تدل على الأمل الذي كانوا يشعرون به لفراق مرج غرناطة الذي كان لهم فردوساً ونعيماً، فبدلوا أقصى ما عندهم من القوة محاماة عن أعلق الأرضين“<sup>(٢)</sup> بقلوبهم، لا يفصلهم عنها انخزال ولا إدارب سعد، ولا إتيان جراح ولا الموت نفسه، بل لبثوا يناضلون عن محاب قلوبهم، ومواضع أشجانهم إلى أن سقط في أيديهم وأبى السعد أن يخدمهم“.

وبرهان ما قاله هؤلاء المؤرخون من الإفراج، قول شاعر ذلك العصر في ذلك المصّر سيدي محمد العربي العُقيلي، عندما نزل النصارى لمحاصرة غرناطة:

وبالنفسير نراعُ	بالطبل في كل يومٍ
وذاك إلا القراع	وليس من بعد هذا
من هيض منه الذراع	يارب خيرك يرجو
به لقلبي أذراع <sup>(٣)</sup>	لا تسلبني صبراً

وهو الذي قال فيمن تنصّر من المسلمين:

فإن يرتفع عند النصارى بالابتداء<sup>\*</sup> فكم عندنا من حرف جبل يجره

- هرديناند يبني مصكراً من الحجر

هذا وبعد أن دارت الدائرة الأخيرة على جند غرناطة، وخاب الأمل وخان الجد، لزم

(١) جالوا بقضئهم وقضيضهم: أي جسيمهم.

(٢) أعلق الأرضين بقلوبهم: أحب الأرضين إلى قلوبهم.

(٣) أذرع الرجل: لبس الذراع الواقية.

\* ثورية، فالمبتدا شأه الرفع عند العرب؛ وكم في لغتهم من حروف الجر.

المسلمون البلد لا يأتون بحركة، وإنما انتظروا إقلاع الطاغية وتبرئته بالحصار بعد حريق الخيام، فكان منه أن شرع ببناء معسكر من الحجر، بدل الأُطم<sup>(١)</sup> والأخبية، ولم يكن إلا قليلاً، حتى قامت هناك مدينة عامرة بأسواق وحوانيت، مقسومة بشارعين عظيمين، يقسمانها على شكل صليب فيتكوّن منها أربعة أحياء، وفي الوسط رَحبة فسيحة لاجتماع الجيش، وللمدينة أربعة أبواب تُتّواج مَهَابّ الرياح الأربع<sup>(٢)</sup> ولَمَّا تَمَّ بناؤها أُطلق عليها اسم "صنتافي" أو مدينة الإيمان المقدّس ولم يكذب يستقرّ بها سكانها، حتى دارت فيها الحركة التجارية، فما كان يرى إلا قوافل نازلة إليها وصاعدة منها، بينما كانت غرناطة البائسة، غريقة في لُجّة، مقطوعة الإمداد، ثمّ لم تلبث أن فشا فيها الجوع بانقطاع الوارد من الميرة والمرافق، وكانت قافلة من الطعام وقطعان وافرة من الغنم قد استولى عليها صاحب قادس وهي نازلة من جبال البشيرات إلى غرناطة، وزاد الحال تقدّم فصل الخريف وهجوم الشتاء، فاشتدّ الخناق بأهل غرناطة وأحسّوا بالعجز عن المناصبة<sup>(٣)</sup>، وتذكّروا جميع أقوال المنجّمين عند ولادة ملكهم، وما قيل بشأن سقوط غرناطة ليلة أخذ قلعة الصخرة، وانقطع قرع الطبول ونفخ الأبواق، وسكنت جلبة الحرب في تلك المدينة، وغلب على الجميع اليأس.

### - أبو عبد الله يتشاور في التسليم، ورفض موسى لذلك

حينئذٍ عقد أبو عبد الله مجلساً في الحمراء، حضره أكابر قواد الجند وحماة الحصون وأعيان المصّر، وفقهاؤه، وسألهم عن رأيهم في إسلام البلد، فقام أبو القاسم عبد الملك حافظ البلدة، وبيّن لهم الحالة السيئة التي أكلوا إليها فقال: "إن إهرامنا قد خلت من المؤونة أو كادت، ولا نتظر الآن شيئاً في الطريق، بل الذي كان وارداً لأجل الخيل صار قوتاً للخيّالة أنفسهم، وربما أكلوا الخيل نفسها، وناهيك أنه من السبعة الآلاف من رووس الخيل التي كانت عندنا برسم الرباط، لم يبق سوى ثلاثمائة رأس، وإن في مدينتنا مائتي ألف نسمة كلّها تطلب الخبز".

فقال أعيان البلد إن أهل غرناطة أصبحوا غير قادرين على المقاومة واحتمال المحاصرة، ولأي شيء يجب استمرار المقاومة ما دام العدو غير مُقلع عتاً ولا راضٍ متاً إلاّ بإحدى الخفتين: إمّا التسليم وإمّا الموت.

(١) القصر، وكلّ بناء مرتفع.

(٢) جهات الأرض الأربع.

(٣) العناء والمقاومة.

فاشتدَّت كآبة أبي عبد الله ممَّا سمع وأطرق ساعة، وتأمَّل في وجوه العمل، وفكَّر في أنه لو وصل إليه على الأقلِّ مدد من صاحب مصر أو ملوك المغرب لأمكنه الثبات، ومع هذا فقلَّمَا يتمكَّن من الثبات إلى أن توافيه النجدات من وراء البحر، نظرًا لانقطاع الزاد ولذلك ارتخت عزائمها، وران<sup>(١)</sup> عليه اليأس، ورأى الجمهور منه ذلك فعولوا على التسليم، وأصفقوا<sup>(٢)</sup> على الدخول في ذمَّة الطاغية، حينئذٍ قام موسى معارضًا وحده إجماعهم قائلًا: "لقد عجلتُم في الكلام في أمر التسليم فإنَّ وسائلنا لم تنقطع، ولم يزل عندنا بقية قوَّة عظيمة الفعل شديدة التأثير، وطالما كانت سبب الفتح، ألا وهي الاستماتة فلنستنفرنَّ العامَّة إلى الجهاد، ولنسلِّحنَّهم ونقتحمنَّ صفوف العدو حتَّى نخالط أسنَّتهم، وإنِّي لحاضر أن أمضي في هذا السبيل وأنوغِّل في كيف جمع الأعداء، وخير لي مرارًا، أن أعدَّ فيمن استاكلهم الدفاع عن غرناطة من أن أعدَّ في الأحياء من بعدها".

#### - إرسال الوزير أبي القاسم بطلب الصلح

فلم تُحرِّك كلماته منهم ساكنًا، ولم تُثِرْ عزمًا، لأنَّ اليأس كان قد استولى عليهم، والاعتقاد بأنَّ المصير، هو إلى ما أنبأ به المنجمون من السقوط ودلَّت عليه الحوادث من البوار أصبح عامًّا عندهم، فكانوا أسرع إلى طلب المُوادعة من الماء إلى الحدور، ولمَّا رأى أبو عبد الله أنَّ هذا هو استعداد القوم، جنح معهم إلى التي يبتغونها، وتقرَّر إشخاص<sup>(٣)</sup> الوزير القاسم عبد الملك، إلى الطاغية، لعقد شروط الصلح.

#### - شروط الصلح

فلمَّا قدم أبو القاسم على الملك والملكة، رحَّبَا به وأكرما موصله، وأحاله في المذاكرة<sup>(٤)</sup> على غونسلاف القرطبي وفرناندو دو صفر، كاتب أسرار الملك، فبعد المراجعات الطويلة تقرَّر الأمر على أنه إن مضت سبعون يومًا ولم يرد في أثناها مدد للمغاربة، يتسلَّم الإسبانيول غرناطة، وإنَّ جميع أسرى النصارى يطلق سراحهم بدون فدية.

(١) خيم.

(٢) أطبقوا، بمعنى اجتمعوا على رأي واحد.

(٣) إرسال.

(٤) بمعنى المفاوضة.

وَأَنَّ أبا عبد الله وخواص رجاله، يحلفون بيمين الأمانة للملك والملكة، ويتعين لهم في جبال البشرات إقطاعات معلومة لأجل معيشتهم، وأن سكان غرناطة يصبحون رعية لملوك الإسبانيول، لكنهم يحفظون أملاكهم وأسلحتهم وخيولهم، ولا يسلمون سوى مدافعهم، وتكون لهم الحرية التامة في أمور دينهم، ويتعين لهم قضاة من أنفسهم، يحكمون بمقتضى قواعد كتابهم، تحت سلطة ولاية منصوبين من قبل ملوك الإسبانيول، ويصير إعفائهم من الضرائب مدة ثلاث سنين، وفي ختامها يدفعون لملوك الإسبانيول الجزية التي كانوا يدفعونها لملوكهم، بدون زيادة، ومن شاؤوا منهم الإجازة إلى بر أفريقيا في خلال هذه المدة، تُعطى لهم الرخصة بالسفر مع عيالهم وأموالهم، بدون رسم مرور من أي ثغر شاؤوا من ثغور البحر.

وَاتَّفَقُوا عَلَى تَسْلِيمِ أربعمائة شخص من أبناء البيوتات المغربية، تبقى رهائن عند الطاغية إلى أن يتم تسليم البلد وفيهم نجل سلطان غرناطة.

هذه خلاصة الشروط التي قرأها الوزير أبو القاسم بمحضر الملاء من أهل غرناطة وبين يدي سلطانه، بعد عودته من معسكر النصراري، فلم يبقَ واحد ممن حضر إلا أجهد بالبكاء ولجَّ بالعويل، ففاضت شؤون المآقي<sup>(١)</sup>، وبلغت الأرواح التراقي<sup>(٢)</sup>، وتصاعدت الزفرات من الجميع، إلا الأمير موسى بن أبي الغسان، فإنه بقي ثابت الجأش عصي الدمع، والتفت نحو الجميع فقال لهم: «دعوا يا موالينا البكاء والنحيب للنساء والأولاد، فنحن رجال ولنا قلوب، لا لأجل ذرف الدموع، بل لأجل سفك الدماء، وإنني لأرى عزائم هذه الأمة قد ارتخت، وقطعوا أملهم من نجاة هذا الملك فوالله لقد بقي علينا أشرف الخطتين وهي الموت، فلنمت إذا في سبيل استقلالنا، والانتقام من عدو غرناطة فأمتنا الأرض تتلقى أبناءها في أحشائها غير مقيدين بسلاسل العبودية، ولا قدر الله أن يكون أشرف غرناطة صاروا يخافون الموت في الدفاع عنها».

— غضب موسى، وما يُقال عن نهايته

ثم سكت موسى، وعلت المجلس السكينة فالتفت أبو عبد الله نحو الحاضرين، وأخذ يحدق في وجه كل منهم، فلم يقع نظره إلا على وجوه غللتها الكآبة وظهرت عليها دلائل

(١) ما هنا الدموع.

(٢) مرحلة صمود الروح.

اليأس، وأبصر الجميع مُطْرِقِينَ كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِم الطير، فصاح حينئذٍ: "الله أكبر لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله، باطل اجتهادنا في معاكسة الإرادة الإلهية، فقد كتب في اللوح المحفوظ، أنني أكون شقيًّا، وأنَّ هذا المَلِكُ يذهب من يدي"، فصاح الوزراء والفقهاء: "الله أكبر لا حيلة في قضاء الله"، وارتفعت الجَلْبَة بالتكبير<sup>(١)</sup> والْحَوْقَلَة<sup>(٢)</sup> من كلِّ جانب، لكن وقع الإجماع على قبول الشروط، ولمَّا رأى موسى أنَّ جميع الحضور متفقون على إمضائها، قام من بينهم غاضبًا والتفتَّ نحوهم قائلاً: "يا قوم لا تغفِّسوا أنفسكم ولا تتسلَّوا بالمُحال، ولا تظنُّوا أنَّ ملوك النصارى وافون بمواعيدهم لكم، وأنهم كرام عند المقدرة كما هم فتاكون عند القتال، فوالله إنَّ الموت الأحمر هو أهون ما تتوَقَّع، وأنما نحن مستقبلون أمرًا أيسره اكساح الأوطان وفضيحة العيال وانتهاب الأموال وقلب المساجد وتدمير المنازل، هذا عدا السوط والنار والتطُّع<sup>(٣)</sup> والنفي من الأرض والضنى في أعماق الحُبوس، إلى غير ذلك ممَّا نحن صائرون إليه:

إذا لم يكن من الموت بُدٌّ  
فمن العار أن تموتَ جباناً

أمَّا أنا فوالله دون أن أشهد ذلك<sup>(٤)</sup>، قال هذه الكلمات وخرج من محلِّ الاجتماع واجمًا مُطْرِقًا، ثمَّ طاف بقاعة الأسود وسائر أبهاء الحمراء بدون أن يكلم أحدًا من الجسم<sup>(٥)</sup> الواقفين في الأبواب، ودخل منزله، وتقلَّد سلاحه الكامل، وأمر فأسرج له جواده الكريم، فركب وخرج من باب البيرة، إلى حيث لم يُسمَع له بعدها خبر، ولم يوقَّف له على أثر. قال المؤرِّخ واشنطون أرفن: "هذه رواية مؤرِّخي العرب في شأن غيبة هذا البطل". لكن أغاييدا روى في انتهاء أمره غير ذلك فقال: "كان في أكثر العشيات يجتمع عُصبة من فِتيَّة الفرسان الإسبانيول، سائرين للنزهة حفافي الشنيل، ففي إحدى المرات، أبصروا عند العشاء، فارسًا مغربيًّا أخذ يدنو منهم دارعًا، مرخي القناع، وحصانه مثله مغطى بالزرَد، وكانوا دارعين مثله تحت المغافر، لأنهم في أيام الهدنة لم يكونوا يحملون إلاَّ أسلحة الدفاع فلمَّا شاهدوا هذا الفارس المجهول متقدِّمًا نحوهم بهيئة مُنكِّرة نادوه كي يقف عنده ويعرِّف بنفسه.

(١) قولك: "الله أكبر".

(٢) قولك: "لا حول ولا قوة إلا بالله".

(٣) بساط من الجلد، يُفرش تحت المحكوم عليه بالعذاب أو يقطع الرأس.

(٤) يريد بها القفلا.

أما هو فلم يحز<sup>(١)</sup> جواباً، بل ظلَّ حاملاً عليهم ومن أول طعنة بسنانه شكَّ فارساً، منهم، فرماه عن صهوته، ثمَّ دار حول الباقيين شاهراً السيف فأذرع الضرب، وتلاحقت ضرباته فلم ترتفع له يد إلاَّ بَحْتَفٍ<sup>(٢)</sup>، ولم يقع له حدٌّ إلاَّ في مقتل، وكان الظاهر عليه أنه مستميت، مولع بالفتك، يقاتل للاشتفاء لا للعلاء، ويرغب في المنايا لا في الجراح ويهوى الموت لا البقاء، إلى أن كَبَّ نحو نصف الحَيَّالَة الذين التقوه صرعى على وجوههم بفاصل ضرباته، وقواصم طعناته قبل أن يُصاب بجراحة ذات خطر لشدة تلاحم زَرَدَه وسُبُوغ<sup>(٣)</sup> درعه، لكنَّه أُصيب في الآخر وخرَّ جواده من تحته، وحُيِّل أنه وقع في اليد فحاول فرسان النصارى أن يسكوه مسك اليد إبقاءً على حياته بما بهَّره من فتكه، وأدهشهم من إقدامه، لكنَّه بقي يقاتل وهو على رُكْبِه بخنجر من خناجر فاس كان في يده. ولمَّا رأى قواه قد خارت وأصبح لا يستطيع إطالة الدفاع، وخشي أن يؤخذ أسيراً، زحف إلى النهر فرمى بنفسه في الماء، حيث غاصت به درعه في الحال. وكان هذا الفارس المجهول هو موسى بن أبي الغَسَّان وقد عرف جواده بعض المتنصرة المغاربة ممَّن كانوا في معسكر الإسبانول، قال أرفن: "ومع هذا فلم تنزل هذه الحكاية مفتخرة إلى زيادة التأكيد".



أما شروط تسليم غرناطة فقد سرَّدها المرحوم ضيا باشا في تاريخه للأندلس وهي خمس وخمسون مادة، تتضمن تفاصيل ما وقع عليه الاتفاق، وفي طيها من عهود المحاسنة والملاطفة والمراعاة والمحافظة على أعراض القوم وعقائدهم ودمائهم وأموالهم وكراماتهم وراحتهم، ما لا يفي به إلاَّ نصه.

وقد تكرر في المادة الخامسة، العهد من الملك والملكة باحترام ديانة المسلمين، ومساجدهم وأوقافها وأموالها المحفوظة، وعدم التعرُّض لأموالهم الشرعية، بل إعادة ذلك إلى فقهاءهم، والمحافظة على أصول الفقهاء وعاداتهم وملابسهم، وأن يبقى هذا العهد معمولاً به في الأعقاب وأعقاب الأعقاب.

(١) لم يُجب بشيء.

(٢) الموت.

(٣) تقول سَبَّحَ الشيء: ثمَّ ضلَّ إلى الأرض.

وفي المادّة السادسة، عدم سلب أسلحة المسلمين ومراكبهم ومواشيهم، إلاّ الأسلحة النارية فتقرّر أخذها.

وفي المادّة السابعة، تسهيل السفر لكلّ من شاء الهجرة بأمواله وأمتعته، وفيما بعدها إجازته على نفقة دولة قشتالة من أيّ مرسى أراد، وتسهيل معاملات بيع العقار لمن شاء الرحيل، وإذا لم يتهيأ البيع ووكل صاحب المُلْك وكيلًا تُعتبر وكالته، ويساعد على استيفاء حاصلاته وإيصالها إليه بمكانه وراء البحر.

وورد في المادّة الحادية عشرة، تشديد مجازاة كلّ مَنْ يدخل من النصارى جامعًا بدون رخصة الفقهاء.

ورد في المادّة الخامسة عشرة، إعفاء السلطان أبي عبد الله وسائر أمراء المسلمين وقوادهم وفقهائهم، من الضرائب والرسوم، وإقرار الجميع على امتيازاتهم كما كانوا العهد ملوكهم، وأن تكون كلمتهم نافذة وقولهم مسموعًا.

وورد في المادّة السادسة عشرة، والتي بعدها، ما يتضمّن عدم جواز دخول أحد من النصارى بيوت المسلمين، حتّى ولا الملك والملكة ومَنْ خالف ذلك من النصارى يُجازى بشدّة.

وفي المادّة الخامسة والعشرين، إذا فرّ أحد من أسرى المسلمين المعتقلين في سائر الممالك، ووصل إلى غرناطة، فقد نجا، ولم يكن لمأموري شرطة غرناطة، أن يُمسكوه، لكن ذلك الامتياز مخصوص بعرب الأندلس لا يتناول أسرى المغرب.

وفي المادّة الثلاثين، أنّ مَنْ أسلم من النصارى قبل هذه الكاتنة، فلا تجوز معاملته إلاّ بالحُسنى، ولا يرى أقلّ تحقير، ومَنْ خالف ذلك ينال من الجزاء شدة.

وفي المادّة الواحدة والثلاثين، لا يُجبر مُسلم ولا مُسلمة على قبول الدين المسيحي.

وفي المادّة الثانية والثلاثين، إذا كان المُسلم متزوِّجًا بنصرانيّة وأسلمت، لا تُجبر على الرجوع إلى دينها الأصلي، والذين يتولّدون من هذا الزواج يُعدّون مسلمين، ولو ارتدّت الزوجة عن إسلامها.

وفي الخامسة والثلاثين، لا يرّد المسلمون شيئًا ممّا غنّموه أثناء الوقائع التي جرت إلى يوم تسليم البلد، وفي التي بعدها، لا يُعاقبون على شيء ممّا مضى، من تحقير الأسرى أو إهانتهم.

وفي الثانية والأربعين، تُفصل الخصومات بين المسلمين والنصارى في مجلس مؤلف من قائدين أحدهما مسلم والآخر مسيحي.

وفي الثالثة والأربعين، تعاد جميع أسرى المسلمين في مدّة ثمانية أشهر من أيّ بلاد وُجِدوا فيها من إسبانية، وفي مدّة خمسة أشهر إن كانوا في بلاد الأندلس.

وفي التي تليها، ذكر إطلاق سبيل ابن الدرامي المأسور عند غونسالف هرناندز، وعثمان أسير كونت تنديله، ورضوان أسير صاحب قَبْرَة، وإعادة الفقيه ابن محيي الدين ورفاقه، الذي غابوا على إثر حادثة ابراهيم بن سراج أينما وُجِدوا.

وفي السادسة والأربعين، تسهيل حركات سفن المغاربة في مواني الأندلس، وإعفاؤها تلك المدّة من دفع الرسوم، بشرط عدم نقل أسرى من النصارى.

وفي الثانية والخمسين، عدم استخدام سُرطة من النصارى لمراقبة شؤون المسلمين، بل تكون شرطتهم من أنفسهم.

وفي آخر هذه المعاهدة، تعهّد الملك فرديناند وامراته صاحباً ممالك قشتالة، وأراغون، وليون، وصقلية، أن يحافظا على نصّ شروطها حرفاً بحرف، ويُجرّيا جميع أحكامها من خاصّ وعامّ وكلّي وجزئي، بكمال التدقيق وبدون أدنى زيادة ولا نقصان مهما كان من الأسباب، وأن تبقى على شكلتها وهيئتها، ولا يتغيّر ولا يتبدّل حرف منها إلى الأبد، ولا يمكن أحدًا من خلفاء الملكين المشار إليهما، ولا خلفاء خلفائهما ولا حفّظتَيْهما ولا أولادهم إلى ما شاء الله، أن ينقضوا أقلّ حكم من أحكامها، أو يبدّلوا حركة من حركاتها، وأعطى الأمر بها إلى الأمراء والوزراء، والقوّاد والأجناد، والرهبان والرعيّة، من حاضر وغائب، وقاص ودان، وكبير وصغير، وأعلن أنّ مَنْ يجترئ على الخلل بشيء ممّا تضمّنته هذه المعاهدة يُجزى جزاء مَنْ أقدم على إفساد البراءات الملوكية أو تقليد الحجج والسندات بدون أدنى تأخير.

وأقسم الملك فرديناند والملكة إيزابيلا وسائر مَنْ أمضوا الشروط على دينهم وشرفهم برعايتها إلى الأبد، على الصورة المبيّنة وكُتبت على رقّ غزال مُحلّى ومطرز، تحريراً في ثلاثين من كانون الأول سنة إحدى وتسعين وأربعمائة وألف من الميلاذ.

وحرّرها «فرناندو صَفْرَه» بأمر الملكين، وأمضاها الملك فرديناند والملكة إيزابيلا،

وأولادهما: الدون جان، والدونة إيزابيلا، والدونة حتة، والدونة ماريانة، والدونة كثالينة، ورئيس أساقفة إشبيلية الدون دياغو هرتادو، ورئيس أساقفة سانتياغو الدون ألفونس، وكبير فرسان سانتياغو المسمّى بالدون ألفونس أيضًا، والدون جان، كبير فرسان القنطرة، والدون ألفارو، زعيم رهابين مار يوحنا، والدون بيرو غوانزالس كرينال إسبانية، ورئيس أساقفة المملكة، والدون هنري كبير حكومة أراغون، ومن أبناء عمّ الملك، والدون ألفونس من أبناء عمّه أيضًا، والدون ألفارو مدير دائرة الملكين، والدون بفرو فرناندز رئيس جند قشتالة، ويليهم نحو أربعين دونًا، كلّهم من أبناء السلالة المالكة، وأساقفة البلاد وأمرائها وأعيانها وقوادها.

وكتب أيضًا معاهدة أخرى لسلطان غرناطة، أبي عبد الله بن أبي الحسن، متضمّنة أربع عشرة مادة، فيها تمليك الإقطاعات والأراضي والبلدان التي وهبها إياه الملكان، معيّنًا كلّ منها بذاته، والتعهد بإعطائه أربعة عشر مليونًا وخمسمائة قطعة من السكّة المعروفة بالمرابيد عند دخولهما قلعة الحمراء، وإقرار ملكيته لجميع العقار الموروث، وإعفاؤه من دفع الضرائب والرسوم وآداء المُكوس، عمّا يجلب من الأمتعة برسمة، وأنه في أيّ وقت شاء يبيع هذه الأراضي والأملاك، يشتريها الملكان كلّها بقيمتها العادلة، وإن لم يشأ بيعها وادّأ النقلة إلى برّ المغرب، فالوكيل الذي يعينه عليها يستوفي له حاصلاتها ويوردها عليه، في أيّ جهة كان ممّا وراء البحر، وفي أيّ وقت عوّل على الإجازة، تنقله مع رجاله وعياله وأمواله، سفن دولة قشتالة مجانًا، ولا يطالب بشيء، ولا يكون مسؤولاً عن شيء ممّا حصل، إلى حين عقد الصلح، ولا يُستردّ شيء ممّا غنّمه، وجميع هذه الشروط كما هي جارية في حقّه، تجري أيضًا في حقّ والدته وشقائقه وزوجته وزوجة مولاي أبي نصر، والعهد الثانية، مؤرّخة في يوم تاريخ الأولى، لأنني وجدت أكثر المؤرّخين يؤرّخون إمضاء المعاهدات في ٢٥ كانون الأول وفق ٢٢ المحرّم سنة ٨٩٧ هـ.

### - هرديناند بيتّ جميع أساطيله وجيوشه منعًا لوصول المدد

ولمّا كان الإسبانيول قد أعطوا المغاربة مهلة سبعين يومًا لأجل التسليم، بناء على أمل هؤلاء في ورود النجدة من وراء البحر، ازداد الطاغية تيقنًا وسهرًا، وجعل الجيوش محيطة بقرناطة إحاطة السوار بالمعصم، وجمع الأساطيل وبثها في مراسي الأندلس، وفي قرصّة المجاز، منعًا لكلّ مدد وارد، فلم يطلّ أحد، وإن أطلّ فلم يغن شيئًا، لأنّ سلاطين الإسلام

كانوا في ذلك الحين متشاغلين بفتنهم الداخلية، ومحاربة بعضهم بعضاً، فضلاً عن أن الذي أصبح مقرراً في أذهان عامة المسلمين، أن لا أمل بحفظ مملكة الأندلس وتجديد دولة الإسلام فيما وراء البحر إلى جهة العدو الإسبانية، وأن الجهاد في هذا السبيل عبث، وهذا الأمر كائن لا محالة، فتركوا الأمور وشأنها، وأهل غرناطة يعللون أنفسهم بلعل وعسى، ولكن ابتداء الجوع بعضهم بأنبابه، فرأى أبو عبد الله أن انتظار آخر المدة مما لا يكون له نتيجة سوى زيادة الضيق والمجاعة، ولا رجاء في ورود أقل مدد، ولو كان في حيز الإمكان لظهر، أو كان في قيد الحياة تنفس، فشاور الروساء، فأشاروا بالتسليم قبل انقضاء الأجل المضروب.

### - قيام مرابط آخر اسمه حامد بن زارة

وفي العشرين من كانون الأول، أرسل وزيره يوسف ابن كُماشة مع الرهائن إلى الملك فرديناند، وأصحبه بفرسين كريمين، وسيف ثمين على سبيل الهدية، فبثه مقصده، وعزم الجماعة على تسليم البلد قبل مضي الأمد. وفي اليوم التالي، ظهر درويش اسمه حامد بن زارة، فأخذ يطوف الأسواق منادياً بالجهاد، مستغفراً العامة إلى الدفاع قائلاً لهم إنه سيرد إليهم نجدات من البشرات، ومن برّ العدو، وإنّ الأمل عظيم بالفرج، لكن الملك أبا عبد الله والروساء خائنون، وكثّر هذا القيل والقال في البلد، وصبوا اللعنات على أبي عبد الله، ورموه بالخيانة وبيع الدين والوطن، شأن كل أمة غلبت، وشأن أمة اليونان اليوم، بعد أن قهرتها الدولة العثمانية، وجاست عساكر مولانا السلطان الأعظم خلال بلادها، فقام كثير منها ناقلين على الملك جورج ووليّ عهده، ولولا صلاحتهما التسيّية مع ملوك أوروبا لطردهما اليونان أو فتكوا بهما<sup>(١)</sup>.

### - ثورة غرناطة

فثار نحو عشرين ألفاً من أهل غرناطة، وتقلّدوا أسلحتهم، وخرجوا إلى الأسواق بضوضاء ملأت الفضاء، عازمين على الجهاد مستعينين بالله في دفع العدو، فاستمرّوا يوماً كاملاً وقسماً من الليل بهذه الحركة، وإذا بإعصار قد عصف بشدة، فالزم الناس بيوتهم وانتهى الهياج بهبوب العاصف.

(١) هذا كان في حرب اليونان للأتراك أيام السلطان عبد الحميد ولكن في الحرب الأخيرة بين الترك واليونان قام هولاء على أسرهم الملوكة وطردها كما لا يخفى مما حققت كلمتنا هذه.

وفي اليوم التالي خرج أبو عبد الله من الحمراء، محفوظاً بروساء البلد، وخاطب الأمة قائلاً لهم: "لا ذنب إلا عليّ، أنا الذي عقلتُ والدَيّْ وجلبتُ الأعداء على المملكة، لكنّ الله قد أخذني بجرائري، وأنزل النعمة كلّها على رأسي، وها أنا ذا الآن قبلت بهذه المعاهدة لأجلكم يا قومي، ضناً بدمكم أن يُراق، وبأطفالكم أن يموتوا جوعاً وبنسائكم وذراريكم أن تنزل فيهنّ معرّات الحرب، وحفظاً لأموالكم وأملاككم وحرّيتكم وشرّيعتكم وديانتكم، في ظلّ ملوك أسعد طالعاً<sup>(١)</sup> من أبي عبد الله المشؤوم"، فأثّرت رقة كلامه في خواطر القوم، وسكنت سورة حقدهم، واستلّت<sup>(٢)</sup> نعمة خطابه ما خشن في صدورهم. فانفضوا إلى أمكتهم. وفي الحال أرسل أبو عبد الله إلى الملكين يعرض عليهما التسليم في اليوم التالي، حذراً من تجديد الحوادث، فرضياً بذلك، وتأهباً لدخول الحمراء. كما أنّ أبا عبد الله وأسرتة وحشمه، أحيوا الليل في التأهب للخروج، وقد غسلوا أبهاء الحمراء بدموعهم وملأوا نواحيها بناوحهم، وزمّوا<sup>(٣)</sup> حقايبها بما فيها من الذخائر والأعلاق<sup>(٤)</sup>، وأحضروا لها البغال، وقبل أن تبلّج الفجر انساب حريم أبي عبد الله وأهل القصر من أحد الأبواب حيث كان بانتظارهم فرقة من فرسان المغاربة، الذين لبثوا متمسكين بعروة سلطانهم إلى الآخر، وساروا من أحد الأحياء المغتزلة من المدينة والناس نيام والشوارع خالية، أمّا عائشة الحرّة والدة أبي عبد الله فكانت متجلّدة ومتجمّلة، وأمّا امرأته وسائر جوارى القصر فقد قرّح<sup>(٥)</sup> البكاء ماقيهنّ، وخذّد الدمع خدودهنّ، ولمّا وصل الموكب إلى إحدى القرى التي على طريق البشرات، وقف ينتظر وصول أبي عبد الله.

### - التسليم -

عند مطلع الشمس، جاءت فرقة من الخيّالة والمشاة، يصحبها هرناندو دو تالافيرة مطران أفيلا، ودخلت من أحد أبواب المدينة حسبما كان وقع عليه الاتّفاق فالتقاها السلطان أبو عبد الله، وقال للمطران المذكور: "امض وتسلّم هذه الحصون التي صيرها الله إلى أيديكم عقاباً للمغاربة على أعمالهم". ثمّ تقدّم لملاقة الملكين، وتقدّمت العساكر فدخلت

(١) أسعد حظاً.

(٢) بمعنى الحرّجت.

(٣) زمّوا الحقايب وسواها: ربطوها تأعباً للسفر.

(٤) مفردا الملقن: النفيس من كلّ شيء.

(٥) جرح، والمكّي - ما هنا - العيون، مفردا مقلّة.

الحمراء، وكان فرديناند وإيزابيلا ينتظران روية أعلام إسبانية فوق أبراجها. فمضت مدة وأنظراهما شاخصة، فلم يريا شيئاً وحشياً وقوع حادث، لكن لم يكن إلا قليل بعد ذلك، حتى خفقت راية الصليب فوق أبراج الحمراء - حيث لم تزل خافقة إلى الآن - وبجانبها راية مار يعقوب، وعلا هتاف العساكر، فلما رأى الملكان ذلك بمكانهما على ضفة الشنيل، خراً جاثيين على رُكبهما، واقتدى بهما جميع الأمراء والقواد والجند شكراً لله تعالى على ما منَّ به، وبعد انتهاء الصلوات، استأنفوا المسير حتى صاروا بجانب جامع صغير قريب من النهر، فهنا التقوا بالسلطان أبي عبد الله الشقي، فحالما وقعت العين على العين أراد السلطان الترجل إجلالاً للملكين فمنعاه، فهوى على يد الطاغية ليقبلها فلم يكتفه فرديناند من ذلك. وقيل إن الملكة أيضاً أبت أن ترسل له يدها، وإنما أحسنت عزاءه وسلمته ابنه، الذي كان مرهوناً، فضمه إلى صدره، وأخذ يقبله، كأن الشقاء زاد من تعلق أحدهما بالآخر، ثم سلم أبو عبد الله مفاتيح البلد إلى الملك قائلاً له: "هذه المفاتيح هي آخر ما بقي من سلطان العرب في إسبانية، خذها فقد أصبح لك مُلكنا ومناعنا وأشخاصنا كما قضت بذلك مشيئته تعالى، فتقبلها بالرافة التي وعدت بها، والتي ننتظرها منك".

فأجابه فرديناند: "لا شك في ما وعدنا به، وعسى أن يكون لك من صحبتنا الحظ الذي لم يكن لك في عداوتنا".

ثم دفع فرديناند المفاتيح إلى الملكة، فدفعتها إلى ابنها البرنس جويان، وهذا أعطاها ككونت تنديلة الذي كان قد عين قائداً للمدينة ولسائر مملكة غرناطة.

#### - أبو عبد الله يقصد وادي برشانة

ثم انفصل أبو عبد الله عن الملكين، قاصداً المقر الذي عين له في وادي برشانة، وسار الطاغية وامراته نحو المدينة وأصوات الموسيقى مسموعة إلى بعيد، ولم يدخلها يوم تسليمها، بل انتظرا أن تبتوأها جميع العساكر. أما سلطان غرناطة السابق فلما وصل إلى مرقب عال على مسافة مرحلتين من المدينة يُشرف عليها، وقف يودع مدينته، فلم تكن في عينه أجمل منها في تلك الساعة، فأخذ يتأمل في أبراجها وقلاعها ومنايرها الضاربة في السماء، ومرجها النضير والمنقطع النظير، ووقف وراء حاشيته وجنده الذين لم ينفصلوا عنه، وهم يتأملون سكوتاً وقد أبكمهم الحزن وأخرسهم الهم، وإذا بالدخان قد ارتفع فوق القلعة، ودوى صوت المدافع، إيذاناً بأن المدينة دخلت في حوزة الإسبانول وانقطعت منها

دولة الإسلام، فعندها أخفق فؤاد أبي عبد الله ولم يملك نفسه دون البكاء فصاح "الله أكبر" وقَسَحَ مجال الدمع، واستمطر ماء العيون، فجات بالشآبيب<sup>(١)</sup>، فقالت له أمه عائشة الحرة المشهورة بالشدة: "عليك أن تبكي بكاء النساء، ما عَجَزْتَ أن تدافع عنه دفاع الرجال" وهي الكلمة الشهيرة التي تناقلتها جميع التواريخ، فاجتهد وزيره يوسف بن كُماشة في تعزيتة، فلم يقبل قلبه العزاء، وبقيت شؤون عينه فائضة وزفراته متصاعدة، وهو يقول: "أي شقاء مثل شقائي". وقد سمى الإسبانول تلك الذروة التي وقف عليها آخر سلاطين غرناطة يبكي المنزل والحبيب بـ "آخر حَسرات المغربي".

### - دخول فرديناند غرناطة

ولمَّا وقف فرديناند عن دخول البلد خوف الغيلة<sup>(٢)</sup>، إلى أن تكون عساكره احتلَّت المواقع جميعها، أرسل مركيز فيلنة وكُنْت تنديلة بثلاثة آلاف فارس وجيش من المُشاة، مصحوبين بالأمير سيدي يحيى الذي سمَّاه النصرارى بعد تنصُّره بالدون بدرو دو غرناطة، وعيَّن للنظر في أمور المغاربة، وبأنه الذي أطلقوا عليه اسم الدون ألونزو دو غرناطة، وكان أميرًا للأسطول فتبوَّأوا جميع الأبراج ونشروا فوقها الأعلام الإسبانية.

ولم يدخل الملكان المدينة إلَّا في سادس كانون الثاني، وكان الاحتفال بدخولهما باهرًا، وظلَّا سائرين إلى مسجد غرناطة الأعظم، فحوَّلاه كنيسة، وأقيمت الصلاة شكرًا لله تعالى على هذا الفتح المبين، وأقبل الأمراء والقواد وعظماء الإسبانول على الملكين، يقبلون أيديهما ويهنئونهما على هذه النعمة التي اختصَّهما الله بها وكرَّمهما بإحرازها. وبعد الخروج من الكنيسة سارا إلى الحمراء الموصوفة، فألفياها فوق ما كانا يتصوَّرانها: من إتقان الصنعة، وفخامة البنيان، ورَحابة الساحات، ولطافة الرسوم، والنقوش، وأعجبا بما فيها من الزخرفة التي تنقطع من دونها الأيدي، والتأنق البالغ حدِّه، سواء في الأبهاء والمقاصير، أو النوافر والصحاريح، أو المداخل والتعاريج؛ إذ يتحير الناظر ما بين مرمر مسنون، وعَسَجِدٍ<sup>(٣)</sup> مَصون، وسواري كأنها مُفرَّغة في أحسن القوالب، وسقوف كأنها السماء زُيِّنت بالكواكب، فاتَّخذ الملكان لهما عرسًا فيها، وجلسا للتهنئة، حيث جاء أهالي غرناطة

(١) مفردا شويوب: الدفعة الشديدة من المطر.

(٢) الاغتيال.

(٣) النعب.

والبشرات، يقدمون لهما واجب الإجلال ويقبلون أيديهما صاغرين<sup>(١)</sup>، ووُجِدَ في غرناطة يوم دخول الملكين إليها خمسمائة أسير من الإسبانول.

وهكذا انتهت تلك الحرب التي استمرت عشر سنين، لم تفتّر فيها الوقائع، ولا نشفت الدماء، ولا انقطعت المصارع، وبنهايتها انصرم<sup>(٢)</sup> حبل الإسلام في بلاد الأندلس، بعد أن استبّت دولته فيها سبعمائة وثمانياً وسبعين سنة منذ انهزم لُدْرِيْق على ضفاف الوادي الكبير، إلى تسليم غرناطة، والله وارث الأرض ومن عليها.

### - التسليم كما ورد في كتاب "نفع الطيب"، وما تبعه من وقائع

وهاك ما قال صاحب "نفع الطيب" عن الوقائع المتقدمة إلى حين التسليم نقله ببعض اختصار تابعاً لما تقدّم من روايته:

"ثمّ بعث (أي الطاغية) في السنة نفسها رُسلًا لصاحب غرناطة، أن يمكّنه من الحمراء كما مكّنه عمّه من القلاع، ويكون تحت إيلته، ويعطيه مالا جزيلاً على ذلك، وأي بلاد شاء، من الأندلس، يكون فيها، تحت حكمه، قالوا وأطمعه صاحب غرناطة في ذلك، فخرج العدو في محاربه لقبض الحمراء والاستيلاء على غرناطة، وهذا سرّ بين السلطانين، فجمع صاحب غرناطة، الأعيان والكبراء والأجناد والفقهاء والخاصّة والعامّة، وأخبرهم بما طلب منه العدو، وأنّ عمّه أفسد عليه الصلح الذي كان بينه وبين صاحب قشتالة بدخوله تحت حكمه، وليس إلاّ إحدى حُطّتين: الدخول في طاعته أو القتال، فاتفق الرأي على الجهاد، ونزل صاحب قشتالة على مرج غرناطة، وطلب من أهلها الدخول في طاعته، والأفسد زرعهم، فأعلنوا بالمخالفة، فأفسد الزرع، وذلك في رجب سنة ٩٥. ووقعت بين المسلمين والعدوّ حروب كثيرة، ثمّ ارتحل العدو عند الإياس<sup>(٣)</sup> منهم ذلك الوقت، وهدم بعض حصون، وأصلح برج همدان، والملاحّة، وشحّنها بما ينبغي، ثمّ رجع إلى بلاده، وعند انصرافه نزل صاحب غرناطة إلى بعض الحصون التي في يد النصارى، ففتحها عنوةً، وقتل من فيها من النصارى، وأسكنها المسلمين، ورجع لغيرناطة ثمّ أعمل الرحلة إلى البشّرات في رجب المذكور، فأخذ بعض القرى، وهرب من بها من النصارى والمرتدين أصحابهم، ثمّ

(١) للصابغ: اللليل المهان.

(٢) انصرم حبل الإسلام: كتابة عن زوال دولتهم في بلاد الأندلس. ولغة: انصرم الحبل: انقطع.

(٣) لغة في الإياس.

أتى حصن أندرش فتمكّن منه، وأطاعته البشرات، وقامت دعوة الإسلام بها، وخرجوا عن ذمّة النصارى وهنالك عمّه أبو عبد الله محمّد بن سعد، بجملته وافرة، فقصدهم في شعبان من غرناطة، واستقرّ عمّه بالمرية، وأطاعت صاحب غرناطة جميع البشرات إلى برجه، ثمّ تحرّك عمّه مع النصارى إلى أندرش فأخذوها لرمضان، وخرج صاحب غرناطة لقرية همدان، وكان برجها العظيم مشحوناً، فحاصره ونقّب أهل غرناطة البرج الأول والثاني والثالث ثمّ البرج الكبير وهو القلعة، وأسروا من كان بها، وهم ثمانون ومائة واحتوا على ما هنالك من عدّة وآلات حرب، وفي آخر رمضان خرج صاحب غرناطة بقصد المتكّب، فلما وصل حصن سلوبانية أخذه عنوة بعد حصاره، وامتنعت القلعة وجاءتهم الأمداد من مالقة بحراً، فلم تقدر على شيء، وضيّقوا بالقلعة، فوصلهم الخبر أنّ صاحب قشتالة خرج بمحلته لمرج غرناطة، فارتحل صاحب غرناطة عن سلوبانية، وجاء غرناطة ثالث شوال، ووصل العدو إلى المريج ومعه المرتدّون والمدجنّون، وبعد ثمانية أيام ارتحل لبلاده بعد هدم برج الملاحه وبرج آخر، وأتجه إلى وادي آش، فأخرج المسلمين منها، وهدم قلعة أندرش، ولما رأى ذلك السلطان الزغل وهو أبو عبد الله محمّد بن سعد، بادر بالجواز لبرّ العدو فجاز إلى وهران ثمّ لتلمسان واستقرّ بها، وبها نسّله إلى الآن يعرفون ببني سلطان الأندلس.

ثمّ تحرّك صاحب غرناطة على بُرشانة، وحاصرها، وأخذها، وأسر من كان بها من النصارى. وفي ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ٨٩٦ خرج العدو بمحلته إلى مرج غرناطة، وأفسد الزرع ودوخ الأرض وهدم القرى، وكانوا يذكرون أنه عزم على الانصراف، فإذا به صرّف الهمة إلى الحصار والإقامة، وصار يضيّق على غرناطة كلّ يوم، ودام القتال سبعة أشهر، غير أنّ النصارى على بُعد، والطريق بين غرناطة والبشرات متصلة بالمرافق، والطعام من ناحية جبل سُليّ، إلى أن تمكّن فصل الشتاء، ونزل الثلج فانسدّ باب المرافق، وانقطع الجالب وقلّ الطعام، واشتدّ الغلاء، واستولى العدو على أكثر الأماكن خارج البلد، ومنع المسلمين من الحرث والسبب، وضاق الحال وعظم الخُطب وذلك أول عام ٨٩٧، وطمع العدو في الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب، ففرّ ناس كثير من الجوع إلى البشرات، ثمّ اشتدّ الأمر في صفر من السنة، وقلّ الطعام، وتفاقم الخُطب، فاجتمع ناس مع مَنْ يُشار إليه من أهل العلم، وقالوا: "انظروا في أنفسكم وتكلّموا مع سلطانكم"، فأحضر السلطان أهل الدولة وأرباب المشورة، وتكلّموا في هذا المعنى، وأنّ

العدو يزداد مددَه كلَّ يوم، ونحن لا مدد لنا، وكان ظنُّنا أنه يُقلع عتًا في فصل الشتاء، فخاب الظنُّ، وبنى وأسس وأقام وقرب متًا، فانظروا لأنفسكم وأولادكم، فأتفق الرأي على ارتكاب أخفَّ الضررين، وشاع أنَّ الكلام وقع بين النصارى وروساء الأجناد قبل ذلك في إسلام البلد خوفًا على نفوسهم، وعلى الناس، ثمَّ عدَّدوا مطالب وشروطًا أرادوها، وزادوا أشياء على ما كان في صلح وادي آش، منها أنَّ صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشروط، وذكروا أنَّ روساء أجناد المسلمين لمَّا خرجوا للكلام في ذلك امتنَّ عليهم النصارى بمال جزيل، ثمَّ عُقدت بينهم الوثائق على شروط قُرئت على أهل غرناطة، فانقادوا إليها، ووافقوا عليها، وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة، فقبلها منهم، ونزل سلطان غرناطة من الحمراء.

”وفي ثاني ربيع الأول من سنة ٨٩٧ استولى النصارى على الحمراء، ودخلوها بعد أن استوثقوا من أهل غرناطة بنحو خمسمائة من الأعيان رهنًا خوف الغدر، وكانت الشروط سبعة وستين، منها تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم، ورباعهم وعقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت عليه، ولا يحكم على أحد منهم إلاَّ بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم، ولا يفتشوا أحدًا، وأن لا يولَّى على المسلمين نصراني ولا يهودي، وأن يُفتكَّ جميع من أُسر في غرناطة من حيث كانوا، خصوصًا أعيانًا نصَّ عليهم، ومن هرب من أسرى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكة ولا لسواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكة، ومن أراد الجواز للعدوة لا يُمنع، ويجوزون في مدة عيّنت في مراكز السلطان، لا يلزمهم إلاَّ الكراء، ثمَّ بعد تلك المدة، يعطون عشرُ مالهم والكراء، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى، وأن من تنصَّر من المسلمين يُوقف أيامًا، ويُحصَّر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يُعاقب من قتل نصرانيًا أيام الحرب، ولا يؤخذ ما سلب من النصارى أيام العداوة، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى، ولا يُسَّرَّ لجهة من الجهات، ولا يزيدون على المغارم المعتادة، وتُرفع عنهم جميع المظالم المحدثه، ولا يطلع نصراني للسور، ولا يتطَّلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجدًا من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمنًا في نفسه وماله، ولا يُجعل علامة كما يُجعل لليهود<sup>(١١)</sup>، وأهل

(١١) لعلَّ الأصل: ولا يحمل علامة إيج - أو - ولا يجعل له علامة كما يجعل لليهود مصحَّحة.

الدجن، ولا يُمنع مؤذّن ولا مُصلّ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منهم يُعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كلّ شروط صاحب رومة، ويضع خطّ يده. وأمثال هذه ممّا تركنا ذكره. وبعد انبرام ذلك ودخول النصارى للحمراء والمدينة، جعلوا قائداً بالحمراء وحكّاماً ومقدّمين بالبلد. ولمّا علم بذلك أهل البسرات دخلوا في هذا الصلح، وشملهم حكمه على هذه الشروط، ثمّ أمر العدو ببناء ما يحتاج إليه في الحمراء، وإصلاح سورها وصار يختلف إليها نهاراً ويبيت بحلّته ليلاً، إلى أن اطمأن من خوف الغدر، فدخل المدينة وتطوّف بها وأحاط خبراً بما يرومه“ انتهى.

### - السلطان أبو عبد الله ينقطع في وادي بُرشانة

وبعد أن دخلت غرناطة في حوزة الإشبانيول، انقطع السلطان أبو عبد الله في أرضه بوادي بُرشانة، حيث وقر له الطاغية الإقطاعات، وكذلك لوزيره يوسف بن كُماشة الذي لزمّ بابه، فأقام مدّة هناك ذاق أثناءها طعم الراحة، وانفض من عوارض ما كان فيه من هِياط ومِياط<sup>(١)</sup>، لكنّ الأمر لم يُطل به حتّى عاد يذكر ماضي مُلكه وعليائه، ويحزّن إلى غابر حمرائه، فتثور فيه الأشجان، وتستشعر فؤاده الأحزان. في هاتيك المدّة لم يدع الملكان وسيلة إلاّ واستعملوها لأجل صِباته<sup>(٢)</sup> عن دين آبائه، وإدخاله في النصرانيّة، فأخفقت مساعيها، وبقي بالهما مشغولاً من جهته إذ لم يزل وجوده هناك محلاً للخوف من انتفاض مسلمي الأندلس تحت رايته والتفافهم حواليه، ففي سنة ١٤٩٦، داخل الملك فرديناند وزيره يوسف بن كُماشة سراً، في ابتياع أراضي مولاه بثمانية آلاف دوكاً من الذهب، فتمّت الصفقة، وانعقد البيع بدون علم أبي عبد الله، وبدون أن يعتني فرديناند بسؤال يوسف عن سند الوكّالة، بل نقده المال، فحمّله البغال وسار إلى البسرات، فلمّا وصل بين يدي مولاه نثر الدنانير أمامه قائلاً له:

” رأيت يا مولاي أنّ بقاءك هنا مُعرّض للخطر، فإنّ المغاربة أهل إقدام وثأر، وحملة أوتار، ولا يبعد أن يثوروا مرّة رافعين رايتك، وتُعزى ثورتهم إليك، فنقع في المُقيم المُقعد، وما دمت في هذه البلاد يخطر في بالك أنّك كنت أميرها على حين لا أمل في رجوع هذه الإمارة، لذلك رأيت الأنجح في حقك بيع أراضيكَ، وهوذا ثمنها لديك، يمكن لك أن تتملك به أراضي واسعة جدّاً وراء البحر“.

(١) يقال: "هم في هِياط ومِياط"، أي "اضطرب ومجىء وذهاب".

(٢) تقول: صبأ: خرج من دين إلى دين آخر، وصبأه على غير القياس: إخراج.

## أبو عبد الله يجوز إلى مدينة هاس ونهاية أمره

فلما سمع أبو عبد الله هذه الكلمات استشاط غضباً، واختَرَطَ<sup>(١)</sup> سيفه وكاد يضرب به رأس وزيره، فأسرع هذا إلى الفرار من حضرته، وبقي أبو عبد الله وحده يتأمل في هذه المسألة، ويقلب من وجوهها، فلم يلبث أن ذهب ما به، وعاد إليه سكونه، واستدل أن هذه الصفقة لم تكن لتجري لولا رغبة فرديناند في زياله من هناك، وأن الحق قد يكون مع وزيره يوسف، فأجمع الرحلة وشدّ حقائبه، وجمع أمواله وكنوزه، وتحمّل إلى أحد الثغور حيث شيّع كثير من قومه داعين له بالتسهيل. فلما ركب السفين وغابت عن عينيه جبال غرناطة انهملت منهما العبرات، وتصاعدت من صدره الزفرات، ونزل بمليلة، ومنها سار إلى فاس نزياً على سلطانها متلهفاً على ما سلف، وفي بعض تواريخ الإفرنج أنه توفي قتيلاً في إحدى الوقائع مع سلطان فاس سنة ١٥٣٦، أي بعد ٤٤ حولاً من فراقه إسبانية، ولذلك قال فيه أحد المؤرخين: "إنه قُتِلَ في سبيل الدفاع عن مملكة سواه، بعد أن جُبِنَ عن أن يُقتل في الدفاع عن سبيل مملكته".

وأما النصح فيقول في نهاية أمره ما يأتي: "ثمّ احتال (أي الطاغية) في ارتحاله (أي أبي عبد الله) ليرّ العُدوة، وأظهر أن ذلك طلبه منه المذكور، فكتب لصاحب المربة، أنه ساعة وصول كتابي هذا لا سبيل لأحد أن يمنع مولاي أبا عبد الله من السفر حيث أراد من برّ العُدوة، ومن وقف على هذا الكتاب فليصرفه، ويقف معه وفاءً بما عهد له، فانصرف في الحين بنصّ هذا الكتاب، وركب البحر ونزل بمليلة، واستوطن فاساً، وكان قبل طلب الجواز لناحية مراكش فلم يسعف بذلك، وحين جوازه ليرّ العُدوة لقي شدةً وغلاءً وبلاءً".

ويقول بعد ذلك: "والسلطان المذكور الذي أخذت على يده غرناطة، هو أبو عبد الله محمّد الذي انقضت بدولته مملكة الإسلام بالأندلس ومُحيّت رسوماها، ابن السلطان أبي الحسن ابن السلطان سعد ابن الأمير علي ابن السلطان يوسف ابن السلطان محمّد الغني بالله، واسطة عقدهم ومُشيد مبانيهم الأنيقة، وسلطان دولتهم على الحقيقة، أو هو المخلوع الوافد على الأصقاع المرينية بفاس، العائد منها لملكه في أرفع الصنائع الرحمانية العاطرة الأنفاس. وهو سلطان لسان الدين بن الخطيب ابن السلطان أبي الحجاج يوسف ابن

(١) اسطه من غميد.

السلطان اسماعيل، قاتل سلطان النصارى دُونِ بَطْرُهُ بِمَرَجِ غَرْنَاطَةَ، ابن فرج بن اسماعيل بن يوسف بن نصر بن قيس الأنصاري الخزرجي رحمهم الله تعالى جميعًا. وانتهى السلطان المذكور بعد نزوله بِمَلِيْلَةَ إلى مدينة فاس بأهله وأولاده، معتذرًا عمَّا أسلفه، متلهفًا على ما خلفه، وبنى بفاس بعض قصور على طريق بنيان الأندلس، رأيتها ودخلتها، وتوفي رحمه الله تعالى بفاس عام أربعين وتسعمائة، ودُفِنَ بِإِزَاءِ الْمُصَلَّى خَارِجَ بَابِ الشَّرِيعَةِ، وَخَلَّفَ وَلَدَيْنِ اسْمَ أَحَدِهِمَا يَوْسُفَ وَالْآخَرَ أَحْمَدَ، وَعَقَّبَ هَذَا السُّلْطَانَ إِلَى الْآنَ بِفَاسَ، وَعَهْدِي بِذُرِّيَّتِهِ بِفَاسَ، إِلَى أَنْ سَنَةَ ١٠٣٧ يَأْخُذُونَ مِنْ أَوْقَافِ الْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ، وَيُعَدُّونَ مِنْ جَمَلَةِ الشَّحَّادِينَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ“ انتهى.

وأما قوله في رسالته إلى السلطان فاس التي أنشأها له أبو عبد الله محمد بن عبد الله العقيلي وهو ”ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع مُعتبرة خير فيها، وأعطى من أمانه المؤكَّد فيه خطه بإيمانه، ما يُقنَعُ النُّفُوسَ وَيَكْفِيهَا، فَلَمْ نَرَ وَنَحْنُ مِنْ سُلَالَةِ الْأَحْمَرِ مُجَاوِرَةَ الصُّفْرِ. وَلَا سَوْغَ لَنَا الْإِيمَانَ، الْإِقَامَةَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ“ إلى آخر السجع - فهو من قبيل التغالي والتعزز، إذ لولا احتيال فرديناند عليه، ما فارق أوطانه والله أعلم“.



## حال مسلمي الأندلس فيها، بعد ذهاب ملكهم

### - عهد الانتقام والابتلاء والإكراه

ورد في تاريخ "الإسلام في إسبانية" تأليف ستانلي لانبول ما مُحصَّله: "إنَّ آخر أنفاس أبي عبد الله على تلك الربوة، لم يكن بأخر حرِّ أنفاس المسلمين في تلك الديار، بل بداية أنفاس يرسلونها الصعداء، وافتتاح عهد انتقام وابتلاء، وإنَّ أسقف غرناطة الأول هرناندو دو تولافيره، كان رجلاً حليماً عادلاً أحسن معاملة المغاربة، وأبى الجور عليهم، تعلَّم اللسان العربي، وكان يصلي به، وعلى يده ارتدَّ ألوف من المغاربة إلى النصرانية. قيل إنَّ ثلاثة آلاف تنصَّروا في يوم واحد، إلاَّ أنَّ الكردينال كسيميناس، الذي كان من القسم المحارب بين رؤساء الكنيسة اعتسف<sup>(١)</sup> السيل، ومال إلى العنف والإكراه، وأساء معاملة المسلمين، وحمل الملكة إيزابيلا، على ما بقي نقطة دهماً<sup>(٢)</sup> في تاريخ حياتها من اضطهادهم واستعبادهم وإكراههم على التنصُّر، فأثار ذلك ساكنهم، وأخرج كانهم، وفي إحدى المرَّات، حُبست امرأة من البيازين لشأن من هذا القبيل، فثار سكان البيازين، وتحصَّنوا، وحملوا السلاح، وكادوا يفتكون بالجنود، وأوشك الدم أن يسيل بحدة الكردينال كسيميناس.

### - إقتال المساجد، وإحراق الكتب

إلاَّ أنَّ المطران هرناندو الموصوف بالوداعة، دخل ربض البيازين بالسكينة والأنس، مع نفر من حاشيته بدون سلاح، وسأل القوم عن شكواهم، وتقبَّلها بالاستماع والاحتفال، وهذا روعهم وأعاد طائر الأمن إلى وكره، وحجب الدماء يومئذٍ، على أنَّ كسيميناس المشهور، لم يزل يغوي الملكة حتَّى أصدرت أمرها بإكراه المسلمين على إحدى الحطَّتين: الجلاء أو النصرانية، وذلك بأنهم كانوا يذكرون المسلمين بأنهم سلالة النصارى في الأصل، فأقفلت المساجد، وأحرقت الكتب التي هي ثمرات القرون وزبد الحقب، وأذيق المسلمون

(١) سار فيه على غير دراية أو هداية.

(٢) نقطة سوداء.

العذاب أشكالا وألوانا، ففصلَ عامتهم فراق دينهم على فراق أوطانهم، إلا أن شعلة الحمية الإسلامية بقيت تلمع في جبال البكرات، حيث حمتهم أوعارهم من مضطهديهم.

### - الثورة الأولى وهزيمة الدون ألونزو، وانتقام الإيبانيول الهمجي

وأول جيش أرسل إليهم تحت قيادة الدون ألونزو دو أغيلار، البطل الشهير، انهزم هزيمة شنعاء وذلك في سنة ١٥٠١، وقُتل الدون المذكور، وقيل إنه الدون الخامس المقتول من عشيرتهم في حرب المسلمين، فازداد انتقام الإيبانيول من المغاربة بعد هذه الغلبة، وهجم كونت تنديلة على قوجار، وهدم كونت سرين جامعا على جماعة التجأوا إليه من المسلمين بنسائهم وأطفالهم، وأمسك الملك فرديناند بنفسه الطريق على الفارين من الجبال، فمن بقي حيا من الثوار، فرأى إلى مراکش ومصر والبلاد العثمانية، وانتهت الثورة الأولى في الجبال.

### - تظاهر المسلمين بالمتنصر

ومضى على ذلك نصف قرن والبغض دفين في القلوب، والمسلمون المتنصرون يعمدون أولادهم ظاهرا، فإذا انصرف القسيس، مسحوا عن الولد ماء المعمودية، وإذا تزوج أحد الموريسك (لقب المتنصرة من المغاربة)، أجرى القسيس عقد الإكليل، ثم بعد ذهابه عقدوا النكاح بحسب السنة الإسلامية.

### - أهالي الأندلس يساعدون قرصان البحر، والإيبانيول يكرهونهم على

#### تغيير عاداتهم

وكانوا يتقبلون قرصان البحر من أهل المغرب ويعاونونهم على اختطاف أولاد النصارى، ويأتون غير ذلك، فلو كانت ثمت (ثمة) حكومة عاقلة قومية، ترعى عهودها التي واثقت عليها عند تسليم غرناطة، لم يكن محلّ لذلك البغض العميق، ولكن حكّام الإيبانيول، لم يكونوا أهل عقل ولا عدل، وكانوا يزدادون بتمادي الأيام شرا، ولم تلبث الأوامر أن صدرت بإكراه المغاربة على ترك ألبستهم المخصوصة بهم ولبس البرنيطة والسرراويلات الإيبانيولية، وحُظر عليهم الغسل ودخول الحمام اقتداءً بغالييتهم في احتمال الأفتنار، ثم ممنوهم من التكلم بالعربية، وصدر الأمر بأن لا يتكلموا بغير الإيبانيولي،

وبأن يغيروا أسماءهم، ويسيروا سيرة إسبانيولية، ويسموا أنفسهم إسبانيولاً، وكان تصديق الإمبراطور شريكاً هذا الأمر الفظيع في سنة ١٥٢٦، على أنه لم يكن الظاهر من اعتماده إجراؤه بالفعل؛ لكنَّ عماله اتخذوا ذريعة لاستنزاف أموال الموسرين من المغاربة، وصار ديوان التفتيش يحترف ويتجبر بهذه المسألة.

### - الثورة الثانية هي البشرات

لَمَّا صار الأمر إلى فيليب الثاني، شدَّد في إنفاذ الأوامر بحقَّ الموريسك وسنة ١٥٦٧، عزَّز الأمر الصادر بشأن تغيير الزي واللغة باستيثاق غريب، لأجل منع النظافة التي هي من سنن الإسلام، وذلك بأنه أخذ يهدم حمامات الحمراء البديعة، فالطرائق التي أخذوا بها لتتكثير أحوال تلك الأمة، هي أشدَّ من أن يحتملها أيُّ قبيل كان، دع سلائل المنصور وعبد الرحمن وأبناء سراج، ولذلك لم يُطل الزمن حتَّى استطار الشرّ، واشتعلت الفتنة، وثار فرج بن فرج، من نسل بني سراج بجماعة من ذوي الحمية من غرناطة قاصداً الجبال، قبل أن تمكَّن الحامية من تعقبهم، ونودي بهرناندو دو فلور، من نسل خلفاء قُرْبَة ملكاً على الأندلس، تحت اسم محمَّد ابن أمية، وعمَّت الثورة في أسبوعٍ واحدٍ كلَّ أنحاء جبال البشرات ووقع ذلك سنة ١٥٦٨.

ولمَّا كانت هذه الجبال من أصعب تضاريس الأرض مرتقى، وأوعرها مسلكاً، كان تدويخ سكانها من أصعب الأمور منالاً، والفتنة فيها بعيدة المرمى، فاستمرَّت هذه المرَّة حوَّلين كاملين، حافلاً تاريخها بحوادث لا تُحصى من القتل والغدر والتعذيب والاستباحة والاحتياط من الجانبيين، لكنَّه أيضاً حافل بوقائع يندر في تاريخ الفروسية، وكسب الحماسة الظفر بأمثالها، وتبقى على صفحات السير فخراً للقرن والأمة، وكان المغاربة هناك في موطنهم الأخير، والموقف الذي يحاولون فيه إدراك الثأر على نحو مئة سنة قضوها في البلاء العظيم، والهون<sup>(١)</sup> الذي ليس له نظير، فهبوا جميعاً منادين بأخذ الثأر واقتضاء الأوتار قرية بعد قرية، وهدموا الكنائس وأهانوا ما فيها، وفتكوا بالقسيسين، وعذبوا النصراري الذين وقعوا في أيديهم، واعتصم الذين نجوا بالمعاقل والأبراج ودافعوا دفاعاً شديداً. وكان مركز مونتيجارة قائداً في غرناطة، فعمد إلى المسألة، وأخذ بالملاينة، وكادت الوقْدَة تنطفئ لولا ما أعاد الشرر من ذبح مائة وعشرة سجناء في حبس البيازين من المغاربة، قيل إن

(١) الفلذ والهُون.

ذبحهم بغير علم المركيز، لكنَّ الموريسك لم يقبلوا العذر، ونشروا لواء الثورة، وصار ابن أمية أميرًا بالفعل على جميع جهات البشرات، إلا أنه لم يكن ممن يحسن السياسة فقام بعض أعوانه وقتلوه وبويح لرجل آخر، موصوف بالنجدة والحماسة اسمه عبد الله بن أبوه.

### - الدولة الإسبانية تقضي على الثورة، واسترقاق الثوار

فأرسلت دولة إسبانية، لتدويخ الثوار، الذون جون الأوستري، أخوا الملك، وهو شاب في الثانية والعشرين من العمر، فباشر القتال في شتاء سنة ١٥٦٩ إلى ١٥٧٠ وأتى من الفطائع، ما بخلت بأنداده كتب الوقائع، فذبح النساء والأطفال أمام عينيه، وأحرق المساكن ودمَّر البلاد، وكانت علامته "لا هوادة"، وانتهى الأمر بإذعان الموريسك، لكنَّه لم يُطَل واستأنف مولاي عبد الله بن أبوه الكرَّة، فاحتال الإسبانيول حتَّى قتلوه غيلة، وبقي رأسه منصوبًا فوق أحد أبواب غرناطة ثلاثين سنة. وأفحش الإسبانيول في قمع الثورة بما أقدموا عليه من الذبح والحريق والخنق بالدخان، حتَّى أهلكوا من بقيَّة العرب هناك خلقًا كثيرًا، وخنق<sup>٥</sup> الذين نجوا من الموت، لكنَّهم وقعوا في الرق، وسيقوا ممالك وعُبدانًا ونفي جملة منهم، فأخذ عددهم يتناقص. ولمَّا كان اليوم المشهود والمذكور في التواريخ وهو عيد جميع القديسين سنة ١٥٧٠، بلغ عدد من ذهب منهم عشرين ألفًا، والذين أخذوا منهم في مَعْمعة الفتنة صاروا إلى الاستعباد، والباقون أُخرجوا من البلاد مخفورين، فمات كثير منهم على الطرق تعبًا، فمنهم من أجاز إلى برِّ العُدوة، وطافوا هناك سائلين لأجل قوتهم الضروري، ومنهم من لجأ إلى بلاد فرنسا حيث استقبلوهم برًّا وترحيبًا، واحتاج إليهم هنري الرابع لأجل دسائسه في مملكة إسبانية، ولم ينته إخراجهم تمامًا إلى سنة ١٦١٠، إذ وقع الجلاء الأخير، ولم يبقَ في تلك البلاد مسلم بعد أن وليها الإسلام ثمانية قرون. ويقال إنَّ عدد من خرج منهم منذ اليوم الذي سقطت فيه مملكة غرناطة، إلى السنة العاشرة بعد الألف والستمائة يبلغ ثلاثة ملايين، وإنَّ الذين خرجوا لآخر مرَّة، نحو نصف مليون.

### - الإسبانيول يخربون بيوتهم بأيديهم

وأما الإسبانيول فلم يعرفوا ماذا يصنعون، ولا أنهم يخربون بيوتهم بأيديهم، بل كانوا فرحين مسرورين بطرد المغاربة، مع أنَّ إسبانية كانت مركز المدينة ومبعث أشعة العلم قرونًا، وقلما استفادت بقعة أوروبية من حضارة الإسلام بمقدار ما استفادته هذه البلاد، فلما

غادرها الإسلام انكسفت شمسها، وتسَلَّطَ نحسها، وإنَّ فضل مسلمي الأندلس، ليظهر في همجية هؤلاء القوم، وتأخُّرهم في الحضارة، وسقوط هذه الأمة في سلَم الاجتماع، بعد أن خلت ديارها من الإسلام“ انتهى كلامه ملخَّصًا.

واستشهد في حاشية هذه الجملة، بنقل يمثِّل لك درجة هذه الحقيقة، وهو أنَّ للملك حول مدينة غرناطة ضياعًا واسعة ومزارع، التزموا بيعها سنة ١٥٩١، بسبب كونهم يخسرون عليها أكثر من غلتها، مع أنَّ هذه البقاع كانت لعهد العرب، حدائق غنَّاء، وغياصًا ذات أفياء، وموارد ثروة ورِّخاء.

### - واشنتون أرفن يصف الثورة

وقال واشنتون أرفن، في تاريخه لفتح غرناطة ما معناه ملخَّصًا: «إنَّه بعد دخول هذه البلدة في حوزة الإِسبانيول، بقيت الحال غير مُسْتَبِيَّة تمامًا مَدَّة سنوات، إلى أن وقع من اجتهاد روساء مذهب الكاثوليك في حمل المسلمين هناك على النصرانية، ما أياَس مغاربة الجبال المتشدِّدين في دينهم، فثاروا بروساء الدين، وقبضوا على اثنين من هؤلاء الدُّعاة في مدينة دارين، وعرضوا عليهما الإسلام فامتنعا فقتلوهما. وقيل إنَّ النساء والأولاد قتلوهما قعصًا<sup>(١)</sup> بالعصي وشدخًا<sup>(٢)</sup> بالحجارة، وإنَّهم أحرقوا جسَّيهما، فانتمت النصرارى من هذه الفعلة، بأن اجتمع منهم نحو ثمانمائة فارس، وساروا إلى قرى المغاربة يخربون ويعيثون، فاعتصم المغاربة بالجبال، وانتشرت الفتنه في الجبال كلَّها، لكن وسطها كان في جبل برميجه المصاقب للبحر، فلَمَّا أتصل الخبر بالملك فرديناند، أصدر أوامره بنقل المغاربة الساكنين في جهات الثورة إلى قشتالة، وأعطى الأمر سرًّا بأنَّ مَنْ يدخل منهم في النصرانية يبقى في وطنه، ثمَّ رمى تلك الأمة بالقائد المشهور ألونزو دو أغيلار، ومعه جيش، وهو الذي قضى معظم شبابه في قتال المغاربة، فما اقترب من بلادهم حتَّى هُرِع جملة وافرة منهم إلى رُنْدَة للدخول في النصرانية، وجَمَّر<sup>(٣)</sup> الباقون منهم تحت قيادة فارس اسمه الفهري، سائقين نساءهم وأطفالهم إلى حيث يتعدَّر السلوك من تلك الأوعار، ورباطين شِعاب الجبال دون مرور عساكر الإِسبانيول، فالتقى الجمعان أمام بلدة مونارده، وانتشب القتال، فيقال إنَّ الدَّون ألونزو مع ابنه الدَّون بَطْرُو، وثلاثمائة من شجعانه، صدَّقوا الحَمَلَة على المغاربة

(١) قعصه قعصًا: قتله مكاته، أجهز عليه.

(٢) شدخ الرأس شدخًا: كسره.

(٣) جمر القوم على أمر: تجمَّعوا واتصَّفوا.

فأزاحوهم، وتلاحقوا في الهزيمة، فتَّبِعَهُم الجُنْدُ يَغْنَمُونَ وينهبون، ولَمَّا امْتَلَأَتْ أَيْدِيهِم بالغنائم، كَرَّ عَلَيْهِم الفهري بجماعة من أبطاله، وعلت الصرخة، فارتجبت لها جوانب الأودية، ودُعِرَ الإسبانيول فتداعوا للفرار، وثبت ألونزو في مكانه يحرضهم ويضمّ من شتيت شملهم، فصبر معه جماعة، وولّى الأكرور، ودخل الظلام، وخيّم الغسق، واشتد الخناق بالإسبانيول وجرح بظُرّه ابن ألونزو، فأمره أبوه بالرجوع، فأصرّ على البقاء بجانب أبيه، فأمر أتباعه بحمله إلى معسكر كونت أورينه، فاحتملوه مُثَخَّنًا جِرَاحًا، وليث الدون بمائتين من رجاله يناضلون حتّى فنوا عن آخرهم.

وتحصّن الدون بين صخرين يتقي بهما، فبصر به الفهري، فقصدته واستحّر الصراع، وألحّ وطمع في قرنه، وكانا متمائلين في ثبات الجنان مع قوّة الأضلاع، وتوثق الخلق، فصاح ألونزو بخصمه: "لا تحسبنّ نفسك وقعت على صيد هين، فأنا الدون ألونزو دو أغيلار"، فأجابه المغربي: "إن كنت أنت الدون ألونزو فاعلم أنني أنا الفهري"، ثمّ كوّره صريعاً، ومات بموته مثال الفراسة الإسبانيولية. وأعمودج العشمشميّة<sup>(١)</sup> في الأندلس.

واندفع المغاربة ذلك الليل بطوله يطاردون الإسبانيول، ولم ينكفئوا حتّى لاح الصباح، فأجلى المعترك عن قتل الدون فرنسيسكو دو راميز المدريدي، الذي كان قائد المدفعية الأكبر، وكانت له المواقف المشكورة في حصار غرناطة، لكنّ مصرع الدون ألونزو دو أغيلار أنسى الأحزان جميعها. وعند وصول خبر هذه الفاجعة إلى الملك، زحف بالجيش إلى جبال رُنْدَة، فسكنت بحضوره الثائرة، واشترى بعض المغاربة أرواحهم فجازوا إلى أفريقية، واحتمى آخرون بالنصرانية، وأمّا أهل البلد الذي قُتل فيه الدعاة فسلكوا في سلسلة العبودية، وبحث الملك عن جثة الدون، فوجدها بين مائتي جثة من الإسبانيول، فيها أجساد عدد من الأمراء والكبراء، فحملوها إلى قرطبة في مشهد حافل، بين مدافع كالسحاب الهواطل، ودفن في كنيسة مار هيبوليتو، ونُدبَه الإسبانيول دهرًا طويلاً<sup>(٢)</sup> انتهى كلامه مجملًا.

وذكر المؤرّخ الفرنسي الشهير فيكتور دروي في تاريخه ما يأتي ملخصًا:

إنّ إسبانية تخلّصت من العرب، لكنّها بقيت حافظة عليهم إحنة شديدة، ربّتها في قلوبهم ثمانية قرون قضتها معهم في الحرب، وكان لذلك العهد سكان الجزيرة أخلاطًا من

(١) الجُرّة والمضاء.

مسلمين ونصارى، ويهود، فعول فرديناند على توحيد الهيئة بوحدة الاعتقاد، تعزيزًا للدولة، فأنشأ ديوانًا جديدًا للتفتيش. وكان الملك هو الذي يعين الرئيس والمفتش الكبير، ويضع يده على أملاك المحكوم عليهم، وكان هؤلاء في البداية من النصارى المتهودين والمسلمين المنتصرين ظاهرًا، الباقين في الباطن أمناء لمحمد (ﷺ)، ثم شملت أحكام الديوان أهل البدع السياسية، كالبدع الدينية أيضًا.

### - إنشاء ديوان جديد للتفتيش

وسنة ١٤٩٢، قرّر ديوان التفتيش المذكور طرد اليهود من إسبانية، بعد أن سلبوهم أموالهم، وقد قدر بعض المؤرخين المعاصرين لتلك الحادثة عدد من خرج منهم ٨٠٠ ألف (قلت منهم جماعة وافرّة بازمير، وأقوام بالأستانة، هاجروا إليهما في تلك الكائنة، ومنذ خمس سنين<sup>(١)</sup> احتفلوا بعيد مضيّ الأربعمئة سنة على دخولهم بلاد الدولة العلية، أكثروا فيه من الدعاء لسُلطنة آل عثمان التي هي كهف المطرودين)، والقسم الأكبر منهم هلّكوا وعذبوا بما لم يُعدّ به أحد من العالمين، وسنة ١٤٩٩، صدر أمر بسلب المغاربة حرّيتهم الدينية التي تقرّرت لهم بموجب عهد غرناطة، فجلا منهم جمٌّ غفير، ولم يتمّ خروجهم جميعًا حتّى القرن التالي في سنة ١٦٠٩، وهكذا فازت إسبانية بوحدها الدينية، لكنّها خسرت صناعتها وتجارها اللتين كان العرب واليهود أهمّ عمّالها“.

وذكر مرّة عند كلامه على شرلكان أنه ”أكمل مقصد فرديناند، فأكره مغاربة بَلَنسِيّة على التنصّر، وأهل غرناطة على ترك زِيّهم، والتكلّم بغير لغتهم“، وقال بمناسبة فيليب الثاني إنّه: ”اضطهد المغاربة، وضيّق عليهم حتّى التزموا الثورة سنة ١٥٦٨، وأوقدوا نيرانهم على تلك الجبال، إيذانًا بالخروج، وكان يمكّنهم بما أسكوه من مخانق جبالهم، الثبات طويلاً لو امتدّت إليهم يد مَمونة من إخوانهم أهل أفريقية، ففرّق فيليب شملهم، وبدّدهم في مقاطعته، ولم تمضِ سنون عَشْر، حتّى صاروا كلّهم أرقاء“.

### - كلام المقرّي في نهاية الأندلس

ثمّ لنذكر بحسب عادتنا في المقابلة، كلام المقرّي في هذه الوقائع الأخيرة، وهو ببعض تصرّف: ”ثمّ إنّ النصارى نكّثوا العهود، ونقضوا الشروط عُروّة وعُروّة، إلى أن آل الحال

(١) دُونَ هذا التاريخ في سنة ١٣١٥ هـ الموافق سنة ١٨٩٧م فيكون الاحتفال قد حصل في سنة ١٣١٠ هـ الموافق ١٨٩٢م.

لحملهم المسلمين على التنصّر سنة أربع وتسعمائة، بعد أمور وأسباب، أعظمها وأقواها عليهم، أنهم قالوا إنّ القسّيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى، أن يرجعوا قهراً للنصرانية، ففعلوا ذلك، وتكلّم الناس ولا قوّة لهم، ثمّ تعدّوا إلى أمر آخر وهو أن يقولوا للمسلم، إنّ جدك كان نصرانياً فأسلم فلترجع نصرانياً، ولمّا فحش هذا الأمر، قام أهل البيازين على الحكّام وقتلوه، وهذا كان السبب للتنصّر قالوا: إنّ الحكم خرج من السلطان، إنّ من قام على الحاكم فليس إلاّ الموت إلاّ أن يتنصّر، وبالجملة فإنهم تنصّروا عن آخرهم، باديةً وحاضرةً، وامتنع قوم من التنصّر، واعتزلوا النصارى، فلم ينفعم ذلك، وامتنعت قرى وأماكن، كذلك، منها بلفيق وأندرش وغيرهما، فجمع لهم العدو الجموع، واستأصلهم عن آخرهم قتلاً وسيياً، إلاّ ما كان من جبل بلنقة، فإنّ الله تعالى أعانهم على عدوهم، وقتلوا منهم ممتلئة عظيمة، مات فيها صاحب قرطبة (هو ألونزو دو أغيلار)، وأخرجوا على الأمان إلى فاس، بعيالهم وما خفّ من أموالهم دون الذخائر.

ثمّ بعد هذا كلّه كان من أظهر التنصّر من المسلمين، يعبد الله في خفية، ويصلي، فشدد عليهم النصارى في البحث، حتّى أنهم أحرقوا منهم كثيراً بسبب ذلك، ومنعواهم من حمل السكّين الصغيرة، فضلاً عن غيرها من الحديد. وقاموا في بعض الجبال على النصارى مراراً، ولم يقبض الله تعالى لهم ناصرًا إلى أن كان إخراج النصارى إليّاهم بهذا العصر القريب أعوام<sup>(١)</sup> سبعة عشر وألف، فخرجت ألوف بفاس، وألوف أخرى بتلمسان من وهران، وجمهورهم خرج بتونس، فتسلّط عليهم الأعراب، ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات ونهبوا أموالهم، وهذه بلاد تلمسان وفاس ونجا القليل من هذه المصّرة.

وأما الذين خرجوا بناوحي تونس فسلم أكثرهم، وهم لهذا العهد عمّروا قرأها الحالية وبلادها، وكذلك بتطوان وسلا وفيجة الجزائر، ولمّا استخدم سلطان المغرب الأقصى منهم عسكرياً جرّاراً، وسكنوا سلا، كان منهم من الجهاد في البحر ما هو مشهور الآن، وحصّنا قلعة سلا وبنوا بها القصور، والحمامات، وهم الآن بهذا الحال، ووصل منهم جماعة إلى القسطنطينية العظمى، وإلى مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام، وهم لهذا العهد على ما وصف، والله وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين انتهى.

قلت وأشهر الأئمة الذين أدركهم عهد الاستيلاء على غرناطة، ورحلوا فيمن رحل

(١) لعلّ أصله: أيّ هام.

إلى الشرق، قاضي الجماعة أبو عبد الله محمد بن علي بن محمد بن الأزرق صاحب التآليف الجليلة، منها "بدائع السلك في طبائع الملك"، حذا فيها حذو ابن خلدون، وقد دخل مصر بعد الارتحال عن وطنه، واستنهض عزائم السلطان قايتباي لاسترجاع الأندلس، قال المقرئ: "فكان كمن يطلب بيض الأنوق"<sup>(١)</sup> ثم حجَّ ورجع إلى مصر، وجدَّد الكلام في غرضه، فدافعه عن مصر بقضاء القضاة في بيت المقدس، فتولاه بزاهة وصيانة، وله نظم بديع، فمنه قوله:

تَأَمَّلْتُ مِنْ حُسْنِ الرَّبِيعِ نَضَارَةَ      وَقَدْ غَرَّدَتْ فَوْقَ الْغُصُونِ الْبَلَابِلُ  
حَكَتْ فِي غُصُونِ الدُّوْحِ قُصَا فِصَاحَةً      لِتَعْلَمَ أَنَّ النَّبْتَ فِي الرَّوْضِ بِاقِلٍ<sup>(٢)</sup>

وقوله:

تَعَجَّبْتُ مِنْ يَانَعِ الْوَرْدِ فِي      سَنَى وَجَنَّةٍ نَبَتْهَا بَارِضُ<sup>(٣)</sup>  
وَلِمَ لَا يَرَى وَرْدُهَا يَانَعًا      وَقَدْ سَالَ مِنْ فَوْقِهَا الْعَارِضُ<sup>(٤)</sup>

ومنه قوله عند نزول الطاغية بمرج غرناطة:

مَسُوقٌ بِخِيَمَاتِ الْأَحْبَةِ مَوْعٌ      تُذَكِّرُهُ نَجْدٌ وَتُغْرِيبُهُ لَعْلَعُ<sup>(٥)</sup>  
مَوَاضِعُكُمْ يَا لِائِمِينَ عَلَى الْهَوَى      فَلَمْ يِقِ لِلْسُلُوفِ فِي الْقَلْبِ مَوْضِعُ  
وَمَنْ لِي بِقَلْبٍ تَلْتَظِي فِيهِ زَفْرَةٌ      وَمَنْ لِي بِجَفْنٍ تَهْمِي مِنْهُ أَدْمَعُ  
رُوَيْدَكَ قَارِبٌ لِلطَّائِفِ مَوْضِعًا      وَخَلَّ الَّذِي مِنْ شَرِّهِ يَتَّوَقَّعُ  
وَصَبْرًا فَإِنَّ الصَّبْرَ خَيْرٌ غَنِيمَةً      وَيَا فَوْزَ مَنْ قَدْ كَانَ لِلصَّبْرِ يَرْجِعُ  
وَيْتٌ وَائْتًا بِاللُّطْفِ مِنْ خَيْرِ رَاحِمٍ      فَالطَّافَةُ مِنْ لَمَحَةِ الْعَيْنِ أَسْرَعُ  
وَإِنْ جَاءَ حَظُّبٌ فَانْتَظِرْ قَرَجًا لَهُ      فَسَوْفَ تَرَاهُ فِي غَدِّ عِنكَ يُرْفَعُ  
وَكُنْ رَاجِعًا لَلَّهِ فِي كُلِّ حَالَةٍ      فَلَيْسَ لَنَا إِلَّا إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُ

(١) "كمن يطلب بيض الأنوق" مثل يُضْرَبُ لِمَنْ يُطَلِّبُ مَسْتَحِيلًا.

(٢) حكيت: شابهت، قُص: هو قُصٌّ بن ساعدة، خطيب جاهلي يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْبَلَاغَةِ وَبِالْقِلِّ: (ثورية) والمقصود به (أرجل معروف) بالهي، مخالف للفصاحة عاجز عن الطلاقة.

(٣) لؤلؤ النبات.

(٤) هاطل المطر.

(٥) اللمع: السراب.

أمَّا الرجوع إلى الله، فهو أحقّ الحقائق، وأمّا أنه لا بدّ من انكشاف الخطوب، فهذا خطب الأندلس لم ينكشف، إلّا بتقلُّص ظلّ الإسلام من تلك الديار، وطالما ارتقب أهلها اللطائف، فلم تطل عليهم إلّا البلياء الكبار، حتّى آل أمرهم إلى الحريق بالنار ذلك بقدر من الله<sup>(١)</sup> إنّنا لله وإنا إليه راجعون.

ثمّ إنّ الأندلسيين المطرودين، النازلين ببرّ العُدوة انتقموا من الإسبانول ومن طوائف الإفرنج، عمّا أذيقوه من العذاب بجهد البحر، الذي أشار إليه المقرّي، حيث إنهم انتظموا في سلك بحرية الجزائر وغيرها من بلاد المغرب أيام كان أهلها يلقّبون بملوك البحر، وكانت دول أوروبا بأسرها تدفع لهم الجزية، وتواصل إلى والي الجزائر الهدايا، دفعًا لغائلة السفن المغربية عن سفنها، فكان من قطع المغاربة - خصوصًا الأندلسيين منهم - السبل البحرية على بحارة الإسبانول وغيرهم، من السبي والأسر والعَيْث الذي أتوه على شواطئ أوروبا، لا سيّما إسبانية ما أُلّف له الأوروبيون تواريخ خاصّة به، وهو يدلّ على استحكام الإحز في صدورهم، وفي الواقع لا نرى عداوة طال أمرها، وتوقّدت جمرها كالعداوة التي بين المغاربة والإسبانول.

وقد أتفق الكتاب على أنّ الأندلسيين الجالين عن بلادهم إلى برّ العُدوة، احتملوا معهم على أيديهم صناعة الأندلس، وفي صدورهم همم أهلها، ونقلوا ذوق تلك البلاد الموصوف بالسلامة إلى حيث ألقوا عصا تسيارهم<sup>(٢)</sup>، فأخذت عنهم فنون، وشاعت بواسطتهم صنائع، وانتشرت بسببهم فوائد، وكانوا مع رثائه حالهم وتشريدهم من بلادهم، صفر الأيدي إلّا من زهيد المتاع، يمثّلون حيثما حلّوا قطعة من الأندلس، ولا يزال على بيئاتهم وأنواع معاشهم وسائر شؤونهم ومآخذهم، مسحة أندلسية تمتاز بالذوق،

(١) تکرّر في هذا التاريخ ذكر القدر وهو هنا في موضعه فإنّ القدر والمقدر أن تكون الوقائع بقدر أسبابها وعللها وجارية على نظام سنن الله المطردة في الخلق، وأمّا ما تقدّم من الاعتزاز عن الخضوع للأعداء بالمقدر وكونه خصوصًا له لا لهم فإنّما يصحّ في حال العجز التأمّن عن كلّ عمل في جهادهم ولم يكن كلّ أولئك المتضررين بالمقدر كذلك، ولا سيّما ذلك السلطان الألبان الظالم الفاسق، فيجب أن يعلم المسلم أنّ بدعة الاعتزاز بالمقدر عن المعاصي وعن القيام بما يجب من حقوق الأئمة العامّة كالجهاد، وعن الاستسلام للأمراض والمصائب وعدم الاهتمام بدفعها بالأدوية مثلاً، هي أثقل البدع لهذه الأمة، وقد توّسل بها بعض المستعمرين لإتقان الشعوب الإسلامية الجاهلية بالرضا بسلطة الأجنبي بحجة أنّها بقدر الله، وإنّما الواجب مقاومة الأعداء بالأعداء، كما قال الخليفة الثاني عمر بن الخطّاب رضي الله تعالى عنه، حين أمر بعدم دخول الشام لوجود الوباء فيها، فقيل له "انقر من قدر الله؟" قال: "نقر من قدر الله إلى قدر الله". وقد كان الذي سأله سؤال الإنكار أبو عبيدة (رضي الله عنه) فقال له: "لو غيرك قالها؟؟".

(٢) إلى حيث ألقوا عصا تسيارهم: أي إلى حيث وصلوا في سفرهم، ورحلتهم.

رتدلّ على الأصالة في التمدن، حتّى أنّ الكاتب فليكس دو بوا الإفرنسي، الذي ساح في أرنسط أفريقية في العام المنصرم<sup>(١)</sup>، عثر على قبيل في جوار تنبكتو، يقال لهم "الأندلوز"، حقّق بما أخذه من أخبار أصول تلك القبائل، أنهم من جالية الأندلس كما يدلّ عليهم اسمهم، وذكر أنهم مع فقرهم تجدهم أسمى ذوقاً، وأعلى طبقة في المدينة، من القبائل المجاورّة لهم، ولهم صناعات مخصوصة بهم كالصياغة والنقش إلى غير ذلك، والظاهر أنهم مترامون<sup>(٢)</sup> إلى السودان عن مراكش، وسُبحان من بيده تصاريّف الأمور.

---

(١) أي عام ١٨٩٦م.

(٢) مهاجرون، مُبتَدِون.

## خاتمة

لا تزال آثار العرب حيّة في إسبانية، تشهد بفضل هذه الأمة، وتنطق بامتزاج الإسلام مع الحضارة، وأنّ كثيراً من الأماكن في تلك البلاد خصوصاً غرناطة وقُرْطبة وإشبيلية، بل بكنسية وطلنطلة قد يظنّ الداخل إليها أنّ المسلمين لم يغادروها إلا منذ عهد قريب، وقد اندمج كثير من الأوضاع العربية في البناء بالهندسة الإسبانية، كما اختلط اللسان الإسباني بالعمري، وتولّدت من هذا الاقتران ألفاظ خلاسية، سرّد منها الفاضل المحقّق أحمد أفندي زكي<sup>(١)</sup> جمهوراً<sup>(٢)</sup> في رحلته إلى الأندلس المنشورة في جريدة "الأهرام".

وقد اتفق المحقّقون من مؤرّخي الإفرنجية، أنّ إسبانية كانت مجاز العلم من الشرق إلى الغرب، ومبعث أشعة العرفان، أفاضها العرب، فاستنارت بها أوروبا، واهتدت بها طويلاً، وقد تركوا هناك آثاراً في الصناعة والزراعة والبناء، وأفخم ما بقي عنهم منها، مبانيهم التي لا تزال إلى الآن بهجة السيّاح ودهشة الناظرين، على أنّهم في أيامهم لم يتركوا فرعاً من فروع العلم ولا شعبة من شعب التمدّن، إلاّ ضربوا فيها بسهم، وكانوا فيها القدوة لغيرهم، فما شئت من طبّ وجراحة وصيدلة وفلسفة ومنطق وطبيعة وهيئة<sup>(٣)</sup> ورصد وحساب وجغرافية.

ومن أشيونة، خرج الأخوة المغرورون، هائمين في بحر الظلمات طمعاً في الوصول إلى برّ وراه يعدّون إليه، على ما ذكر الشريف الإدريسي في كتابه "نزهة المشتاق، إلى اختراق الآفاق"، وقد قمت بنشره في الجرائد، إجابة لبعض السائلين عن ذلك من أهل أميركا، وكانت عندهم مبادئ في الفنون العسكرية، والملاحة، وعناية جزيلة بخزائن الكتب، وحمل العلم، وتأليف الأندية العلمية، واختراع الآلات، وهم الذين أدخلوا إلى أوربا الكاغد<sup>(٤)</sup> والبارود من الصناعة، على ما أدخلوه من التبات والشجر الجديد في

(١) هو الأستاذ العلامة أحمد زكي باشا المصري.

(٢) سرّد منها جمهوراً: سرّد كثيراً منها.

(٣) علم الهيئة، علم يُبحث فيه عن أحوال الأجرام السماوية (Cosmographie).

(٤) الكند والكاغد والكاغد: القطن.

الزراعة، وبالإجمال فكانوا حَمَلَة العلم، وأتمودج الأمم المتمدنة في القرون الوسطى، وكانت إسبانية لعهدهم، جتة الله في أرضه، ونكتة معمور الدنيا بطوله وعرضه، وغابت شمسها من بعدهم، وأوحشت لفقدهم.

وقد ذكر "لافاله" على وجه الإجمال مدنية الإسلام بإسبانية، وأتى على بيان مزاياهم في الصناعة والزراعة والفراس والبناء، ووصف قصر إشبيلية، وحمراء غرناطة وجامع قُرْطُبة، وأطال في خصائص الهندسة العربية والزخرف الشرقي، ثم تكلم على أسلحة الأندلسيين، وقرّر أن العرب هم أول من استعمل المدافع النارية في أوربا، وأنهم هم الذين هدّوا الأوروبيين إلى صناعة البارود، وعرفوهم بصنعة أخرى أشدّ تأثيراً على الاجتماع الإنساني، وهي عمل الورق، قال وإنهم في جميع الفنون فاقوا المسيحيين، وبلغوا الدرجة القصوى من الحضارة حينما كان أقرانهم ملفوفين في حنادس<sup>(1)</sup> الجهالة والبربرية، فكانوا فوقهم في العلم ومثلهم البأس، وكانوا حكماء في المجالس؛ أشداء في المآزق، فإن قيل، فإن كانت الحال على ما وصفت فلماذا سقطوا...؟ قلنا إنهم ظلّوا مدة ثمانية قرون لم تنقطع بينهم الفرقة والشقاق، الذي كان يمزقهم كلّ مُمزق، وإنه أعوزهم روح الوثام والاتحاد الذي به قوة الأمم وفلاحها.

ولا أتعرض الآن لتفصيل ما انطوى تحت هذه التضاعيف ممّا يستغرق المجلدات الكبار لا سيّما وإنّ الكلام في هذا الموضوع قد طال طولاً أخاف عليه انتقاد القراء، والسبب فيه أنني لم أستحضر التأليف بتمامه قبل طبعه، وإنما كنت أولفه وأنشره متتابعاً، فحرصت أن لا يفوتني فيه شيء أعتقده مهماً ممّا وصلت إلى الاطلاع عليه يدي القاصرة ليأتي كتاباً مستوفى في باب، ويكون قد نفع القليل في هذا السبيل، وجعلت أكثر اعتمادي في متأخر المدة على الكاتب الإنكليزي اللغة (واشنطن أرفن) مع المقابلة بينه وبين غيره، ومزاوجة النقل الإفرنجي دائماً مع الرواية العربية من (نفع الطيب) التي لم أطلع على سواها في هذه اللغة عن هذا التاريخ كما لا يخفى. ولا يبعد أني إن حققت أشياء فوق ما كتبت بهذا الكتاب، ممّا يتعلّق بأخبار غرناطة أضفته إلى هذا الكتاب في الطبعة التالية.

ولا ينس القارئ اللبيب أنني نتهته إلى غرضي في مقدّمة الكتاب وهو التنقيب عن أخبار الحقبة الأخيرة من نزول المسلمين بتلك البلاد، لأنّ هذه القطعة هي أشدّ الأقسام

(1) غنى بها: غلّمت.

احتياجًا إلى هذا المعوز من تاريخهم، وأنني لا أستحسن مذهب الكتابة في ما طال تعاور الأقلام إياه بلغة قوم، وصار التأليف فيه زيادة أعداد، وإضاعة مداد.

ومن الغريب أن هذا التاريخ فضلًا عن ندوره بالعربي لِمَن أجدر المطالعات بالوعي لما جاء فيه من سير الأبطال، وأوصاف مواطن النزال، وما تبطنه من غريب الوقائع الحاكية موضوع القصص ومولود الخيال، مما لا يعترى قارئه الملل.

ولا أتم القارئ الذي هو خليق بأن لا يخفى عليه ذلك بشغوف بصره ولطف حسه أن الأمر غير خال في هذا الإملاء أيضًا من نزعة جنسية، وحنوة عصبية، وهفوة للفؤاد وراء آثار بني الجلدة، مما تستشعر فيه مرضاة هذه النفس العظيمة السر، البعيدة مهوى الغرض، الغريبة شكل الهم، وتوقر به اللذة والراحة لهذا الوجدان الداخلي السائح في أثر ما يتعلق بالنفس من جميع جهاتها، على ترجيح الأقرب فالأقرب، وقد طبع الخالق الحكيم هذا المرء على حب جنسه، والميل للاتصال بأبناء أبيه، فكأنما يتمثل بذلك صورة نفسه التي هي جزء من هذا المجموع، لما يحس من أن أقرب أنواع الدم إلى دمه هو الجاري في عروق قومه، فهو يحن إليهم، ويحنو عليهم، ويتألم لألمهم، ويعتز بعزهم، وتراه إذا غابت أشخاصهم، استأنس بأثارهم بعد الأعيان<sup>(١)</sup>، وارتاح إلى مواطنهم، ورغب في الدوس على مواطني أقدامهم، ولو بعد أزمان. وقد عهدنا الذي يصاب بعزير أو بذى قرابة، يختلف<sup>(٢)</sup> إلى قبره، ويشفي بالبكاء عنده حرارة صدره، وإذا ظفر بقطعة من ملبوسه أو مفروشته، أو برقعة من خطه، احتفظ بها، وغالى في قيمتها، وجعلها مدار أنسه، في خلوات نفسه، وروح حياته، في مُتَبَدِّ<sup>(٣)</sup> مناجاته، وبناءً على هذه القاعدة، أولع الخلق بحفظ آثار الغابرين، وتطلّعوا بفريزة فيهم إلى معرفة سير السالفين، ووقفوا على الأطلال الدوارس، وبكوا على الدمن البوالي، كأنما يجددون عندها عهدهم مع آبائهم، ويشدون لديها معهم عُروة وفاتهم.

ومن هذا المأخذ، انبعث الشعور بالميل إلى احتذائهم ومحاكاتهم في سيرهم، واقتصاص الخافي والعاقي من أثرهم<sup>(٤)</sup>، تصديقًا لقول نبينا (ﷺ): «لتبعن سنن من

(١) جمع شاذ لعين.

(٢) يذهب.

(٣) ها هنا، الانفراد بمبدأ.

(٤) ما ظهر من أثرهم وما أسمى. ° ومعروف أن الخافي من الأضداد، تعني السر والظهور.

قبلكم شبرًا بشبرٍ وذراعًا بذراعٍ حتَّى لو دخلوا حُجْرَ صَبٍّ لدخلتموه“<sup>(١)</sup> فيا ليتنا نتبع  
الآن سُنَنَ مَنْ قَبْلَنَا، ونقتدي بسلفنا، ونبني بناء أوائلنا، ونعتبر بحمراء غرناطتنا، وخضراء  
دِمْنَانَا، ونَتَأَمَّلُ فِي سَالِفِ عِزِّهَا وَسَابِقِ أَمْرِهَا وَنَجْتَنِبُ الْفِرْقَةَ الَّتِي آلَتْ إِلَى فَقْدِهَا، وَنَسْأَلُ  
رِسْمَهَا عَمَّا مَضَى مِنْ نَعِيمِهَا، فَهِيَ رِسْمٌ إِنْ لَمْ تُجَبِّكْ حَوَارًا، أَجَابَتِكَ اعْتِبَارًا، فَلَا يَكُونُ  
دَائِمًا مِنْ شَأْنِنَا أَنْ نَتْبَاهَى بِمَجْدِ الْأَوَائِلِ وَنَفَاخِرِ الْعَظَمِ الرَّمِيمِ، دُونَ أَنْ نَقْتَصِرَ أَثْرَ الْأَبَاءِ  
وَنُحْيِي ذِكْرَ الْقَدِيمِ، وَلَا يَبْقَى مِنْ نَصِيبِنَا فِي الْمَجْدِ إِلَّا حَدِيثُ سَمْرٍ، وَمَجْرَدُ ذِكْرٍ، وَمَا أَحْسَنَ  
مَا قَالَ شَوْقِي، شَاعِرِ الْعَصْرِ:

وَذَاتُ دِلَالٍ مِنْ بَنِي الرُّومِ حَوْلَهَا	إِذَا مَا تَبَدَّتْ أَخُوَّةٌ سَبْعَةٌ مُرْدُ
عُنِيَتْ بِهَا حَتَّى التَّقِينَا فَهَزَّهَا	فَتَى عَرَبِيٌّ مِثْلُ بُرْدَتِهِ مَجْدُ
فَقَالَتْ أَطِيبٌ بَعْدَ عُسْرِ وَشَدَّةٍ	فَقُلْتُ: نَعَمْ مِسْكُ الْأَحَادِيثِ وَالنَّدُ
عُظَلْنَا مِنَ النُّعْمَى وَطُوقٌ غَيْرُنَا	تَدَاوَلَتْ الْأَيَّامُ وَانْتَقَلَ الْعِقْدُ
وَمَا ضَاعَتْ الدُّنْيَا عَلَيْنَا وَحُسْنُهَا	وَلَكِنْ عَنْ أَغْصَانِهِ رَحَلَ الْوَرْدُ

هذا وكان الفراغ من كتابة هذا التاريخ ليلة السبت

الواقع في السادس والعشرين من المحرم سنة

خمس عشرة وثلثمائة بعد الألف الموافق

٢٦ من حزيران سنة ١٨٩٧

(١) الحديث في مسند الصحيحين وتنته أن الصحابة (رضي الله عنهم) سأله (ﷺ) عن قتلهم فقالوا: "يا رسول اليهود والنصارى؟" قال: "فمن؟". وفي رواية أنهم فارس والروم، وكلتاها بمعنى، والمراد أنهم بعد الاعتناء بالإسلام، والاعتصام به، سينتصرون في دينهم ويتغلبون شيئًا بعد آتئادم، كما فعل من قبلهم من الأمم المجاورة لهم، فيحل بهم من عقاب الله ما حلّ بأولئك، وكذلك وقع، وما حلّ بهم في الأندلس من الشواهد عليه. ولكن المؤلف أراد أن يعظ المسلمين من طريق آخر على طريق أسلوب الحكيم، فتمنى لو أتبعوا سنن سلفهم الصالح فيما أصلحوا فيه قبل فساد أمرهم.

## وثائق تاريخية

أربعة مراسيم سلطانية صادرة عن أبي الحسن  
علي بن أبي النصر بن أبي الأحمر  
إلى بعض فرسان الإسبانيول  
وزعمائهم بين سنتي  
١٤٧٠ و١٤٧٥

(عن نسخة مطبوعة بباريس سنة ١٨٦٣)

## المرسوم الأول

### بسم الله الرحمن الرحيم

صَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَسَلَّم تَسْلِيمًا. مِنْ عَبْدِ اللهِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ عَلِيِّ الْغَالِبِ بِاللَّهِ، ابْنِ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي النَّصْرِ، ابْنِ الْأَمِيرِ الْمُقَدَّسِ أَبِي الْحَسَنِ، ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي الْحَجَّاجِ، ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي عَبْدِ اللهِ، ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي الْحَجَّاجِ، ابْنِ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي الْوَلِيدِ بْنِ نَصْرِ أَبِيهِ اللهُ بِنَصْرِهِ، وَأَمَدَّهُ يُسْرَهُ، إِلَى الْفَارَسِينَ الْمَكْرَمِينَ الزَّعِيمِينَ الْحُسَيْنِيِّينَ الْمَشْكُورِينَ الْوَفِيِّينَ، دُونَ دِيَاقِهِ هِرَنْدَسِ الْمُرْشَكَالِ، وَمَرْتِينَ الْهَنْشَةَ ذِي مَنْتِ مَيُورٍ، صَاحِبِ الْقَبْذِيقِ، أَكْرَمَهُمَا اللهُ بِتَقْوَاهُ، وَأَسْعَدَهُمَا بِهِدَاهُ، سَلَامَ يَرَاغِعِ سَلَامِكُمْ كَثِيرًا أَثِيرًا؛ كَتَبْنَا إِلَيْكُمْ مِنْ حَمْرَاتِنَا الْعَلِيَّةِ بَغْرَانَاطَةَ حَرَسَهَا اللهُ، عَنِ الْخَيْرِ وَالْعَافِيَةِ وَالْحَمْدِ لِلَّهِ.

وَالِي هَذَا فَاعْلَمُوا أَيُّهَا الْفَارَسَانِ الْمَكْرَمَانِ أَنَّهُ وَصَلَ كِتَابَكُمْ، وَفَهَمْنَا جَمِيعَ مَا ذَكَرْتُمْ فِيهِ، فَشَكَرْنَا تَعْرِيفَكُمْ وَقَصْدَكُمْ، وَأَثْنَيْنَا عَلَى مَحَبَّتِكُمْ وَمُودَتِكُمْ، وَشَكَرْنَاكُمْ عَلَى وَصُولِكُمْ لِلْقَبْذِيقِ، وَعَلَى إِظْهَارِ الْمَحَبَّةِ الَّتِي لَا شَكَّ فِيهَا فَانْتُمْ - عِلْمَ اللهِ - عِنْدَنَا مِنْ أَحِبَابِنَا الْأَوْفِيَاءِ وَأَصْدِقَاتِنَا الْأَصْفِيَاءِ، وَبِسَبَبِ أَنَّهُ وَصَلْنَا التَّعْرِيفَ أَنَّ دُونَ الْهَنْشَةَ وَالْقُرْسَانَ جَازُوا عَلَى تَوَجُّهِ وَزِيرِ مَقَامِنَا، لِحُجَّةِ وَادِي آشٍ، وَلِأَجْلِ أَنَّهُ تَوَجَّهَ سَرِيعًا، وَلَمْ يَصْحَ عِنْدَنَا مِنَ الْأَخْبَارِ شَيْءٌ، بِصَحِيحٍ مَا عَرَفْنَاكُمْ بِشَيْءٍ، فَتَزِيدُ مِنْكُمْ أَنْ لَا تَزَالُوا تَعْرِفُونَا بِمَا يَزِيدُ عِنْدَكُمْ، وَكَذَلِكَ نَحْنُ نَعْرِفُكُمْ بِمَا يَزِيدُ عِنْدَنَا وَجَمِيعَ حَوَائِجِكُمْ عِنْدَنَا مَقْضِيَةً وَاللَّهُ يَعْمَلُ كِرَامَتَكُمْ بِتَقْوَاهُ.

كُتِبَ فِي (التاسع عشر) لربيع الأول عام خمسة وسبعين وثمانمائة. صحَّ هذا.



## المرسوم الثاني

### بسم الله الرحمن الرحيم

صَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ، وَسَلَّم تَسْلِيمًا. لِيَعْلَمَ مِنْ يَقِفُ عَلَى هَذَا الْمَكْتُوبِ الْكَرِيمِ أَوْ يَسْمَعُهُ، أَنَا عَبْدُ اللَّهِ أَمِيرُ الْمُسْلِمِينَ عَلِيُّ الْغَالِبُ بِاللَّهِ، ابْنُ مَوْلَانَا أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي النَّصْرِ، ابْنُ الْأَمِيرِ الْمُقَدَّسِ أَبِي الْحَسَنِ، ابْنُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي الْحَجَّاجِ، ابْنُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، ابْنُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي الْحَجَّاجِ، ابْنُ أَمِيرِ الْمُسْلِمِينَ أَبِي الْوَلِيدِ بْنِ نَصْرِ أَيْدِنَا اللَّهُ بِنَصْرِهِ ... وَأَمَدْنَا بِبُيُورِهِ ...

كان بيننا وبين الفارس المكرم الزعيم الحسيب المشكور الأوفى دون دياقه هرنديس دي قُرْطُبَة قند قَبْرَة، بن قند حصن أشر، صاحب بيّانة، وقائد القلعة، والفارس المكرم، الزعيم الحسيب المشكور، مرتين الهنّسة ذي منت ميور، صاحب القبذيق، والفارس المكرم، الحسيب الزعيم المشكور، ييفش بنيغش صاحب لكّ والبندين، أكرمهم الله بتقواه صلح ثابت، ومحبة صادقة، ومودة خالصة، منعقدة لأمدٍ معلوم، ولأجل أنّ هذه المحبة التي بين مقامنا وبين الفرسان المذكورين هي تزداد في كلّ يوم وفي كلّ حين، ونحن نريد أن تزيد أكثر من ذلك، وأن نجدّها الآن، وأن نُدخِلَ في الصلح والمحبة، الفرسان المكرّمين، ييفش بنيغش صاحب لكّ والبندين، ودون دياقه هرنديس المرشكال بقشتالة. والوزير الكبير بقُرْطُبَة، ودون مرتين قمنندور إستبة أولاً القند دي قَبْرَة، فلأجل ذلك، تعلمون أيها الفرسان المكرّمون، والأحباب المشكورون دون دياقه هرنديس دي قُرْطُبَة قند قَبْرَة وبين قند حصن أشر، وصاحب بيّانة وقائد القلعة، ومرتين الهنّسة ذي منت ميور، صاحب القبذيق، وييفش بنيغش صاحب لكّ والبندين، ودون دياقه هرنديس المرشكال \* بقشتالة، الوزير الكبير بقُرْطُبَة ودون مرتين قمنندور \* إستبة. أكرمكم الله بتقواه، وأنّ مقامنا الكريم يُعقد ويُجدّد معكم صلحاً صحيحاً، ومحبة ثابتة خالصة لهذه من عشرة أعوام أعجمية متواليّة،

(\*) مرشكال قند وقمنندور: هو الرسم العربي لألفاظ لاتينية، نلّ على مناصب، غالباً ما تكون عسكرية، تولّاهما نبلاء الإفرنج؛ كلفظ "فومس" Comes باللاتينية، مفرد "فوماس"، زعماء الصلاري في قواعد الأندلس. وأصبح ذلك منصباً دينياً.

يكون أولها أول يوم من شهر ينير الأعجمي، مُفتح عام اثنين وسبعين وأربعمائة وألف لتاريخ المسيح، ويكون تمامها آخر يوم من شهر ديسمبر الأعجمي عام أحد وثمانين وأربعمائة وألف لتاريخ المسيح المذكور، على أن نكون أحباب أحبابكم، وأعداء أعدائكم، وأن نعينكم في جميع الأمور التي تحتاجون إليها في وطنكم، بقدر جهدنا على جميع أعدائكم من أيّ صنف كانوا، للمدّة التي تريدونها، وفي الوقت الذي تعرفونا بحاجتكم في الإعانة، أو توجّهوا رسولكم في طلب ذلك، نُعينكم بقدر جُهدنا، وكذلك نُعرفكم أيها الفرسان المكرّمون بجميع ما نعلمه أو نتعرّفه، من سرّ أو غيره، ممّا لا يكمل لحرمتكم نُعرفكم بذلك سريعًا. مع رسول صادق معروف، لأجل أن تجعلوا خلاصًا في أرضكم قبل وقوع الفساد، وإذا تميز ضررًا لجهتكم، نجتهد في تبعيده عنكم، وإن ميّزنا فائدة أو مصلحة لجهتكم، نجتهد في تقريبها لكم؛ ونحفظ المودّة والصحبة المنعقدة بيننا وبينكم في الأقوال والأفعال.

واعلموا أيها الفرسان المكرّمون المذكورون، لأنّ أولادنا الأمراء أسعدهم الله، يحفظون لكم هذا الصلح وهذه المحبّة والصحبة، مثلما نحفظها نحن بخاصّة مقامنا الكريم، فإنّكم من أجلّ أحبائنا الأوفياء، وأصدقائنا الأصفياء، ومن أهل رأينا الكبراء، فجانبكم عندنا محفوظ، ومحبّتكم صحبة ثابتة، لانشكّ في صدق محبّتكم ولا في خلوص مودّتكم، ونحن نعاهدكم على صحّة جميع ما ذكرنا لكم، ونحلف لكم بالله الواحد الحقّ، على أن كلّ ما ذكرنا لكم نوفي به ونحفظه ونحرزه بالقدر والوفاء في كلّ وقت، من غير غدر ومن غير خداع. ولأجل أن يكون هذا العقد صحيحًا وثابتًا، ختمناه بعلامتنا السعيدة، الصادرة من يدنا الكريمة، وجعلنا عليها طابعتنا العزيز المعهود عن مقامنا الكريم. في أوائل رجب الفرد المبارك عام ستّة وسبعين وثمانمائة، عرف الله بحكمته. صحّ هذا.



## المرسوم الثالث

### بسم الله الرحمن الرحيم

صَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا. من عبد الله أمير المسلمين علي الغالب بالله، ابن مولانا أمير المسلمين أبي النصر، ابن الأمير المقدَّس أبي الحسن، ابن أمير المسلمين أبي الحجاج، ابن أمير المسلمين أبي عبد الله، ابن أمير المسلمين أبي الحجاج، ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر، أيده الله بنصره، وأمدَّه بيسره، إلى الفارس المكرَّم الزعيم الحسيب المشكور الأوفى، دُون دياقه هرنس ذي قُرْطُبة قند قبره بن قند حصن أشر، صاحب بيَّانة وقائد القلعة أكرمه الله بتقواه وأسعدَّه بهُدها.

سلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا، كتبناه إليكم من الحمراء العليَّة بفرناطة حرسها الله، عن الخير والعافية، والحمد لله وإلى هذا فاعلموا أيها الفارس المكرَّم والقند المرفَّع، أنه وصلنا كتابكم صُحبة القائد جوان يناده، واستوفينا ما ذكرتم فيه، وأمرنا وزير مقامنا الكريم، أسعده الله، أن يتحدَّث معه، ويقرِّر له قصد مقامنا العليِّ، أعلاه الله حسبما يخبركم به، وما ذكرتموه عن وجهتكم وسفركم لسلطان قشتالة صديقنا أكرمه الله بتقواه، فإذا مصلحتكم في ذلك فتوجهوا، وإن شاء الله بالسلامة، واعلموا أيها القند المرفَّع، أنَّ حبيينا ولدكم المرشكال أكرمه الله بتقواه، وأرضكم تكون منّا ببال، وما يُعلمهم إلا ما يُرضيهم، والذي وقع ما وقع، إلاَّ بأسباب يقرِّرها لكم المذكور، ولا نشك أنَّ فرساننا أخطأوا في بعض ما نُضِر، ولكنَّ محبتكم عندنا معلومة، فلا تُشكِّوا في ذلك، ولا تعتقدوا خِلافه، ويريد منكم أن توصوا أهل القلعة أن لا يخرجوا عن الواجب، وكلَّ ما لكم من الحوائج، نعمل فيها ما يرضيكم، والله يعمل كرامتكم بتقواه.

كُتِبَ في الرابع والعشرين من الربيع الأول عام ثمانين وثمانمائة. صحَّ هذا.

Adresse au verso:

الفارس المكرَّم، الزعيم الحسيب الأوفى،  
دون دياقة هرنس ذي قُرْطُبة قند قبره بن  
قند حصن أشر صاحب بيَّانه وقائد القلعة  
أكرمه الله بتقواه

## المرسوم الرابع

### بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا، من عبد الله أمير المسلمين علي الغالب بالله، ابن مولانا أمير المسلمين أبي النصر، ابن الأمير المقدس أبي الحسن، ابن أمير المسلمين أبي الحجاج، ابن أمير المسلمين أبي عبد الله، ابن أمير المسلمين أبي الحجاج، ابن أمير المسلمين أبي الوليد بن نصر، أيده الله بنصره، وأمدّه بيسره، إلى الفارسيين المكرّمين، الزعيمين المشكورين، الوفيين الأحيين، دون دياقه هرندس المرشكال بقشتالة، ومرتين الهنشة دي منت ميور، صاحب القبديق، أكرمهما الله بتقواه، ووفّقهما بهداه، سلام يراجع سلامكم كثيرًا أثيرًا، كتبناه إليكم من الحمراء العلية بفرناطة حرسها الله عن الخير والعافية، والحمد لله، وإلى هذا، فاعلموا أيها الفرسان المكرّمون، أنه وصلنا كتابكم، واستوفينا ما ذكرتم فيه، فشكرنا قصدكم ومحبتكم، والأمان الذي طلبتموه، يعملكم كرامة لكم، وقد أمرنا وزير مقامنا العليّ، أسعده الله، بكتب لكم بالغًا حسبما يعملكم، فاعلموا هذا وكلّ ما لكم من الحوائج نعمل فيها ما يرضيكم، والله يعمل كرامتكم بتقواه، وكتب في الرابع عشر لجمادى الآخرة عام ثمانين وثمانمائة. صحّ هذا.

Adresse au verso:

الفارسان المكرّمان، الزعيمان دوق دياقه  
هرندس المرشكال، ومرتين الهنشة دي  
منت ميور، صاحب القبديق أكرمهما  
الله بتقواه.



## فهرست المحتويات

- ٧ • مقدمة الناشر
- ٩ • خلاصة تاريخ الأندلس / تقديم بقلم: د. عباس أبو صالح
- ١٥ • تمهيد
- ١٨ • الفصل الأول: هي ذكر بني سراج
- ٢٣ • الفصل الثاني: هي ذكر مملكة غرناطة
- ٢٥ - ذكر أجل قواعد الأندلس
- ٢٧ - المريّة
- ٢٧ - مالقة
- ٢٩ - ذكر فتح الأندلس
- ٣٠ - عبد الرحمن الداخل وبنو أمية
- ٣١ - المنصور بن أبي عامر
- ٣٢ - سقوط العامريين ومبايعة بني أمية
- ٣٤ - بنو حمود الحسنيون
- ٣٤ - بنو عبّاد اللخميون
- ٣٥ - بنو ذي النون
- ٣٧ - بنو هود
- ٣٧ - بنو الأفطس
- ٣٨ - بنو صُمارح
- ٣٨ - بنو حَيّوس
- ٣٨ - تمادي الإسبانيول ورفض ابن عبّاد وتهنيؤه للقتال
- ٤٠ - دعوة ابن تاشفين، واستجابته لداعي الجهاد
- ٤١ - واقعة الزلاقة الشهيرة
- ٤٣ - استيلاء المرابطين على الأندلس ونكبة المعتمد بن عبّاد

- ٤٥ - ظهور الموحدّين
- ٤٧ - وقعة الآراك
- ٤٨ - السلطان يعقوب بن المنصور وخلفاؤه
- ٤٨ - وقعة العقاب
- ٤٩ - دولة بني مرين
- ٥١ • الفصل الثالث، في دولة بني الأحمر أصحاب غرناطة
- ٥٢ - بدء تقلص ظلّ الإسلام عن الأندلس
- ٥٣ - المدجّتون
- ٥٤ - أسباب الفشل
- ٥٥ - قصائد الاستغاثة
- ٥٥ - سينيّة ابن الأنبار القضاعي
- ٥٨ - سقوط بكنسية وقرطبة في يد الإشبانيول
- ٥٩ - سقوط لوشة والمرية واستردادهما
- ٥٩ - سقوط ماردة وبظليوس، وفتنة مرسية وسقوطها
- ٦٠ - قصائد استغاثة أخرى
- ٦٠ - دالية أبي جعفر الوقشي البكنسي
- ٦٢ - قصيدة «نادتك أندلس»
- ٦٥ - نونية أبي البقاء الرندي في نكبة الأندلس
- ٦٧ - سقوط شرق الأندلس في يد الإشبانيول
- ٦٨ - صمود غرناطة
- ٦٨ - ما قاله ضيا باشا عن الأندلس
- ٧٠ - محمد بن الأحمر، ولورات المدجّتين
- ٧٢ - استصراخ بني الأحمر السلطان يعقوب بن عبد الحق المريني، واستجابته
- ٧٣ - مواقف السلطان يعقوب في الجهاد
- ٧٥ - قصيدة ابن الأحمر في الاستغاثة
- ٧٧ - الجهاد الثاني لأمير المسلمين
- ٧٨ - خوف ابن الأحمر، والفتنة

- ٧٩ - ندم ابن الأحمر وعودته إلى الحلف
- ٨٢ - وفاة السلطان ومبايعة ونيّ عهده أبي يعقوب
- ٨٢ - السلطان أبو يعقوب يقتفي أثر أبيه وسقوط طريف
- ٨٤ - وفاة السلطان أبي يعقوب
- ٨٦ - مواقف السلطان أبي الحسن المريني في الجهاد
- ٨٦ - ظهور أساطيل الإسلام على أساطيل الإفرنج
- ٨٦ - أسباب سقوط طريف من جديد
- ٨٧ - هزيمة الأسطول الإسلامي في بحر الزقاق
- ٩٠ - أيام محمد الخامس من بني الأحمر، وتكبته، والتجاؤه إلى...
- ٩٢ - خبر لسان الدين بن الخطيب ووزير غرناطة
- ٩٨ - زبدة ترجمة لسان الدين الخطيب
- ١٠٦ - اضطهاد إسبانية لمسلمي الأندلس ويهودها
- ١٠٦ - خبر المدجنين
- ١٠٨ - عود إلى ابن الأحمر

### • الفصل الرابع: هي دول إسبانية المعاصرة لدولة بني الأحمر

- ١١٢ - مملكة نافار
- ١١٤ - مملكة أراغون
- ١١٣ - ثورة مينورقة
- ١١٦ - الحرب بين قشتالة وأراغون
- ١١٩ - مملكة قشتالة
- ١١٩ - خبر السيد Le Cid
- ١٢٠ - وفاة فرديناند
- ١٢٥ - الحرب الثانية بين قشتالة وأراغون
- ١٢٦ - وحدة تاجي ليون، وقشتالة
- ١٢٩ - ملوك إسبانيا الجاثرون
- ١٣١ - الحرب من جديد بين قشتالة وأراغون

- ١٣٣ - الخلاف في قشتالة
- ١٤٢ - فرديناند ملك أراغون، وإيزابيلا ملكة قشتالة
- ١٤٤ • الفصل الخامس، هي ذكر مشيخة المرابطين والقرّاة ...
- ١٤٦ - عامر بن إدريس، والأعياص من بني مرّين
- ١٤٧ - عثمان بن أبي العلاء شيخ القرّاة
- ١٤٨ - رئاسة القرّاة بعد عثمان بن أبي العلاء
- ١٤٩ - سلطان الأندلس يباشر الغزو بنفسه، بعد انتهاء أمر القرّاة فيها...
- ١٥٠ - لسان الدين بن الخطيب، ورسم إمارة القرّاة
- ١٥٢ - رسائل لسان الدين بن الخطيب إلى ملوك العُدوة
- ١٥٥ - تحاذل المسلمين عن إنجاد إخوانهم في الأندلس
- ١٥٥ - أوروبا تنجد الإسبانيول، وإنشاء أنظمة الفرسان لمحاربة المسلمين
- ١٥٧ - رهبانيّات النصرى المُرسدة لمجاهدة المسلمين
- ١٥٨ • الفصل السادس، هي سقوط غرناطة والجلء الأخير
- ١٥٨ - عودة إلى ذكر بني الأحمر، فتنة الزغل
- ١٥٨ - السلطان أبي الحسن علي بن الأحمر، ...
- ١٥٩ - حدود مملكة غرناطة، وسكانها
- ١٦١ - زوجتا أبي الحسن، والفتنة
- ١٦١ - نكبة الحامة
- ١٦٥ - الحرب على لوشة
- ١٦٦ - انتقال أبي عبد الله محمد علي أبيه السلطان أبي الحسن....
- ١٦٧ - غزوات أبي الحسن في طريف
- ١٦٨ - غزوات الأمير أبو عبد الله الزغل أخي السلطان أبي الحسن
- ١٦٩ - هزيمة مركز قانس والكونت دو سيفنتاز ورفاقهما
- ١٧٠ - أبو عبد الله يُخلف في فتح لشاته ويؤسر
- ١٧٢ - عودة أبي الحسن إلى غرناطة
- ١٧٢ - إطلاق سراح أبي عبد الله، وعودة الفتنة بعودته إلى غرناطة

- ١٧٣ - وقائع رُنْدَة، والصخرة، والحامة
- ١٧٥ - سقوط أريلولة في يد الإسبانيول، ونزول السلطان أبي الحسن عن...
- ١٧٦ - فرديناند يقصد مالقة، والزغل يردّه عنها، وسقوط رُنْدَة
- ١٧٧ - الزغل ينتصر على كبير قُبْرَة
- ١٧٧ - سقوط حصن قنبيل في يد الإسبانيول
- ١٧٨ - سقوط قلعة زالعة
- ١٧٨ - الحرب بين الزغل وابن أخيه أبي عبد الله وقسمة المملكة بينهما
- ١٧٨ - سقوط لَوْشَة في يد فرديناند، بعد أن تكبّد جيشه خسائر فادحة
- ١٨٣ - وصول خبر الأندلس إلى المشرق، والاتفاق على الإغاثة
- ١٨٣ - خوف فرديناند وسقوط بلش
- ١٨٦ - حصار مالقة، ومحاولة تسليمها صلحاً
- ١٨٦ - حامد الزغبى وجماعة الزغل يأبون الاستسلام
- ١٨٧ - القتال وصمود مالقة
- ١٨٨ - فرديناند يجدد طلب التسليم
- ١٨٩ - القتال المرير من جديد
- ١٨٩ - تفشي الجوع في مالقة
- ١٨٩ - الزغل يسير جيشاً لنجدة مالقة فينهزم أمام ابن أخيه
- ١٩٠ - النجدات تترى إلى مالقة وإلى فرديناند
- ١٩٢ - القتال الأخير وسقوط مالقة
- ١٩٣ - فرديناند يدخل إلى مالقة ويحوّل مسجدها إلى كنيسة
- ١٩٤ - كَرَة أبي عبد الله الزغل
- ١٩٥ - غارات المسلمين في بلاد الإسبانيول
- ١٩٥ - حصار بسطة
- ١٩٦ - أهالي بسطة يتأهبون للقتال والحصار الطويل
- ١٩٧ - الحرب والقتال الشديد
- ١٩٩ - تراجع فرديناند وعزمه على الرهيل
- ٢٠٠ - فرديناند يُعيد تنظيم جيشه

- ٢٠٢ - الزغل يعجز عن إمداد بَسْطَة خوفاً من ابن أخيه
- ٢٠٣ - إنذار سلطان مصر إلى فرديناند
- ٢٠٥ - فرديناند، يُرسل المؤرِّخ بطرة مارتيل بسفارة إلى مصر
- ٢٠٨ - سقوط بَسْطَة صُلْحًا
- ٢٠٩ - فرديناند يكرّم القادة، وتنصّر الأمير يحيى
- ٢١٢ - الزغل يدخل في طاعة الطاغية
- ٢١٤ - فرديناند يطلب إلى أبي عبد الله تسليم غرناطة
- ٢١٥ - بوادر الحرب بين غرناطة وفرديناند
- ٢١٦ - موسى بن أبي غَسَّان، روح الجهاد
- ٢١٧ - الحرب
- ٢١٨ - سقوط حصن رومة في يد فرديناند
- ٢١٩ - الزغل ينضمّ بجنوده إلى فرديناند
- ٢١٩ - تراجع فرديناند، وقيام أبي عبد الله للجهاد
- ٢٢٠ - سقوط حصن همدان في يد أبي عبد الله
- ٢٢٠ - سقوط حصن مارشنة وحصن بلدة في يده أيضاً
- ٢٢٠ - أبو عبد الله يفكر بفتح شلوبانية على البحر ويقصدها ثم يدخلها
- ٢٢٢ - فرديناند يخرج أهالي وادي آش وبَسْطَة والمريّة من منازلهم
- ٢٢٢ - الزغل يجوز إلى أفريقية
- ٢٢٣ - فرديناند يحاصر غرناطة من جديد
- ٢٢٥ - وقائع الأمير موسى بن أبي الغَسَّان
- ٢٢٦ - المبارزات
- ٢٢٦ - تسلّل الإسبانول إلى غرناطة وانسحابهم منها
- ٢٢٨ - الغرناطيون يهاجمون موكب إيزابيلاً
- ٢٢٨ - معركة «مناوشة الملكة»
- ٢٣٠ - احتراق معسكر الإسبانول
- ٢٣٠ - فرديناند يزحف نحو الأسوار فيبرز له السلطان
- ٢٣١ - الإسبانول يملكون بعض الأبراج، ودفاع موسى المستميت

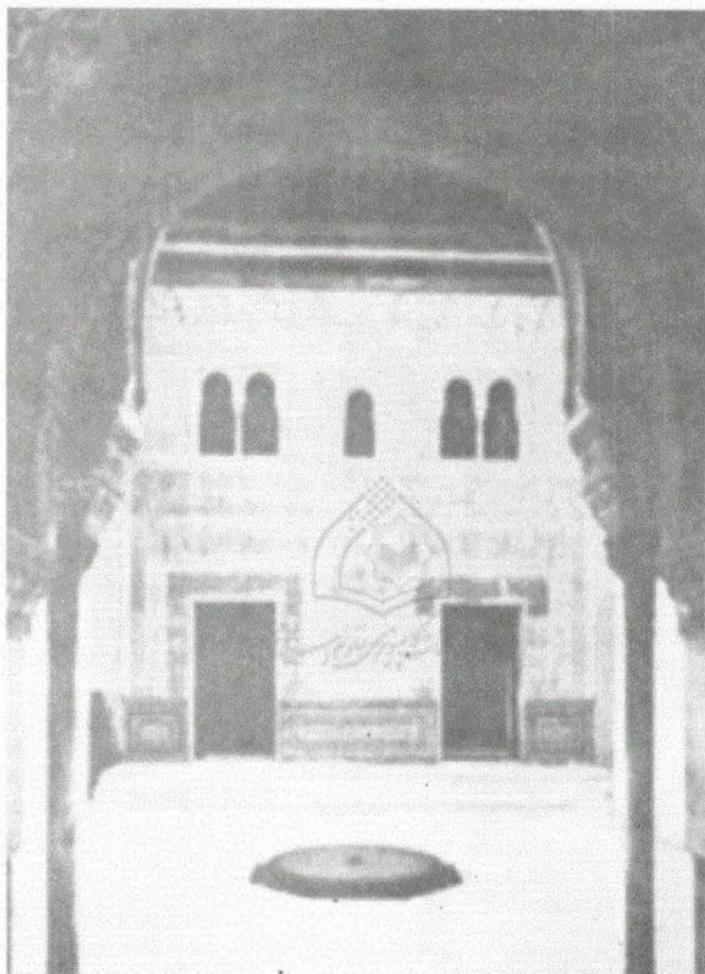
- ٢٣١ - مدافع غرناطة تجبر فرديناند على التراجع
- ٢٣٢ - فرديناند يبني معسكراً من الحجر
- ٢٣٣ - أبو عبد الله يتشاور في التسليم، ورفض موسى لذلك
- ٢٣٤ - إرسال الوزير أبي القاسم بطلب الصلح
- ٢٣٤ - شروط الصلح
- ٢٣٥ - غضب موسى، وما يُقال عن نهايته
- ٢٤٠ - فرديناند يبث جميع أساطيله وجيوشه منعاً لوصول المدد
- ٢٤١ - قيام مُرابط آخر اسمه حامد بن زارة
- ٢٤١ - ثورة غرناطة
- ٢٤٢ - التسليم
- ٢٤٣ - أبو عبد الله يقصد وادي برشانة
- ٢٤٤ - دخول فرديناند غرناطة
- ٢٤٥ - التسليم كما ورد في كتاب «نُفْحُ الطَّيِّبِ»، وما تبعه من وقائع
- ٢٤٨ - السلطان أبو عبد الله ينقطع في وادي برشانة
- ٢٤٩ - أبو عبد الله يجوز إلى مدينة فاس ونهاية أمره
- ٢٥١ • الفصل السابع: حال مسلمي الأندلس هيبها، بعد ذهاب ملكهم
- ٢٥١ - عهد الانتقام والابتلاء والإكراه
- ٢٥١ - إقبال المساجد، وإحراق الكتب
- ٢٥٢ - الثورة الأولى وهزيمة الذون ألونزو، وانتقام الإشبانيول الهجري
- ٢٥٢ - تظاهر المسلمين بالتنصُر
- ٢٥٢ - أهالي الأندلس يساعدون قرصان البحر، والإشبانيول...
- ٢٥٣ - الثورة الثانية في البشيرات
- ٢٥٤ - الدولة الإسبانية تلقضي على الثورة، واسترقاق الذوار
- ٢٥٤ - الإشبانيول يخربون بيوتهم بأيديهم
- ٢٥٥ - واشنتون أرفن يصف الثورة
- ٢٥٧ - إنشاء ديوان جديد للتفتيش
- ٢٥٧ - كلام المقرئ في نهاية الأندلس

٢٦٢	• خاتمة
٢٦٦	• وثائق تاريخية
٢٦٧	- المرسوم الأول
٢٦٨	- المرسوم الثاني
٢٧٠	- المرسوم الثالث
٢٧١	- المرسوم الرابع
٢٧٣	• فهرست المحتويات

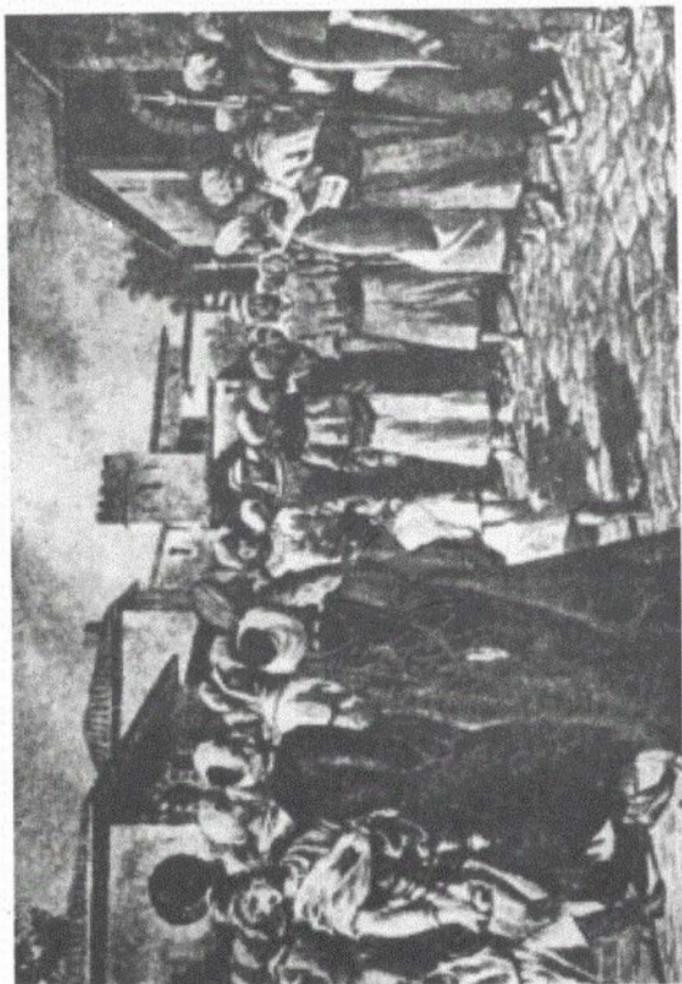




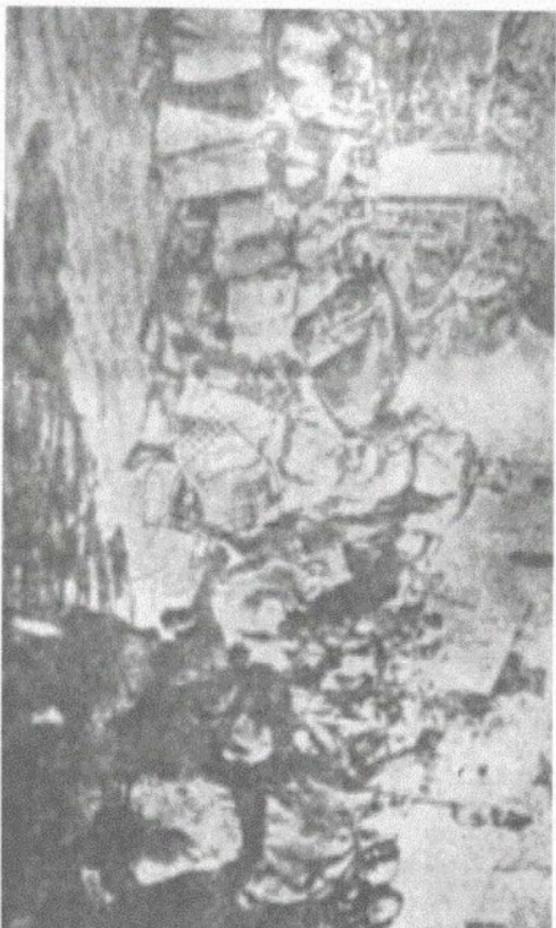
صورة المؤلف أمام مسجد قرطبة.



أحد قصور غرناطة



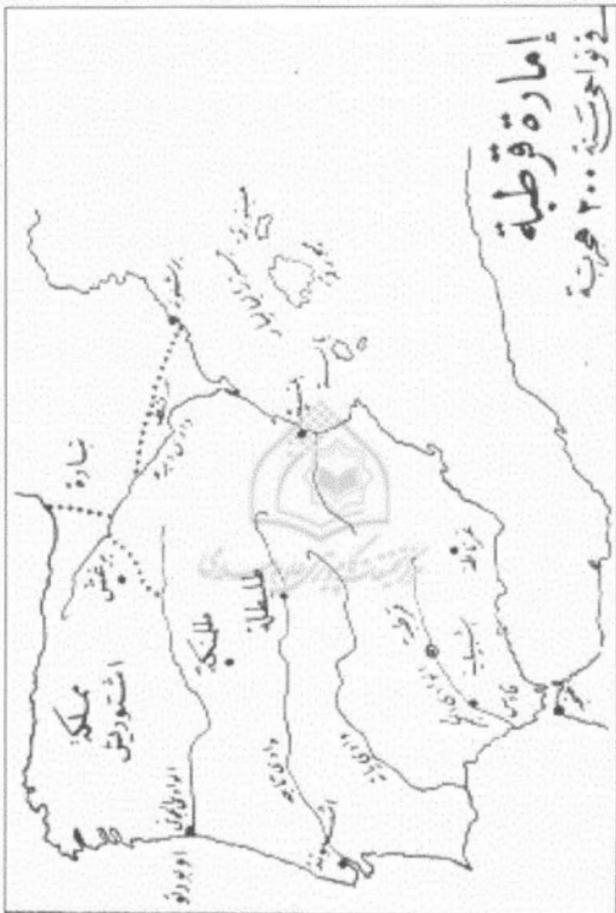
تسليم طليطلة لعبد الرحمن الثاني سنة ٨٣٨م.

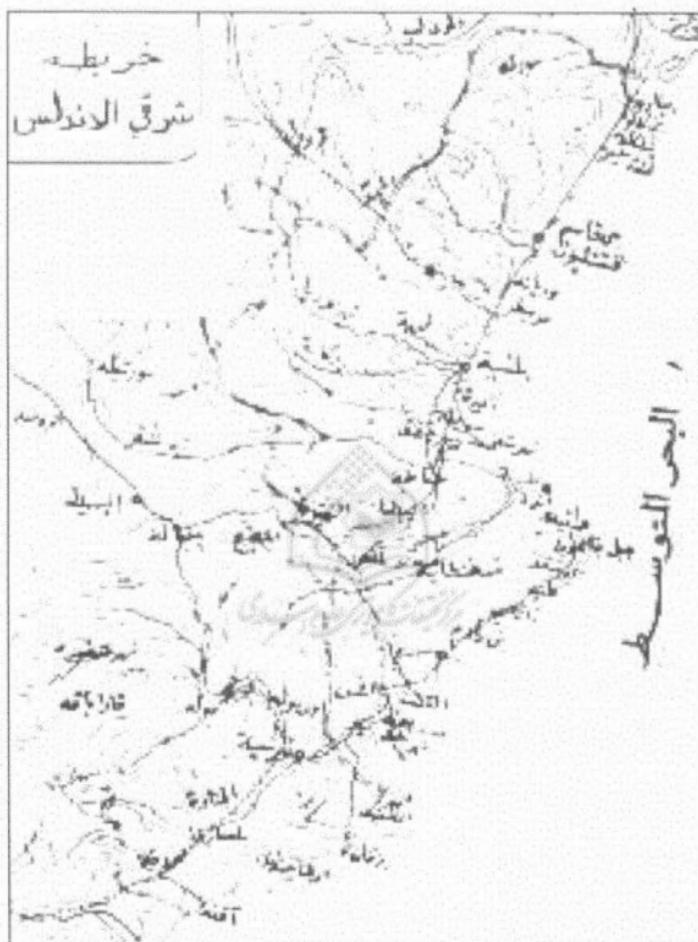


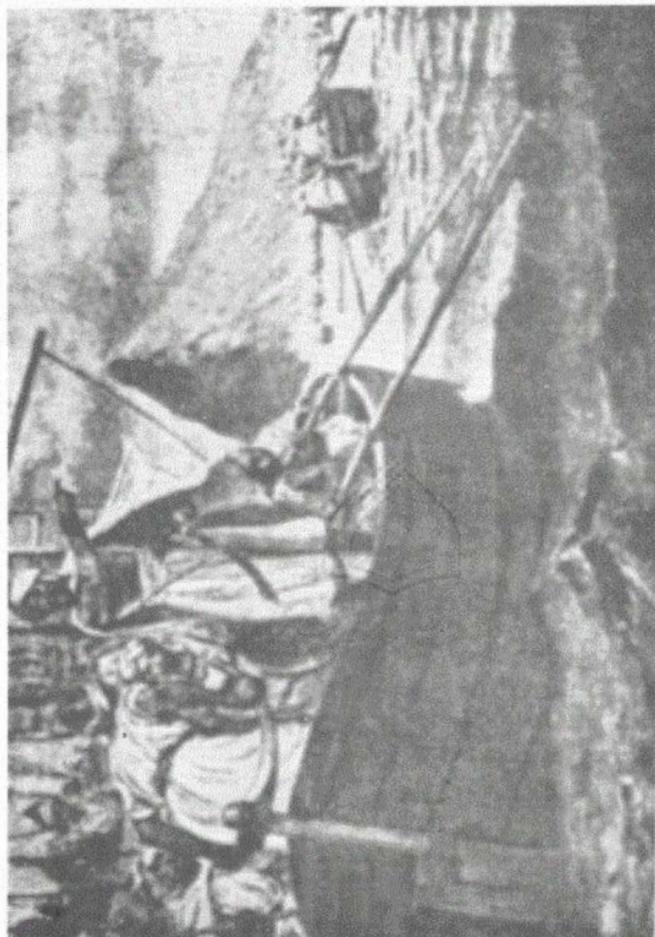
السلطان محمد الفقيه ابن محمد الشيخ من بني الأحمر يوم  
تتويجه على غرناطة سنة ١٢٧٣م.

# إمارة قرطبة

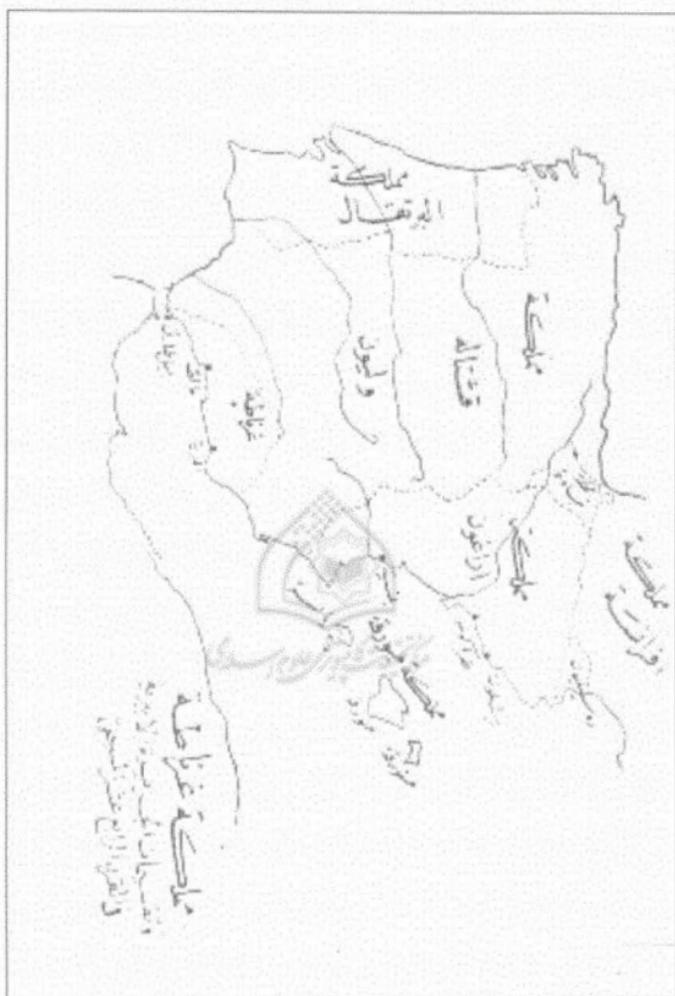
في نحو سنة ٢٠٠ هجرية

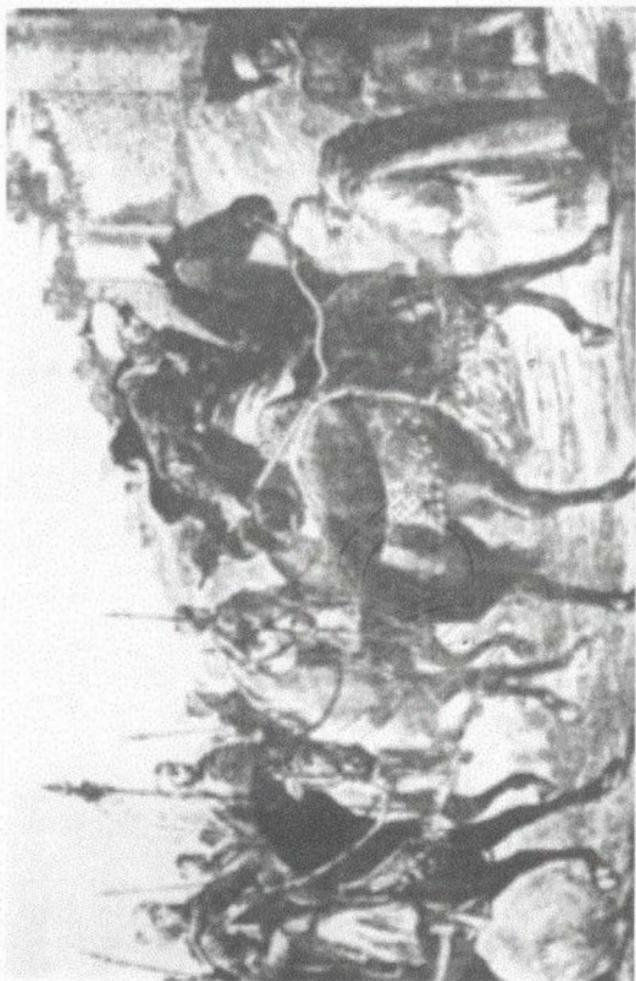




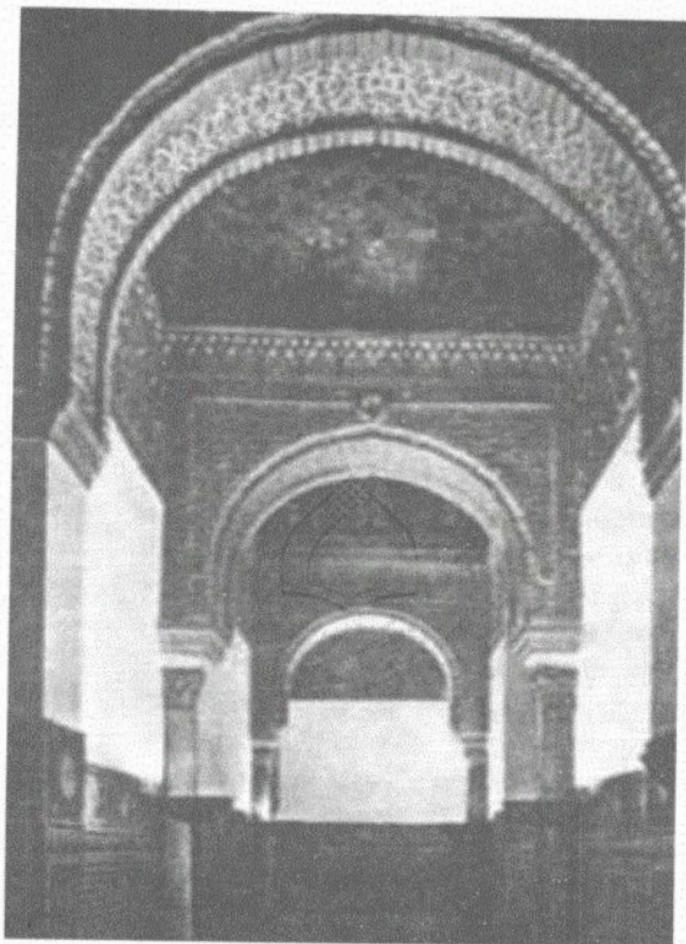


مرور العرب لأول مرة من المغرب إلى الأندلس سنة ٧١٠ ب.م

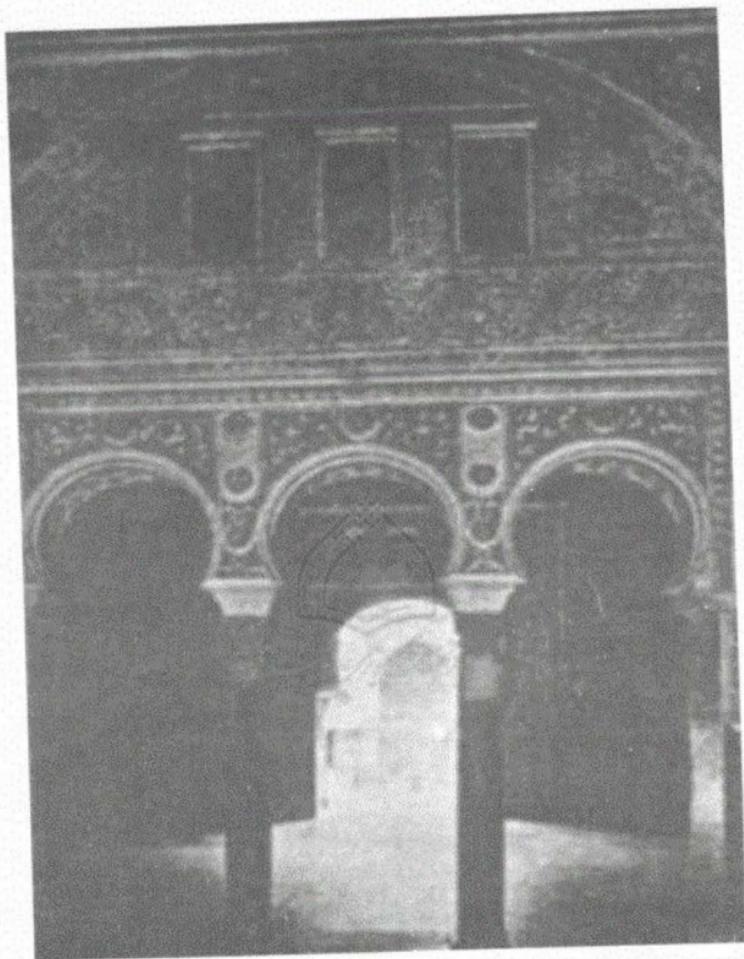




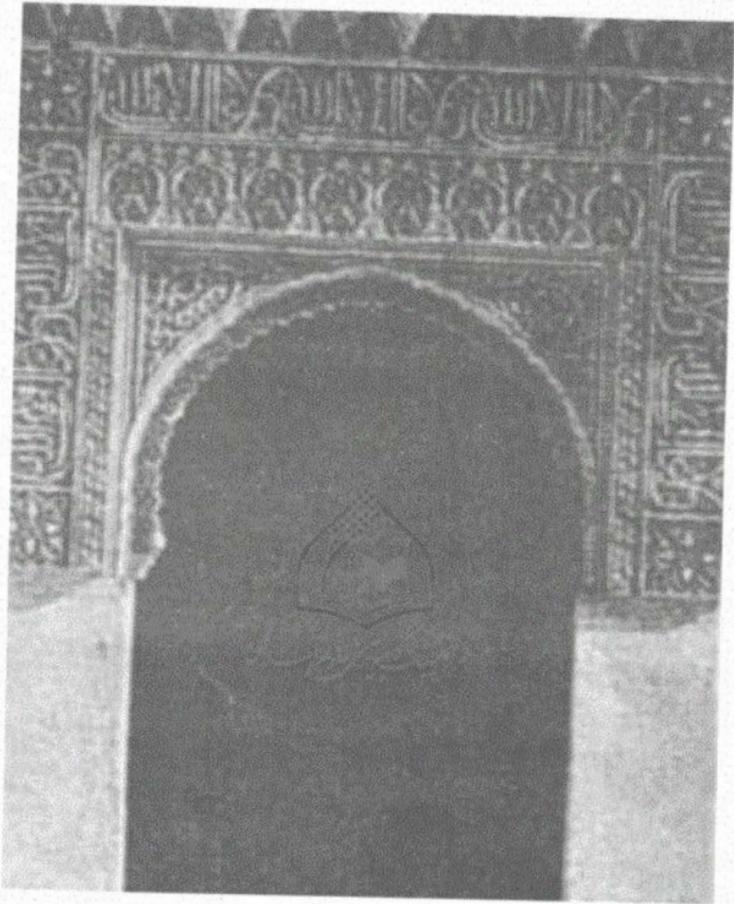
ملاقاة موسى بن نصير مع طارق بن زياد بأرض طليطلة



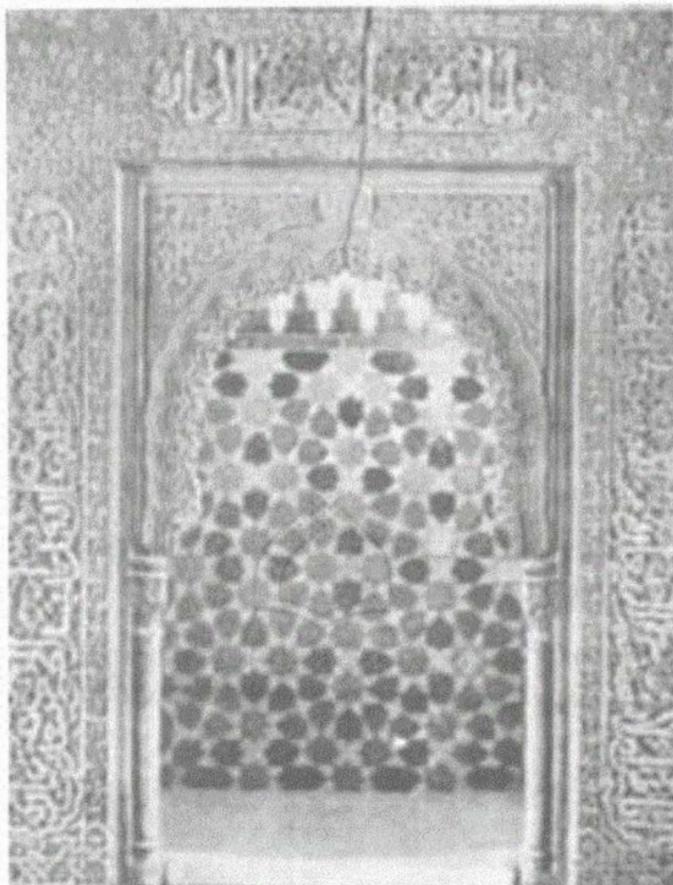
الأقواس والأعمدة داخل أحد القصور



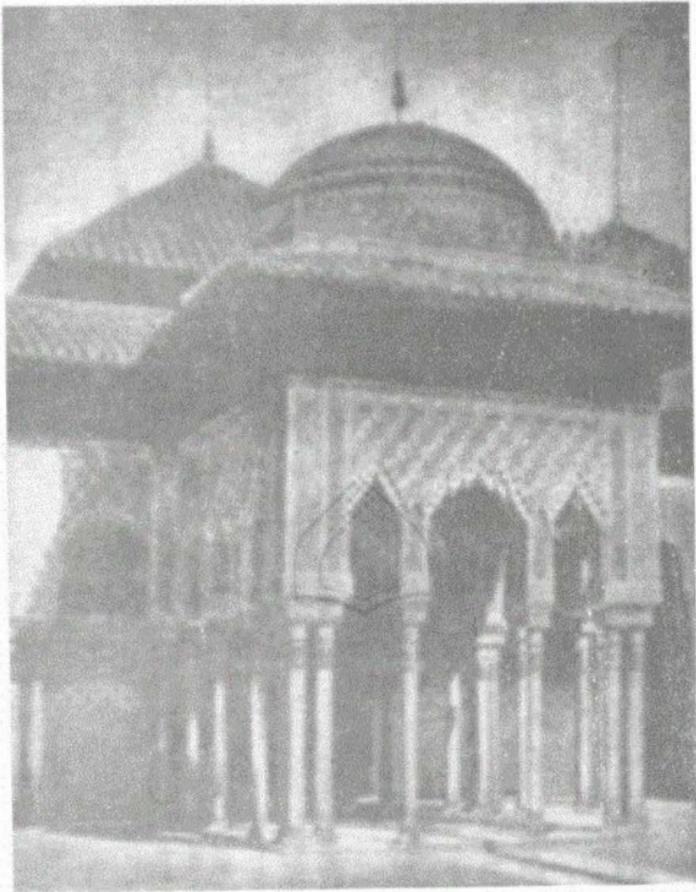
قاعة السفراء



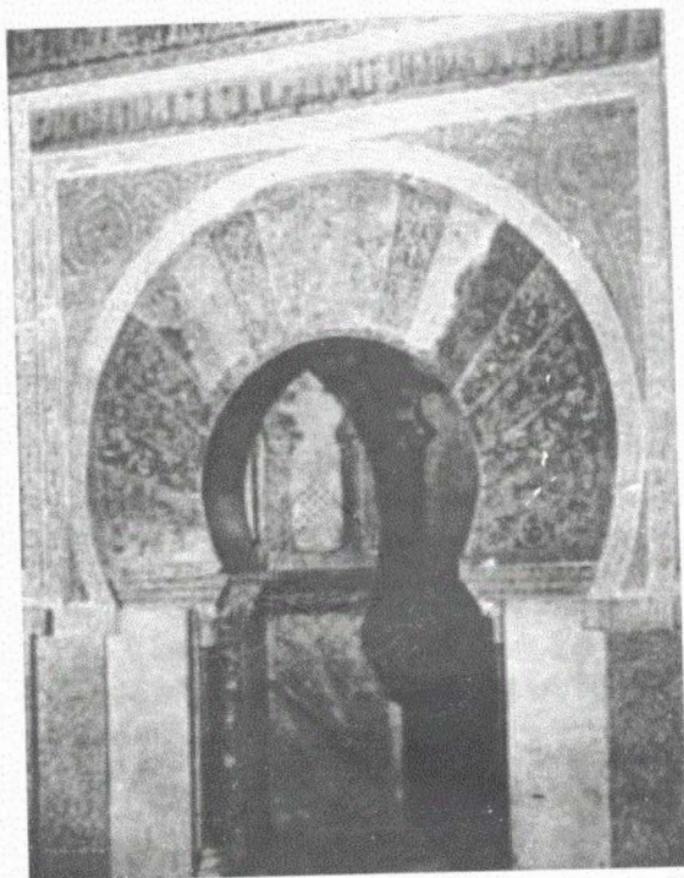
بہو السفراء قمارش



مشكاة لوضع الأباريق في قاعة البركة



قصر الحمراء في غرناطة



محراب جامع قرطبة

